كولن ولسون

إله المتاهة

ترجمة سامي خشبة

دار الآداب

كولن ولسن

من [illegible] نزار يونان

إله المتاهة

رواية

ترجمة : سامي خشبة

دار الآداب ـ بيروت

جميع الحقوق محفوظة
لدار الآداب ـ بيروت

الطبعة الاولى
نيسان (ابريل) ١٩٧٤

كلا ، انما اريد السماء لا البحر ، افضل القبرات على الاسماك ، وابدا لا اغوص الى عمق بعيد ، وانما اريد ان اخطف نظرة الى الزرقة العالية ، استنشق الهواء الطليق . اي الفاير انني اذ اتعلق بالزمرد الذائب هنا ، فانني أمسك ، جدائل الشعر القمحية المتموجة ـ جدائل فيفاين .

براونينج

قال : « ليحفظ الله من كل اذى ذلك الرجل الطيب الذي انقذت حياته بأعجوبة بفضل حمالة ذكره الكبيرة الملحقة ببنطلونه الضيق . (١) ليحفظ الله من الاذى من كان جديرا بحمالة ذكره الطويلة ، فكانت عنده في يوم واحد اكثر قيمة من مئة وتسعة وستين الف تاج من تيجان الملوك . ليحفظ الله من الاذى ، ذلك الذي بفضل حمالة ذكره الطويلة ، قد انقذ مدينة بأكملها من الموت جوعا . وانني بحق الله ، لعاقد عزمي على أن اضع كتابا « حول ميزات حمالات الذكور الطويلة » حالما يتاح لي الوقت لذلك » .

وفي الحقيقة ، لقد وضع بالفعل كتابا كبيرا،وهو كتاب جيد جدا ،فدعم بالرسوم التوضيحية والبيانية ، ولكن هذا الكتاب لم يطبع بعد ، على قدر علمي .

رابليه ، الكتاب الثاني ، الفصل الخامس عشر .

---

(١) Codpiece ، في البنطلونات الضيقة في القرن الثامن عشر ، وكانت تزود بكيس لحمل الخصيتين والعضو كله لالتصاق البنطال بالساق وعدم وجود اي فراغ آخر .

مات ايزموند دونيللي في شهر ديسمبر عام ١٨٣٢ ، بعد ان بلغ الرابعة والثمانين من عمره . وفي اواخر حياته ، كان قد اصبح مولعا بالارقام الى درجة الهوس ، وتبادل الرسائل مع العالم الرياضي العظيم جوس (١) الذي اقتبس منه كلمة ضمنها في تمهيده للطبعة الخامسة من كتابه « غرائب علم الحساب » . وفي احدى رسائله الى جوس يتحدث ايزموند عن الخصائص « السحرية » للرقم ١٣٧ ـ وهو رقم ـ بالطبع ـ لا يقبل القسمة . وبشكل عابر ، صادفت نسخة من هذا الخطاب في اليوم السابق ، كانت موجودة في محفوظات مستر اكساليد نورى ، وقد ثارت خواطري حينما تبينت ان هذا الكتاب سوف يطبع ويصدر بعد ١٣٧ عاما بالضبط من موت ايزموند . واعتبرت هذه المصادفة علامة فأل حسن .

تبدأ قصة « بحثي عن ايزموند دونيللي » في اليوم العاشر من شهر ابريل من هذا العام . ففي شهر يناير ذهبت بالطائرة الى نيويورك لكي ابدأ جولة محاضرات اخذتني من فلوريدا الى مين ومن نيومكسيكو الى سياتل . وكنت قد اصطحبت اسرتي معي : زوجتي ديانا وابنتي مورين التي تبلغ الثالثة من عمرها . ولكن لما لم

---

(١) كارل فريدريك جوس (١٧٧٧ ـ ١٨٥٥) عالم رياضي وفلكي الماني شهير . ولد في برونزويك ولكنه عاش اكثر حياته في جوتيجين حيث شيد مرصدا كبيرا ونشر اغلب اعماله . الكتاب المذكور هنا هو اول كتبه وصدر عام ١٨٠١ . (هـ. م)

يكن من المفيد لهما – عمليا – ان يسافرا معي الى كل تلك المدن ، فقد بقينا مع بعض الاصدقاء في نيوهافن ؛ وكنت اذهب لكي اقضي عطلاتي الاسبوعية معهما اذا ما كنت في احدى مدن الشاطىء الشرقي بالقرب من نيوهافن . وبعد شهرين متواصلين من التنقل المستمر – حيث لا استقر في مكان واحد اكثر من ليلة واحدة – كنت قد بدات اتوتر ، ورحت اكافح من اجل المحافظة على درجة بسيطة من العزلة بأن اكتب قليلا كل يوم في كراسة خصصتها للمذكرات الشخصية . وحينما شرعت اخيرا في اعادة قراءة تلك المذكرات ، خطر لي أنه لن تكون هناك بداية اكثر بساطة لهذا التقرير من ان اقتبس تلك المذكرات بنفس الصورة التي كتبت بها تماما .

* * *

١٠ ابريل ١٩٦٩ .

الساعة الان الثامنة والنصف صباحا حسب توقيت الساحل الشرقي . اي انها الخامسة والنصف بالنسبة لي ، طالما انني طرت قادما من بورتلاند ، في ولاية اوريجون بالامس . انني متكىء على فراشي في غرفة الضيافة بالحرم الجامعي ، اشرب الشاي وآكل كعكا صغيرا مصنوعا من دقيق القمح . وسيكون عليّ في التاسعة والنصف ان اتحدث في الاجتماع . لقد قالوا لي ان ديلان توماس (٣) قد نام في هذه الحجرة ، واثار فضيحة حينما سمح لاعضاء فريق كرة القدم من جامعة كويوكول – وهي جامعة الشبان على الناحية الاخرى من المدينة – سمح لهم بالنوم على الارض وبأن يتقيأوا في حوض الاغتسال . ولا بد أن نشاط هذا الرجل وطاقته كانا خياليين . فبعد تسعة اسابيع من التجول عبر اميركا والقاء المحاضرات اصبحت في حالة من الاجهاد اشعر معها بأن عينيّ قد تحولتا الى زجاج بارد متجمد . انني استطيع دائما ان اشعر مقدما بما سيحدث حينما اكون على وشك الانهيار ، كأن الاشياء تكتسب فجأة خاصية عجيبة ذات اعماق غامضة . كانت ديانا قد وضعت في حقيبتي قطعة كبيرة من صابون المطبخ العادي الاخضر – فالفنادق الصغيرة لا تهيء لك سوى قطع صغيرة تنزلق من بين يديك تحت الدش – وحينما ذهبت هذا الصباح لكي آخذ قطعة الصابون من الحقيبة كان علي ان اقف في مكاني لكي احدق في اللاشيء . من الصعب أن اشرح ما شعرت به . ان قطعة الصابون لم تبد لي ببساطة كأنها قطعة من حجر المالاخيت الاخضر ، ولكنها بدت ايضا رخوة ، بزخرفة ، غائمة كما لو كانت تريد ان تختفي عن الانظار.

---

(٣) ديلان توماس (١٩١٤ – ١٩٥٣) شاعر انجليزي حديث ، عرف بتميز شعره عن معاصريه الكبار وخاصة بامتزاج التصورات السيريالية مع عناصر من الخيالات الاسطورية الكلتية القديمة ، وبالذات عن اساطير الكلت المتعلقة بهواجس النفوس وتلبس الارواح للاجساد . لاحظ ان الرواية هنا ستقوم على تجربة مشابهة بين الراوي والبطل . (هـ . م)

أن الاشياء التي اراها في مثل تلك اللحظات ، تبدو كما لو كانت قد اكتسبت بعدا اضافيا او معنى جديدا ، سوى ما يتعلق بالصلابة واللون والرائحة والطعم ... ثمة شيء « آخر » ايضا ، يختلف تماما عن تلك الخصائص . لا بد لك ان تدعو هذا الشيء ـ بالنسبة للانسان ـ الشخصية ، او الروح .

انني امضي فأظل ادور حول الفرفة في تلك الحالة الشبيهة بالحلم ، شاعرا كأنني طفل ولد لتوه ، عاجزا عجزا غريبا ، ومع ذلك فانه سعيد سعادة غريبة . حينما قمت بصب الماء الساخن على هذا الشاي ـ الذي ارسلته الينا محلات « فيندلاتر » في دبلين ـ انتابني احساس عابر للحظة واحدة بأنني اذوب في البخار المتصاعد ، واصبحت رائحة الشاي غريبة ، تكاد ان تكون مخيفة ايضا .

تلك الجولات قاتلة . يريد وكيلي ان اقوم بجولة اخرى في العام القادم، ولكن هذه الفكرة تثير ثائرتي . ان افضل ما يمر بك من اللحظات في اثنائها ، هي لحظات الجاوس في المطارات ، وتناول شطائر الامبورجر وشرب عصير الفاكهة أو عصير البرتقال الطازج . واحيانا في مثل تلك اللحظات ، أتمكن من الوصول الى حالة جميلة من التباعد والنظر الى الامور في انفصال كامل عن اللحظة الراهنة ، فأحس بالحجم المجرد لتلك البلاد ، واشعر فجأة بالرضا والسعادة . لقد وصلت الى تلك الحالة ايضا منذ ليلتين ، حينما كنت اجلس في مشرب الفندق الصغير في بورتلاند ، انظر الى السيارات والحافلات العامة تمرق سريعة عبر خيوط المطر السوداء ، لكي تمزق انعكاسات اعلانات النيون فتحيلها الى مزق حمراء مثل شظايا القنابل لحظة الانفجار . ولم يحدث ابدا ان غاب عني ذلك الشعور الخاص بالابتهاج حينما يحدث ان اقترب من محل بيع الكتب في احد المطارات ، حتى ولو لم يكن لدي اكثر من خمس دقائق لتغيير الطائرة ، وفي نفس الوقت يكون لدي من الكتب ذات الاغلفة الورقية (من الطبعات الرخيصة) ما يزيد على ما استطيع ان احمله . وفي مطار أوهارا بالامس ، اشتريت كتاب ابولينير (٤) « السيد الفاسق » وهو مؤلف سريالي من الادب المكشوف ، ورحت اقرأ عن حياة الشيطان المسكين التعيسة بينما كنت انتظر الطائرة . وحينذاك أدركت الحقيقة بوضوح كبير: ان عملي وعمل كل الكتاب : هو ان نرفض ان نكون جزءا من الحياة اليومية العادية ، ان نقف جانبا بعيدا عن تيارها ، حتى لو تطلب ذلك ان نتخذ موقفا مشبعا بالقسوة او القومية . يجب الا تمتعنا هذه الحياة ولا ان نفرق نحن فيها . هناك علاقة بسيطة كاملة بين العقل وبيئته . البيئة تحملنا معها وتدفعنا مثل التيار في المجرى السريع ، والعقل يشبه الالة التي يمكن ان تدفع القارب في اتجاه معاكس لاتجاه

---

(٤) جيوم ابوللينير ـ الاسم الادبي للشاعر الفرنسي ويلهلم كوستروفيتسكي ١٨٨٠ ـ ١٩١٨ ـ الذي كتب القصة والنقد وكان من أصل بولندي . كان من اهم شخصيات حركة الطليعة في الادب والفنون التشكيلية أوائل هذا القرن . تميزت كتاباته بالغموض والنزعة الجنسية واحتوت آخر اعماله على الكثير من عناصر النزعة السيريالية التي استشهد بها اندريه بريتون فيما بعد في البيان السيريالي . (هـ. م)

التيار ، او على الاقل فانها تساعده على البقاء في نفس المكان . فاذا استمرت الالة في العمل ، كان الانسان صحيح الكيان بشكل جوهري ، اما اذا توقفت الالة ، فانه لن يكون في وضع افضل من وضع قطعة الخشب الطافية فوق التيار .

* * *

مضت الاجتماعات والمحاضرات في سبيلها بشكل جيد بصورة كافية — وتحدثت كثيرا عن طبيعة الشعر والنزعة الصوفية . وبعد احدى المحاضرات ، جرتني ست فتيات الى احدى المقاهي ورحن يطرحن عليّ الاسئلة . كن جميعا قد قرأن كتاب يومياتي الذي اصدره الناشر الاميركي تحت العنوان المقزز: «اليوميات الجنسية لجيرارد سورم » (وقد كلفتني القضية التي رفعتها بهذا الصدد في بوسطون كل مليم لعين اخذته من حقوق النشر) . وكانت الفتيات الست يحملن الكثير من الاسئلة عن كانينجهام . وكان من الغريب ان ارى ان شخصية كانينجهام ما زالت تخلب الباب الفتيات حتى من خلال الصفحات غير المسلية التي كتبتها عنه . كنت احب ان اراه يتجول حرا في احدى الكليات الاميركية للفتيات — واظن انه كان سيلتقي هناك بكفؤه الحقيقي . ان اكثر الدوافع الجنسية عدوانية في العالم ، يمكن ان يغرق في هذا البحر من العذرية الاميركية غير الناضجة . وفي الجامعة في ولاية بورتلاند ، عقدت ندوة بينما تحلقت الفتيات من حولي في حلقة مغلقة — حيث لم اعد ارى سوى هذه الشاشة العريضة الملأى بالسيقان الطويلة والجونلات البالغة القصر . ولكن حينما اخذتني مجموعة منهن لتناول الغداء ، تبينت ان الفتاة الاميركية لم تتغير منذ كتب هنري جيمس عن شخصية ديزي ميللر . ان التفاحات تبدو شهية بما فيه الكفاية ، ولكن المرء يكتشف انها قد صنعت من الخشب .

وحدثت مصادفة عجيبة . كنت اتناول طعام الغداء مع ميرفين ديللارد ، رئيس قسم اللغة الانجليزية هنا ، فسألني ان كنت اعرف اي شيء عن ايزموند دونيللي. ومن الواضح ان دونيللي كان شخصا ايرلنديا اشتهر بفسقه وخلاعته ، وكان معاصرا لشيريدان ، امضى حياته كلها في صحبة الاوغاد في منطقة « جال واي » . وقد نشرت بعض مراسلاته مع روسو في بيرن حوالي عام ١٨٠٠ تحت عنوان « افتراع العذارى » رغم انه يبدو ان اسرته قد اعلنت ان هذا الكتاب ليس الا نتيجة نوع من التزييف . والان ، كانت مؤسسة « جروف بريس » للنشر تحاول اصدار الكتاب في اميركا ، مع مقدمة يكتبها ميرفين ديللارد . وقلت لديللارد انني اقمت في « جال واي » لمدة سبع سنوات ولكنني لم اسمع ابدا باسم دونيللي هناك . فاما ان يكون قد نسي تماما ، واما ان تكون ذكراه قد اخملت عن عمد .

وحينما عدت الى غرفة الضيافة ، كان هناك مظروف (غلاف مغلق) جاءني من وكيلي مملوءا بالبريد ، وكان يتضمن خطابا من بعض الناس يدعون « مؤسسة ليندن للنشر » ، أحب ان انقل هنا صورة له كاملة :

مؤسسة ليندن للنشر ، ٥٦٥ الشارع الخامس ،
نيويورك . ن. ي — ١٠٠١٦ — في ٦ أبريل ١٩٦٩ .

عزيزي مستر سورم .
عرفت من اللقاء معك الذي نشر في باب عرض الكتب في صحيفة نيويورك تايمز انك تقوم بالقاء بعض المحاضرات هنا . ويقول اللقاء المنشور انك تنوي ان تعود قريبا ، ولذلك ارجو ان يصلك هذا الخطاب سريعا .

لقد كنت من المعجبين بكتابك « اليوميات الجنسية » منذ صدوره . وقد تذكرت بالامس ، انك اشرت في المقدمة الى « موي كوللان » . وفي كتاب « مذكرات فاسق ايرلندي » الذي نزمع ان ننشره في الخريف ، يصف ايزموند دونيللي عملية اغواء لكل من ابنتي القسيس غير الشرعيتين في مدينة موي كوللان ، وهو الاب ريوردان .

وبالنظر الى معرفتك بالمكان الذي دارت فيه تلك الاحداث ، اتساءل ان لم تكن ترغب في كتابة مقدمة للطبعة التي نزمع اصدارها ؟ واحب ايضا ان اضيف انني سأكون سعيدا اذا اتفقت معك على تأليف كتاب عن دونيللي اذا شعرت بأي ميل الى القيام بمثل هذا العمل .

فاذا حدث ان تسلمت هذا الخطاب قبل مغادرتك البلاد ، اتساءل ان كان سيمكنك الاتصال بي في الرقم المذكور على الفور ، حتى يمكننا ان نتناقش في امر لقائنا ؟

واذ انتظر بشوق ان اسمع صوتك فانني

المخلص لك

هوارد فليشر » .

ولما كنت املك ساعة فراغ قبل ان تقلني السيارة الى المطار ، طلبت بالهاتف الرقم الذي اعطاني اياه . وبدا لي الرجل ــ من صوته ــ ودودا بما فيه الكفاية . ولم يبد عليه الاستياء من انني لم اسمع ابدا عن دونيللي قبل اليوم . وشرحت له انني لن اصل الى نيويورك قبل يوم الجمعة المقبل ، وفي وقت متأخر ، فقال انه سيقابلني في مطار كنيدي لكي يأخذني الى بيته في « لونج آيلاند » . واثرت فيّ هذه المصادفة المتعلقة بدونيللي . ان مثل تلك الاشياء لتحدث احيانا بكثرة مضحكة . فقد حدث بالامس ان سمعت اسم الشاعر الروسي لومونوسوف في مذياع السيارة ، وبعد عدة ساعات رأيت الاسم امامي في احدى دوائر المعارف حينما كنت ابحث عن شيء آخر . وتركتني هذه المصادفة وانا اتعجب ، ولذلك ففي اول مرة ذهبت فيها بعد ذلك الى محل لبيع الكتب في الحرم الجامعي ، سألت المديرة ان كان لديها اي شيء عن الشاعر لومونوسوف . فقالت لي :

« من المضحك ان تسأل عن ذلك . فقد وصلني كتاب يضم الكثير من قصائده بالامس » .

واشتريت الكتاب ، وقرأت المقدمة ، وعلى الفور قررت انني قد وضعت يدي على شخصية رائعة تصلح لبناء رواية . ومنذ عشر سنوات ، كنت جديرا بأن انظر الى مثل تلك العملية نظرتي الى السحر والاعمال الخرافية . اما الان ، فانني اقتفي اثر سبيل المصادفات بلهفة زائدة .

١١ ابريل ، مطار ويلكس ــ بار

قبل عشر دقائق من بداية محاضرتي هذا الصباح ، سلمني رئيس قسم اللغة الانجليزية البريد الخاص بي . كان هناك خطاب من جيم سميث من سان فرانسيسكو يخبرني فيه ان هيلجا نايزي قد انتحرت ــ قفزت من فوق برج بيركلي ، بعد ان تسلقت بطريقة ما فوق الاسلاك الواقية التي وضعوها هناك لمنع مثل تلك الاشياء . كنت اشعر بالتعب ، وقد تملكني الضجر بعض الشيء حينما وصلني الخطاب ، ولكن ، حالما قراته ، بدا لي انني استيقظت ، واصبح الاجهاد وهما غير حقيقي .

شعرت ايضا بالذنب ، رغم انه اثم لا اساس له ولا معنى . كنت قد التقيت بهيلجا من خلال جيم الذي كان يقيم حفلات للعراة يتناول فيها الجميع عقاقير منشطة وترسم الفتيات على اجسادهن اشكالا مختلفة . كانت طويلة القامة ، سوداء الشعر على شيء من الكسل ، وكانت قد امضت الليلة السابقة مع جيم . أمضينا معا ساعتين ، نأكل السمك وشرائح البطاطس المقلية ونشرب اقداحا من نبيذ قلعة برمنجهام بينما راح جيم يتحدث عن التنجيم والفلك . قال ان الحرب في فيتنام سوف تستمر على الاقل لمدة عام آخر لان النجوم تتصارع وتتصادم . وفجأة قالت هيلجا : لماذا تهتم النجوم بأن تؤثر على الوجود الانساني بينما الوجود الانساني ــ بصورة اساسية ــ لا معنى له على اي حال ؟ الا يكون من الافضل ان نترك كل شيء للصدفة ؟ وحينما قلت انا انني سألقي محاضرة في بيركلن في منتصف نهار الغد ، عرضت عليّ ان تأخذني بسيارتها الى هناك .

وفي صباح اليوم التالي جاءت الى فندقي وقالت انها امضت الليلة التالية في قراءة كتابي : « وسائل واساليب الايهام الذاتي » . ومن المؤكد انني لاحظت عليها امارات السهر طوال الليل . وانا اتقن مناقشة كتبي ، ولكنني شعرت بأنها كانت على وشك الانهيار وان من واجبي ان احاول مساعدتها . كان ما ادهشني ــ وخدعني ــ هو انها كانت تسلم تسليما مطلقا بأن الحياة لا معنى لها . وقد قالت لي ذلك كما لو كانت تقول ان الماء مبلل بالرطوبة . وحينما حاولت ان اشرح لها انني لا اشاركها هذا الراي ، قالت ان المعنى الذي استخلصته من كتابي هو : ان البشر عاجزون عن ان يكونوا صادقين او امناء مع انفسهم ، ولذلك فان كلا منهم يحول حياته الى مسرحية صغيرة يصبح هو فيها الشخصية الرئيسية ، انهم يخترعون الخيالات والاوهام التي تدعى الاديان والفلسفات وما الى ذلك . وحاولت ان اوضح لها انها حتى تلك النقطة فان تفسيرها كان دقيقا بما فيه الكفاية ، ولكنني انما كنت اتخذ هذا الموقف التدميري فحسب لكي امهد الارض امام التفكير الحقيقي . ان ما يمارسه المتصوفون ليس هو الدين ولا الفلسفة ، وانما الحقيقة . سألتني بنغمة يائسة تكاد تكون مفعمة بالضيق : « ما هي الحقيقة ؟ » . فقلت انها ما كان لها ان تسأل هذا السؤال لانها تعرف الاجابة بالفعل . انك اذا كنت ظمآن ثم شربت مشروبا باردا كبيرا ، فان احساسك بالمشروب وهو ينزلق على حلقك هو الحقيقة . وهذا شيء يختلف تماما عن الحديث عن المشروب ، او التفكير في مشروب آخر .

والبشر ايضا يملكون قدرة غريبة على ممارسة نوع من الحقيقة الوجدانية (متميزة عن الحقيقة الجسدية ــ المادية ــ ومقابلة لها) . انها من ذلك النوع الذي مارسته بالامس مع قطعة الصابون ، او ما امارسه مرة واحــدة على الاقل في كل عام حينما اشم رائحة الربيع لاول مرة . في مثل تلك اللحظة تهدأ الحواس هدوءا شديدا ، ويجتاحك شعور بأنك ترى الاشياء حقا ، بالطريقة التي راى بها ووردزورث جسر وستمينستر (٥) . وثمة احساس آخر يتماثل تماما مع المذاق الحقيقي للمــــاء البارد وهو ينزلق على حلقك . وقلت لها ان احساسها بالعقم واللامعنى لم يكـن سوى نوع من الجوع الى الحقيقة ، يولد نفس النوع من الاجهاد والبؤس الــــذي يولده الاجهاد الحقيقي او اليؤس .

والقيت محاضرتي في بيركلي ، واخذتني لجنة من الطلبة لتناول طعام الغداء ، وجاءت معي هيلجا ايضا . وبعد ذلك اخذونا الى قمة برج الساعة ، واخبرنــــا مرافقنا بأن عددا كبيرا من محاولات الانتحار قد حدثت من هذا المكان خلال العام الماضي ــ وان هذه المحاولات تزيد محاولة واحدة عن مثيلاتها التي وقعت في برج ستانفورد . واعتقد ان هذا الكلام هو ما اعطاها فكرة الانتحار من ذلك المكان .

عدنا الى البلدة بالسيارة وظلت تتحدث طوال الطريق . ثم قالت انها تريد ان تقوم بشراء بعض الاشياء من السوق وطلبت مني ان اصحبها الى هناك . وقلت بحزم انني اريد ان استريح ــ فان ساعات طويلة من الكلام والمحاضرة جعلتنـــي مجهدا تماما . ولكنني دعوتها للخروج لتناول وجبة من الطعام في « تشينا تاون » . ورحت أقرأ بعض اعمال هولدراين ثم نمت حتى السابعة . وجاءت هي الى الفندق في الثامنة ، فاحتسينا بعض النبيذ في غرفتي ثم خرجنا فسرنا على الاقــدام حتى الحي الصيني . قالت لي انها امضت فترة ما بعد الظهر في التجول حــول المنتزهات . فبدات ادرك السبب فيما بدا عليها من الاجهاد . احتسينا شيئا من نبيذ كاليفورنيا مع وجبتنا ، فبدا عليها الاسترخاء . وراحت تتحدث عن مشاكلها عن زواجها من مصاب بالشذوذ الجنسي فشلت في « اصلاحه » ، وعن تجاربها العاطفية مع عدد كبير من المدعين الزائفين ــ فانها لا تستطيع ان تقاوم اي شخص يشبه الشاعر او الرسام او الفيلسوف . وحينئذ بدأت في رؤية المشكلة الحقيقية : الكسل ، والضعف ، والرغبة في أن « يحدث » لها شيء ما ، ان يظهر حكيم ما

---

(٥) ويليام ووردزورث ١٧٧٠ ــ ١٨٥٠ شاعر انجليزي ، كان مع صديقه كولريدج احد قادة الحركة الرومانتيكية الاوائل في انجلترا ، اذ عرف بعبادته للطبيعة ، ونزعته الانسانية ، وتعاطفه (في شبابه) مع الديموقراطية الليبرالية ، واهتمامه بدقائق حياة الناس والحياة اليومية العادية ، واستخدام اللهجات المحلية للناس العاديين ، وايمانه بفكرة وحدة الوجود على أساس افلاطوني. في مقدمته لمجموعة « البالادز الغنائية » نادى باستخدام اللغة في الشعر كما يستخدمها الناس . تاثر في شبابه بافكار روسو ووليام جودوين وتحمس للثورة الفرنسية . والمقصود هنا هو رؤيته الذاتية للجسر بمن عليه من السائرين (الموضوع في الشعر ــ موضوع ذاتي) في احــدى قصائد ديوانه الشهير « الناسك Recluse » الذي لم يكتمل والذي يضم قصائد طويلــة تكاد ترسم ترجمة لحياته . (هـ. م)

لكي يمنحها الاجابة . وحينما بدانا في شرب الزجاجة الثانية من نبيذ « الميدان » اصبحت فجأة رقيقة رقة بالغة ومجاملة للغاية ، وقالت لي انها كانت تحاول ان تلتقي بي منذ ان كنت هنا في شهر يناير الماضي . وقالت انها لا تطلب مني شيئا اكثر من ان اكون صديقا لها ، اكتب لها الرسائل من حين الى حين ، وما الى ذلك . وقلت انني سأبذل اقصى ما استطيع . قالت : « ليست المسألة انني اريد ان انام معك ؛ فانا انام مع الكثيرين » وكان شعوري هو انني لا اجد ما اشغل رغبتي فيه عن النوم معها . كنت في مساء اليوم الماضي قد ظننتها جذابة ، بل وحسدت جيم على الليلة التي قضاها معها . ولو انني قابلتها منذ عشر سنوات لكنت قد نمت معها على اية حال ، دون تفكير في النتائج . اما الان فقد كنت ادرك بوضوح انها كانت تحاول ان تعقد معي صفقة ، بأن تمنحني شيئا ما « في مقابل » شيء آخر استطيع ان امنحها اياه . ولم اشأ ان اكون دائنا لها .

امضينا ساعة في « مكتبة اضواء المدينة » وقابلنا بعضا من اصدقائها ، ثم انتقلنا الى مقهى يقع عبر الطريق لكي نشرب مزيدا من النبيذ . وفي منتصف الليل ، قلت لها ان عليّ ان اعود الى غرفتي — فقد كان عليّ ان استيقظ في الصباح التالي لكي القي محاضرة في « بالو آلتو » . فقالت انها تود ان تسير معي حتى حي « ساتر » لانها بحاجة الى استنشاق الهواء النقي . وعند ناحية شارع ساتر ، حاولت ان اقنعها بان تستقل احدى سيارات الاجرة ، فقالت انها بحاجة الى قدح من القهوة لكي تنتعش . وهكذا دعوتها الى حجرتي وانا شديد الامتعاض . (كان الكاتب الليلي في الفندق صديقا لي ، ولم يفعل اكثر من ان غمز لي بعينيه . ولم افكر في انها تحمل في ذهنها فكرة اغوائي — فانها لم يبد عليها أكثر من انها تعاني من الشعور بالوحدة . ولكنني كنت مصمما على الا يحدث شيء من هذا على اي حال) . امضت عشر دقائق في الحمام بينما كنت اعد القهوة ، ثم ذهبت انا الى الحمام ، وتركتها لكي تصب القهوة ، فوجدت الحمام يسبح في رائحة العطر — وحتى اللحظة لم يكن بوسعي ان اتخيل ما كانت تفعله بهذا العطر ، لانها لم تكن تحمل منه شيئا . وحينما خرجت من الحمام ، كانت راقدة على احد السريرين المتقابلين وقد اغمضت عينيها ، وبدا عليها الشحوب الشديد . سألتها ان كانت تشعر بانها على ما يرام ، فقالت انها ليست كذلك ، ولكنها ستتحسن في لحظات . وضعت القهوة على المنضدة الصغيرة المجاورة للسرير ، فمدت يدها تبحث عن يدي حتى أمسكت بها وقالت :

« هل تسمح بان تقبلني ، مرة واحدة ، من فضلك ؟ »

وكنت ما ازال اشعر نحوها بتلك العاطفة الابوية . فرحت اربت على راسها وقلت : « اجل ، اجل ، بالطبع » . وانحنيت فوقها . كان فمها لينا وجذابا ، رغم ان شفتها السفلى كانت مشققة قليلا . كان تقبيلي لها نوعا من الصدقة — شعور يشبه ما كنت احدثها عنه من قبل عن ابتلاع مشروب بارد ومجرد التفكير فيه . أنت هي بعد ان قبلتها ، ورقدت في مكانها دون ان تفعل شيئا ، وحينما حاولت ان اتراجع عنها ، سمعت في حلقها صوتا يشبه الانين من جديد . ولم يكن هذا

الوضع مريحا ـ كانت رقبتي تؤلمني ـ ولذلك فقد وضعت ركية واحدة على السرير . وفجأة بدأت تتنفس بعمق وبانتظام ، كما لو كانت قد استراحت راحة هائلة ، وبدأت يدها تمسح سروالي ، كما لو كان هذا بالمصادفة ، ثم استقرت في مكانها هناك . وحدثت الاستجابة الحتمية . وكنت اتساءل طول النهار ان كانت ترتدي جوارب او سراويل ضيقة . وكنت اعرف ان هذه هي فرصتي الاخيرة . فلو انها كانت ترتدي السراويل الضيقة ، وحتى اذا كانت ترتدي حمالة جوارب مشدودة الى سروالها الداخلي ، لامكنني ان اعبث قليلا بأدب ، ثم اطلب منها ان تحتسي قهوتها ، بينما تخبو رغباتي الطارئة وتنطفيء جذوتها . أما اذا لم يكن ذلك .... تباعد فخذاها حينما لمست يدي ركبتها ، وحينئذ لمست اللحم العاري فوق الجورب . وبعد لحظة ، وصلت يدي الى ملتقى الطرق ، فوجدت انها لم تكن ترتدي سروالا داخليا . ولا بد انها قد خلعته في الحمام ... وفي خلال ثوان قليلة كنت قد اصبحت داخلها ولا بد ان اعترف بأنه كانت هناك دفعة غامرة من البهجة الخالصة . كان هذا نوعا من الامتزاج المجرد بين الذكر والانثى ، دون وجود لشخصية كل منهما . وبدا لي ان دفئها ، حينما احاطتني بساقيها ، كان دفئا طال اعداده من قبل . ولكن امتزاجنا لم يستغرق سوى وقت قصير . كان كل منا مستثارا بشدة لدرجة اننا بلغنا ذروة نشوتنا في ثوان معدودة . رقدت وانا في داخلها للحظة اخرى ، وانا انظر الى وجهها ، فبدت لي مسالمة تماما وهادئة . وحينئذ قالت :

« فلنخلع ملابسنا لندخل الى الفراش » .

وكان هذا اقتراحا معقولا ، فنفذناه على الفور . ولكن ما تبقى من الليل لم يشبه تلك اللحظة الاولى . كانت قد حصلت على ما ارادته الحصول عليه ، وكنت انا قد وصلت الى ما كنت حريصا على ان اتجنبه . ولكن اكثر ما ازعجني هو انها بدت لي عاجزة عن التعاطف . كانت تستمتع بالجنس في تفان جسدي لم يتح لي ان اعرف مثله كثيرا ـ كان هذا برهانا جديدا لي على ان النساء اللواتي لا يميزن كثيرا في علاقاتهن الجنسية لسن بالضرورة باردات او فاترات . ولكنها في اللحظات التي تخللت دورات امتزاجنا ، كانت تريد ان تتحدث عن مشاكلها ،وعني، وعن علم النفس ، وعن محاضرتي ... وكان علينا ان نتبادل الحديث بالهمس حتى لا نزعج النزلاء في الغرف المجاورة .

وفي القطار المتجه الى « بالو آلتو » ، لعنت نفسي لانني لم اجلب معي كراسة مذكراتي ، لانني اكتشفت فجأة ان لدي الكثير الذي اود تسجيله . لم اكن ارغب في النوم مع هايجا لانني كنت اعرف مقدما ان هذه التجربة لن تخلف شيئا وراءها . اذن فلماذا احصل بالفعل على مثل تلك المتعة من ديانا رغم انني تزوجتها منذ سبع سنوات ؟ لقد مضت عليّ عدة سنوات حتى الان ، وانا احاول تحديد اسس الدافع الجنسي . لماذا « ينبغي » لرجل ما ان يرغب في ايلاج عضوه المنتصب داخل امرأة ما؟ لا بد ان ثمة سببا ما ، والقول بان هذه « غريزة » ليس جوابا حقيقيا . حينما كانت موبسي (ابنتي) طفلة صغيرة ، كنت أتساءل دائما ، لماذا ترضع دائما ابهام يدها بينما تمسك اذنها بيدها الاخرى . ثم لاحظت

اطفالا آخرين يفعلون نفس الشيء . وانني لاتساءل أن لم يكن هذا مرتبطا بالرضاعة من الثدي ــ وما اذا كان الطفل يمد يده بصورة اوتوماتيكية لكي يمسك بالحلمة الاخرى بينما يكون مشغولا بتناول طعامه من الحلمة التي في فمه ، فهو يعامل اذنه معاملته للحلمة ؟ وهكذا لا بد ان يكون هناك تفسير مشابه للدافع الجنسي .

لقد سردت على هيلجا قصة غريبة . فحينما ذهبت الى الكلية لاول مرة ، كانت سيدة شابة مكبوتة كبتا شديدا جاءت من الغرب الاوسط وتحمل آراء متشددة حول ممارسة الجنس قبل الزواج ؛ خاصة وان امها كانت قد اخبرتها بان الرجل يستطيع دائما ان يخمن ان كانت زوجته عذراء ام غير عذراء ، وانه من المحتمل ان يهجرها على الفور . وطوال ستة شهور او نحوها ، ظلت تخرج مع اولاد عديدين ، وتسمح لهم ببعض الملامسات القليلة ، ولكنها كانت توقفهم عند حدهم اذا حاولوا ان يخلعوا سروالها . وفي بداية عامها الاول ، انتقلت لكي تسكن مع فتاة اخرى ، اخبرتها بانها حلت المشكلة باستخدام عضو انثوي صناعي . ويثبت هذا الشيء حول الفخذين بواسطة حزام ، وكان شيئا يزيد قليلا عن انبوبة صنعت من نوع ما من المطاط تثبت فوق العظم العاني ، ويجب ان يرطب مدخل الانبوبة ببعض من زيت الزيتون . وقالت هيلجا انها لا تظن انه يمكن ان يكون عمليا ، ولكن صديقها كان قد قال لها بالفعل انه سوف يقطع علاقته بها ان هي لم تتنازل عن رايها . ولكنها جربت هذا الجهاز بعد ان استعارته من صديقتها . ولشد ما دهشت حينما وجدت ان الولد لم يهتم اقل اهتمام بذلك . كانا ينامان سويا في الفنادق الصغيرة اثناء عطلات نهاية الاسبوع . وكانت هي تصر على الابقاء على سروالها دون ان تخلعه ، حذرا من ان تشتعل شهوة الفتى . ولكنها قالت انه حتى لم يحاول ان يقوم بمضاجعتها بشكل طبيعي ، ولكنه كان يشيعها بعد ان يبلغ هو نشوته بان يلاطفها قليلا . وبعد ذلك استخدمت هي نفس الجهاز مع صديقين آخرين ، معتقدة انها بهذا الشكل سوف تكون فاضلة بصورة رائعة ، حتى جاءت ليلة ما فاشتعلت بالرغبة وطلبت من صديقها ان يمارس معها الجنس بشكل عادي .

وتذكرت حينذاك ان ديانا كانت قد اخبرتني بشيء من نفس النوع حول تجاربها الجنسية الاولى . فقد حدث مرة ان تشاجرت مع صديقها ، فذهبت الى الفراش مع رجل كانت قد قابلته عصر ذلك اليوم نفسه ، لكي تغيظ صديقها . ولكنها قبل ان تذهب الى غرفة الرجل قالت له انها عذراء وانها تود ان تظل كذلك . فوافق على الفور ، وظلا طوال الليل يربت احدهما على الاخر ويلاطفه ، ولكن دون ان يمارسا العملية الجنسية بشكل طبيعي .

ورأيت فجأة في تلك اللحظة ان هذا يمكن ان يكون مفتاحا هاما . ان الرجل « طبعا » لم يكن رزينا ولا محتشما . كانت هناك ديانا ، وهي فتاة جميلة ، من الطبقة المتوسطة ذات جسد رشيق واخلاق محتشمة . اما هو فيريد ان « يعرفها » انها بالنسبة له مثل شيء وضعت في صندوق زجاجي داخل المتحف وكتب عليها : « ممنوع اللمس » . وهناك قصة لموباسان عن مجرم هرب من سجنه وتنكر في ملابس النساء ، وعمل كخادمة في منزل احدى السيدات ، وظل يساعدها على

خلع وارتداء ملابسها طيلة شهور . « هذه » هي كيفية رغبة الرجل في معرفة المرأة التي تجلس امامه في مترو الانفاق ، او تقف امام قسم العطور في احد المحلات الغالية . ان الايلاج الفعلي في عضوها هو اقل اجزاء المسالة اهمية بالنسبة اليه ، انه ليس سوى الرمز النهائي للاستسلام . انه يستطيع ان ينظر اليها فيقول لنفسه : « كم اود ان احصل عليها » . لكنه يكون قد حصل عليها بطريقة تكاد تقترب من حصوله عليها اذا ما قضى معها ليلة كاملة في حجرتها ، فظل يراقبها وهي تخلع ملابسها ، وراح يتجول بيديه فوق جسدها كله ، ويشعر بيديها فوق يديه ، ويراقبها وهي ترتدي ملابسها وتمشط شعرها ، ويرى الاساليب التي تستعمل بها ادوات ومواد التجميل ، ونوع معجون الاسنان الذي تستخدمه . ان جوع الذكر للانثى هو جوع لانوثتها ؛ انوثتها الغريبة عنه ، والى كل شيء فيها .

مرة اخرى احب ان اقول انني كنت شديد الاعجاب على الدوام بقصة كلايست (٦) عن الماركيز فون او ـ حيث يغزو الجنود الروس بلدة صغيرة فيجرون الكونتيسة الشابة لكي يغتصبوها . وينقذها ضابط روسي ، فيغمى عليها بسبب ما شعرت به من الرعب . وبعد شهور قليلة تدهش جدا حينما تكتشف انها حامل ، ولكنها واثقة من براءتها ثقة كاملة لدرجة ان تعلن في الصحف مطالبة والد طفلها بان يتقدم اليها ليعرفها بنفسه . وبعد قليل ، يتقدم الوالد بالفعل ـ انه الضابط الشاب الذي انقذها . وكان كلايست من حسن التقدير بحيث حاول ان ينهي القصة نهاية سعيدة ، ولكن اكثر الرومانتيكيين كانوا جديرين بأن يجعلوها تنتحر فرارا من العار ، ثم يدخل الضابط الدير بدافع الندم لكي يصبح راهبا فيكفر عن ذنبه . ولكن جوته تحدث بخشونة واضحة عن قصة كلايست ، مصرحا بانها من السخف بحيث لا يمكن ان تقترب من الحياة الحقيقية . الامر الذي يوضح ان كلايست كان يعرف عن الطبيعة البشرية اكثر بكثير مما يعرفه جوته ـ او على الاقل فيما يتعلق بالجنس . ليست هناك حاجة الى اظهار ان الضابط كان افاقا لا اخلاق له . انه ينقذها بروح فارس من فرسان المائدة المستديرة . وحينما يغشى عليها ، يرقدها برقة فوق اريكة ناعمة . وترتد هي بسكون كما لو كانت نائمة ، ويشعر هو بنوع من الفضول الى معرفة كيف يبدو النصف الاسفل من جسدها اذا خلعت ملابسها ، وهو يعرف ان ليس عليه سوى ان يرفع ذيل ثوبها الى وسطها لكي يراها عارية ـ فقد كانت تلك هي الايام السابقة على اختراع السراويل الداخلية ، ويقوم هو بهذا العمل في حذر ، خشية ان تستيقظ ، ويدس يده بين فخذيها لكي يباعد ما بين الساقين . ثم لا يكون من المهم ان تستيقظ او لا تستيقظ . ففجأة يصبح كل ما يهمه حقا هو ان يخلع بنطلونه الضيق وان يلمس عريها بعريه . ويقوم بذلك

---

(٦) بيرند هاينريش ويلهلم فون كلايست Kleist (١٧٧٧ ـ ١٨١١) شاعر وكاتب درامي الماني ، يعتبر واحدا من رواد حركة « العاصفة والاندفاع » التي طبعت الرومانتيكية الالمانية بطابعها وقتا طويلا . ورغم قصر حياته وضآلة ما كتبه فقد كانت لقصصه اهمية كبيرة لدرجة قيل معها ان تاثيره على فرانز كافكا كان قويا للغاية . ولكن حياته نفسها كانت ابعد اثرا ، فبعد ان وصل الى حافة الجنون اطلق النار على حبيبته « هيزبيت نوجيل » ثم انتحر . (هـ. م)

ويكتشف ان الايلاج سهل ، ويصل الى ذروة نشوته على الفور . ثم ينسحب ، شاعرا بالخجل ، متوقعا ان يراها تقفز في مكانها مفزعة . ولكنها تظل راقدة في مكانها في سكون . ويعيد ترتيب ملابسها ، ثم يرتب ملابسه (ولا بد ان يرتبها بهذا التسلسل) ، ثم يخرج بحثا عن بعض الماء لكي يغتسل . وحينما يعود ، يجدها جالسة ، تنظر اليه بامتنان . هذه هي اللحظة ، هل ستعلم بان غريبا قد زار اكثر اعماقها ظلاما ؟ ولكنها مليئة بالكدمات تشعر بالرجفة نتيجة لهجوم الجنود ، لدرجة انها لا تشعر بشيء من فعلته ، اجل ، لقد ادرك كلايست فضول الذكر الثائر الذي يتلظى الى معرفة الانثى كما تتعطش الارض الجافة الى الماء . ولا بد ان جوته قد ادرك شيئا من هذا هو الاخر . والا فأي شيء اخر دفع فاوست الى اغواء مارجريت ؟ انها فتاة ريفية عادية ، ليس فيها ما يلمع او يخطف الابصار بصورة غير عادية ، ولو انه كان طبيبها الذي يعالجها لشعر ازاءها بنوع من عاطفة الابوة . ولكنها اجنبية عنه ، غريبة ، انه حتى لا يعرف ما ترتديه الفتاة الريفية تحت جونلتها الواسعة التي لا تلبسها الا في ايام الاحاد ، وهو بحاجة ملحة الى ان يعرف .

وهذا ما يفسر لامبالاتي النسبية ازاء هيلجا في صباح اليوم التالي . كانت قد سلمت نفسها عارية الي بالفعل ، سلمت هزيمتها ، وكسلها ، واشتياقها الى الاهتمام واستعادة الثقة بالنفس . ولم يكن هناك سوى شيء واحد آخر ينبغي اكتشافه : هل كانت ترتدي جوارب ضيقة ام سروالا داخليا ؟ وكان الايلاج الاول فيها مجرد جنس محض ، ذلك النوع من الجنس الذي تمارسه الحيوانات بالقطع حينما تتسافد فيما بينها . ولكن بعد ذلك ، برز عقلانا لكي يقطعا الطريق على ذلك الجنس ولكي يضللاه . . .

وقد كتبت لي بعد ذلك مرتين : المرة الاولى لكي تصف انغماسها في علاقة مع مدير متوسط العمر لاحدى الشركات ، والمرة الثانية لكي تعلن لي خطبتها الى طالب من ولاية سان فرانسيسكو . ولم اكن قد تمكنت بعد من الاجابة على خطابها الثاني حينما سمعت بموتها .

وجعلتني اخبار موتها اشعر بقوة الاصطدام بالحقيقة . تبينت ان اجهاد هذه الجولة من المحاضرات كان اجهادا زائفا . ان نتيجة نفس الافتقار الى الاحتكاك بالحقيقة هي ما ادى بها الى الانتحار . كانت آخر مرة رايتها فيها في شقة جيم سميث ، فقد غادرت سان فرانسيسكو على طائرة الليل في نفس اليوم . وكان قد وضع اسطوانة تسجيل على جهاز الحاكي لديه وقرب منه ابرة اللاقطة ، ولم يحدث شيء في تلك المرة — ليس سوى الصمت . واختبر مكبرات الصوت بأن وضع اذنيه عليها ، وحدق جيدا في ابرة اللاقطة لكي يتأكد من ان شيئا من الزغب لم يعلق بها . ثم اسقط ذراع اللاقطة مرة اخرى . ولم يصدر اي صوت . ثم لاحظت ان الذراع كان يسقط عن طريق جزء من الالة صمم بحيث يمنع الابرة من خدش الاسطوانة فقلت له ان هذا الجزء ربما كان يمنع الابرة من الالتصاق بالاسطوانة بشكل كامل . وهبط جيم على يديه وركبتيه ونظر اليها من اسفل . وقال ان لا ،

كانت الابرة تلمس الاسطوانةبالفعل ، ومع هذا فقد عدّل من وضع الجزء الصغير بعض الشيء ، وعلى الفور امتلأت الحجرة بالموسيقى . كان قد اسقط الابرة مسافة اضافية لا تزيد عن جزء واحد من مئة جزء من البوصة لكي يلمس الاسطوانة — فكانت قريبة منها لدرجة ان العين المجردة لم تكن تستطيع ان تلحظ المسافة الدقيقة التي تفصل بينهما . ومع هذا فقد كانت المسافة كافية لكي تخلق الفارق بين الصمت والموسيقى .

ان ما يشغلني حقا هو المسافة التي تفصل بين العقل والحقيقة . ان الضجر المسرف يوسع من هذه المسافة ، وكذلك الارهاق . ولكن هذه المسافة الفاصلة يمكن ان تكون ضئيلة الى الدرجة التي تجعل كل المدارك والحواس تتوهم انها تحتك بالحقيقة احتكاكا مباشرا . ثم يحدث ان تقع صدمة مفاجئة فيمتلىء الوجود الداخلي بالموسيقى ، فتعرف انه لم يكن هناك احتكاك حقيقي . كنت مخدوعا . كنت وحيدا في فراغك الخاص ، تختنق ببطىء حتى الموت .

فيما بعد — في الطريق الى نيويورك .

انني مدين بشيء من الامتنان لهيلجا : لقد اختطفني موتها او انتزعني بقوة لكي اخرج من حالة الافتقار الى الارادة التي كنت اترك نفسي لكي انساق فيها . ان الكائنات البشرية لتشبه اطارات السيارات : فلكي تحصل منها على احسن النتائج ، ينبغي ان تحتفظ في حالة من الامتلاء المناسب . فاذا كان اطار سيارتك فارغا من الهواء ، وقدت السيارة لمسافة ميلين ، فانك سوف تدمره تماما . ويحدث نفس الشيء اذا كانت الارادة خاوية . وكنت اترك ارادتي لكي تزداد خواء بانتظام طوال الاسبوع الماضي او نحوه ، وكنت اتساءل لماذا كنت اشعر بالاجهاد الى هذا الحد .

يقول دي صاد ان الناس صاديون ، فحتى افضل الناس يحصلون على نوع معين من الاشباع من تأمل ما اصيب به الاخرون من خيبة امل او صدمات قاسية . وانه لعلى حق ، ولكن ليس لهذا اية علاقة بالصادية . انه لسبب غريب ما ، يجعلنا الضجر نفقد كل ارتباط بالحقيقة . انك قد تظن ، على سبيل المثال ، ان رجلا تم انقاذه من خيمته النائية الباردة في القطب الجنوبي ، قد لا يكون قادرا على الضجر طوال ما تبقى من حياته ، لانه في كل مرة يبدا فيها في التسليم بالاشياء على ما هي عليه ، فانه ، ببساطة سيستعيد اللحظة التي كان فيها قريبا من الموت كل القرب ، ثم يرى كيف ان ظروفه الحالية جميلة الى اقصى حد ، بصرف النظر عن قتامتها . ولكن في الحقيقة ، فان مثل هذا الرجل جدير بان يشعر بالضجر بنفس المقدار الذي يشعر به رجل انفق جل حياته في مزرعة ريفية ، وربما كان ضجره اكبر . ان سوء حظ الاخرين ، او ما يقابلهم من قسوة الحياة ، قد يوقظنا من سباتنا الغريب .

هذا الجريان السائب في الطبيعة البشرية هو ما يسحرني — اذ يغرسه في قلوبنا وجود الضجر . اجتث هذا الضجر وهذا التسيب ، وسوف تحصل على السوبرمان .

السبت ، ١٢ ابريل ، جريت نيك ، لونج آيلاند .

الاجهاد يجعل المحافظة على القرارات الجيدة امرا صعبا . وصلت الى كينيدي في وقت متأخر من الليلة الماضية ، وقابلني هوارد فيلشر ـ ضئيل الحجم، ايطالي الملامح ، مليئا بالحماس والرغبة في الاقتحام ، فقادني الى هذا المكان ـ منزل جميل على قمة تل صخري ، يقول انه اشتراه من ارملة رجل مشهور من رجال المافيا قتل في جريمة لم تكشف الغازها . ان فليشر واحد من اولئك الناس الذين توحي طريقتهم في التصرف بأنك لا بد ان تحبهم ، لانك وهو تشتركان في الكثير . ... ظللت اتوقع منه ان يضع ذراعه حول كتفي وان يناديني « يا ولد » . ومن الواضح انه يشترك في عدد كبير من الاعمال الضخمة بخلاف النشر ـ وفي الحقيقة، لقد راودتني الشكوك في ان دار ليندن للنشر ليست سوى عمل جانبي انتجه لاغراض ضرائبية . وبينما كنا عائدين بالسيارة ، قال بوقار بأنه قد عرف فور اطلاعه على كتابي « اليوميات الجنسية » ان هذا الكتاب ليس نوعا من الادب المكشوف الداعر . وانني شخص مخلص يحمل افكارا ويريد ان يعبر عنها . وقد انكمشت انا وحافظت على صمتي . وعدنا الى المنزل في حوالي الحادية عشرة والنصف ، وفتح الباب ، فوجدت فتاة سوداء ذات جمال مذهل قدمها الي باعتبارها سكرتيرته . وكانت هناك ايضا فتاة اصغر سنا ، اسمها بيفرلي ، بدت خابية الجمال بالمقارنة الى الفتاة الاولى ، وقال انها تشترك في السكن مع سارة (السكرتيرة) وانها تدرس في احدى مدارسه السكرتارية . ووضعت الفتاتان على المائدة عشاء باردا ممتازا ، تضمن سرطانات البحر وجراد البحر ايضا . وبعد ان تناولت الطعام ، وشربت قدحين من البيرة ، شعرت بأنني اقل عداء نحو مضيفي ، ولكنني كنت متعبا لدرجة انه كان من الصعب ان احتفظ بعيني مفتوحتين . ولكن هوارد (وقد اصر علي ان نتخاطب بالاسماء الاولى على الفور) اصبح في الحقيقة اكثر تقحما وحماسة بعد منتصف الليل . تحدث عن الحرية الجديدة في الادب، وعن التمرد في الجامعات ، وقال ان هناك جيلا جديدا لا بد من البحث عن ملامحه ودراسته ، وانه جيل جائع الى الافكار ، والى حرية التعبير ، والى الحديث المباشر المخلص . وحاولت ان اكتشف ما يعنيه بالافكار وحرية التعبير ، ولكنني لم استطع ان اكتشف الا انه كان يعني حرية التعبير عن الدوافع العدوانية دون قيود ومن خلال التعبير الداعر الذي لا يكبته شيء .

ووصف لي المسرحية التي ينوي ان يحولها في انتاج يعرض خارج حي المسارح (برودواي) . وتحكي المسرحية قصة فتاة صغيرة تأتي الى بيتها بلاعب كرة قدم مخمور بعد مباراة في الكلية ، فيطرحها على الفراش ويغتصبها . ومن المفترض ان تظهر عملية الاغتصاب في المسرحية ، ويرمز اليها باستعراض واضح لوجهها ، وهي راقدة على ظهرها ، عن طريق عرض صور متحركة لوجهها على شاشة سينمائية في خلفية المنصة . وهي تتخيل في تلك اللحظة كل الرجال الذين كانت تفضل ان يكونوا اول من يحصل على عذريتها ، وتبدا بوالدها ، والمسرحية بعد هذا سلسلة من المشاهد الخيالية حيث تزداد الفتاة ضياعا على الدوام . وحينما

ينتهي كل مشهد من مشاهد الاضواء ، يفرق الوجه الكبير المضيء على الشاشة الفضية ، يفرق في نشوة حالمة . ويبدأ كل مشهد بالعاشق الجديد ـ الذي سيفويها في النهاية ـ مثلما يبدو في الحياة العادية ـ مؤدب ، مسيطر على سلوكه .. الخ ، ثم يقوم خيالها بتحويل الموقف حتى ينتهي الى الفراش . وفي نهاية المسرحية ينهض لاعب كرة القدم مترنحا فوقها ، وهو يلهث ، ويقول : « آسف ، لا استطيع ان استمر » . فتنهض هي ، وتسوي ذيل ثوبها وتقول : « خائر .. ضعيف » .

وكانت الفتاتان ـ سارة وبيفرلي ـ تعتقدان ان للمسرحية حبكة رائعة ، وكان عليّ ان اتظاهر بانني متحمس انا الاخر . واخيرا ، وحوالي الثالثة صباحا ، قادني الى غرفتي ، وبينما كان يتهيأ لمغادرتي ، غمز لي بعينه واشار الى باب الغرفة المجاورة وقال : « بيفرلي في هذه الحجرة ، ان كنت تريدها » . وغمغمت بكلمات عنيت بها ان هذا تعطف شديد منه عليّ ، ورحت بعد هذا في سبات اشبه بالاغماء . وقبل ان اغرق في النوم مباشرة تذكرت انني نسيت ان اطلب ديانا بالتليفون في نيوهافن .

وفي الصباح التالي ، ايقظتني بيفرلي في حوالي الساعة التاسعة وهي تحمل طعام الافطار ، وسألتني ان كنت قد نمت نوما جيدا .. ظننت انني رايت تعبيرا خاطفا على وجهها يدل على السخرية ، وتساءلت ـ في داخل عقلي ـ ان كانت باردة متحفظة كما تبدو . وكنت اشعر بالانقباض . كان الاصغاء لهوارد طوال ثلاث ساعات في الليلة السابقة قد دفعني الى حالة لم اكن اريد الا ان اخرج منها لافلت من قبضته . كنت اريد ان اصرخ : « اتركني وشاني . انني اكره كل شيء لعين تدافع انت عنه » . ولا اظن ان هذا كان من الممكن ان يغضبه او يجبره على السكوت . كان من الممكن ان يقول : « كلا . انك لا تكره شيئا من ذلك . انك فقط تظن انك تكرهه .. » ثم يمضي فيتحدث بسرعة اكبر مما كان يتحدث في البداية .

دخل الى حجرتي بينما كنت اتناول طعام افطاري ـ افطارا انجليزيا يضم البيض ولحما من فخذ خنزير ومربى بالزبدة ـ فناولني مخطوط كتاب دونللي . ولم يكن حجمه يزيد على ستين صفحة كتبت بخط اليد . سألته عما حدث لبقية الكتاب فقال :

« اجل ، حسنا ، ايه .. هذه هي المشكلة »

وبعد نصف ساعة من التفسيرات الكثيرة المتضاعفة ، والتاكيدات بانه يقف دائما الى جانب اصدقائه ، بدات في ادراك ما كان ينبغي عليّ ان اتبينه في الليلة السابقة . انه يشعر بالغيرة من دار « جروف للنشر » لانها نشرت بعض كتب دي صاد ، وخاصة كتاب « حياتي السرية » قبل ان يفكر في هذا الكتاب اي شخص آخر . ولكنه لم يكن يرى ما ينبغي ان يمنعه من التقدم الى ما هو افضل من ذلك بان ينشر كل كتاب جاء ذكره في القائمة التي وضعها ألورد آشبي عن « بيبليوجرافيا الكتب الممنوعة » . وهو يبدأ هذا المشروع بالفعل بنشر ترجمة لاعترافات الاخ

آخازيوس من مدينة دورين ، وهو راهب من طائفةالكابوتشان (١) Capucin كون جمعية كان يجلد بناء على تعاليمها تابعاته من النساء قبل ان يضاجعهن. واعارني هوارد مخطوطة الكتاب التي كتبت على الالة الكاتبة . ومن المؤكد انه كان واحدا من تلك « الكتب التي تقرا بيد واحدة » . وكان قد شرع ايضا في طبع كتاب يدعى « القساوسة الفاضحون »وانكان لم يوضح لي منراين حصل على مادةالكتاب.

واخيرا وصلنا الى الهدف من كل هذا الحديث . انه مستعد لان يدفع لي خمسة آلاف دولار مقابل كتابة بحث حول « مويكوللان وباالليكاهين » ـ وهذا هو مسقط راس دونللي ـ وهو مبلغ يكفي لتغطية تكاليف المقدمة . فاذا كان باستطاعتي ان انتج « مادة » اضافية للكتاب نفسه ـ اي اذا كان باستطاعتي ان اكتشف مزيدا من الكتابات التي تركها دونللي نفسه ، او ان ازورها بنفسي ـ فانه سيدفع لي عشرة الاف اضافية من الدولارات . ومن الواضح انه لم يكن يبالي كثيرا بما اذا كنت ساكتشف هذه الكتابات ام ساقوم بتزويرها . واشار الى ان اليكس تروتشي قد كتب بقلمه اكثر من خمس الكتاب المنسوب الى فرانك هاريس تحت عنوان « حياتي وتجاربي في الحب » وانه منذ ذلك الحين كان يطبعه باسمه هو لا باسم هاريس . والمسالة الرئيسية هي ان اكون مستعدا لان اتحمل اي نقد يوجه الى الكتاب ، اذا حدثووجه اليه مثل هذا النقد .

كان الحصول على مثل ذلك المال كله امرا مغريا . وكنت سأعتبر نفسي سعيد الحظ لو تبقى لي خمسمائة دولار من مجموع المال الذي وصلني مقابل تلك الجولة من المحاضرات . وقلت لفليشر انني سأفكر في الامر ، ففادرني مع المخطوط بين يدي .

امضيت ما بقي من فترة الصباح في الفراش ، بينما كان يتزايد انقباضي كلما توغلت في قراءة دونللي . انني لا افهم كيف استطاع ان يحافظ على صداقته لاشخاص مرموقين مثل شيريدان وروسو . انه يبدو في صورة لا تزيد عن صورة متشرد قذر العقل . والاسوا من هذا ، هو انني اشك في الا يكون ببساطة ، كاذبا. فالنساء اللواتي اغواهن ـ بدءا من شقيقته وخادمة المنزل ـ يبدون جميعهن كما لو كن نسخا مختلفة من نفس الصورة الخيالية الرغبة في التحقق . انهن يبدان جميعا بالمقاومة بشكل يوحي بالفضيلة وهن يقلن : « اواه ، يا للعار ! » . وحينما يدفع اصبعه الى داخل « الشق المرجاني المستطيل » ، يتنهدن ، بينما افخاذهن : « تنفرج كما لو كان ذلك يتم بصورة تلقائية » . ومنذ تلك اللحظة، تمضي كل قصة الى الامام دون انحناءة واحدة حتى تئن كل امراة منهن منتشية في الفراش . ان فليشر اما ان يكون ابله غبيا اكثر مما يبدو عليه ، واما انه يعلم تماما بانه قد خدع ولا يبالي بذلك اقل مبالاة .

جاء الى غرفتي وقال اننا نتوقع وصول ضيوف يتناولون معنا طعام الفداء . وكان ذلك اشبه بالقشة الاخيرة التي تقضم ظهر الجمل ـ لم اكن اشعر ابدا بانني على استعداد لاستقبال الناس في ود لطيف . ذهبت الى الحمام ، وفتحت« الدش »

(١) طائفة من رهبان الفرنسيسكان انشقت عليها وكونت جماعة جديدة للرهبنة في عام١٥٢٨ (هـ . م)

فوق راسي . فجأة شعرت بدوار ، وكان عليّ ان اتعلق بعامود ستارة الحمـام . جلست على مقعد المرحاض ، وحدقت في مفرش الحمام المزركش بالورود ، شاعرا بموجات الانقباض تتلاحق فوقي وتتراكم . فكرت في هليجا ـ في ذلك الصباح الاخير ، بينمـا كانت قد جلست على حافة الفراش ، ترتدي جواربها وتجذبها الى اعلـى ساقيها . قالت حينذاك : « انني سعيدة لاننا نمنا معـا . وربمـا كان علينا ايضا ان نأخذ اي متعـة نستطيع ان نحصل عليها . » . ولم تزد على ذلك حرفا ، ولكنني فهمت ما كانت تريـد ان تقول . كانت تعني ان الحياة لا معنى لها . كنا قد صعدنـا الى الفراش معا ، وتضاجعنا مثل حيوانين ، وغرقنا في النوم وصحونا من جديد ، ولكننا كنا غريبين ، اكثر امانة من ان تراودنا ايـة اوهام عـن الحب او الحنان ـ كل منـا غريب عن الاخر وعن الكون . وفجـأة اردت ان اشرح لها مـا يدور براسي . اردت ان اقول لها ان العالم يبدو لها بلا معنى لان « لا وعيها » قد غرق في سبات عميق . وحينمـا نكون سعداء ، تظل فقاعات المتعة تتصاعد مـن اعماق اللاوعـي ـ ذكريات وروائح وامكنة . وحينمـا يتملـك الاجهـاد ، يكف اللاوعي عـن القيام بعمله ، وتكـون النتيجـة هي الحالة التي يدعوهـا سارتر : « الغثيان » . ساعتها ترى الاشياء دون ظل المعنى القصير الذي يلقيه على الاشيـاء ابعـد اعماق العقل . يقول سانت اوغسطين : « ما هـو الزمن ؟ حينمـا لا اسأل نفسـي هذا السؤال ، اعرف الجواب » . تماما . ان عزل شيء ما في داخل الوعي ينزع عنه معناه . ان حقيقةان الوعي يرى العالم خاليـا من المعنى انمـا هـي حقيقة لم تبلـغ شيئا من شيء . فليس من المفروض في الوعي ان يدرك المعنى ، المفروض فيه ان يدرك « الاشياء » ، الموضوعات الخارجيـة المستقلة عن الذات . ولكن كيف كان لـي ان اشرح ذلك لفتاة سقطت تتخبط دون مهرب في حالة مـن الاجهاد العصبي الكامل ؟ وكان المفروض ـ من اجل اخراجها من هذه الحالـة ـ ان يتم اقناعها بأن تبذل شيئا من الجهد . وهي لن تبذل اي مجهود لانها تقول ان كل جهد لا معنى له ولا هدف ولا نتيجة . لقد وقعت في شرك دائرة مقفلة ، مفرغة.

وكنت مصمما علـى الا اقع في نفس الخطأ . اخرجت نفسي من هذا الجمود كما لو كنت اصحو من اغماءة ، وخطوت الى تحت مياه « الدش » السـاخنة ، ورحت افكـر في انني سوف ارى ديانا غدا ، فنطير الى بيتنا بعد عشرة ايام .

ولكن الغداء كان رديئا بقدر مـا كان يحق لي ان اتوقع . كان من الواضح ان الضيوف جيران اغنياء ،وكان فليشر قـد دعاهم الى مائدته لا لشيء الا لانهم جيران اغنياء . وفكرت في كثرة ما يحدث في اميركا من مثل هذه الاشياء ـ اناس يشربون ويتبادلون الاحاديث دون ان يكون بينهم اي شيء مشترك ـ وغرقت مرة ثانية في حالـة من الانقباض المزعج . شعرت بأن فليشر لا يملـك الحق في ان يصب على راسي كل هذه الصور اللعينة من انواع الضجر . رجال الاعمال السمان وزوجاتهم البلهاوات ، وثرثرتهم عن « الفيلا » المخصصة للعطلات والتي اشتروها في فلوريدا او على هضبة الكارميل . وكانت بيفرلي جالسة في الطرف البعيد من الحجرة ،مع شاب سميـن من النوع العملي النموذجي ، كانت زوجته قد رحلت بعيدا لقضاء

عطلة نهاية الاسبوع ، وازعجني هذا اكثر من اي شيء اخر لانني شعرت انها لم تكن موجودة هنا الا لكي تسليني – حتى واو لم اكن راغبا في النوم معها . انما اردت ان يكون هذا «اختيارا» مني ، انا .

خرجت الى الشرفة القائمة الى جوار بحيرة السباحة الصناعية الساخنة والقيت ناظري عبر الاصوات المتصاعدة الى اراضي كونيكتيكان . كان الهواء دافئا ومعتدلا . وفجأة قررت ان عليّ ان ادلي برايي لفليشر . انني لا اريد ان افعل اي شيء في كتابه اللعين . بل انني حتى لا استطيع ان اتحمل مسؤولية كتابة المقدمة دون نوع من عدم الامانة ، لان دونللي بدا لي في صورة شريرة مملة . لا بد لي من مغادرة هذا المكان بعد الفداء مباشرة لكي الحق السيارة العامة بعد الظهر فاذهب الى نيوهافن ....

كنت على وشك الخروج لكي اقول لفليشر كل شيء حينما خرجت بيفرلي الى الشرفة حاملة لي صحنا من سمك السالمون المدخن وقدحا من البيرة . قالت :

« يبدو عليك الضجر » .

وقلت – بشيء من الغضب كما لو كنت الومها – : « انني ضجر حقا . انني اشعر بالغثيان من كل هذه المسألة اللعينة » . وقلت لها انني نويت ان اغادر المنزل بعد الفداء مباشرة . وادهشني اهتمامها . قالت :

« كلا . ليس لك ان تفعل هذا . انتظر حتى يذهب الاخرون » .

اثار انتباهها اليّ غروري ، فوعدتها بالانتظار . وبعد خمس دقائق ، جاء هوارد وسالني عن حالي وما اشعر به . فقلت انني بخير ، وانني افكر في الرحيل في اليوم نفسه ،وثار اهتمامه جدا هو الاخر ، وهرع الى داخل المنزل .

اكلت السالمون وبعض اللحم البارد ، وصعدت الى حجرتي . كنت جالسا على الفراش اقرا في مخطوطة دونيللي حينما دخلت بيفرلي . بدت غير واثقة تماما من نفسها . وقالت :« جئتك بشيء من فطيرة التوت البري » .

شكرتها ، فجلست الى جواري على السرير . قالت :

« يقول هوارد ان عليّ ان اقنعك بالا ترحل » .

«لماذا ؟ »

ترددت ، ثم قالت : « هذا يعني الكثير بالنسبة لي . اريدك ان تبقى » .

قلت ثانية : « لماذا ؟ » وقد ازدادت دهشتي .

غمغمت بكلمات غامضة عن انها لم يبق لها سوى عام واحد في الدراسة، قبل ان تتمكن من الحصول على وظيفة ذات راتب جيد ، واتضح لي بالتدريج ان فليشر كان يدفع لها مصروفات دراستها ، وانها بدورها ، كان يطلب منها ان «تسلي» ضيوفا مثلي . وافترضت ان كل شيء يتفق مع هذا الاستنتاج . كانت سارة سكرتيرة فليشر وعشيقته . وكانت بيفرلي تشترك في شقة مع سارة .. ثم ادركت ان فليشر قد غضب منها لانها لم تمض الليلة معي . قلت : « ولكن الم توضحي له انني كنت غارقا في نوم عميق ؟ »

قالت : « أجل ، اعرف ذلك . فقد جئت الى حجرتك في الليل » .

كنت آكل فطيرة التوت البري ــ رغم انني لم اكــن اريدها ــ انما اكلتها بدافع الحرج . كان الموقف واحدا من تلك المواقف المحرجة الغبية . لم يكن بمقدوري ان اقول : « حسنا ،اخلعي ملابسك ، وسوف نعوض ما فاتنا من الوقت » .

قلت : « ولكنني وضحت لهوارد ان زوجتي وابنتي ينتظرانني في نيوهافن » .

قالت في تعاسة : « اجل، اعرف هذا » .

قلت : « ولكن ما الفرق بين ان اكون قد قضيت الليلة معك ام لا ؟ »

ولكنني في الحقيقة كنت قادرا على تخمين الفارق . كان فليشر واحدا مـن اولئك الرجال الذيــن يصممون على ان يمضوا في طريقهم الى غايته . وكان قـد قرأ كتابي وقرر انني الشخص الذي كان بحاجة اليه لتقديم كتاب دونللي في صورة تبعث على الاحترام . فاذا كنت قد امضيت عطلة نهايــة الاسبوع في منزله ، مـع فتاة استوردهــا من اجلي ، فانني أكون تحت نوع من الالتزام نحوه بشكل ما .

قلت : « اسمعي . لا اظنني قادرا على قبول هذه المهمة . ان هذا الكتــاب مجرد مؤلف من الادب المكشوف . وهو حتى ليس ادبا مكشوفا كتب بطريقة جيدة. انه لا يقنعني . » . قرأت لهــا المشهد الذي يمضي فيه الى الفراش مــع شقيقته وهي في فترة الطمث، وتسمح له شقيقته بأن ينال عذريتها . ثم قلت : « فتـــاة ايرلندية في ثمانيات القرن الثامن عشر ما كانت لتسمح لاخيهــا حتــى بان يعرف انهــا في فترة الطمث » .

ومع هذا فقد وجدت ان قراءة هذا المشهد بصوت مرتفع قد انتجت احساسا قلقــا في اعلى الساقين جعل من السير امرا لا يبعث على الارتياح ، ولذلك فقد جلست على حافــة النافذة العريضة بشكل كاف . واعترضت هي على اســاس ان الاخلاق كانت اكثر مما ظننت حريــة في القرن الثامن عشر ، وانه من المحتمــل ان يكون دونللي ببساطة كاتبامهمــلا اغفل الخطوات الهامة في عمليــة الاغواء. قلت: « حسنا ، فمــا رأيك اذن في هذا المشهــد ؟ »

وتحولت الى المشهد الذي يصف فيه اغواءه لزميلة شقيقته في المدرسة . تحركت بيفرلي لتقترب من كتفي ، وتركت نهدها يضغط عليه . كــان المشهد يصف كيف كانت الفتاة تقف معه ،تشاهــد استعراضا يسير امامهما . ويحل هو ربــاط ثوبها العلوي ويمص حلمتها ، ثم يدس اصبعه في « الشق المرجاني المستطيل » . وينتهيان بأن يتضاجعــا وهي جالسة على ركبتيه ؟ وقلت انني اظن فــي هــذا المشهــد نوعا من الاستحالــة المنافية للعقل ، ولكنني كنت اشعــر بان صوتي قابضا متوترا . كان ارتباط المشهــد الداعر ، بنهدها الضاغط بقوة على كتفي قد دفعني الى حالة من التوتر ، كان من الممكــن ان تظهــر واضحــة للعيون لو انني لم اكــن قد وضعت المخطوطة في حجري . كانت ترتدي صدارة من الصوف ، الكث القرمزي، تكشف عــن كتفيها ، وكانت الصدارة تتناسب جدا مــع بشرتها الذهبية . وحينما انتهيت من القراءة ، بللت اصبعهــا الاوسط بلعابها ، ودارت بذراعها حول راسي، فوضعته برقــة في اذني . لا اعرف ايــن تعلمت هذه الحيلة ، ولكن تاثيرها كــان مروعا . فجــاة اصبح الموقف ملكها هي ، وكانت هي تعرف ذلك . وكان الحــرج

الذي ساد الموقف في البدايـة قد اختفى . مددت يدي وجذبت صدارها ليكشف عن كتفيها،ثم جذبت دائرتي حمالة صدرها الى اسفل ، وكانت الدائرتان صغيرتين، لا تزيدان عن « بقعة » ضئيلة من مادة ناعمة . كانت حلمتاها منتصبتين وشديدتي الاحمرار ، اخذتهمـا في فمي واحدة بعد الاخرى ، ورحت ادلكهمـا بلسـانـي . انزلقت لتجلس على ركبتي ، ودفعت المخطوطة لتقع على الارض .. جلسنا كذلك في هذا الوضع ، وقد ثقل تنفس كل منا . تساءلت بيني وبين نفسي ان كانت تريد ان تنتقل الى الفراش، ولكن اصابعهـا راحت تربت عليّ بنوع من المهارة جعلني ارغب في البقاء ساكنـا في مكاني ، لاتركها تمضي في عملها . كـان بوسعي ان ارى ما وراء كتفها ، ما خارج النافذة ، الخطوط الخارجية السوداء للاشجار على صفحـة البحر ، بينمـا فروعهـا فقط تتغطى ببراعم اوراق خضراء صغيرة . بدت الاوراق والاغصان صلبة صلابة رائعة ، كمـا لو كانت قد صنعت من معدن ما ، يتراوح بيـن الفضي والاسود . حينذاك بلغت ذروة نشوتي ، وتمايلت الاشجار ، وتصلب في داخلي شيء مـا صلابة لا حد لها ، حتى لقد كان كل ما نظرت اليه بمثل هـذه الصلابة ،صلبا وجميـلا جمالا خارقا ، جميـلا كما لا ينبغي لغير الصلب ان يكون. انحنت فوقي ، ودست لسانها في فمي ، وتركته في مكانه حتى تراخيت بالتدريج في يدها . اعطيتها منديلي ، فمسحت اصابعها . جذبتني من يدي ، فتحركنـا الى الفراش ، وببسـاطـة رقدنا عليه ، بكامل ملابسـنا . كنت على وشك ان اغرق فـي النعاس حينمـا سمعت صوت اضاءة مصباح ما ففتحت عيني . في المرآة ، رايت صورة الباب وهو يفتح . خطف فليشر نظرة الى الداخل ، ورآنا ، ثم انسحب ثانية على الفور . كانت بيفرلي نائمة ، وقد انفرجت شفتاها . وفجـأة شعرت بالاشفاق عليهـا ، وغمرني احسـاس دافق ،كان هو « الحب » بشكل اساسي . كان فليشر قد امرها بان تأتي اليّ لكي تمنحني نفسها . وقد بذلـت افضل مـا فـي وسعهـا . حاولت ان تمنحنـي المتعـة دون تفكير في متعتها هي ، ومنديلي يحمل النتيجة. قبلت شفتيهـا المنفرجتيـن ، وحينمـا جفلت قليلا ، قبلت جبهتها .

حينما هبطت الى الطابق السفلي ، قلت لفليشر انني اريد ان ارحـل علـى الفور ، ولكنني سأقبل التعاقد معه . قال :

« بالتأكيد يارجل . هذا هو رجلي » . ووكزني في كتفي بود .

نفس اليـوم ،فيمـا بعـد .

بدات الفقرة السابقة من هذه المذكرات في « جريت نيك » وانهيتها في محطة السيارات العامة في كينيدي . والان ، وانا مسافـر الى نيوهافـن ، اتـذكر ان بيرجسون (١) قد تعثر وتلعثم وهو يحاول الاجابة على احساس هليجا باللامعنى. ففي احدى مقالاته ، وصف كيف ان ساحرا من سحرة الاستعراضات المسرحيـة

---

(١) هنري بيرجسون (١٨٥٩ ــ ١٩٤١) فيلسوف فرنسي معاصر ، كان لـه تاثير فكري واسع فـي السنوات التي سبقت الحرب العالميـة الاولـى مباشرة وفاز بجائزة نوبل للادب عام ١٩٢٧ .قام مذهبه ــ الذي اتجه الى النزعة الصوفية المعادية للعقل ــ على الاعتماد على الحدس المبـاشر وسيلة للحصول على المعرفة بدلا من وسائل العلم القائمة على التجربةوالملاحظةوالاستدلال.=

(هاودين ، كما اظن (٢) قد درب ولده الذي كان يبلغ الخامسة من عمره ، على الملاحظةالفورية الخاطفة . لقد جعل هاودين يطلع ولده على قطع لعبة «الدومينو » Domino ولكنه لم يسمح له بان يحصي عدد ما رسم عليها من نقاط بيضاء . ثم يسأله بعد هذا ان يتذكر كم كان عدد النقاط ، اي انه كان عليه ان يحصي النقاط « في خياله» . ثم كان يطلعه على مجموعتين من قطع الدومينو ، ويأمره بالا يحصي النقاط ، ومرة اخرى،كان عليه ان « يتخيل » تلك النقاط بعد ان تبعد عنه القطع ويطلب منه ان يتذكر عدد ما كان عليها من نقط بيضاء . كان الصبي ـ بهذا الشكل ـ قد درب على ان يلتقط صورا فوتوغرافية منظرية (مرئية) بذاكرته . وفيما بعد ، كان يؤخذ لكي يقف لمدة ثانية واحدة امام واجهة لمحل من محلات بيع دمى الاطفال ، ثم يطلب منه ان يكتب اسماء اربعين او خمسين من تلك الدمى ، من الذاكرة . كان هاودين يدرب الصبي على التظاهر بانه يملك حاسة سادسة . وكان على الصبي ان يصعد الى المسرح ، فيختطف لمحة سريعة الى المتفرجين لمدة دقيقة واحدة او نحوها بينما يقدمه والده الى الجمهور . وفي تلك المدة القصيرة ، يكون الصبي مشغولا ب « تصوير » كل الاشياء المرئية التي يستطيع ان يراها ـ سلاسل الساعات وما اليها . ثم تغطي عيناه بغطاء محكم ، وباشارة ما من والده ، يكون قادرا على ان يتبين الشيء ـ او يتعرف عليه ـ بشكل عام . كان يمكنه ـبالطبعـ ان يسمع صوت الرجل الذي ناول الشيء الى ابيه ، فيكون قادرا على تقدير موضع جلوسه في صالة المسرح .

ويشير بيرجسون الى ان جوهر هذه الطريقة هو « عدم » السماح للصبي بأن يحصي النقاط البيضاء . وبدلا من ان « يفسر » ما رآه ، مثلما نفعل نحن جميعا في اثناء استيعابنا اليومي لما يحيط بنا ، لم يكن يطلب منه سوى ان يسمح للمستوى الاعلى من عقله بأن يصور هذا الذي رآه في لمحة خاطفة . واصبح المستوى الاعلى من عقله منفصلا ومستقلا عن حواسه ، وحدسه ، واحكامه .. الخ ، واصبح قادرا على ان يتحرك بسرعة اكبربكثير ، كان اشبه ب « الضوء المتحرك » .

ان الصغار من الناس ـ والمهرة منهم بالتحديد ـ سرعان ما يتعلمون هذه

= اعتبر ايضا ان الحركة والتغير مصدر هام من مصادر خلق الحقيقة (ورجع في ذلك الى هيراقليطس) ونظر الى الزمن باعتباره انسيابا فياضا مستمرا (ومن هنا جاء تاثيره الرئيسي على كل الادب الغربي بين الحربين : جويس وبروست واليوت وييتس وهمنجواي وسان جون بيرس) وخاصة حينما ربط الزمن وفيضانه المنساب بالاستمرار حيث يمتزج الماضي بالحاضر وحيث لا يمكن فصلهما عن الوعي والذاكرة . وكان اهم اعماله هو كتاب « التطور الخلاق »الذي صدر عام ١٩٠٧ . ومن اعماله الهامة الاخرى « المادة والذاكرة » عام ١٨٩٦ ثم « الضحك » عام ١٩٠٠ . (هـ . م) .

(٢) جين ايوجين روبرت هاودين ١٨٠٥ ـ ١٨٧١ . ساحر وصانع ساعات فرنسي اشتهر بالعابه السحرية القائمة على علوم الحساب الشعبية القديمة وبولعه بكشف الاعيب المشعوذين والاعيبه هو الخاصة . كتب عدة كتب في السحر وكتب ترجمة ذاتية لنفسه . (هـ . م).

الحيلة ـ وخاصة اذا كانوا يتعرضون لنوع من الامتحانات . انهم يتعلمون كيف يفصلون بين مستويات العقل . ولكن لاحظ ما يعني هذا . انك تعلم نفسك ان تصور « الحقائق » **دون معناها** . فانني لو سئلت ان اتذكر محتويات واجهة لاحد محلات بيع لعب الاطفال لقلت : « هناك آلة اطفاء في الوسط ، ودمية عروس في ذلك الركن ، ودب اسمر في الركن الاخر . . » ثم لا اكون قادرا على تذكر اكثر من شيئين او ثلاثة اشياء في عدة ثوان .

ومن السهل ان تصبح هذه عادة : ادراك الاشياء دون معناها . ويصبح من الصعب ان تعيد ربط مستويات عقلك العليا بفرائزك وحواسك . ان الجواد سيرفض ان يعاد لكي يربط الى العربة مرة اخرى مثلما كان في البداية . انك تمضي فلا تفعل اكثر من ان « ترى » الاشياء دون ان ترى معانيها . ثم تقول :« ان العالم لا معنى له » .

* * *

الاثنين ١٤ ابريل . شارلستون . س . س .

ان يوما من ايام الاحد قضيته مع ديانا وموبسي جعلني ، اشعر بانني اكثر عقلا . قضيت يوم امس في مداعبة فكرة تمزيق الشذرات التي كتبها دونللي وكتابة كتاب كامل ـ لفليشر ـ عن مذكرات دونللي . ولكن حدث هذا الصباح، وقبل ان اغادر نيوهافن مباشرة ان اتصل بي فليشر تليفونيا . كان قد تذكر لتوه انني كنت ذاهبا الى « باتون روج » واراد ان يقول لي ، ان واحدا من سلالة دونللي ـ الكولونيل مدنرو دونيللي ـ يعيش الان في مكان يدعى « دينهام سبرينجز » . وسوف اكون هناك لمدة ستة وثلاثين ساعة ، على ان احاول الاتصال به .

ظللت افكر في بيفرلي، لم اكن افكر فيها فقط ، وانما فيما حدث للاشجار حينما حدقت فيها . رحت احاول ان اعبر عن ذلك بالكلمات . كان ذلك شديد الشبه بما يحدث حينما تشعر بالتعاسة ،فيبدو كل ما تنظر اليه ممتزجا بتعاستك ـ يصبح نوعا من « الرمز » لتعاستك ، مثل السماء الرمادية او تساقط اوراق الخريف ـ كذلك هو الامر في اللحظة التي تلوي فيها النشوة كل جزء من اجزاء الجسد ، اذيصبح كل شيء رمزا للاحساس بالقوة . وهذا ما يفسر السبب الذي جعلني ارفض دونللي ، ان لحظات نشوته الفاترة الخالية من اي طعم، لا تؤدي الى اي مكان . انه لم يحاول ابدا ان يقتفي آثارها بحثا عن منبعها في ذاته .

(يوميات الاسبوع التالي تم حذفها)

الاثنين ٢١ ابريل .

كان ما حدث في الساعات الاربع والعشرين السابقة مدهشا الى درجة انني يجب ان اصفه بالتفصيل .

في صباح يوم السبت ، ومرة اخرى في مساء اليوم نفسه ، القيت محاضرة في جامعة ولاية لويزيانا ـ وكانت محاضرة جيدة رغم هذه العباءة من التعب التي تغمرني دون ان استطيع خلعها او التخلص منها . (ولكنني لا استمتع كثيرا بالقاء

المحاضرات . انني اصر على تذكر ذلك التعليق الذي قاله ماركيز هاليفاكس : « ان الفرور الذي تبعته عملية تعليم الاخرين في النفس ، ليفري الرجل دائما بان ينسى انه صاحب عقل مغلق » .) وفي ساعة باكرة من صباح يوم الاحد ،تناولت افطاري في غرفة الفندق الصغيرة واستأجرت سيارة لتقلني الى منطقة « دينهام سبرينجز » ، التي تبعد مسافة عشرة اميال (وكان فليشر قد عرض عليّ ان يدفع هو كل مثل تلك التكاليف) . ولهذا الفرض فقد استأجرت السيارة عامدا ان تكون من سيارات « دينهام سبرينجز » نفسها . وكان سائق السيارة زنجيا متوسط العمر . سألته ان كان يعرف اين يسكن الكولونيل دونللي . قال : « اوه ، نعم » . وكان يعرف الكولونيل بالفعل ، وقال ان الكولونيل يسكن على بعد ميل واحد خارج المدينة . وسألني ان كنت صديقا للكولونيل ، فقلت له انني لم اقابله من قبل ابدا ، ولكنني آمل ان اجده في بيته . فقال :

« طيب ، اسمع ، انه في هذه الحالة قد يقابلك وقد لا يسمح لك بمقابلته. فانك لا تستطيع ابدا ان تتنبأ بما سوف يفعله الكولونيل » .

واثبت الرجل لي انه ثرثار بدرجة لا تقل عن ثرثرة اكثر سائقي سيارات الاجرة في اميركا ، وفي خلال عشرين دقيقة كان قد اخبرني بالكثير عن دونللي. ولم يكن فيما نقله اليّ من المعلومات ما يمكن ان يروعه لي كثيرا ، كان قد جاء الى ولاية لويزيانا قادما من ولاية مكسيكو بعد الحرب بفترة قصيرة ، فاشترى مساحة من الارض خارج البلدة . وقد حصل على الارض بثمن بخس لانها كانت سبخة مليئة بالثعابين . فاستاجر بعض المعدات الثقيلة ، حتى جفف الارض ونظفها ، ثم بدأ في الزراعة ، فاستنبت الارز ، وقصب السكر وغرس اشجار البرتقال . كان يدفعاجورا طيبة ، ولكن عرف كرجل يقسو على نفسه وعلى عماله . كانت الايدي العاملة ــ ومعظمها من الزنوج ــ تعيش في ابنية خشبية كثكنات الجنود القديمة . وكان دونللي طاغية كاملا ، رغم ما عرف عنه من تهوس بالعدالة والحق . كان يقضيفي المنازعات بنفسه ، بل كان احيانا يأمر بجلد بعض العمال ، بل كان يقوم بعملية الجلد بنفسه . وكان بوسع من يريد الرحيل ان يرحله وكان يسكن بمفرده ، ولم يعرف عنه ابدا انه نام مع امرأة . وكان خادمه الوحيد رجلا مكسيكيا صموتا هائل الجثة جاء به . وكانت هناك شائعات تقول بأنه يضرب الرجل ــ فقد كانت اصوات الضربات واللعنات تسمع احيانا من داخل مبنى المزرعة ــ ولكن الخادم لم يشك الامر الى مخلوق على الاطلاق . ثم مات بمرض التايفود بعد عدة سنوات .

وفي عام ١٩٦٢ ، اكتشفت شركة « ستاندارد اويل » ،التي كان لها مركز كبير في « باتون روج » ، اكتشفت البترول في ارضه ، فعرضت عليه ثمنا كبيرا لها . ولكن دونللي وافق على ان يؤجر لهم قسما من الارض . ورغم انه احتفظ بقسم كبير منها يصلحللزراعة ، فانه اقلع عنها ، وصرف عماله ، وعاش حياة ناسك وحيد. وكان يعيش بمفرده منذ ذلك الحين ، يزداد نحولا وحساسية . وكان يختفي عدة مرات في كل عام ــ وكان من المعتقد ان يذهب الى نيواورليانز . وزعم احد

سكـان « دينهام سبرينجز » انه رآه هناك في بيت للدعارة ، ولكن لـم يصدق ذلك الا القليلـون .

كنا قد اصبحنا على بعد اميال قليلة من « دينهام سبرينجز » ونصحني السائق بأن ارفع زجاج نافذتي . وفسر لي الامر باننا كنا على وشك ان نمر بمعمل لتفريخ الدواجن وذبحها كـان قد احترق منذ فترة قصيرة ، وان اجساد الطيور الميتة لم تكـن قد دفنت بعد او نقلت من المكان . وعبر بالمكـان عن يميننا ـ ولم يكن «المعمل» اكثر من سقيفـة خشبيـة كبيرة ، بقدر مـا كنت قادرا على الحكم من خلال مـا رأيته من بقايا تعلوهـا آثار الحريق . ورغم اغلاق النوافذ ، فان الرائحـة المفثية تسللت الينا . واخبرني السائق بانهم يواجهـون الكثير من الحرائق في المنطقة . فان مساكـن العمال في مزرعـة دونللي قد احرقت ، كما احترقت حظيرة ملأى بحزم القش المضفوط .

لم يدهشني هذا . فان الشيء الوحيد الذي يدهشني في القسم الجنوبي من اميركـا الشمالية ، هـو ان المنطقة نفسها لا تلتهب مشتعلة بالنار فـي منتصف الصيف . ورغم ان الوقت لم يكـن قد تجاوز الحادية عشرة صباحا ، فان الهـواء كـان ساخنـا مثل الفرن .

سارت بنا السيارة عبر شوارع البلدة الصغيرة الناعسة ، حيث بدا كل شيء خاليـا تمامـا ومكتمل الهدوء في صباح يوم الاحد ، ثم دارت السيارة الى اليميـن هابطـة « مدقا » ضيقا معشبا كان يتعرج اسفل المدينة . وبعد نصف ساعة مـن القيـادة المحاذرة البطيئة ـ بهدف تجنب قفزات السيارة ـ وصلنا الى ابنية مزرعة خشبيـة تقاوم القدم ، وقد بدت كالمهجورة . دفعت للسائق اجره وخرجت مـن السيارة . فقـال :

« افضل ان انتظرك لارى ان كان سيسـمح لك بالدخول ام لا . فانه قـد يقرر الا يستقبلـك . »

وهكذا عبرت الفناء المترب ، مارا بمعدات المزرعة التي علاها الصدأ ، متجها نحـو المبنى الرئيسي . وزمجر في وجهي كلب ضخم اصفر اللون ، ولكنه لم يبذل ايـة محاولة للنهوض من رقدته .

فتح الباب قبل ان اصل اليه ، ووقف دونللي على عتبته . عرفت ان هـذا الرجل لا بد ان يكـون هو دونللي ـ فقد بدا اوروبيا الى درجـة اكثر من ان يكون اي شخص اخـر . انه رجل من النوع الذي اعتاد ان يرى الاعلانات القديمة فـي الصحف عـن شاي « بلانتر » وقهوة « كامب » : نحيل القامة ، لوحت الشمس جلده ، يحمل وجها تظهـر من خلال بشرته كل عضلة من عضلاته . راقبني وانـا اقترب دون ان يتكلم ، ثم قال :

ـ « االنت مستر سورم ؟ »

وكان هذا باعثا على الراحة . فقد كنت اتوقع ان يقول : « من انت بحـق الجحيم ؟ » أجبته بانني انا سورم . اوما ايماءة مختصرة للغاية ، ثم فتح الباب على سعتـه لكي يسمح لي بالدخول .

كانت الحجرة عارية ونظيفة ومرتبة ، مثل قمرة ضابط في سفينة . ولم يكن دوناللي قد ابتسم او حاول مصافحتي . ولكنني التفت حينما دخل خلفي من الباب ـ وكان قد وقف قليلا يراقب السيارة وهي تبتعد ـ فخيل اليّ انه كان يرمقني وقد بان على وجهه تعبير غريب . وراح يتاملني ، مثل قطة تراقب قنفذا بريا. قال :

« ايمكنني ان اقدم لك الشاي ؟ »

وقلت نعم بحماس ، خرج ، وغادرني بمفردي . كان من الواضح انه يعيش في تلك الحجرة الوحيدة . كان هناك سرير من اسرة المعسكرات ، ومقعد ذو مسندين غير مريح ومقعد اخر عادي مصنوع من الخشب ، ومائدة صغيرة يمكن طيها . وكانت ارضية الحجرة عارية ونظيفة ، وهناك خزانة خضراء قديمة في ركن الحجرة ، وست صور طباعية على الجدار ، تمثل عددا من الملاكمين يتبادلون الضربات بالقبضات العارية ، وتمثل ايضا جيادا جميلة . ولم تكن هناك كتب .

عاد دوناللي يحمل الشاي ، وصحنا ملأه بشطائر صغيرة مقددة دهنت بالزبدة ، راودني احساس بانه يريد ان يتحرر قليلا من تخشبه ، وان يقول شيئا ما بطريقة ودية ، ولكنه كان قد نسي كيفية القيام بمثل تلك التصرفات . وبينما كان يصب الشاي سالني ان كنت قد قمت برحلة طيبة حتى منزله. فأجبته: نعم . قاومت الاغراء بالكلام لكي املأ فراغ الصمت ، وبينما رحت ارتشف الشاي ـ الذي كان قد صنع بطريقة جيدة ـ تذكرت عبارة هايني في تعريف الصمت باعتباره الحوار بين الانجليز ، فوجدت انه من الصعب الا ابتسم . واخيرا ، توقفت عن مقاومة الاغراء بالابتسام . نظر اليّ دوناللي في تلك اللحظة ، فحولت ابتسامتي الى تعبير ودي ، وقلت : « حسنا ، انه لمن الممتع حقا ان يعثر المرء على سيد انجليزي في هذه البقعة القاحلة » .

قال بصرامة : « انني ايرلندي » .

« انهما شيء واحد على هذا البعد » . هكذا قلت وانا اتساءل ان لم يكن قد قذفني بشيء ما . ولكنه ابتسم ابتسامة باردة كالثلج وقال :

« اجل ، اظن هذا » .

ولسبب غريب ما ، تحطم الثلج ، قال :

« وهكذا فانت تقيم في موي كوللان ؟ اين بالضبط ؟» .

فوصفت له الكوخ الذي استأجرناه ، والمنزل الذي انتقلنا اليه . فسالني ان كنت اعرف شيئا عن جريمة قتل « دومينيك » ، الفتاة التي كانت جثتها قد وجدت عند قاع مرتفع موهير الصخري منذ عامين . وكنت أعرف كل ما يتعلق بهذه القضية ، فوصفتها له بالتفصيل . كانت فتاة اميركية قتلها عاشقها لكي يحصل على ما كانت تحمله من تحويلات مالية تصرف للمسافرين . وكنت اعرف صياد الاسماك الذي عثر على الجثة ، وعضو الحرس المحلي الذي استدعي لكي يلقي عليها نظرة لعله يتعرف عليها . ومن الواضح انه لم يمكن التعرف على وجهها ، ولكن القاتل كان قد ارتكب خطأه الوحيد بتركه قطعة ثياب واحدة على الجثة ـ

وكانت هذه القطعة سروالا من النايلون الاسود . وكان السروال يحمل علامة واسم الصانع الاميركي ، وبالتالي قاد هذا الى معرفة هويتها . وكنت ايضا قد تبادلت الحديث مع مفتش الشرطة السرية في دبلين الذي كان قد حمل مسؤولية تحقيق القضية، فأخبرني ببعض التفاصيل عن الاساليب التي لجأ اليها في التحقيق. وسحرت كل هذه المعلومات المباشرة دونللي ، فبدات آمل في ان يتعرف بطريقة ودية فيما يتعلق بموضوع اسلافه .

وعندما انتصف النهار كانت حرارة الجو قد اصبحت قاتلة لا تقاوم ، فخلع دونللي صداره الصوفي وجلس امام المائدة لا يرتدي غير القميص ـ الذي كان مفتوحا حتى وسطه ـ والبنطلون . وخلعت انا اخر سترتي . واقترح هو اننا ربما كان علينا ان نتناول مشروبا ، فوافقت . وجاء دونللي بزجاجة من الروم الاسود . وكنت اعرف انني لن القي اي محاضرات حتى يوم الثلاثاء ، ولذلك فقد وافقت دون شعور بالحرج . وجاء دونللي بالمزيد من شطائره المقددة المدهونة بالزبد، وفتح بعض علب السردين المحفوظ . وبعد ان تبادلنا كلمة « صحتك » . اندفع الى موضوع ايزموند دونللي . قال :

« اظن ان هذا الولد الناشر قد اخبرك بانني قلت له ان يذهب الى الجحيم ؟»

« كلا . لم يخبرني » .

كان هذا هو تصرف فليشر النموذجي ـ ان يقترح عليّ الذهاب الى دونللي دون أن يوضح لي انه قد تلقى استقبالا عدائيا . وربما كان هذا تصرفا حسنا من جانبه ، فانني ما كنت سآتي اليه لو انه اخبرني بذلك .

سألني :« هل رأيت تلك المخطوطة ؟ » .

« اجل . وقد جئت بها معي » . اخرجتها من الجيب الداخلي لسترتي ، فتناولها بلهفة . وبعد ان قرأ نصف صفحة ، القى بها على المائدة مع اشارة تدل على الاشمئزاز .

« تماما كما كنت اظن . تزوير . مجرد تزوير غبي لعين » .

دهشت كالمصعوق ، سألته : « اانت متأكد ؟ » .

« انا متأكد طبعا. الم تقرأ يوميات ايزموند ؟ »

« اخشى ان اصارحك بانني لم اقرأها . بل انني لم اكن اعرف بوجودها قبل الان . هل نشرت ؟»

« انها منشورة بالطبع . نشرت في دبلين عام ١٨١٧ » .

خرج من الحجرة. وبعد دقائق قليلة عاد وقذف على السرير مجلدا صغيرا ذا غلاف من الجلد . وكان العنوان :« يوميات ايزموند دونللي .السيد » وكان الناشر هو « دار تيلفورد » في دبلين . وكان الاهداء الرسمي موجها الى اللورد تشسترفيلد ـ وهذا نصه :

« سيدي اللورد ، لقد كان لديّ دائما من الاسباب ما يدعوني الى ان اتذكر قولك بأن اسوأ الرجال تربية في اوروبا ، اذا سقطت مروحة احدى السيدات، لجدير بالتأكيد بان ينحني فيتناول المروحة ليعيدها الى صاحبتها ، وان افضل

الرجال تربية في اوروبا لا يستطيع ان يفعل اكثر من هذا . وقد كانت هذه الفكرة الثاقبة ، حول تشابه المواهب بين العظيم والوضيع في اطار مجالات محددة للنشاط ، هي ما دفعني الى ان اقدم الى سيادتك هذا المجلد الخالي من الادعاء . . » .

ولم تكن هناك حاجة الى المضي في القراءة بعد هذا . فان الرجل الذي كان باستطاعته ان يكتب هذا النثر الانيق الجيد الصياغة لا يمكن ان يكون هو ذلك الصبي الابله الذي كتب يقول : « وفي خلال ثوان قليلة كانت خنفسائي الكبيرة المحظوظة ، قد اندست داخل محرابها العذري ، وسائلي المنوي يجعل خصيتي تنتفخان كالبالونة » . وهذه العبارات الاخيرة التي اقتطفتها هنا تشير بوضوح الى جوهر اسلوب المخطوطة التي قدمها لي فليشر . وانني لعاجز عن المجادلة دفاعا عن فكرة ان رجلا واحدا هو الذي استطاع ان يكتب الاهداء الرسمي الى اللورد تشسترفيلد والجملة الاخيرة . ولكن حدسا طارئا تصاعد الى مستوى اليقين جعلني اشعر بأن الامر لا يصح ان يكون على هذا النحو . قلت :

« استطيع ان ارى ما تعنيه . انك لا تظن انه من الممكن ان يختلف اسلوب مذكرات خاصة اختلافا شديدا – بالضرورة – عن يوميات يكتبها المرء اثناء السفر؟»

« انه اسلوب يختلف ايضا عن اسلوب يومياته غير المنشورة » .

« هل رايت انت تلك اليوميات اذن ؟ » كذلك سألته وانا احاول الا تظهر في صوتي رنة اللهفة الشديدة .

« اوه ، اجل » قالها بطريقة عابرة ، وصب لنفسه مزيدا من الروم ، ازدرت ستا من اسماك السردين ، وكعكة جافة مدهونة بالزبد قبل ان اشرب المزيد ، وفكرت في انني استطيع ان امضي ما بعد الظهر والمساء نائما في غرفتي بالفندق الصغير .

وحينئذ اخبرت دونللي بلقائي مع فليشر ، ووضحت له انني لم اكن قد سمعت باسم جده ابدا قبل تلك المقابلة . ووافقني هو على ان ذلك لم يكن بالامر المفاجيء بالنسبة له ، فان يوميات دونللي لا تزيد في قيمتها عن العشرات من امثالها في ذلك العصر الذي كتبت فيه : يوميات اشخاص مثل توماس تيرنر ، وماري كاوبر ، وايرل ايجمونت ، وهي ببساطة لا يمكن ان توضع في نفس المكانة التي توضع فيها يوميات فاني بيرني . كان ايزموند دونللي معروفا لطلبة الادب الايرلندي ، ولكن ذكره لم يرد حتى في مجلد : « تاريخ كامبريدج للادب الانجليزي » .

وبدافع من رغبتي في الكشف عن دوافع فليشر اشرت الى انه من النادر ان يكون هناك دخان بغير نار ، وانه اذا كانت هناك شائعة تقول بأن دونللي كان يداوم على كتابة « يوميات جنسية » ، فمن المحتمل جدا ان يكون ثمة اساس لهذه الشائعة . حدق في وجهي بعينيه الباردتين ، وليس على وجهه اي تعبير ، واخيرا قال :

« افترض ان لهذه الشائعة بعض الاساس ، فهل تفترض ان احفاده يتلهفون على رؤية مثل تلك الاشياء مطبوعة منشورة على الناس ؟ انك تعرف ايرلندا » .

ادركت ما يرمي اليه . فالايرلنديون ليسوا بالتحديد متساهلين فيما يتعلق بأمور الاخلاق . من المؤكد انهم يتمتعون بشيء من المرونة . ولكن اهل جنوبي ايرلندا من الكاثوليك. وهناك الكثير من حوادث منع الكتب ، والفهرس ما يزال شيئا لا بد من التفكير فيه .وكان بوسعي ان ادرك ان عائلة دونللي القاطنة في بلدة « باللي كاهين » قد تجد نفسها فجأة ذات سمعة سيئة محرجة ، حتى ولو كانت مربحة .

وحينما اقتربت الساعة من الواحدة ، كنت مخمورا بشكل واضح ، وقلت انه أصبح عليّ ان ارحل .ولشد دهشتي اعترض على ذلك وقال :

لا . لا . يمكنك ان تتناول طعامك هنا . سأطهو بعض البيض ولحم الخنزير . فاذا لم يعجبك هذا ،لديّ بعض القمح الطازج الاخضر ». وذهب الى المطبخ،ورحت أنا اقرأ بعض الصفحات من وصف دونللي لمدينة البندقية . كانت الحرارة تجعلني اشعر بالدوار والنعاس . وفي الحقيقة ، كنت نائما تقريبا حينما ايقظني دونللي بينما كان قد اتى باناء طهو هائل الحجم مليء بسنابل القمح الخضراء . وصب أثنتي عشرة سنبلة من هذه السنابل في صحن كبير من الصيني ، ووضع قطعة ضخمة من الزبد فوقها ، وقال لي ان آكل . ولم أكن قد اكلت مثل هذه الكمية من القمح الاخضر في حياتي كلها ، ولكنه كان ممتازا . ولشدة دهشتي ، اغرق دونللي طعامه من القمح في الروم . وادهشتني كمية الطعام والخمر التي كان بوسعه ان يصمد لها . كنا قد افرغنا ــ نحن الاثنين ــ الجانب الاكبر من زجاجة الروم ، ولم اكن انا قد شربت سوى كوبين . ولكن لم يكن بوسعي ان ارى علامة تدل على سكره. ظلت كلماته بطيئة ودقيقة وواضحة . وحافظ الصوت على نغمته اللاذعة ذات النبرة الساخرة الخفيفة . كان التغير الوحيد الذي انتابه هو ما طرا على الموضوع الرئيسي لحديثه . فقد بدأ يتحدث عن الجنس . رفع سنبلة من سنابل القمح ــ كان قد انتزع حبات القمح منها ــ وقال انه قد سمع بكتاب يقال فيه ان فتاة قد افتضت بكارتها بسنبلة قمح . واخبرته بان هذا الكتاب كان رواية لفوكنر (١) وقال دونللي ان فوكنر لم يبتكر هذه الحكاية : فان عود سنبلة القمح وسيلة معروفة جيدا لاختبار ما اذا كان مهبل الفتاة قابلا لتلقي النفاذ فيه بطريقة اكثر طبيعية ام لا .ثم مضى يخبرني بقصة عن احد عمال مزرعته

(١) وليام هاريسون فوكنر ١٨٩٧ ــ ١٩٦٠ من اكبر كتاب الرواية الاميركيين في هذا القرن، وعرف باهتمامه في رواياته بدراسة ظواهر انحلال المجتمع الزراعي والتكوينات الاسريةالتقليدية في الجنوب الاميركي . كان من الادباء الذين تاثروا بعمق بافكار بيرجسون عن الزمن وعلاقة الوعي والذاكرة بالحياة الانسانية واستخدم اساليب تيار الوعي والمونولوج الداخلي ، وكان من مصادر اثراء اللغة الانجلو اميركية ادبيا وقاموسيا واسلوبيا في نصف القرن الاخير. الرواية التي يشير اليها المؤلف هنا هي رواية « ابشالوم ، ابشالوم » التي صدرت عام ١٩٣٦ . ولكن اعظم اعماله كانت رواية « الصوت والغضب » عام ١٩٢٩ ، ثم رواية « وانا راقدة احتضر » عام ١٩٣٠ ثم رواية « الملجا » عام ١٩٣١ . (هـ . م) .

الزنوج كان قد وجد ابنته تمارس العادة السرية باستخدام عود من عيدان سنابل القمح . ووصف لي كيف قيد الرجل ذراعي ابنته الى خطاف مثبت في الجدار ثم جلدها بحزام جلدي (...)

وقد راح يقص هذه الحكاية ببرود وبطريقة تأملية بينما كان يأكل سنبلة قمح ممتلئة . ولكنه لم ينظر اليّ وهو يتكلم . واستمر يروي لي حكايات اخرى ـ وكلها تتضمن عمليات جلد بالسياط . وفتح زجاجة اخرى من الروم وهو يتحدث . ودلني المنطق على انهذه السلسلة المتتالية من الحكايات عن عمليات الجلد والفسق بالمحارم لا يمكن حقا ان تنبع من رغبة محايدة في اعطائي صورة عن الحياة في اعماق الجنوب الاميركي . ولكن لا شك في ان اسلوبه وهو يتكلم لم ينم عن اية نوايا صادية . وتذكرت فجأة حكاية انه قد عاش وحيدا لمدة طويلة . كان جائعا الىالجنس معزولا في وحدته عن البشر ، ولا شك انه استمتع بالحصول على مواطن له يبادله الحديث . ولم يكن في هذا اي شيء غير طبيعي .

ولكنني بدات اتمنى لو انني كنت قد اخرت موعد زيارتي الى وقت متأخر من هذا اليوم . فقد بدات اشعر بانه ينوي ان يحتفظ بي هنا طوال فترة ما بعد الظهر والمساء . كان بوسعي ان ارحل ، بالطبع . ولكن دونللي كان هو المصدر الوحيد للمعلومات عن جده بالنسبة لي ، وكنت سأحصل على خمسة الافدولار اذا كتبت عن هذا الرجل . كان بوسع الاحساس بالذنب وحده ان يبقيني جالسا في هذا المكان ، طالما كنت القى الترحيب .

وحينما انقضت فترة العصر واقبل المساء ، بدات اتثاءب مرة كل دقيقة . لكن يبدو ان دونللي لم يلاحظ ذلك. كان قد اتى بمقعد لا ظهر له ولا مساند ، وجلس عليه ،ورفعساقيه على المقعد الخشبي . واصر على ان اجلس انا على المقعد غير المريح ذي المسندين ، ورفع ساقي على السرير . كنا في تلك اللحظة نشرب البيرة ـ من نوع البادوايزر المعباة في علب من الصفيح . وكان يدخن سيجارا من نوع الشيروت . وحاولت من حين الى حين ، ان اعيد الحديث الى موضوع دونللي ، ولكنه كان يتجنبه . واخيرا في حوالي الساعة الرابعة ، سألني ان كنت بحاجة الى بعض المشي . فوافقت ـ على سبيل القيام باي شيء لكسر هذا الدوار الشبيه بالتنويم المغناطيسي . كنت قد بدات اشعر بالانزعاج في صحبته . وكان بوسعه ان يرى ان النعاس بدأ يسيطر عليّ ، وربما كان من واجبه ان يقترح عليّ ان انام لمدة نصف ساعة على الاقل ، او ان يتركني لكي اقرأ مذكرات ايزموند دونللي ، ولكنه كان يريد ان يتكلم ، ومن الواضح انه لم يكن يهتم بما اذا كنت اريد ان انام ام لا .

رغم حرارة الجو ، ارتدى دونللي قميصا نظيفا ووضع رباط عنق ، وارتدى سترة رياضية . اما انا فحملت سترتي على كتفي . واصبح هو في هيئة من يتخذ طريقه الى ناديه الخاص في لندن ليحتسي كأسا في فترة ما بعد الظهر ، اما انا فشعرت بانحلال الارادة ، وانا عاجز عن اتخاذ قرار ما ، غارقا في عرقي . ولما

كنت قد اصبحت واعيا لانه يتحدث بدافع داخلي قاهر ، فانني لم اعد التفت الى ما يقول الا نادرا ، وان كنت مضيت في سيري الى جانبه على ارض الحقول المهجورة التي تصلبت تربتها . وتبعنا الكلب الاصفر الضخم ، وكان ساقاه من الطول بحيث بدا لي كما لو كان صورة سينمائية تعرض بالحركة البطيئة . وسار دونللي بخطوات واسعة ، مشيرا بعصاه الى اشياء مختلفة تثير الاهتمام : « هذه الشجرة تعرف باسم شجرة الاعدام الفوري . لقد شنقت عصابة « الكلان » ثلاثة من الزنوج هنا منذ سنوات قلائل » .

« ماذا كانوا يفعلون ؟ »

« كانوا يشعلون النار في مخازن القش . »

كانت بعض المناطق المعشبة التي سرنا فوقها جميلة ، ولكنني دهشت بسبب كمية الصفائح الصغيرة الصدئة وزجاجات الكوكاكولا الفارغة التي كانت ملقاة في كل مكان . اتكأنا على سور قائم لنرقب حفارات البترول ، وفجأة لاحظت ان دونللي كان يحمل مسدسا في حزام معلق بكتفه تحت سترته . سألته :

« لماذا تحمل هذا السلاح ؟ »

« بسبب الافاعي . »

ومن الواضح انه شعر بأن ضجة الحفارات كانت تغطي على الحديث ، لانه سارع باجتذابي بعيدا . ولاحظت انه ظل ينظر الى ساعته من حين الى حين . سألته :

« اانت ذاهب الى مكان بعينه ؟ »

توقف طوفان الكلام للحظة ثم قال : « كلا » ، وبدا انه كان صادقا . بدات اشعر بالعطش ، وكان توتره ينتقل اليّ بالتدريج . قلت :

« الى اين نحن ذاهبان ؟ »

« أوه ، ظننت انه من المستحسن ان نسير مسافة ميل آخر او نحو ذلك ، ثم نعود الى البيت »

وكانت كلمة « نسير » غير مناسبة على الاطلاق للتعبير عن سرعة مشيته حتى انني ابتسمت . وقلت : « ينبغي ان افكر الان في العودة . » ولكنه تجاهل ملاحظتي ، وان كان قد عاد فنظر مرة اخرى الى ساعته . كان الكلب الاصفر الضخم ينبح ويزمجر امام دغلة كثيفة من الحشائش في احدى الحفر الكبيرة . نظرت في الحفرة ، فرأيت افعى كبيرة سوداء تتلوى حول نفسها وتفح ، وحينما رأتني ، انتصبت برأسها واقفة . وتوقعت من دونللي ان يطلق عليها النار . ولكنه اكتفى بأن قال : « هيا بنا » .

تسلقنا سورا واطئا فتخطيناه الى طريق ضيق قذر . كانت هناك ابنية لمزرعة على بعد عدة مئات قليلة من الياردات ، ورأيت صندوقا للبريد اشار الى اننا الان نسير فوق ارض شخص آخر .

فجأة قال دونللي :

« أهلا ، يبدو ان هناك حريقا » .
« ايـن ؟ »
اشار الى حقل مجاور لمبنى المزرعة ، ولكن كان كل ما استطعت ان اراه خيطا واهنا من الدخان يتصاعد من حظيرة مفتوحة ملأى بالقش . ولكن بعد دقائق قليلة، كانت السنة اللهب تتصاعد بعنف في الهواء ، والدخان الاسود يتكاثف ويتلوى مثل جني يوشك ان يتجسد خارجا من قمقمه الصفير . فجأة كـان دونللي يجـري ومسدسه يتأرجح ليرتطم بمؤخرته ، والكلب الكبير يجري الى جواره وقد لوى راسه نحو سيده مثل جواد السباق الاصيل الصفير اذ يجري الى جوار امـــه . تسلقنا جدارا واطئا آخر وعبرنا حقلا تناثرت فيه الخنازير التي تحفر الطيـــن باقدامها بحثا عن غذاء . وكان هناك ايضا رجال يجرون من اتجاه مبنى المزرعة .

ولم استطع ان ارى غرضا لهذا الجري . من الواضح انه لم يكن بوسعنا ان نفعل شيئا ، ومن المؤكد ان النار ما كان يمكن ان تخمد قبل وصولنا اليها . وهكذا مضيت في سيري البطيء عبر الحقل ، ويداي في جيبي . وبعد خمس دقائـــق كنت قد لحقت بدونللي . ومن المؤكد ان الحريق كان ضخما . كانت السنة اللهب من القوة بحيث كانت تحمل اجزاء كبيرة من اعواد القش المشتعلة التي بـــدات تمطرنا بأجزائها المتساقطة ، او تطفو مع الهواء في بقع رمادية . وكان من المستحيل ان يقترب احد من الحظيرة المشتعلة لمسافة تقل عن خمسين ياردة ، فقد كانـــت الحرارة فظيعة . انفجر شيء ما ـ ربما كان برميلا ـ وسقط جزء من السقف . تصاعدت دفقات الشرر كما لو كانت نوعا من الالعاب النارية . قلت شيئا مـــا لدونللي ، ولكنه تجاهلني . نظرت الى وجهه ، ثم صرفت نظري بسرعة . كان فكه الاسفل بارزا ومتصلبا ، وكانت عيناه تحدقان في جمود كما لو كانتا مصنوعتين من زجاج ازرق . كان في حالة اشبه بمن يعب طوفان الضجة والدخان . وحتى عندما هب الدخان ناحيتنا ، ودمعت عيناي منه ، ظل هو يحدق كما لو كان منومـا . كانت قبضتاه متصلبتين داخل جيبي بنطلونه . كان هناك شيء ما في بروز وجهه جعلني اتحقق من ان عاطفة مروعة تجتاحه من الداخل . وبشكل ما ، كان بوسعـــي ان افهم هذه العاطفة . كانت النيران جليلة وهائلة ، وكانت هناك سمة موسيقيـــة متناغمة تجمع بين اصوات التشقق والحرارة وطوفان الشرر .

شعرت بان بعض المتفرجين الاخرين كانوا ينظرون الينا بشيء من النفور ، كما لو كنا لا نملك الحق في الوقوف في ذلك المكان ، ولذلك فقد تراجعت نحـــو السور وجلست فوقه . وبعد نصف ساعة ، حينما لم يكن قد تبقى شيء مـــن الحظيرة سوى بعض القوائم المعدنية ، وصلت سيارة الاطفاء .

قال شخص ما من خلفي : « أتسمح باخباري باسمك » ؟ ووجدت شرطيـا ضخم الجثة ينظر الي بطريقة تنم على الرفض الكامل . وكان رجلان يقفـان مـــن خلفه ، يحملان البنادق ، وبدا عليهما انهما من عمال المزرعة . اعطيته اسمـــي ، وقلت انني كنت مع الكولونيل دونللي . وعند هذا قال اكبر الرجلين الواقفين وراء الشرطـي :

« اوه ، انك مع دونللي ، اليس كذلك ؟ »
دهشت للنغمة العدائية في صوته . تجهم الشرطي في وجهه ، ثم قال لي :
« اتسمح بأن تخبرني كم من الوقت ظللت هنا ؟ »
« بعد بداية النيران بقليل . كنا نتمشى . »
ادهشتني الاسئلة التالية ، ولكنها بدت اكثر سهولة . سألني :
« من انت ؟ » وحينما وضحت له انني احاضر في جامعة « باتـــون روج » اصبحت لهجته اكثر تهذيبا . كان عقد قيامي بالمحاضرات في جيبي ، وبطاقة هوية كنت احملها في اميركا على الدوام . وكنت على وشك ان اسأل ان كان من الامور الخارجة على القانون ان اتوقف لاراقب حريقا ، ولكن بدا لي ان هـــذا السؤال لا جدوى منه . فحص الشرطي اوراقي ، وشكرني بأدب ، ثم سار بخطوات واسعـــة نحو دونللي ، يتبعه الرجلان . وقف الكلب الاصفر الضخم الى جـــوار دونللي ، وحينما اقترب منه الرجلان زمجر وبدأ ينبح نباحا خافتا ، كما لو كان يتهيأ للقفز . امسك دونللي بحزام رقبة كلبه . وكانت المحاورة قصيرة ، ورايته يشير نحوي . ثم جاء اليّ وهو يتثاءب وقال : « حسنا ، اعتقد انه من الافضل لنا ان نعود . »
كانت آلة الاطفاء قد راحت اخيرا تصب الماء فوق البقايا المتهبة ، وتصاعدت سحابات البخار حاملة ذرات الرماد وشظايا صغيرة من الخشب المتفحم .
« فيم كان كل هذا ؟ »
« اوه ، انهم يشكون بشدة في الاغراب في هذه المنطقة . »
« ولكن ما كان بوسعهم ان يشكوا في اننا نحن الذين اشعلنا الحريق . »
هز كتفيه ثم بدأ يصفر بفمه لحنا ايرلنديا . سار عائدا بنفس الخطـــوات الواسعة . ولكن بدا لي انه لم يعد متوترا . كان خلال القسم الاول من مسيرتنا يتكلم ويسير كانسان آلي ، او مثل رجل تركز عقله بثبات على شيء آخر ســـوى ما يتحدث عنه . اما الان فكان بشرا سويا ، مستريحا . وحينما دخلنا المنزل ، بالغ في ذلك فوضع يده فوق كتفي وقال : « حسنا ، اظن اننا نحن الاثنين نستحـــق مشروبا باردا كبيرا . »
جاء بزجاجات من الجعة الانجليزية ـــ من نوع « وورثينجتون » . وبينمـــا كنت ارقبه وهو يصب الجعة في الاكوبين ، ويترنم لنفسه بلحن ما ، طرأ شيء ما ، ابله ، على رأسي . كان الاجهاد قد غمرني باحساس من اللامبالاة . اطعت هـــذا الدافع الداخلي الغلاب وقلت :
« لا اعتقد ان لك علاقة بهذه المسألة ، اليس كذلك ؟ »
للحظة سألت نفسي ان كنت قد اسرفت في البوح بما شعرت به . ولكنـــه قدم اليّ كأس الجعة وهو يبتسم ابتسامة التلميذ البريئة السعيدة ، وقال :
« يا له من سؤال غريب . كيف كان يمكنني ذلك ؟ »
وفجأة ، وبيقين لا يمكنني ان اشرح اسبابه ، عرفت انه كـــان على علاقـــة بالحريق . ربما كان السبب هو طريقة نطقه لاجابته على سؤالي ، او فهمه الفوري للسؤال . ان رجلا بريئا كان جديرا بأن يتردد قليلا ، وان يتساءل ان كان قـــد

فهم السؤال على النحو الصحيح . جلست في المقعد ذي المساندين ، وشربت الجعة باستغراق ونهم . وحينما نظرت اليه مرة اخرى كان ذلك اليقين قد اختفى. وكان شكي مبعثه ان الرجل كان معي طول اليوم ... سمعته يقول :

« اشرب في صحة ايزموند دونللي . »

شربت . وبدا لي هذا النخب دون مناسبة .

ذهب الى المطبخ وسمعت اصوات اعداد الطعام . كان قد ادار مفتاح المذياع ـ وهذه علامة اخرى تدل على الارتياح . هبت نسمة باردة من خلال النافذة المفتوحة . وكلما امعنت في التفكير في المسألة ، كلما زاد ميلي الى تصديق انه كان على علم سابق باشعال النار في ذلك الموعد . كل شيء تناسب مع هذا الافتراض : محاولاته باقناعي بالبقاء . الحديث الميكانيكي الخالي من الرغبة الحقيقية . المسيرة الطويلة الخالية من المعنى في عصر يوم حار . المسدس الذي حمله والكلب الضخم الذي اصطحبه معه . تزايد اتساع خطوته حينما اقتربنا من دغلة القش ونظراته المتلاحقة الى ساعته . كان الرجل مصابا بهوس الحرائق . ومن المحتمل ان يكون هو الذي اشعل النار بنفسه في مباني مزرعته . وربما كان هو الذي احرق معمل تفريخ الدواجن ايضا . وفجاة شعرت بصدمة باردة حينما قلت لنفسي انه من المحتمل ان يكون هو الذي اشعل الحريق الذي اعدم من اجله الزنجيان . ولكن كيف استطاع ان يفعل ذلك ؟ اكان شريكا له هو من اشعل النار حينما اقتربنا من المبنى . ان في هذا خطرا عظيما ، بالتأكيد . اذن اكانت وسيلته اداة اشعال ميقاتية . لا بد ان هذا هو الجواب .

انتهيت من كوب الجعة وبدات اشعر بالنعاس . صحوت حينما جاء بالطعام ـ بطاطس مشوية بالطريقة الفرنسية وسجق من لحم البقر وصب لنفسه مزيدا من الجعة . واكلت على صينية وضعتها فوق ركبتي ، كان من الواضح انه شديد الجوع ولم يكن يشبه الكونت دراكيولا في شيء ، وهو حريص على سره المرعب، وانما بدا مثل رجل متعب انهكته سنواته الخمسون ، اعتاد ان يقسو على نفسه بشدة ولم يكن يهتم بان يتناول وجبات من الطعام الجيد . وعرفت ان من واجبي ان ادلي بشكوكي الى شخص ما ـ ربما الى رئيس قسم اللغة الانجليزية في جامعة لويزيانا . ولكنني كنت اعرف انني لن افعل هذا . لقد كان مضيفي. ولم يكن لي الا ان آمل ان يقبض عليه في وقت قريب .

كانت الساعة قد قاربت التاسعة حينما انتهيت من تناول الطعام . ثم قلت :

« لقد كنت شديد العطف حقا ، ولكن لا بد لي بالفعل من التفكير في العودة ... »

كان يجمع الصحون فوق صينية ، قال بطريقة عابرة :

« ماذا ؟ ترحل قبل ان ترى مخطوطة دونللي ؟»

كنت عاجزا عن تصديق انني سمعت بطريقة سليمة . سالته : « مخطوطة ؟ » .

« هذا هو ما جئت لاجله ، اليس كذلك ؟ .

« اتملك حقا شيئا من مخطوطاته ؟»

اومأ برأسه وهو يحمل الصينية ويخرج بها . وحينما عاد ، اخرج مفتاحا من جيبه ، وفتح الخزانة الخضراء في الركن ، قال :

« ليست هذه المذكرات للنشر ، بالطبع » .

كان هناك صندوق خشبي في القسم العلوي من الخزانة ، وعلى الرف السفلي عدد من المظاريف المنتفخة ، تناول احد تلك المظاريف وناولني اياه . كان يحتوي على ملف ضخم من الاوراق ربطت بخيط شمعي . كان الخط متميزا شديد الخصوصية ، ولكنه سهل القراءة الى الدرجة الكافية :

« فالماوث ، ٦ مارس ، ١٧٨٧

الزجاجة تفرق. الرياح الغربية تهب برفق فوق المياه ، والدخان يتصاعد بهدوء الى سقف الحجرة ، والبحارة يتثاءبون بضجر على باب كل حانة من حانات الجعة . لقد غادرني بيكفورد لكي يذهب للبحث عن سيدة قلبه فوق التل . وبقيت انا هنا ، يداعب النعاس جفوني وانا في هذه الحالة من السكينة الهادئة ، ارقب فتاتين شابتين ، جميلتي التكوين ، ترتديان برشاقة انواعا جميلة من الثياب المحلية ، وتسيران على حافة البحر . آ ، يالتلك المخلوقات اللذيذة المجيدة ! من الذي يستطيع ان يجادل فيما اكده زوزيموس البانوبوليتاني (١) من ان المراة لم تنبت من نفس الجذر الذي انبت الرجل ، وانما خلقت للناس من كوكب اخر بعيد ، ثم سمح لها بان تعيش في كوكبنا هذا ، كوكب الذكور ، كما لو كانت خاطرة من خطرات الخيال ! اليست المراة هي لغز الخلق الجليل ، الحضور المرئي للسحر في هذا العالم المتحلل البيوطي ؟ (٢)

قال جودوين ان اسقف كامباري الشهير كان افضل واكثر قيمة من خادمته ، ولكنني لست على استعداد لان ابادل الجميلة الصغيرة التي شاركتني الفراش في الليلة الماضية بعشرة من الاساقفة . كانت الغادة ــ التي تسمى كلارا ــ قد خدمتنا على العشاء ليلة الفصح ، وقال بيكفورد ــ الذي لا يروق لذوقه نوعها ــ ان للفتاة مؤخرة كمؤخرة الصبي . وقلت انها مؤخرة مستديرة باكثر مما يمكن لفتى ، على الاقل ، اذا كان لي ان احكم بناء على النهد الصغير الذي كان بوسعي

---

(١) زوزيموس البانوبوليتاني : مؤرخ يوناني عاش تحت رعاية الامبراطور ثيو ديسيوس الثاني والف عددا من الكتب عن انهيار روما من سيطرة اوغسطس حتى عام ٤١٠ م متجاهلا الفترة من حكم بروبروس حتى عام ٣٠٣ م . لم يكن كتابه الاخير قد اكتمل حتى عام ٤٢٥ م. واعتمد في كتابته على مصادر موثوق بها مثل المؤرخين ديكسيبوس واونابيوس ولم يكن عمله يخلو من احكامه التاريخية ولا من الحس الاسلوبي ، وان لم يكن دقيقا في ذكر التواريخ وكثيرا ما تناول عصورا طويلة بطريقة عابرة . (هـ . م) .

(٢) البيوطي نسبة الى « بيوطيا » مملكة مدينة اسبرطة الاغريقية القديمة التي كانت مهنة رجالها الاساسية هي الزراعة والحرب ، ولذلك قال عنهم الاثينيون انهم اغبياء تعلوهم الكآبة واستخدموا اسمهم صفة للامية والفظاظة وعدم الحساسية ، هذا رغم ان الشعراء والمؤرخين هيزيود وبيندار وكورينا وبلوتارخ وبيلوبيداس وابامينونداس كانوا كلهم من بيوطيا ! (هـ . م).

ان اراه حينما انحنت على المائدة لكي تصب الزبد الذائب على قطعة اللحم امامي. وحينما اقتربت مني همست لها بانني على استعداد لان اتنازل عن تاج مملكة في مقابل قبلة منها ، فضحكت واحمر وجهها . ولم اكن قد اوليتها الا القليل من الاهتمام حتى تحدث بيكفورد عنها، . ولكن تركزت الان افكاري عليها ،وتسلل اله المتعة المشتاقة الصغير الى صدري وجعل قلبي وسادة لراسه . في كل مرة كانت تدخل فيها الى الحجرة كنت انظر اليها كما لو كنت قد وقعت في الحب منذ برهة وجيزة . ومن المؤكد انه لا بد قد لاح لي ان الزواج بها ليس بالثمن الباهظ في مقابل ان اتفحص مفاتنها فحصا اكثر دقة . ورغم انني اعتقد انني اتمتع بقدر من صفات الانوثة اقل مما يتمتع به بيكفورد ، فانني مدين لفضول باندورا (١) الهلك بقدر يستطيع ان يدفعني الى تجاهل كل الاعتبارات الاخرى . وحينما اقتربت مني لكي تعيد ملء كاسي ، مددت ذراعي من حولها وسمحت ليدي بأن تستقر فوق فخذها ، عارفا بانها اذا اعترضت على هذه الخطوة ، فاننا لن نتقدم الى ما هو ابعد منها . ولكنها وقفت بهدوء ، مثل جواد احسن تدريبه . ثم دخل صاحب البيت بمزيد من خمر الليمون والسكر، وسحبت يدي . ولم تتح لي فرصة اخرى لملاطفتها في خلال تناول الطعام . ولكنني حينما غادرت الحجرة ، دسست في يدها جنيها ذهبيا ،وهمست لها : « هذا لك يا عزيزتي . وهناك خمسة اخرى تنتظرك اذا انت جئت الى غرفتي حينما يأوي كل من بالبيت الى فراشه » . ولم تقل شيئا وهي تخفض عينيها ، ولكنها اخذت النقود . وقال لي بيكفورد فيما بعد انه قد اكتشف انها متزوجة من صياد ، وانني ربما اكون قد اضعت نقودي سدى . فاجبته بان النقود التي تعطى لفتاة جميلة لا تضيع ابدا سدى ، اذا ما كانت فاضلة ، لان هذه النقود لا بد ان تعتبر قربانا يقدم الى افروديت ، التي سوف تعترف بهذه الصلاة وهذا الثناء ، حينما يطيب لها ، وفي اي وقت تشاء .

ولكن في هذه المناسبة بشكل خاص ، ثبت ان بيكفورد كان على خطأ ، لان العروس الجميلة انزلقت تحت غطائي في الساعة الثالثة من الصباح ، بعد ان كنت قد تخليت عن كل امل ، ولم تنكر عليّ شيئا بعد ذلك . سألتها هامسا عما كان من امر زوجها . فقالت انه كان قد خرج مع اسطول الصيد . كانت ترتدي ثوبا فضفاضا من التيل الخشن ، سرعان ما رفعته الى ما فوق رقبتها . قبلتها ودعوتها بالكثير من الكلمات الرقيقة ، لانني ما كنت ابدا اطيق صبرا مع الاصدقاء الذين يسلبون فتاة فضيلتها ، ثم يعاملونها بعد ذلك كما لو كانت عملية السلب قد حرمتها من كل حق في التقدير والحنان . يضاف الى هذا ،

---

(١) باندورا – في الميثولوجيا اليونانية هي شبيهة حواء ، ام البشر التي خلقها زيوس كبير الالهة لكي يفسد حياة الانسان (الرجل) الذي خلقه بروميثيوس بان ارسل معها صندوقا هدية للرجل وامرها الا تفتحه . ولكن فضولها (الذي زرعه فيها زيوس) دفعها الى فتح الصندوق فانطلقت منه خفافيش الالام والعذابات مع فراشة « الامل » البيضاء الوحيدة.(هـ.م).

انني عرفت ان الفتاة كانت هبة من هبات الربة التي ولدت من زبد البحر (١) ، وانها تستحق قسما من الصلوات الواجبة لقاء عطيتها الثمينة . وهكذا فقد لاطفت اذنيها بالكلمات الناعمة وبطرف لساني ، ثم سمحت لفصاحة هذا اللسان بان تتحدث الى نهديها ، بل وبأن تتحدث حتى مع الجدران القطيفية للمعبد نفسه. وفي ذلك الحين ، كانت تقلصات ردفيها تنطق بالرغبة ، وحينذاك ، نقلت لساني الى مستقره الصحيح في فمها ، واخذتها بنعومة تسلل الرجل الى فراشه (..) وظللت اقبل شفتيها كما لو كنت اعوض ما فات من عمر باكمله من الامساك والزهد ، وقد صعب عليّ ان اصدق ان هذه الكاهنة البيضاء كاللبن كانت هي كلارا ذاتها التي صبت الدهن على قطعة اللحم المشوية امامي ومنحتني لمحة خاطفة من حلمتين لاحتا لي وكأنما تشكلتا منذ لحظة وجيزة . ورغم ان ردفيها كانا ساكنين الان ـ هذان الردفان اللذان كانا مستديرين باكثر مما ينبغي لغلام ـ فقد ارتعش جوادي في داخلها ، كما لو كان عاجزا عن ان يصدق انه آمن في داخل مثل هذا المسكن اللذيذ .. ومضينا في رياضتنا حتى انبلج الصبح حينما غادرتني . رقدت في مكاني ورحت افكر في المناقشة التي دارت بيني وبين بيكفورد في العربة بالامس : حول ان الاسلوب الاغريقي في الحب اكثر روحانية وجلالا من ذلك النوع المعروف بين الرجال والنساء .وفي خلال طوفان اخلاصي كان بوسعي ان اتمنى لبيكفورد صحبة زوج كلارا ـ صياد السمك ـ على ان يحمله معه في عربته ذات الجياد الاربعة . ولكن اما كان من الممكن لمثل هذا اللقاء ان يكون لقاء نافر العروق مشبعا بالشهوة ، كما لو كان انداد الفرسان يتصادمون بحراب من اللحم ؟ ان مثل هذا اللقاء قد يكون جزءا من عالم سيد الشمس المتين العضلات (٢) ، وليس جزءا من عالم الماء السحري الاخضر الذي تحكمه ارتميس (٣)»

كنت اقرا ناسيا وجود دونللي . وقد جعلتني ملاحظته عن ان هذا المخطوط لم يكن للنشر ، جعلتني اقيد ما شعرت به من توتر في اطار ضيق . ولكنني شعرت بانني قد مارست مثل ذلك من قبل ، في لحظات حرجة اخرى من حياتي (مثلا حينما قابلت اوستين في معرض اعمال دياجليف) . كان شعوري ان يكون احساسا بتكرار مشهد كنت قد جربته من قبل .

كان دونللي قد عاد الى زجاجة الروم . ورفضت الكأس التي عرضها علي منه ، ولكنني قبلت كوبا من جعة البادوايزر . وحينما بلغت نهاية المشهد ،وضعت

---

(١) هي « فينوس » او « افروديت » ربة الحب والجمال والزواج في الميثولوجيا اليونانية التي خلقها ابوها زيوس من زبد البحر وخرجت من صدفة لؤلؤة في البحر قرب قبرص .(هـ.م)

(٢) هو هيليوس (ابوللو) رب الشمس والفنون ، عاله عالم الحساسية والانسجام الكوني (اساس الفنون) (هـ .م)

(٣) ارتميس ربة القمر ، اخت هيليوس او ابوللو (واسمها الروماني ديانا) وربة الصيد والغابة المجللة بالضباب ، عالمها هو الليل والضباب ، عذراء ابدية لم تنجح في اي حب رغم جمالها . (هـ . م)

المخطوطة المجلدة على المائدة . سألته :

« انت واثق تماما من انك لن تكون راغبا في نشر هذا المجلد ؟»

« اظن هذا » .

قلت : « سيجعل هذا الموقف من المشروع كله مجرد هراء . انني افهم الان ما عنيته من ان نسخة فليشر كانت من قبيل التزوير . ولكنني لا اتبين كيف استطيع ان اوصي فليشر بان ينشر نسخته . سيكون هذا نوعا من العبث » .

« اوافقك على هذا ».

« اليست هناك فرصة للالتقاء في منتصف الطريق ؟ »

اشعل سيجارا جديدا . قال :

« ستغضب الاسرة للغاية اذا نشرت هذه الاوراق » .

« ولكنك قلت انك لست على علاقة طيبة بالاسرة » .

« كلا . لست على علاقة طيبة بهم . ولكن ليس هذا سببا لاثارتهم ».

لاح لي هذا الموقف اكثر مما يمكن احتماله بقليل ، خاصة وانه موقف رجل احرق مخزن شخص اخر منذ وقت قصير . غيرت اسلوب معالجتي للموقف وسألته كيف وصلت الاوراق الى حوزته . ولاح عليه انه يفكر في الاجابة على السؤال اللحظة ، قال :

« اجل ، اعتقد انه لا ضرر من اخبارك بهذا . حينما قام دونللي بزيارة روسو في نيوشاتل عام ١٧٦٥ — وكان دونللي في نحو السابعة عشرة من عمره في ذلك الوقت — اهدى اليه مقالا ، مكتوبا بالفرنسية ، يرفض فيه فلسفة هيوم (١) ودالامبير (٢) وقد ورد ذكر هذا اللقاء وما دار فيه ، في كتاب جون مورلي عن « حياة روسو » . واصبح دونللي وروسو صديقين ، رغم فارق السن بينهما . ولكن روسو كان يجتاز في تلك الفترة مرحلة صعبة من حياته . كان كل القساوسة في نيوشاتل يملأون عظاتهم بالهجوم عليه ، وجرى اتهامه بانه

---

(١) ديفيد هيوم ١٧١١ — ١٧٧٦ — فيلسوف اسكتلندي ومؤرخ . مؤسس النزعة الوضعية التجريبية في الفلسفة الحديثة ، قيد المعرفة الانسانية بممارسة التجربة والانطباعات ممارسة جزئية وفردية ، واصبح ذا تاثير بالغ الخطورة في الفكر الميتافيزيقي الحديث ، من حيث رفضه للميتافيزيقيا على اسس غير مادية واقامته لفكر ميتافيزيقي دون ميتافيزيقا . كتب تاريخا لانجلترا في حكم جيمس الاول وتشارلس الاول وعددا كبيرا من المقالات والدراسات الفلسفية غير ان اهم كتبه (وواحدا من اهم الاعمال الفلسفية الحديثة على الاطلاق) هو « مقالات فلسفية حول الفهم الانساني » عام ١٧٤٨ ، الذي اصبح اسمه فيما بعد : « بحث عن الفهم الانساني » (هـ.م) .

(٢) جان لوروند دالامبير ١٧١٧ — ١٧٨٣ — عالم رياضي وفيلسوف فرنسي ، اشترك مع ديدرو في تحرير « دائرة المعارف » وكان من مؤسسي النزعة المادية العلمية الحديثة ، المشربة بالفهم التاريخي والجدلي لحركة الكون والمجتمع مع ديدرو والتي انتقلت فيما بعد الى الفلسفة الكلاسيكية الالمانية وبلغت ذروتها عند هيجل (هـ . م).

سحر رجلا كان قد مات بالتسمم الكحولي . وذات صباح ، اكتشف دونللي ان شخصا ما قد وضع صخرة ضخمة على باب منزل روسو من الخارج في وضع متوازن بحيث تسقط فوقه لحظة خروجه ــ ومن المؤكد ان الصخرة لو سقطت عليه لقتلته . وازاح ايزموند الصخرة ، وفي الليلة التالية نصب بنفسه الفخ القاتل خارج منزل الحداد ــ الذي كان عدوا بارزا لروسو ، وكان ايضا الرجل الوحيد الذي تسمح له قوتهالعضلية بان يرفع الصخرة فيضعها في مكانها الاول دون معونة من احد . وحطمت الصخرة ذراع الحداد وعظمة ترقوته . ولكن هذا لم يجد روسو المسكين في شيء ، الذي كان عليه ان يغادر البلدة على اي حال ــ وكان الناس قد وصلوا الى مرحلة قذفه بالاحجار في الشوارع . وبعد ذلك بعامين ،حينما كان روسو يعيش في لندن كضيف على ديفيد هيوم ، سأله دونللي عما كان من امر المخطوط ، فقال روسو انه ترك مخطوطة المقال وراءه في باريس ، وانه سيعيده حينما يعود الى هناك . ولكنه لم يفعل ذلك ابدا .

« وقد حدث بعد الحرب بفترة قصيرة ، ان كنت مقيما في مدينة لوزان وتعرفت ببائع كتب يدعي جلوزو كان له عمل ما في نيوشاتل . واخبرته ــ بقصة مخطوطة مقال دونللي فقال لي انه قد يكون قادرا على مساعدتي . وبعد ستة شهور ، كتب الي خطابا وعرض علي ان يبيعني المخطوطة ــ بسعر معتدل الى حد كبير ــ وهذا ما ينبغيعلي ان اضيفه هنا . واظن انه عثر عليه في منزل الرجل الذي كان روسو قد استأجر منه منزله ، في صندوق قديم للاشياء المهملة والتالفة وقد عثر ايضا هناك على كراسة لمذكرات الرحلات كان دونللي قد كتبها .

« وبعد ذلك بعدة سنوات ، كتب الي جلوزو يسألني ان كنت ما ازال مهتما بمخطوطات دونللي . وكان قد عثر بالصدفة على مخطوطة اخرى فيجنيف. وكنت اعرف ان ايزموند قد استأجر منزلا في جنيف فامضى هناك الجانب الاكبر من العشرين عاما الاخيرة من حياته. ولكنه كان قد انتقل عائدا الى ايرلندا قبل عام واحد من موته في عام١٨٣٠،واخذ معه معظم ممتلكاته الشخصية .وليست لدي اية فكرة عن كيفية تركه لهذه المخطوطة بالذات في جنيف لدى رحيله منها ، رغم انني املك بالفعل نظرية لتفسير هذه الواقعة قد تكون على شيءمن الاهمية . كان بايرون قد زار ايزموند في جنيف ــ وكان قد التقى به عن طريق شريدان . وبعد هذه الزيارة ببضعة اسابيع ، كان بايرون يكتب لصديقه « هوب هاوز » من مدينة بيزا الايطالية ، ليقول له انه يقرأ الان « اكثر المخطوطات التي رآها عهرا وتشويقا بقلم ايزموند العجوز » . وانا افترض ان « ايزموند » المذكور في رسالة بايرون كان هو دونللي ــ وفي هذه الحالة ، يكون بايرون قد استعار المخطوطة من ايزموند دونللي ونسي ان يعيدها » .

كان علي ان اعجب بالطريقة الحاذقة التي روى بها دونللي قصته ، ورغم انه كان قد شرب جانبا كبيرا من زجاجته الثانية من الروم ، فقد كان يتحدث

ويتناقش مثل كاهــن محترف يتناقش في موضوع بعث الجسد والروح بعدالموت.
ولكن الشيء الغريب هــو انني كنت قد بدأت اشعــر فجأة باللامبالاة الكاملة بالموضوع كله . وقد اقول انني رفضت ان تكون لدونللي مثل هذه السيطرة عليّ . وكنت بالفعل قد قررت ان اعيــدالى فليشر مبلــغ الخمسة الاف دولار وان انسى الموضوع كله ، وهكذا لــم اهتم ادنى اهتمام بمــا اذا كان من الممكــن اقنــاع دونللي بان يغيــر رايه ام لا . وحالمـا قررت ذلك لم اعــد اهتم ، شعرت بالحرية واللامبــالاة . وقررت انه مهمــا حدث ، فانني سأرحل عن هذا المكان في خلال نصف ساعــة فأعود الى فندقي الصغير . سألت دونللي عن كيفيــة بداية اهتمامه بجده الاول . فقال انه كان قــد اكتشف مذكرات الرحلات المنشورة فــي بيــت الاسرة في باللي‌كاهان . سألته كم من السنوات من عمره قضاها هناك .
« سنوات قليلة جدا . لقد انتقلنــا الى دبلين حينمــا كنت في الخامسةمن عمري ، ورحلنــا الى الملايــو وانــا في التاسعة » .
« هل فكرت ابدا في ان تداوم على كتابة يوميــات لرحلاتك ؟»
وقد طرحت هذا السؤال دون اهتمام حقيقي ، لمجرد شغل الوقت بشيء ما، مهما يكن ، وكانت النتيجة طوفانا من البواح والكشف عن الذات لا يكاد يصدق.
قال وهو يتنفس بصعوبة :
« لم اداوم ابدا على كتابة يومياتي ، لانه كان هناك الكثير جدا من الاشياء التي لم اجرؤ ابدا على تسجيلها » .
« ولكن هذا السبب لم يمنع ايزموند من كتابة يومياته » .
ابتسم ابتسامة غريبة ،مغتصبة . قال :
« كانت حياة ايزموند الجنسية من النوع الذي كان بوسعه ان يكتب عنه . اما حياتي انا الجنسية فليست كذلك » .
ظننت انه كان يشير الى‌احراق مخزن القش . اومأت بتعاطف وقلت انني ادركت ما يعنيه وفهمته . فقال بنوع من التخابث الذاتي المجهد :
« اشك في انك قدفهمت مما عنيته شيئا . حينمــا كنت في الثامنة مــن عمري ، كانت لدينــا مربيــة اعتادت ان تضربنا على مؤخرتنا وان تعبث باعضائنا الجنسيــة » .
« من تعني بصيغة الجمع هذه ؟»
« اخي ايزموند ، وانا . وكان ايزموند يكبرني بعام واحــد . كانت هــــذه الفتاة اسكتلندية من مدينة جلاسجو ــ واحدة من اولئك الخادمــات ذوات الاجساد الضخمة والصحة الجيدة . لقد احبها كل منــا الى حد العبادة منذ اللحظة التــي رأيناها فيها . كنا نتبعهــا اينمــاذهبت مثل كلاب الراعي . وذات يوم كنا نجري ويطارد احدنا الاخــر حول مائدة وضعت فوقها مزهرية من البورسلين الثمين ، ووقعت المزهريــة وتحطمت . كان‌والدانا بالخارج ، ورجونا بريدجيت الا تخبرهما بالامر . فوافقت على ان تقوم باخفــاء الشظايا ، ولكن بشرط ان تعاقبنا هـــي بنفسها . فابتهجنا . كلانا ، لهذه الفكرة . فامرتنا بان نصعد الى حجرتنا وان يخلع

كل منا بنطلونه . وحينما عادت بالعصا كنا عاريين بالفعل . جلست على السرير وامرت كلا منا بان ينحني على ركبتها ، ثم ضربت كلا منا عشر ضربات ردفية » .

« هل اثارك هذا جنسيا » ؟

« ليس بصورة حقيقية . على الاقل لم تثرني العقوبة البدنية . اما ما اثارني فهو كوني عاريا اضغط بجسدي على ركبتها » .

لن احاول ان اسجل هنا بقية قصته بكلماته نفسها ، لانه راح يسرد كل التفاصيل الصغرى التي لم تكن ذات اهمية حقيقية . وكان ما قاله ،هي انه مع اخيه قد اتفقا على انهما استمتعا بان تقوم بريدجيت بمعاقبتهما . وحينما انفردا معها في المنزل في المناسبة التالية ، تعمدا ان يكسرا شيئا ما ، ثم قاما بنفس العملية بكاملها مرة اخرى . كان هذا في عام ١٩٢٨ – عصر الملابس القصيرة . فكان يستطيع ان يضغط بعضوه التناسلي على ركبتها اثناء ضربها له – وقال ان احساسه بهذا الوضع كان بالغ الحدة لدرجة انه كان يغشى عليه بعدها . وفي هذه المرة ، رات بريدجيت ان عضوه كان منتصبا وهو يبتعد عنها ، فمدت يدها الى اسفل ولمسته ... وقال دونللي ، انه منذ تلك اللحظة ، لم يكن يفكر – هو واخوه – في اي شيء اخر الا في كيفية اقناعها بضربهما مرة اخرى. وبعد اسبوع او نحوه،لم يعد من الضروري ان يحطما شيئا لكي ينالا منها ما يريدان من الضربات . فحالما كانوا ينفردون في المنزل ، كان – هو واخوه – يقترح ان يلعبوا لعبة المدرسة،فتقوم هي بدور المدرسة ، ويجيبان على اسئلتها اجابات خاطئة عامدين ، فتأمرهما بعد قليل بالتوجه الى غرفتهما . وهناك يخلعان ملابسهما ، ويقومون جميعا بالاستعراض كاملا مرة بعد اخرى ..

وانتهت هذه المرحلة حينما بلغ التاسعة . فقد نقل والده الى الملايو ، حيث كان يعمل مديرا لاحد مناجم الصفيح. وحينما كانوا بعيدا عن انجلترا ، سمعوا بان بريدجيت قد تزوجت ، فغمرهما اليأس ، وكان كل منهما قد راهن الاخر على انه سوف يتزوجها حينما يكبر .

بعد ذلك بعامين ، كانا قد نسياها او كادا . وذات يوم ، سألتهما والدتهما عن رأيهما فيما اذا جاءت بريدجيت لكي ترعاهما مرة اخرى . كان زوجها قد تركها ، وكانت هي تريد ان تبعد عن اسكتلندا . ولحقت الفتاة بهم حينما كانوا يقضون احدى اجازاتهم في لندن ، ثم عادت معهم الى الملايو . وقال دونللي ان جسدها كان قد ازداد ضخامة وثقلا ، وان كلا منهما قد وجدها اكثر جاذبية مما كانت من قبل .وحالما اتيحت الفرصة للانفراد بها في المنزل ، سالها شقيقه ان كانت ستضربهما ان اساءا سلوكهما فقالت : « بالطبع » وقال دونللي انهما اهتزا من البهجة لهذه الاجابة .

وطوال الاسابيع الاولى بعد عودتهم الى الملايو ، لم يحدث شيء . فقد كان لديهم خدم من الاهالي ، وخشيت هي ان تبتذل نفسها امامهم . ولكن الطقس الحار والافتقار الى التنفيس الجنسي سرعان ما جعلاها تصرف النظر عن حرصها ..

كان الرجال من الاهالي يتجولون عراة تقريبا ،فزعمت ان تنشئتها كانت تنشئة دينية وانها تشعر بان هذا الوضع يصدم مشاعرها . وكان الصبيان يستمتعان باغاظتها واحيانا ب « قرصها » فكانت تصفعهما . وكان بوسعهما ان يشعرا من تزايد قوة الضربات انها كانت متنفسا لشيء اخر الى جانب الضيق .وحدث ان راتهما عاريين ذات ليلة بعد الاستحمام ، فصدرت عنها ملاحظة عن تطور عضو دونللي الجنسي . وثارت غيرة ايزموند ، وفي تلك الليلة ، تعارك هو وشقيقه عراكا مريرا ، انتهى بكدمات سوداء في عيني كل منهما .

وذات يوم ، ضبطتهما مختبئين في كوخ في الحديقة يدخنان السجائر ، وقالت لهما انها سوف تعاقبهما على الفور . وكان هذا هو ما ينتظرانه منذ زمن طويل . وكان من المستحيل عمليا ان يخلعا كل ملابسهما ، فانزلا بنطلونهما فقط وضغطا نفسيهما على ركبتيها . وقال انه حينما انتهت هي من«العقوبة» كان كل منهم قد احمر وجهه وراح يتنفس بصعوبة . وكان هو واثقا من انها قد بلغت ذروة نشوتها (رغم انه بالطبع لم يدرك هذا في ذلك الوقت) .

وحدث بعد ذلك بعدة ايام ، ان اصطحبت والدته شقيقه ايزموند الى البلدة القريبة لتشتري له بعض الملابس . فصعد هو الى حجرة بريدجيت ووجدها خالية ، ففتح صوان ملابسها ، وعثر على الثوب الذي اعتادت ان ترتديه حينما كانت تضربهما في دبلين . وهوثوب بني اللون صنع من مادة صلبة . خلع ملابسه كلها ، وفرد الثوب على الفراش ، ورقد فوقه، وراح يتشمم رائحته المتميزة. وفجأة سمع صفقة الباب ، وعرف صوت خطوات بريدجيت في الطابق السفلي .وذهبت هي عبر المنزل الى المطبخ . واراد هو ان تراه راقدا فوق ثوبها ، فقلب شيئا ما واسقطه على الارض بصوت مرتفع . هتفت :« من هناك » ؟ ثم صعدت الى الطابق العلوي . تظاهر بانه نائم ، وفتح عينيه متظاهرا بانه جفل ، امامها وهي تحدق فيه . واتضح انهاتضايقت ضيقا حقيقيا لانه عبث بصوان ملابسها ونظر الى ما بداخله . وقالت :« سيكون علي ان اعاقبك ــ قم » . وحتى قبل ان ينحني فوق ركبتها كان عضوه قد انتصب ، ولكنها تظاهرت بانها لم تلاحظ ذلك. التقطت فرشاة شعرها وامرته بان ينحني فوق ركبتها . وفي هذه المرة ، لاحظ ان ركبتيها كانتا متباعدتين اكثر من المعتاد ،وانه عن طريق الضغط بحذر على اعلى ثوبها ، يستطيع ان يجعل الثوب يرتفع الى فخذها . وحاول ان يحدق الى اعلى ساقيها ، ولكنهما كانا يواجهان الباب ، ولم يكن هناك ما يكفي من الضوء . وفجاة قالت :

« هذا المكان ليس مرتفعا بما يكفي . تحرك حول الفراش ، الى الجانب الاخر » .

ثم انتقلت الى حافة الفراش الاخرى ، المواجهة للنافذة . انحنى فوقها مرة اخرى ، ودون مقدمات جذب ثوبها الى اعلى . وفتحت هي ركبتيها اكثر ، ورفعت احداهما لكي تسندها على مسند للاقدام ، واستطاع ان يرى كل شيء الى قمة فخذيها . كانت ترتدي سروالا داخليا غير محكم له فتحتا سيقان

واسعتان ، ومع انفراج ساقيهـا لم يكن « حجر » السروال يغطي شيئا . وبدا يحرك عضوه المنتصب على ركبتهاوهي تضربه . ثم غيرت وضعها ، وبدات يدهـا الاخرى تحتك بعضوه ، ثم اطبقت يدها حوله ببطء . وفجأة بدات تضربه بغضب ، وتخبط بكل ما تملـك من قوة ، وفي نفس الوقت شعـر بلذة حادة بين فخذيه جعلته يشعر كمـا لو كـان سيغشى عليه . وكان يسقط بيـن ساقيها ، بينمـا استمرت هي تضربه ،واخيرا ارتجفت والقت بفرشاة الشعر . قالت :« اوه .لقد جعلتني اشعـر بالمرض » ، ثمرقدت على ظهرها فوق الفراش ، وقـد اغمضت عينيهـا . ورقد هو الاخر على الفراش . وقال انهمـا كانا مجهدين ، ولم يحدث شيء اخر في ذلك اليوم . وحينمـا سمعا صوت الام ، وقد عادت الى المنـزل، اسرع الى حجرته . وقال لشقيقه فيمـا بعد : « سوف اتزوج بريدجيت واجعلها تضربنـي كل يـوم » .

استمر هذا الوضع طوال سنوات ثلاث ، وفي خلال هذه الفترة ، خطبت بريدجيت الى مهندس من مهندسي المناجم ، وبدات تمارس معه الجنس بصورة طبيعية . ولكنهـا ظلت تؤجل زواجهـا منه لانها قالت ان مسز دونللي لنتستطيع ان تستريح دون معونتها في المنزل ، ولكن السبب الحقيقي هو انها ارادت ان تظل قريبة من الشقيقين وان تستمرفي عمليات الضرب . واخيرا ، فاز المهندس ، فتزوجته ، وانتقلت معه الى اميركا الجنوبية .

ولمدة اسبوع اونحوه ، شعر الشقيقان بالوحدة ، وبانهما مهجوران . ثمحدث ذات يوم ان قال ايزموند :« تظاهـر انت بانك بريدجيت » . ورقد على وجههفوق السرير ، وراح اخوه يضربه بحزام جلدي . وبلغ ايزموند نشوته . وبعد ذلـك، تسلم ايزمونـد الحزام ، وتخيل دونللي ان بريدجيت هي التي تضربه ، وبلغنشوته هـو الاخـر .

وحينمـا عادت الاسرة الى انجلترا ،وكان دونللي في الرابعة عشرة ، ارسل هـو واخوه الى مدرسة عامة صغيرة . واصبح دونللي تابعا لاحد التلاميذ الصغار fug (حسب الاوضاع التي كانت سائـدة في المدارس الانجليزيـة) ، امـا ايزموند ، الذي كان يكبره بعام فلم يصبح تابعا . ولم يكن دونللي تابعا مرضيا حتى انه كـان يستمتع بان يضربمرةكل اسبوع . وذات يوم ، وبعد ان ضربه التلميذ المكلف بحفظ النظام ، جعله هذا التلميذ يخلع بنطأونه ثم اغتصبه . ولما كانـت مؤخرته ما تزال تؤلمه من الضرب ، فان التجربة كانت مؤلمة الما مزدوجا ، واستمتع بهـا دونللي استمتاعا يفوق كل متعة شعر بهـا من قبل . ولكنـه اكتشف ان اللواط دون الضرب المصاحب للعملية ، لم يعطه اية لذة .

وليس من الضروري هنا ان اقول انني لم ارحل بعد نصف الساعة الذي كنت قد حددته لنفسي .بل انني قبلت مزيدا من الروم . وظل دونللي يتحـدث ويتحدث ، حاكيا بالتفصيل كل تجاربه في كل مبغى زاره في ارجاء العالم . وكان الرجل مصابا بالكثير من العاهات النفسية والكوابح والثوابت حتى ان الامر ليتطلب عشرين صفحة اخرى لسردها هنا بالتفصيل ـ كـان متعلقـا بشعـر النساء ،

واحذية النساء الجلدية الرقيقة ، وقمصان التنس ، احذية المطر ذات العنق الطويل والمصنوعة من المطاط والمعاطف الواقية من المطر ، والبنادق ، والسياط ، والعصي ، وشفرات الحلاقة .. وفي حوالي منتصف الليل ، اطلعني على مجموعته من البنادق ، ومن الصور الفاضحة ، ومن السياط والعصي . وناولني سوطا مصنوعا من تسعة من ذيول القطط وسألني ان اجربه . فرفعت بالسوط في الهواء، فاغمض عينيه كما لو كان يصغي الى موسيقى ممتعة . ثم قال بلهجة حالمة :

« اتحب ان تستخدمه؟ ».

« على جسدك انت؟». كنت قد خمنت ان هذا هو ما يسعى اليه .

« اجل .».

« كلا . سأشعر بالبلاهة ».

قبض على ذراعي وقال :

« حتى ولا في مقابل المخطوطة ؟ »

« اتسمح لي بأخذها في هذه الحالة ؟»

« يمكنك ان تنسخهاثم تعيدها الي » .

« وهو كذلك » .

اصبح صوته نوعا من « النحنحة » وهو يقول :

« تعال الى الداخل ،هناك » .

دخلنا الحجرة الاخرى ، لم يكن هناك شيء سوى سرير ضخم ، من طراز قديم ، لشخصين ، مزود بوسادة كبيرة لاحت لي غير مريحة كما لو كانت لوحا من الخشب .وفي كل ركن من اركان الحجرة علقت احزمة جلدية تنتهي الى قابضات يمكن ان تمسك بالايدي .

خلع ملابسه ببطء ، ودون ما علامة توحي بالحرج . لاحظت ان الستائر على النوافذ كانت ثقيلة جدا . وعرفت الان السبب الذي جعل دونللي يشعر بالسعادة للتخلص من عمال مزرعته . ففي مبنى خشبي من هذا النوع ، كان صوت الضربات جديرا بان يسمع من بعد كبير ، وخاصة في الليالي الجنوبية الساكنة ، حيث يمكن ان يسمع صوت كروان صفيرة على بعد ميل كامل .

رقد على الفراش عاريا ،ووجهه الى اسفل ، ونظرت اليه نظرة مباشرة طويلة لاول مرة منذ دخولنا هذه الحجرة .كان ظهره ، وردفاه ، وفخذاه تحمل اكثر قليلا من مجرد اثار وندبات السياط . بدا جلده في هذه الاجزاء ، كما لو كان طريقا غطاه الصقيع ثم مرت عليه ست عربات جيئة وذهابا عدة مرات . وكان من المدهش ان يستطيع ان يشعر بشيءما تحت كل هذه الندوب القديمة ، ذات الجلد المدبوغ .

كان عليّ ان احكم القوابض فوق معصميه ، ثم فوق كاحليه ، وان اشد الاحزمة الجلدية شدا محكما حتى يتمدد جسده تماما . في البداية تركت الاحزمة الجلدية دون احكام ، ولكنه هتف بي نافد الصبر « اكثر احكاما » . وبعد ذلك ، ادار وجهه ناحيتي ، مغمض العينين ، تحشرج صوته وهو يقول : « الان » .

كنت اعرف انه لا فائدة من التراجع . وكان ما تساءلت عنه في داخلي هو ما اذا كان باستطاعتي ان استمر في ضربه حتى اجعله يسألني ان اكف مكتفيا بما ناله من الضربات . وهكذا رفعت الشيء الذي اعطاني اياه فوق راسي — وكانت له قدرة فائقة على الارتداد والتلوي — ثم هويت عليه باقصى ما املكه من القوة . اصدر السوط هسيسا مثل صاروخ ينطلق . ودهشت حينما رايت العلامة الحمراء العميقة التي صنعها على ظهر الرجل . ترددت للحظة ، فقال من بين اسنانه المطبقة :« استمر ، استمر ، لا تتوقف » .

وهكذا ، وقد تذكرت نصيبي من الصفقة ، هويت مرة اخرى عليه بكل قوتي . ولو انني كنت انوي ايذاءه لكان هذا مستحيلا بالنسبة لي . ولكن كان من الواضح انه يحصل على اكثر ما يمكن من البهجة المريحة النشوانة من هذا الضرب . انزعجت حينما بدأ الدم يتصبب من الندبات التي تركها السوط ، كما بدات قطرات الدم تصيبني في وجهي مع طرف السوط كلما رفعته الى اعلى . ولكنني كلما توقفت كان يصيح في انين :« ارجوك » . وعند لحظة معينة قال : « كف » . وظننت انه قد نال كفايته ، ولكنه قال : « والان ، العصا » . وكان عليّ ان ابحث عن عصا مروعة لشرطي مغطاة بالجلد ، وان اضربه بها على ردفيه وساقيه . وفي البداية ، حاولت ان اجعلها « تفرقع » بان اضربه بكل ما املك من القوة — وكانت ذراعي قد بدأت تكل — ولكن هذا لم يؤد الى اي اختلاف . فانها قد انحنت فقط . وبعد عشر دقائق ، جلست متهاويا على مقعد خشبي وقلت :

« لا فائدة ، يجب ان استريح » .

ورقد هو في مكانه ساكنا ، وتبينت انه كان قد فقد الوعي . وحاولت ان اهزه من كتفه ، ولكن اجفانه لم تصدر اية حركة . وسررت حين رايت انه ما زال يتنفس . فلو انه مات ، لكان من الصعب عليّ ان افسر موقفي بانني كنت افعل ما فعلته في سبيل قضية الادب .

عدت الى الحجرة الاخرى وصببت لنفسي قدحا من البيرة . ثم ذهبت فاخذت مفتاح الخزانة من جيب بنطلونه وفتحت الخزانة . وفحصت المظاريف الاخرى ولكن ثبت انها لا تحتوي الا بعض الخطابات والاوراق المختلفة . لم يكن في الخزانة شيء اخر يتعلق بدونللي الكبير . اخذت الصندوق من الجزء العلوي للخزانة ونظرت داخله . اشار صليب احمر على احد جوانبه الى انه صندوق للمواد الطبية ، وعند النظرة الاولى اكدت محتوياته تلك الاشارة : لفافات كبيرة من الضمادات ، وعلبة صفيحية تحتوي على اشرطة لاحقة معقمة ، وزجاجات من المواد المعقمة والمخففة . خطرت لي فكرة انه اذا استطاع دونللي ان يحصل على من يضربه مرة واحدة كل عام فقط ، لكان في حاجة الى مخزون كبير من الضمادات والمواد المعقمة . وحينما فحصت الصندوق بمزيد من الدقة ، لاحظت ان هناك بعض الاشياء التي لم يتضح لي الغرض من وجودها بشكل فوري : كان هناك عدد من الانابيب الخضراء ، وقد الصق عند كل من اطرافها غطاء مستدير صغير

تدلت منه اسلاك تعرفت عليها انا نفسي باعتبارها فتائل تفجير ، ثم كانت هناك زجاجة من مسحوق بني اللون خشنة القوام . فحصت احد الانابيب . كان مصنوعا من البلاستيك ، وكان هناك غطاء من البلاستيك ايضا عند كل من طرفيه ويمكن تحريكه . نزعت الغطاءين ، وحاولت ان انظر من احد اطرافه كالنظر في التليسكوب ، ولكنه كان مسدودا عند منتصفه من الداخل ؛ كان الانبوب مقسما الى جزئين وتحت ضوء المصباح المعلق في السقف ، لاح لي ان السدادة التي تقسم الانبوب كانت مصنوعة من المعدن.

فتحت زجاجة المسحوق وتشممت ما فيها . كانت لها رائحة متميزة ، ولكن لم اتعرف عليها . تناولت زجاجة اخرى تحتوي على سائل اصفر ، وازحت غطاءها الزجاجي . تعرفت على هذه الرائحة حين تذكرتها في ايام مدرستي : حامض مركز ، اما ان يكون حامض الهيدروكلوريك او حامض النيتريك . عثرت في المطبخ على وعاء صغير يستخدم لتقديم المشهيات ــ ونظرت الى دونللي في غرفته حين مررت على بابها ــ فصببت كمية ضئيلة من المسحوق البني في الوعاء. ثم صببت بحذر كمية ضئيلة من الحامض في الجانب الاخر من الوعاء نفسه ، حتى تكونت منه بحيرة صغيرة . رفعت جانب الوعاء بحذر حتى سال الحامض عبره. وحالما التقى الحامض بالمسحوق ، حدث تفاعل عنيف بصوت قوي ، وقفزت انا الى الخلف . تناثر شيء ما على وجهي في قطرات صغيرة ، وحرق مكانه . اندفعت الى المطبخ ودعكت وجهي بقطعة مبللة من القماش . وكان الدخان ما يزال يتصاعد في الجانب الاخر للحجرة ويندفع الى الممر الموصل للمطبخ . كان المسحوق في الوعاء ما يزال يطقطق ويصدر حفيفا مسموعا ، وتنطلق منه شرارات ملتهبة . فتحت الباب الامامي للمنزل ، ثم مددت يدي بحذر الى الوعاء . وحينما لمسته انشق الى نصفين . ولكن التفاعل كان قد انتهى وتوقف الصوت ــ وكنت قد استخدمت كمية ضئيلة للغاية من المسحوق . نصف جزئي الوعاء في صحيفة قديمة ، واخذتهما الى الخارج ، كانا ما يزالان ساخنين جدا لدرجة ان اوراق الصحيفة اسودت وتجعدت . وتطلب تنقية هواء الحجرة من الدخان اكثر من عشر دقائق بعد ان تركت الباب مفتوحا .

وهكذا حلت مشكلة حريق مخزن القش . كانت الطريقة بسيطة وتثبت نوعا من الخداع عن طريق السهولة البلهاء . كان المفروض ان يوضع المسحوق البني في أحد قسمي الانبوب ، ثم يحمل الحامض الى موقع الحريق في زجاجة صغيرة ــ وكانت هناك زجاجات صغيرة كثيرة في الصندوق . ثم يفرغ الحامض هناك بعناية في النصف الاخر من الانبوب ، على ان يصنع ثقب صغير في غطاء هذا النصف لكي يسمح للهيدروجين المتصاعد من الحامض بالخروج ، وبعد ذلك يوضع الانبوب بحرص على طرف الجزء المحتوي على المسحوق ، لكي يظل الجزء المحتوي على الحامض مرتفعا الى اعلى ، في وسط الحظيرة او مخزن القش . ومن المفترض ان دونللي كان يعرف بالتحديد الوقت اللازم لكي ياكل الحامض الحاجز المعدني الفاصل بين جزئي الانبوب . واذا خفف الحامض قليلا لامكن ان تستغرق

عملية التآكل ما يقرب من اربع وعشرين ساعة . وربمـا كان قد وضع قنبلةالحامض الصغيرة فـي مخزن القش في السـاعات المظلمـة الباكرة من صباح يوم الاحد . فلا عجب ان بدا عليه السرور وهو يراقب النار . فقد كانت النيران انتصـارا للتوقيـت الدقيـق .

اعدت الصندوق الى الخزانة ، الى جانب الاوراق الاخرى ، ثم اغلقتها ، ثـم اعدت المفتاح الى جيب بنطلون دونللي . بل لقد شعرت بشيء من الاغراء يدفعني الى حل مشكلة دونللي الاخلاقية مع تهوسه باشعال الحرائق عن طريق صنع واحدة من قنابله الحمضية ،ثم اتركهـا في الخزانة وسط الاوراق ،حتى يمكن تدميـر مخزن سلاحه السري . ولكـن مثل هذه القنبلـة يمكن ان تحرق المنزل بدونللي في داخله . وربمـا كـان في هذا نـوع من العدالة الشعرية التي تحدث عنها ارسطو ، ولكنهـا ستكـون عدالة قاسيـة قسوة لا ضرورة لها (ام انـه قـد يستمتع بهـا ؟).

غطيت دونللي الراقد باغطية الفراش ، ولكنني تركته مربوطا الى اركـان السرير ، فانني اذ كنت انوي ان انام في هذا المنزل ، فانني جدير بان افضـل الشعور بالامان ، وكانت مجموعته من البنادق والشفرات الماضية تصيبنيبالتوتر . بعد ذلك اغلقت الباب ونمت على السرير الصغير . وفي ساعـة باكـرة مـن هـذا الصباح ، ذهبت الى حجرة دونللي ، فوجدته نائمـا . كان تنفسه منتظما . حللت القوابض عن ساعديه وكاحليه ، فتقلب وأن . وعندمـا كانت الساعة السادسـة والنصف ، كنت اسير متجها الى البلدة . عثرت على مقهى على جانب الطريـق مفتوحا ، فاكلت بيضا مقليا ،ولحم خنزير ، وجذور خضروات طازجة ، ثم اتصلت بسيارة الاجرة التي جاءت بي الىهنا . وفي الساعة الثامنة كنت قد عدت الى الفندق الصغير ، وكتبت اكثر هذه الملاحظات قبل ان اغادر الفندق لكي الحـق بطائرتي بعد الظهر . وقد ارسلت بالبريـد مخطوطة دونللي الى ديانا ، حتـى يمكنهـا ان تنسخهـا بالالة الكاتبة قبل ان نطيـر الى « شانون » يوم الخميس. واذا وضعت في اعتباري كميـة ما شربته من الكحول في الليلة واليوم السابقين، فانني اشعـر بانني في حالة جيدة الى درجة ملحوظة .

٢٢ ابريل ، دالاس ، تكساس .

وجدتنياتساءل هذا الصباح ، عن السبب الذي جعلني احصل على متعـة من نوع معيـن من خلال ضرب دونللي . هل هناك مركب صادي خفي فيداخلي، لمسة من شخصية « اوستيه » ؟ ولكن ، خطرت الاجابة على ذهني بعـد محاضرتي هذا الصباح . فبشكل غريـب ، تقدم عاهـات دونلـي دليـلا علـى حريـة روح الانسان . الحيوانات كلهـا تجفل من الالم وتنكص امامه. اما دونللي فقـد « حصل » عامدا على الموقف المعاكس . لقد اختار الموقف الذي يقول بانـه ينبغـي ان تكون للالـم قيمة ،وقد جعل هـو من الالـم قيمة ـ شيئـا يستمتع هو به . انا اعرف ان هذا التفسير يقوم على ارتباط بافكار من نوع معين ، ومـا الى ذلك ـ مثل بريدجيت والجنسوالالم ـ ولكن هذا لا يؤدي الى اي اختلاف . فـاذا

استطاع رجل ان يختار ممارسته المتعة من الضرب ، فانه يستطيع ان يختار ممارسة النشوة الصوفية لمرأى شجرة او ورقة ساقطة من شجرة . انه ليس بالضرورة ضحية لعواطفه المتقلبة او احتياجاته الجسدية . و « هذا » هو السبب الذي جعلني غير قادر على خيانته . انه بشكل مشوه ، يحمل سمة من سمات القديسين . انه قديس لا هدف له ولا غاية .

في يوم الجمعة ،الخامس والعشرين من ابريل طرنا عائدين الى لندن ، ولم يعد لدي المزيد من الوقت لكتابة فقرات طويلة من المذكرات ، لاسباب سوف تتضح فيما بعد .

كان في نيتنا ان نعود عن طريق البحر . ولكن اللغز الادبي ، الذي جسده ايزموند دونللي جعلني اتعجل العودة . كنت اخشى ان يصل باحث اخر الى « باللي كاهان » قبل وصولي انا الى هناك . ولكنني اردت ان امضي يوما في مكتبة المتحف البريطاني ، لكي ابحث عما يمكنني العثور عليه عن دونللي .وقبل مغادرتنا « نيوهافن » (حيث كانت ديانا تقيم مع بعض الاصدقاء) كانت مخطوطة دونللي قد اعيدت الى « دينهام سبرينجز » عن طريق البريد المسجل . وكانت ديانا قد نسخت منها نسختين .وكانترحلتي بالطائرة من كينيدي الى لندن هي فرصتي الاولى لدراسة المخطوطة .

كانت المخطوطة قصيرة بشكل فظيع . ولم اكن قد تبينت حين اطلعني عليها الكولونيل دونللي ، ان المخطوطة كانت تحتوي على مقالة دونللي عن « رفض نظريات الدكتور هيوم » ،معبعض الاشارات الى « المجادلات الاولية » التيكتبها « دالامبير » . وكنت قد افترضت ان دونللي قد اشترى المخطوطة وقد ضمت اجزاؤها والصقت بعضها الى البعض ، ولكن اتضح ان الامر لم يكن على هذا النحو ، كان«الرفض» يقع في نحو ثلاثين صفحة . اما مذكرات دونللي فلم تزد على العشرين (وهي انصفحات التي اقتطفت منها بالفعل ثلاثا) .

كان اكثر ما اثر فيّ من جانب ايزموند دونللي هو حداثة عقله . كانت اللغة هي لغة والبول (١) او جراي(٢) . اما الفكر فكان دائما اكثر قربا من جوته، او حتى ويليام بليك . وكانت النقطة المركزية في مناقشته ضد هيوم ودالامبير بالغة البساطة : وهو انه حينما يشب الانسان عن طوق السلطة الدينية ، فانه يصبح في العادة ضحية لتفاهته الخاصة . متى يمارس

---

(١) هوراس والبول (١٧١٧ ــ ١٧٩٧) ــ اللورد الرابع لارفورد ــ سياسي وكاتب انجليزي ، اشتهر بروايته «قلعة اوتورانتو » عام ١٧٦٤ التي تعد نموذجا للرواية القوطية . عاشمعظم عمره في منزل ريفي شيد لكي يكون نموذجا لقلعة قوطية صغيرة واشتغل فيها بطبع اعماله الخاصة حيث نشر كثيرا من كتاباته عن فن الحفر الانجليزي . وعن شخصية الملك الانجليزي ريتشارد الثالث . (هـ . م) .

(٢) توماس جراي ١٧١٦ ــ ١٧٧١ شاعر انجليزي وصديق هوراس والبول واحد رواد الحركة الرومانتيكية الانجليزية تتميز اعماله بعشق الطبيعة والتاملات الكئيبة والخيال العريض الحزين . (هـ . م .)

الانسان الاحساس بالحرية ،في غالب الاحوال ؟ هكذا يسأل ، ثم يجيب : حينما يشعر بالضجر .. « الضجر هو ان يكون الانسان حرا ، ولكن دون ان يشعر بدافع معين يدفعه الى الانتفاع بالحرية » . وبعد ذلك يبتكر صورة لمجتمع خرافي ، على طريقة سويفت (١) لكي يصور ما يقصده من فكرته . يقول ان بين قمم الجبال العالية في بلاد التتار ، يقع واد يسكن فيه شعب ينتمي الى جنس ضئيل الاجسام ولكنه قوي ويتمتع بصحة جيدة . « منذ بداية تاريخ هذا الشعب في الازمنة السحيقة ، كان من الالتزامات الدينية لهذا الشعب ان يحمل كل فرد منه حملين ثقيلين ـ على شكل زجاجتين تملأن بالماء . وتعلق كل منهما على احد جانبي وسط الانسان . ولم يكن بمقدورهم ان يفكروا في السير الى ما وراء بلادهم على طول الهوايت هول . كانوا يعلقون هذين الحملين في خصورهم من الميلاد الى الموت ،وكانت هناك عقوبات صارمة لكل من يخلع حمليه . ولكن اعظم متعة عند هذا الجنس كانت هي تمارين المشي ، وتعلن عصابة صغيرة من المتمردين ان المقصود من وضع هذين الحملين هو جعل السير صعبا وغير مريح . وبعد ذلك ، يعلن اكثر هؤلاء المتمردين جسارة، ان الانسان ينبغي ان يكون قادرا على الطيران مثل الطائر او ان يطفو مثل البالون ، وان تلك الاحمال انما فرضت عليهم بغرض ان تمنعهم من الاستمتاع بالحرية التي خلقوا من اجلها .وتشتعل الثورة ، ويعدم الملك (وهذا تنبؤ جدير بالملاحظة باعدام الملك لويس السادس عشر) ويمزق الناس احزمة احمالهم ويخلعونها عنهم . ولشد ما يدهشون حينما لا يحدث شيء ، باستثناء انهم يجدون السير صعبا من دون تلك الاحمال، والمحافظة على توازنهم تصبح مستحيلة . ولكن الاشخاص الاكثر تعقلا ومحافظة يستمرون في حمل اثقالهم. اما الاكثر جسارة فيتدربون على السير من دونها ، وسرعان ما يعلنون ان الامر ليس سوى عادة ، وان العادةهي مرجعه الوحيد . وتستبد بهم البهجة بهذا الانجاز الجديد حتى انهم في البداية ، يمعنون في السير ليلا ونهارا ، ويذرعون الوادي من اقصاه الى اقصاه، بل انهم يحاولون تسلق الجبال . وسرعان ما يكتشفون ان الجبال ليست سوى جدران جرداء من الصخور لا يمكن الوصول الى منتهاها او اختراقها . ثم يحدث ان يسقط بعض ممن تخلصوا من اثقالهم فريسة لغضب جنوني ، فيندفعون متهوسين من طرف الوادي الى طرفه الاخر حتى ينهاروا من الاجهاد . ويحاول اخرون انيخترقوا

---

(١) جوناثان سويفت (١٦٦٧ ـ ١٧٤٥) شاعر وكاتب تهكمي انجليزي ـ عرف بكبريائه وحساسيته مما جعله لا يقبل التسامح في هجومه على غباوات الانسان ورذائله ، وفضحه لابتذال قيم البورجوازية وسوقيتها ونفاقها (وان كان ذلك من موقف اخلاقي محض) . اشهر اعماله مجموعة « رحلات جاليفر » التي استخدمها في خلق عوالم ومجتمعات خيالية وكاريكاتيرية يجسدها جانبا من قيم البورجوازية الصاعدة والمتغطرسة في عصره ، ولكنه شارك بعنف في الصراعات السياسية والفكرية والادبية في انجلترا حينذاك . (هـ . م).

الجدران الصخرية الملساء ليخرجوا من الوادي ، فاما ان يسقطوا من حالق حينما ينال منهم الاعياء والكلال ، او يقذفوا بانفسهم بسبب الرعب او اليأس . ولكن مع مرور الوقت ، يفضل العدد الاكبر ممن تخلصوا من احمالهم ان يجلسوا في بيوتهم ببساطة ، وقد تملكهم الضجر تماما ، طالما انهم عرفوا كل شبر من الوادي . وكانوا يهاجمون الاخرين الذين احتفظوا باحمالهم ، فيصفونهم بالخنازير التي تؤمن بالخرافات . ولكن بعد اجيال قليلة ، يموت هؤلاء الذين تخلصوا من احمالهم ، لان افتقارهم الى الحركة وتدريب عضلاتهم جعلهم يسمنون الى درجة هائلة فيموتون في سن مبكرة . واخيرا لا يبقى على قيد الحياة سوى اولئك الذين حافظوا على اثقالهم . فيقومون بانتخاب ملك جديد عليهم ، وطوال اجيال عديدة لا تعود « الثورة العظمى » سوى ذكرى مرعبة . حتى تظهر فئة من الشعب تعلن ان الانسان قد خلق لكي يطير كالطير ..

وتبدو القصة متشائمة تشاؤما لا حد له ، واستعارة رمزية من قصة الخطيئة الاصلية . ولكنني اميل الى رفض هذا الراي ، لان دونللي يقول :« لقد كان هناك نفر من بين اولئك الذين حاولوا تسلق الجبال ، لم تقع عليهم ابصار احد بعد ابدا ، ومع ذلك فان عددا من الرعاة الذين ترعى اغنامهم تحت ظلال الجدران الصخرية العظمى التي تحف بالوادي ، اكدوا انهم سمعوا اصواتا تنادي وتلفظ من فوق ارتفاع شاهق فوق رؤوسهم ، حيث كانت قمم لجبال تختفي وراء السحب » . وبكلمات اخرى ، فربما استطاع عدد قليل من اولئك المتسلقين ان يصلوا الى الاراضي الوعرة الواقعة فوق الجبال .

ان ما يقوله دونللي ــ وهذا تصور جدير بالاحترام اذا كان صادرا عن جانب صبي في السابعة عشرة من عمره ــ ليس هو ان « الناس يحتاجون الى اثقال » ، وانما يقول ان الناس « في الوادي » يحتاجون الى اثقال . انهم اصحاء ، اقوياء يحبون المغامرة (اي يحبون المشي) والوسيلة الوحيدة التي يستطيعون بها ان يحافظوا على تلك المميزات في واديهم الضيق الصغير هي ان يحملوا اثقالا على الدوام . ولكن ثمة عدد قليل من بينهم ، عدد قليل جدا ، يولدون وهم يحملون روح متسلقي الجبال الجسورين .

وقد كان دونللي متسلقا جسورا للجبال بالفطرة ، منذ ولادته ، وكان هذا واضحا . وقد كان هذا هو ما خدعني . لقد عاش هذا الرجل حتى بلغ الرابعة والثمانين (طبقا لما قاله الكولونيل دونللي) ، وكان كاتبا موهوبا ، ومفكرا اصيلا ، وصديقا لروسو وويلكز . فلماذا اذن لم يترك سوى هذا الاثر الضئيل على التاريخ ؟ فاذا كان « رفض فلسفة هيوم » ومذكرات الرحلات المنشورة ، هي كل ما املكه لكي ابدأ عملي ، فانني قد اجد لزاما علي ان استنتج ان هنا تمثل امامنا موهبة اضاعت نفسها مبكرا ، مثل رامبو او وولف . ولكن المذكرات غير المنشورة لا تترك مجالا للشك في ان موهبته ظلت دون ان يلحقها الفساد . اذن ، فماذا حدث ؟.

ولا بد لي ان اضيف ، في شكل جملة اعتراضية ، ان الجزء الفلسفي الخالص

من « الرفض » يضم بعضا من اكثر صفحات هذا المقال اهمية ، اذ تميزت بنوع من العمق والرصانة النفسيتين سبقتا زمانهما بقرن كامل على الاقل — ولا يمكنني ان افكر في وجود شيء يماثلها ظهر قبل ظهور ف. هـ. برادلي (١) انه يقتطف مقالة كاملة لهيوم هي « تجريد لرسالة في الطبيعة البشرية » حيث يثبت هيوم ان فكرة العلة والنتيجة انما تستمد من عاداتنا ، وانها لا تمثل « علاقة ضرورية » . يقول هيوم : « لنفترض ان رجلا مثل آدم قد خلق وهو يستمتع بالقدرة الكاملة على الفهم ، ولكن دون تجربة » افلا يكون من المستحيل بالنسبة له ان يرى ضرورة الارتباط بين العلة والنتيجة ؟ وعلى سبيل المثال ، اذا كان يراقب كرتين من كرات البليارد وتصطدم احداهما بالاخرى ، فانه من المحتمل الا يستطيع ان يخمن — اعتمادا على ذكائه وحده — انهما سوف يصدران صوتا كالفرقعة الصغيرة عند اصطدامهما ، ثم يندفعان في اتجاهين متضادين . انه سيظن ، اعتمادا على معرفته الضئيلة ، انهما قد يلتصقان او يقفزان في الهواء ، او يقفان ببساطة جنبا الى جنب .

وينقض دونللي بسرعة على العبارة التي تقول « يستمتع بالقدرة الكاملة على الفهم » ويشير الى انها زلة قلم ... « يتضمن كلام هيوم ان ادراك آدم لكرات البلياردو سوف يكون ادراكا بريئا وغير متحيز ، بينما — في الحقيقة — لا يمكن لادراك كامل البراءة — مثل ادراك طفل حديث الولادة — ان يستوعب الكرات على الاطلاق — او بالاحرى — قد يدرك وجودها ولكن دون ان يستوعبها ، مثلما قد انظر الى خطاب كتب بلغة لا اعرفها . فاذا كان آدم قد سمح له بالقدرة الكاملة على الفهم ، وبقدر كاف لكي يراقب كرات البلياردو باهتمام ، اذن فلا بد ايضا انه قد سمح له بشيء من القدرة على معرفة العلة والنتيجة . انه ربما لا يعرف ان كانت الكرتان سوف تقفزان منفصلتين او تمتزجان مثل قطرتين من الماء ، ولكنه يعرف ان شيئا ما سوف يحدث ، الامر الذي يعني انه يعرف ان نتيجة ما ينبغي ان تتبع السبب » .

كلا ، ان رجلا قادرا على التصور بهذا الشكل « يجب » ان يترك علامة ما على عصره . فكيف اذن اصبح من الممكن الا اكون قد سمعت به مطلقا ؟ وحتى اذا كان هو نفسه لم يكتب الا القليل — فلا بد ان يكون الاخرون قد ذكروه — بوزويل (٢)

---

(١) فرانسيس هربرت برادلي (١٨٤٦ — ١٩٢٤) فيلسوف انجليزي مثالي ارتبط فكرة بفكر هيكل. هاجم في مجال الاخلاق هربرت سبنسر والتقدميين مؤكدا ان على الفرد ان ينسق جهوده مع مجموع اكبر منه لكي يحقق ذاته بشكل كامل . وفي مجال الميتافيزيقا اكد ان الطبيعة مجرد مظهر غير مكتمل للمطلق الذي هو روح يكفي ذاته بذاته . كان كتابه الاساسي هو « المظهر والحقيقة » عام ١٨٩٤ . (هـ . م)

(٢) جيمس بوزويل ١٧٤٠ — ١٧٩٥ . اشهر كتاب التراجم الانجليز ، بكتابه الشهير عن حياة « صامويل جونسون » الذي ظل يجمع مادته يوما بعد يوم اثناء حياة جونسون نفسه ، حتى اصبح « الاسلوب البوزويلي » مصطلحا للدلالة على طريقته في كتابة الترجمة . (هـ.م) .

على سبيل المثال او حتى كراب روبينسون (١) . ان الاظلام الكامل الساقط فوق مثل هذا الرجل لشيء لا يمكن فهمه .

كنت قد كتبت لصديق يعمل في المتحف البريطاني من دالاس ، لاساله ان كان يستطيع ان يعثر لي على اي مادة ممكنة حول دونللي . واسرعت الى هناك فور وصولي الى لندن في التاسعة والنصف من صباح يوم السبت . ودعاني تيم موريسون ـ الذي يعمل في ادارة الكتب المطبوعة ـ الى شرب فنجان من القهوة في مقصف الموظفين . وكنت قد اخبرته بكل ما دار بيني وبين فليشر ـ وحتى عن اقتراح ان اقوم بتزوير بعض المخطوطات باسم دونللي . ان نظرة تيم الى الحياة وقورة ومحاذرة ـ وهو يعطيني دائما انطباعا لرجل يحدق بحذر من فوق حافة هاوية وهو يعالج موضوعا ما بطريقته المترددة الموفقة . قال :

« اعتقد انك تعرف ما تفعله . اعني انك لا تريد ان تنتهي الى السجن بسبب الاحتيال على القراء » ...

واكدت له ان ليس ثمة خطر في ذلك ، وابرزت له المخطوطة المنسوخة على الالة الكاتبة من مقالة « رفض لفلسفة هيوم » . راح يقرأها بعناية لمدة عشر دقائق، بينما رحت انا احتسي قهوتي واتطلع الى عناوين صحيفة « الجارديان » . واخيرا قال :

« اوافق على ان هذا يبدو اصيلا . وليس هناك ما يزعجني سوى شيء واحد. لماذا اعطي هذا المقال لروسو ؟ انه بآرائه تلك لا بد كان يظن ان روسو ابله كامل البلاهة » .

« لست واثقا من السبب . ثمة عنصر من التفاؤل في شخصية دونللي وفكره ربما تجاوب مع روسو . هذا الى جانب ان روسو ليس بسيط الفكر كما يبدو أن معظم الناس يظنون . انه في الحقيقة لم يقترح ابدا انه ينبغي للناس ان يعودوا الى الطبيعة » .

قال « كلا . كلا » . وبدا عليه الشرود . سألته ان كان قد عثر لي على اي كتب عن دونللي . قطب جبينه وهو ينظر اليّ داخل قدح قهوته ثم قال :

« من الافضل ان تأتي لكي تنظر بنفسك . »

عدنا الى مكتبه ، الذي لا يصل اليه المرء الا بعد متاهة من الممرات وعدة مجموعات من الدرجات الحلزونية . كانت غرفة المكتب مرتبة بطريقة توحي بخلوها من اي خطأ او عيب . وعلى المكتب نفسه كانت هناك ستة مجلدات برزت من خلال

(١) هنري كراب روبنسون (١٧٧٥ ـ ١٨٧٦) كاتب يوميات وذكريات (اشبه بالتراجم) انجليزي ، كان صديقا لجماعة « شعراء البحيرات الانجليز » . اصبحت ذكرياته عن الشعراء لامب وكولريدج ووردزويرث وبليك ذات قيمة عظمى لدارسي الرومانتيكية الانجليزية والشعراء الرومانتيكيين الانجليز . وتنصب اكثر دراساته على التحليل المباشر لشخصية كل منهم ثم لاسلوب كل شاعر كتب عنه . (هـ.م) .

صفحاتها قصاصات من الورق . قال لي ان اجلس امام المكتب ، ثم جلس هو على المقعد الكبير المواجه لي ، واشعل سيجارة ، ثم عاد الى « رفض لفلسفة هيوم . »

كانت الكتب التي عثر عليها مخيبة للامال . وكانت هناك طبعة من مذكرات الرحلات التي كنت قد رايتها بالفعل من قبل ، مطبوعة في لندن عام ١٨٢١ في دار النشر المملوكة لمن يدعى جون موري ، وهو الناشر الذي كان يصدر مجموعات بايرون الشعرية ، وكانت الطبعة مزودة بمقدمة قصيرة بقلم الناشر يصف فيها دونللي بأنه : « سيد ودارس ايرلندي » ولكنه لا يقدم اية معلومات اخرى متعلقة بحياته ــ ولا حتى ان كان دونللي ما يزال على قيد الحياة عام طبع الكتاب . (وقد كان حيا بالفعل يومها ، فقد كان في الثانية والسبعين عام ١٨٢٠) . وكانت هناك اشارة قصيرة اليه في كتاب جيلبين : « يوميات انجليزية في القرنين السابع عشر والثامن عشر » الصادر في عام ١٨٧٦ ، ثم اقتباس من مذكرات رحلاته في كتاب عن مدينة البندقية الفه كاتب نسيت اسمه . وجاءت الاشارة الهامة الوحيدة الى دونللي في خطاب كتبه بايرون لفرانسيس هودجسون في شهر يونية عام ١٨١١ (وجاء الخطاب في اعمال بايرون الكاملة ، التي اشرف عليها بروتيرو وكولريدج ، المجلد التاسع ص ٤٢٠) ، ويقول فيها : « قال لي شيري (شيريدان) انه لم يعرف ابدا شخصية اكثر وحشية من والدي (« جاك المجنون » بايرون) رغم انه كان قد عرف ويلكيز ودونللي في ايام شبابهما . » ويقول بايرون في خطاب آخر الى ويليام جيفورد (المجلد ١٣ ص ١٩٣) : « لقد ادهشتني وصدمتني جدا تأكيدات ايزموند دونللي والتي اشار فيها الى ان خلونا وخلو عالمنا نسبيا من المعنى ، حينما نوضح في مقارنة مع الكل القهار ، الذي لسنا فيه مع عالمنا سوى ذرة ضئيلة ، هو ما دفعه لاول مرة الى تخيل ان طموحنا الى الابدية والخلود يجب ان يتضاعف عدة مرات » .

وبينما كنت اسجل في مذكرتي مختلف المواد التي حصلت عليها ــ فقد كان لا بد لي ان اجهز مقدمتي على نحو من الانحاء ــ كان تيم يفحص بعض الاوراق في خزانة قريبة . وحينما انتهيت من الكتابة ، وضع امامي ورقة واحدة . كانت الورقة صورة مكبرة لصحيفة من احد المخطوطات . ولم تكن قراءة الخط مستحيلة، رغم ما كان هناك من تكرار لخطأ كتابة حرف « ف » بدلا من حرف « س » . وكان نص المكتوب في الورقة :

« ... كان مقتنعا بأنه قصد الى الوفاء بالتزامه .

وحينما ذكرت عادة اكل الكلاب في اوتاهايت ، قال جولد سميث ان هذه العادة شائعة ايضا في الصين : وان جزار الكلاب شائع جدا مثل اي نوع آخر من القصابين ، وان مثل هذا الشخص اذا رحل الى خارج بلاده ، تهاجمه كل الكلاب .

جونسون : « ليس هذا راجعا الى قتله للكلاب يا سيدي . انني اذكر قصابا في بلدة ليتشفيلد ، كان معرضا على الدوام لهجمات الكلب الموجود في المنزل الذي كنت اسكنه. ان رائحة الدم والقتل هي ما تثير هذه الحالة وتستفز الكلب للهجوم،

مهما كان نوع الحيوانات التي قتلها .

جولد سميث : « اجل ، فان الحيوانات عموما تبغض اي علامة تدل على الذبح او تشير اليها وتنفرها منها . فانك اذا وضعت وعاء صغيرا مليئا بالدماء في حظيرة للجياد ، اصاب الحيوانات ما يشبه الجنون » .

جونسون : « انني اشك في ذلك » .

جولدسميث : « كلا يا سيدي انها حقيقة يعترف بها العارفون » وتلت هذه الفقرة عدة سطور كشطت بحبر اسود وثقيل وبعناية بالغة ثم تستمر السطور بعدها تقول :

تريل : « كان الافضل لك ان تبرهن على هذا قبل ان تضمنه كتابك عن التاريخ الطبيعي . انك قد ... »

نظرت الى تيم وقد اشتبه عليّ الامر ، وظننت انه قد اعطاني صحيفة اخرى غير ما اراد ان يعطيني ، ولكنه وضع امامي صحيفة اخرى مصورة ، غير انها صورة لسطور كتبت على الآلة الكاتبة وكانت تقول :

جولد سميث (مستمرا) : « لقد قيلت لي هذه الحقيقة على لسان ايزموند دونللي ، الذي قال لي انه حاول تملك التجربة » .

جونسون (وقد بدأ يسخن) : آه ، يا سيدي ، انني لا اشك في ان هذا الرجل يمكن ان يكون قادرا على اثبات ذلك وما هو أسوأ منه » .

جولدسميث : « انه لا يفتقر الى صفات محب المرح والعربدة . »

جونسون : « بالتأكيد . انني اعتقد انه من جماعة العنقاء ذوي الميول العربيده المفعمة بالشر . ونفس الشيء يمكن ان يقال عن الشيطان . »

جولدسميث : « ومع ذلك فانه يعرف الجياد . »

تريل : « كان الافضل لك ان تبرهن على هذا ... »

قال تيم :

« كان من عادة بوزويل دائما ان يكشط بالحبر الاسود كل الفقرات التي يريد ان يلغيها حتى لا يمكن قراءتها . وهذه صفحة من كتابه « حياة جونسون » . وقد سمحت لنا جامعة ييل بالحصول على صور من غالبية مجموعة ايشام . وقد استطاعوا ان يصلوا الى حقيقة اكثر ما كان مكتوبا في الفقرات الملغاة . »

« مدهش . كيف عثرت عليها ؟ »

« لم اعثر عليها انا . وانما حدث ان ذكرت اهتمامك بدونللي للرجل الذي كان يصنف الصور . وبالمصادفة البحتة ـ كان قد راى اسم دونللي في اليوم السابق . »

« واذن فربما تكون هناك اشارات اخرى الى دونللي في مخطوطة بوزويل ؟ »

« هذا محتمل . سأتصل بك اذا وجدنا اية اشارة . »

امضيت بقية اليوم في قاعة المطالعة ، ولكنني لم اعثر على شيء آخر له قيمة . وعندما عدت الى ميدان كينسنجتون (حيث كنا نقيم مع جيرمي

وورثينجتون ، احد مديري شركة جون جاميسون لانتاج الويسكي) ناقشت ما انجزته اليوم مع ديانا ومع سو وورثينجتون . واتفقنا على انه من الواضح ان جونسون كان يكره دونللي ، الامر الذي لاح لنا انه يشير الى انه كان يعرف شيئا عن شهرة دونللي كصعلوك كبير . ولكن لماذا كان من الضروري ان يثور غضبه بهذه السرعة لدى ذكر اسمه ؟ لقد كان بوزويل هو الاخر صعلوكا كبيرا ، وكذلك كان ويلكيز ، الذي كان جونسون قد وصل الى نوع من الاتفاق معه . فلماذا السخط على دونللي والهجوم عليه ؟ ماذا كان يعنيه حينما قال : « انه يمكن ان يكون قادرا على اتيان ذلك وما هو أسوأ منه » ؟.

وقالت سو انه من المحتمل الا يكون قد عني شيئا بالتحديد على الاطلاق ، فيما عدا ان جونسون كان منزعجا من سذاجة جولدسميث وسهولة انخداعه . وكنت ميالا الى الموافقة على ذلك . وحينئذ قالت سو :

« يجب عليك ان تسأل جيرمى عن بوزويل . انه يعرف شخصا اكتشف مخطوطة ما لبوزويل . »

وكانت هذه اخبارا هامة . كنت قد امضيت جانبا من اليوم في قراءة مذكرات بوزويل ، وقصة اكتشافها ، التي كانت قراءتها من الامور الخلابة . ولما كانت هذه القصة على علاقة ما بما اسرده الان ، فسوف الخصها باختصار .

مات بوزويل في عام ١٧٩٥ في منتصف العقد الخامس من عمره ، ربما بسبب اصابته بتليف في انسجة الكبد . وعين ثلاثة من اصدقائه مشرفين على طبع تراثه الادبي ، الكاهن ويليام تمبل ، وسير ويليام فوربز وادموند مالون . وكانت تعليمات بوزويل تقول ان هؤلاء الاصدقاء الثلاثة ينبغي ان يقرأوا مذكراته الخاصة واوراقه وان ينشروا كل ما يظنونه هاما ويستحق ان ينشر . وقرأ الثلاثة ما وجدوه من اوراق ، ولكن من الواضح انهم قرروا ان المادة كانت اما شديدة الاملال ، واما انها تصدم المشاعر والاذواق ، الى درجة انها لا تستحق ان تنشر . وبعد مقالة ماكولي القاتلة ضد بوزويل (١٨٤٣) هبط رصيد الاخير هبوطا شنيعا حتى لقد نسي تقريبا . وكانت السيدات الفيكتوريات من اسرته ، اللواتي كن من حين الى حين يلقين نظرة سريعة على الاوراق ، يشعرن بالصدمة ازاء ما رأين ، حتى انهن شعرن بما يبرر لهن ترويج اشاعة تقول بان مذكرات بوزويل قد احرقت ويستطيع المرء ان يدرك تأثير فقرة مثل الفقرة التالية من المذكرات ، (كتبت في ٧ نوفمبر ١٧٦٢) :

« التقطت فتاة من شارع ستراند ، وذهبنا في عربة وفي نيتي ان استمتع بها متدرعا (اي باستخدام مانع للحمل) . ولكنها لم تكن تحمل مثل هذا المانع . فلهوت بها قليلا . وتعجبت هي لحجم عضوي ، وقالت انني لو كنت قد فضضت عذرية اية فتاة لجعلتها تنزف . أعطيتها شلنا ثم اجبرت نفسي على ان اتركها تذهب دون أن امسها . »

وفي منتصف سبعينات القرن الماضي ، ذهب بيركبيل هيل ، ناشر كتاب

بوزويل عن جونسون الى بيت الاسرة في بلدة أوتشينليك – لكي يطلب القاء نظرة على المذكرات ، ولكنه لم يلق سوى الطرد تقريبا .

وفي عام ١٩٠٥ ، تلاشى آخر خيط من ذكرى بوزويل ومن اسرته ، وانتقلت ملكية المنزل وما يحيط به الى اللورد تالبوت من مالاهايد ، بالقرب من دبلين ، وكان من بين ما انتقل الى حوزته ، الغرفة المغلقة الصغيرة التي تحتوي الاوراق التي ذكرها بوزويل في وصيته . وظهر استاذ اميركي ، يدعى تشونسى تينكر ، فاهتم ببوزويل واعلن في الصحف الايرلندية طالبا اي مادة منسية له . وتسلم الاستاذ خطابا من مجهول يقترح عليه ان يحاول البحث في قلعة مالاهايد . فأرسل خطابا الى مالاهايد لم يكن له تأثير ، فقرر تينكر اخيرا ان يذهب بنفسه الى هناك . وكان سعيد الحظ في هذه المرة . وسمح له اللورد تالبوت بأن يرى جانبا صغيرا من مجموعة اوراق بوزويل. وبعد ذلك ، ظهر ضابط اميركي برتبة ليوتنانت كولونيل، ويدعى رالف ايشام ، وقد سمع عن الاوراق ، ونجح في شرائها من لورد تالبوت في عام ١٩٢٧ . وشرع اثنان من الباحثين ، هما البروفيسور جيوفرى سكوت ، والبروفيسور فريدريك بوتل ، شرعا في عملية نشر تلك المادة الهائلة الحجم – التي تزيد على مليون كلمة . وعند ذلك الحين استمرت مخطوطات بوزويل في الظهور . فقد تم العثور على صندوق قديم للملابس في قلعة مالاهايد وكان يحتوي على المزيد من خطابات بوزويل ، بالاضافة الى مخطوطة كتابه « رحلة الى جزر الهيبريدز مع الدكتور جونسون » . وفي عام ١٩٣٠ ، كان البروفيسور آبوت من جامعة آبردين يعمل في تحقيق اوراق السير ويليام فوربز . وهو احد منفذي وصية بوزويل – فاكتشف كمية كبيرة اخرى من الخطابات والمخطوطات . وكان من الواضح ان فوربز قد استعار بعضا من الاوراق لكي يفحصها ،تنفيذا لما جاء في وصيته ، ثم نسي ان يعيدها الى اوشينليك . وفي عام ١٩٤٠ ، تم العثور – مرة اخرى – على المزيد من اوراق بوزويل في حظيرة قديمة للابقار في مزرعة مالاهايد ، وكانت هذه الاوراق تتضمن كتاب « حياة جونسون » ، وقد جاءت الصفحة التي رايتها في المتحف البريطاني من تلك المخطوطة . ولم يحدث ابدا ان فسر احد كيف وصلت بعض اوراق بوزويل الى حظيرة للابقار .

من الواضح ان اوراق بوزويل كانت قد بعثرت وتفرقت في اماكن متنائية . وفي الحقيقة ، فان اول ما اكتشف من اعماله ظهر في عام ١٨٥٠ على يدي الميجور ستون في بلدة بولوني ،وكان قد اشترى شيئا مـا من دكان بقال ، فوجد بضاعته قد لفت في ورقة كتب عليها خطاب موقع باسم « جيمس بوزويل » . وكان في مقدور ستون ان يشتري كومة كاملة من الخطابات التي كتبها بوزويل الى القس ويليام تمبل – وهو كاهن كان بوزويل قد اعترف امامه بأقذر اعمال حياته – ثم قام ستون بنشرها بعد ذلك بعد ان نقحها وهذبها وحذف ما كان فيها من فحش. ويبدو ان تلك الخطابات كانت قد وصلت الى بلدة بولوني على ايدي ابنة تمبل التي كان زوجها القس قد انتقل اليها في عام ١٩٢٥ . وحينما ماتا ، بيعت اوراقهما – او اعطيت الى تاجر من تجار ورق اللف باعهما بدوره للبقال .

ان اقتفاء آثار التاريخ المعقد لاوراق بوزويل جعلني ادرك المصاعب التي قد اواجهها في طلب حقيقة ايزموند دونللي . فمن الواضح انه ما لم يكن الحظ حليفي فان اي قدر من الصبر والاصرار والمثابرة لا يمكن ان يكون مثمرا على الاطلاق . ولكن كان من الغريب انني كنت املك احساسا غريبا بالثقة ، ربما كان ببساطة راجعا لاهتمامي العميق والبالغ بدونللي وبأدب المرحلة التي ينتمي اليها . ذلك انني اذا استبعدنا بليك وجوته ، كنت اجد دائما ان كتاب القرن الثامن عشر عصبة مخيبة للامال بشدة ، ولذلك فانني لم ازعج نفسي على الاطلاق بمحاولة دراستهم .

وعلى اساس ما اخبرتني به سو وورثينجتون ، افترضت ان جيرمي يعرف احد افراد اسرة تالبوت ، او ربما كان يعرف الشخص الذي اكتشف الاوراق في حظيرة الابقار . وحالما ظهر جيرمي على باب المسكن ، سألته :

« ما اسم صديقك الذي عثر على بعض اوراق بوزويل ؟ »

« أوى ، انه لم يعثر عليها بالفعل في الحقيقة . وانما عثر عليها شخص يدعى اورورك في بلدة بورتمارنوك . »

« الم يعثر عليها في مالاهايد ؟ »

« كلا . ليس في مالاهايد ، رغم انه من المؤكد جدا انها جاءت من مالاهايد . فعلى قدر ما استطيع ان استنتج ، كان قس متقاعد يدعى اورورك قد استعار بعضا من اوراق بوزويل في اثناء الحرب العالمية الاولى ، ولكن هذه الاوراق لم ترد الى مكانها ابدا . وقد عثر عليها ابنه بعد وفاته . »

« فماذا حدث لها ؟ »

« حسنا ، اسمع . انها تحت يدي شخص عجوز غريب مجنون يدعى ايزاك جينكينسون بيتس ، ويعيش في دبلين . وابن اخيه هو احد طاقم الاختبار في مصنع التخمير عندنا وقد اخبرني ذات يوم بأمر تلك الاوراق » .

« هل رايت هذه الاوراق بنفسك يوما ؟ »

« كلا . ان الولد العجوز شديد الحرص عليها . ومن الواضح ان هذه الاوراق مملوكة في الحقيقة لمزرعة مالاهيد ــ او ربما كانت من حق تلك الجامعة الاميركية التي اشترت الاوراق . »

« ولكن الا تعرف اي شيء عنها ؟ »

« ليس الشيء الكثير ، فيما عدا ان بعض محتوياتها داعرة الى درجة كبيرة »

« هذا يبدو غريبا . أعني ، ماذا يمكن لقسيس ان يفعل بمثل تلك الاوراق . »

« ربما كان رجلا عجوزا سيء الخلق او قذر التفكير . »

« هل تعرف عنوان تلك « الشخصية » التي تدعى جينكينسون ؟ »

« ليس العنوان تحت يدي الان ، ولكن عليّ ان اطلب دبلين بالتليفون يوم الاثنين ــ وسوف أسال هيرد ــ وهذا هو ابن اخيه . »

وتوقفت العملية عند هذا الحد في عطلة نهاية الاسبوع . وكنت اعرف ان الفرص المتاحة لي لرؤية الرجل العجوز محدودة ، اذا ما كان حريصا بالدرجة التي

ذكرها جيرمي ، ولكن لم يكن هناك سوى أمل واحد ، وهو ان يمارس ابن أخيه عليه نوعا من الضغط .

* * *

في يوم الاثنين ، اتصل بي جيرمي من مكتبه ، وكان قد تحدث لتوه مع ابن اخي الرجل العجوز .وقد اكد هيرد ان جينكينسون بيتس كان بالغ الحذر والحرص في مسألة اطلاع اي مخلوق على المادة التي يملكها . ولكنه في خلال المحادثة ، كان قد ذكر شيئا لاح ان فيه شيئا من الامل . كان بيتس شديد الاهتمام والتعلق بجرائم القتل . ولذلك فانه قد لا يستبعد ان يكون قد قرأ كتابي « سوسيولوجية الجريمة العنيفة » . واقترح جيرمي ان اكتب اليه رسالة حول موضوع جريمة القتل في ايرلندا في القرن الثامن عشر ؛ وان احاول التعرف عليه من هذا الطريق ، واعطاني جيرمي عنوان بيته في شارع باجوت في دبلين .

ولم يكن لدي ما افعله اكثر من هذا في لندن . فأمضيت هناك يومين آخرين، قابلت خلالهما بعض الاصدقاء ، وتناولت الغداء مع احد الناشرين ، وشربت الكثير من « الكوكتيلات » . ولو كنت في ظروف عادية لكنت قد استمتعت بالتغيير الكامل للجو الذي عشته اثناء جولة المحاضرات ، ولكنني كنت عاجزا عن التفكير في اي شيء باستثناء دونللي . كتبت خطابا الى « ملحق التايمز الادبي » حول اهتمامي بدونللي ، وامضيت امسية عقيمة في المتحف البريطاني محاولا ان اعرف ان كان ايزاك جينكينسون بيتس قد كتب في حياته اي كتاب حول جرائم القتل ، ولو انه قد كتب مثل هذا الكتاب ، فانه ليس موجودا في مكتبة المتحف . وفي صباح يوم الاربعاء ، اصطحبتنا سو وورثينجتون في سيارتها الى مطار لندن لكي نلحق بالطائرة المتوجهة الى شانون . وقبل ان نغادر المنزل بلحظة واحدة ، اتصل جيرمي بالتليفون وطلب ان يكلمني . قال :

« كنت اتكلم الان لتوي مع جيم هيرد مرة اخرى ، وذكر شيئا ربما اعانك في محاولة اقترابك من بيتس العجوز . من الواضح ان الرجل العجوز يؤمن بأن قاتل « جزيرة الاي » الايرلندي كان بريئا . فهل تعرف اي شيء عن تلك القضية ؟ »

« اتذكر عنها القليل . ثمة رجل يدعى كيروان . »

وكانت هذه المعلومة ثمينة للغاية . لحقنا بطائرتنا في منتصف النهار ، وهبطنا في شانون بعد ساعة واحدة بالضبط . وكان توم كيني ، المسؤول عن مأوى السيارات الذي تحتفظ فيه سيارتنا ، قد قاد السيارة القديمة الى المطار لكي يقابلنا . وبعد ساعتين كنا قد عدنا الى موكولان .

ثمة احساس هائل بالراحة في العودة الى البيت بعد رحلة طويلة . انني احب ايرلندا : الطرق الضيقة ، والمدن الصغيرة القديمة ، وخضرة الحقول التي لا تصدق ، والسحب المنخفضة والبحيرات الفاتنة . بدات اشعر بشيء مثل الكراهية ازاء دونللي ، لانه كان يمنعني من الاسترخاء الكامل لمدة اسبوع او نحوه .

يقع منزلنـا على بعد نصف ميل خارج موكوللان . على ناصيـة حـارة ضيقة مبلطة بالاحجار تتحول الى مجرى مائي في فصل الامطار . والمنزل مسكن خوري بني في منتصف القرن الثامن عشر ، وشيد من الحجر الجيري الرمادي اللون ، وقد فطيت الجدران بنباتي الحزاز واللبلاب المتسلقين . كنا قد اشتريناه في عام ١٩٦٣، ودفعنا ثمنه من مستحقاتي من كتابي « اليومية الجنسية » . وفي اثناء غيابنا ، كان زوج ديانا السابق ، روبرت كيرستين ، يرعى المنزل بدلا منا . وكان منذ عام ١٩٦٠ قد اصبح « مؤلفا موسيقيا مقيما » في عدد من الجامعات الاميركية ، وكان قـد اصاب نجاحا هائلا . وفي الخريف الماضي ، قرر ان يحتاج الى فترة طويلة مـن الوحدة لكي يؤلف موسيقاه ، ولذلك فقد دعوناه للاقامة معنا . وكان يسكن عندنا منذ شهر يناير ، وكانت مسز هيلى ، زوجة الراعي الذي يسكن الى جوارنا ، تطهو له طعامه . وكان كيرستيف قد رحل الى دبلين قبل وصولنا بثلاثة ايام ، فقد كانت اثنتان من اوبراته للحجرة تعرضان هناك وكان عليه ان يقود الاوركسترا . كـان المنزل خاليا ومفعما بالهدوء . وكانت مسز هيلى قد اشعلت النار في مدافىء حجرة الطعام وحجرة نومنا ، فأضفت النار على الحجرات بريقا مرحا . كان منزلنا قريبا من العتمة على الدوام ، لان الاشجار العالية تحيط به من ثلاثة جوانب ، كما كانت جدران بعض الحجرات مغطاة بخشب الماهوجني الاسود ، ولولا الاضواء الكهربائية، لكان صالحا لان يكون مسرحا لاحدى روايات لوفانو (١) .

وقفت وراء نافذة حجرة نومنا ــ وكانت موبسي تتقافز على السرير ، فتجعل لوالبه تئز ــ ورحت أنظر الى غابة « لوف كوريب » . كان هناك غيم واطىء قليـل بدا اثقل قليلا من الضباب ، ولاحت الاشجار ، ببراعمها البازغة ، داكنة مبلولة . ان الجزء الذي نعيش فيه من ايرلندا ، يتمتع بخاصية « تنويمية » ، فان زوار منزلنا يجدون انفسهم قادرين على النوم لمدة اثنتي عشرة ساعة يوميا على الاقل ، ثم يظلون يتثاءبون حتى الساعة الرابعة عصرا . بينما كنت اقف وراء النافذة ، وضـوء النار يتراقص على الجدران ، شعرت باسترخاء هائل ، جعلنـي اتحقق من مقدار ما اصابني من اجهاد في جولة المحاضرات . بدت لي مشاعري كما لو كانت تغرق في فراش عميق من الريش ، وحل علي احساس عظيم من السكينة والشعـور بالعزلة . وخطر لي فجأة انه من المحتمل ان يكون ايزموند دونللي قد اطل على هذا المشهد ، منذ ما يقرب من القرنين ، فرأى الكثير مما أراه انا الان . ثم ذكرت مـا اكده لي فليشر من ان دونللي قد اغوى ابنتي القسيس المحلي غير الشرعيتين ، وهو الاب ريوردان ، فشعرت بأنني اضطرب واعجز عن التفكير . لو انها كانت ابنـة واحدة ــ فتاة واحدة ــ لكان الامر مفهوما ، انها فتاة ريفية بريئة جميلة ، ربمـا يكون قد قام على تربيتها مزارع من الجيران او راع للاغنام او ربما يكون هـذا

(١) جوزيف شيريدان لوفانو ١٨١٤ ــ ١٨٧٣ ــ كاتب روائي ايرلندي ، اشتهر بروايته « العـم سايلاس » عام ١٨٦٤ التي تقوم على حل لغز غامض محبوك . احد رواد رواية اللغز والحبكـة المتقنة واهتم بتحليل شخصياته . (هـ.م)

الراعي من اسلاف سين هيلي) ، ومن المحتمل ان تكون هذه الفتاة قد رأت دونللي واقفا في دكان البقال في القرية يطلب زجاجة من الويسكي او الجين فسحرهـا وخلب لبها السيد المهذب الذي يرتدي ثيابا انيقة . وربما يكون دونللي قد نظر الى الخدين المتوردين المتفجرين بالصحة ، وفكر في المتعة التي يمكن ان يحصل عليهـا لو انه رفع طرف الثوب الطويل المصنوع من التيل وجرى بيده على الجسد الجميل كما لو كانت الفتاة جوادا احسن تدريبه . لو كانت الحكاية قد جرت على هذا النحو لكانت قد اصبحت طبيعية ومبهجة ، ولكن اغواء فتاتين انما يدل على نوع مـن النزعة الحسية ، وخضوع مطلق للرغبة في التملك والانتصار .

فجأة قالت موبسي : « بابا ، ايمكنني ان استحم الان ؟ » فقطعت سلسلـة تفكيري . خلعت لها ملابسها ، ووضعتها في حوض الاستحمام ، ثم هبطت الـى الطابق الاسفل لكي افتح زجاجة نبيذ بورجوندي التي جئت بها من كاليفورنيا والتي كنت قد وضعتها الى جوار النار ــ كنت قد جئت بها معي على طول طريق العودة لكي استمتع بشربها في حجرة الجلوس الخاصة بي . وضعت اسطوانة موسيقية على الحاكي ــ كونشرتو الكمان والاوركسترا لدليوس ــ ثم تركت نفسي لكي اغرق في حالة من الكآبة الناعمة الغامضة . كان النبيذ دافئا دفئا خفيفا للغاية . ويقول اكثر الخبراء في شؤون النبيذ انه لا ينبغي للمرء ان يعرض انبيذ مباشرة لمصـدر الحرارة ، ولكنني اجد ان تعريض النبيذ العادي للنار المباشرة لمدة عشر دقائق لا تؤدي الى اي ضرر ــ صببت لنفسي كأسا كبيرة ، وجرعت نصفها مرة واحدة ــ وهذه هي طريقتي في شرب اول كأس من النبيذ في المساء . انه ــ بهذه الطريقة ــ يلطف الظمأ ، ويمنح حاستي التذوق والشم افضل ما في نكهته ورائحته ، وينتج على الفور ومضة من الدفء . كانت حقائبنا متناثرة الى جوار البـاب ، دون ان تفتح ، ولكنني اردت ان استمتع بميزة العودة الى بيتي . تتمتع حجرة جلوسنـا برائحة متميزة ليست سيئة ــ تماثل الى حد ما رائحة الكتب القديمة . وكانـت ديانا هي من اشترت معظم اثاثنا في المزادات العلنية المحلية ــ وهي تحب حضـور عمليات البيع بالجملة وبالمزاد ــ وليس في هذا الاثاث قطعة واحدة يمكن ان توصف بالحداثة . واذ نظرت حولي ، خطر لي انه من المحتمل ان يكون ايزمونـد دونللـي قد جلس في حجرة تماثل هذه تماما ، وانه رغم كل ما اعرفه ، ربما يكون قد جلس في هذه الحجرة نفسها . مددت يدي ففتحت احدى حقائب السوق التي كانـت ديانا تحملها في الطائرة ، وعثرت على المخطوطة المكتوبة على الالة الكاتبة لمقـال دونللي « رفض لفلسفة هيوم » وفتحتها كيفما اتفق . قرات . .

« . . انني لا انتقدمنطق مستر هيوم ، وهو منطق مفحم من مختلف جوانبه ، وانما ازعم ان مزاجه مننوع يمكن ان يخفى عـن صاحبـه صورا معينـة مـن الاحاسيس . يستطيع منطقه ان يزيل من الوجود مطامح السيميائيين وآمالهم ، ولكن ، ما الذي يعرفه عن رؤاهم ؟ . . . »

توقفت عن القراءة لكي افكر في تلك الجمل . كان من الواضح انها تستحق

« هامشا » نقديا ، يشير الى التشابه بينها وبين فكرة بليك : (١) .

كيف لك ان تعرف ان كل طائر يقطع طريق الهواء والريح
انما هو عالم هائل من البهجة ، مغلق امام حواسك الخمس ؟

ومرة ثانية تساءلت متعجبا : كيف يمكن لمثل هذا الرجل ان يكون صورة ممسوخة من « كازانوفا » يتباهى بغزواته النسائية ، يطارد النساء بدافع من فكرة متسلطة سخيفة تجعله يبحث عن الكمية المجردة ؟ وان يكون ما وصفه جونسون بأنه :« واحد من جماعة العنقاء ذوي الميول العربيدة المفعمة بالشر » ؟ بشكل ما ، كانت هذه هي آخر عبارة استطيع ان افكر فيها ، تشير الى مؤلف « رفض لفلسفة هيوم . »

انتهت الاسطوانة الموسيقية ، وذهبت لكي اقلبها على وجهها الاخر ، وللحظة نظرت الى الخارج من النافذة التي تطل على الغرب . كانت السحب المنخفضة معلقة فوق تلال « اياركونت » ، ولكن السماء وراء التلال كانت مشرقة . وعلى الجانب الاخر من التلال ، انتصب صف من اشجار الحور مرتفعا على صفحة السماء . للحظة عدت الى غرفة النوم في لونج آيلاند ، اتذوق النكهة الدخانية اللطيفة التي عرفتها في حلمتي بيفرلي الصفيرتين وما شعرت به بعد ذلك من انفجار الدفء بين الافخاذ ، بينما كنت انظر من فوق كتفها الى الاشجار الباسقة فوق قمة التل الصخري . ازحت جانبا كآبتي الغامضة ، وتمسكت بعطر الصلابة الذي كان يقوم ويهوم فوق اشجار الحور ، وعرفت مرة ثانية في تبصر داخلي مفاجىء شامل ان الكائنات البشرية لا ينبغي لها « ابدا » ان تقبل مقوماته او مكونات الوعي المباشر الناشيء عن اللحظة القائمة ، وان الآفاق الاعظم والارهب تقع دائما فيما وراء حدود الاحكام والتقديرات الفورية المباشرة . للحظة كنت انا ايزموند دونللي ، اتساءل عما عرفه هيوم عن رؤى السيميائيين . اختفت التناقضات ، وفجأة فهمت دونللي . بالنسبة له ، لم يكن السيميائي هو من يحاول تغيير طبيعة المعادن ، وانما هو من يحاول تغيير طبيعة الوعي ، وكان الجنس هو حجر الفلاسفة الذي كان بوسعه ان يغير المعادن الوضيعة للوعي العادي فيحولها الى رؤيا .

---

(١) ويليام بليك ١٧٥٧ ـ ١٨٢٧ شاعر ورسام صوفي انجليزي . درس الرسم وفن الحفر ، وتدرب منذ صباه الاول على حفر نسخ من صور الكاتدرائيات والكنائس فتشبع عقله ووجدانه بهذا الجو . كان الاسلوب القوطي هو مثله الاعلى . وامتزج فن الرسم بالشعر في موهبته حتى نهاية حياته الطويلة سواء بالنسبة لاسلوبه التعبيري او للبناء الفني الذي اختاره لتشكيل اعماله التي مزجت دائما بين الرسم والشعر . تشبع بروح دينية غير تقليدية ، وامتزجت عنده روح الانسان بالكون في سبيل صياغة الرب واكتشافه في آن واحد من خلال النفاذ بالتامل الواعي في الطبيعة وفي داخل النفس والعقل البشريين ، ولكن دون وجد ولا تيهان عقلي . اسلوبه الرمزي عزله عن معاصريه ولكن دفعه الى العصر الحديث لكي يصبح واحدا من اهم بناة النزعة التاملية في الفلسفة والفن الغربيين المعاصرين (هـ.م)

صرخت مويسى : « بابا ، اريد ان اخرج . » ناديت ديانا فاخرجتها من مطبخها وارسلتها الى الطابق الاعلى . كنت اريد ان اثبت هذا الادراك المتبصر الداخلي وان اكتشف أرجاءه . لانه كانت هناك — ما تزال — مشكلة واضحة . لا يستطيع احد ان ينكر ان الجنس يملك هذه القدرة على رفع الوعي الى درجة اعلى من الحدة . فمنذ لورنس ، اصبح هذا شيئا شائعا ومعروفا من ضمن الاشياء الشائعة في القرن العشرين . ولكن لورنس عرف ايضا سرا آخر من اسرار الدافع الجنسي : « ان ما تعجز نساء كثيرات عن اعطائه ، تستطيع امراة واحدة ان تعطيه . » ومنذ ان بدات حياتي مع ديانا ، اضمحل اهتمامي باغواء النساء ، حتى اصبح مجرد نوع من الفضول وحب الاستطلاع . بوسعي ان انظر الى فتاة جميلة فاتساءل بيني وبين نفسي عن نوع حمالة الصدر والسراويل الداخلية التي ترتديها، او عما اذا كانت ترقد في سلبية على الفراش ام تتحرك بعنف . ولكن هذا الفضول لم يكن من القوة بحيث يمكن ان يؤدي الى المتابعة العملية . بل انني في الاعوام الاخيرة ، كنت ادهش دائما اذ اكتشف ميلا متزايدا الى رفض تلك الاشكال غير الضارة من الاشباع المتبادل التي تقدمها اليك علاقة ما ولكن « دون شد اية اوتار ». وقد حدث في احدى الحفلات ان قالت لي فتاة ما بصراحة : « لماذا لا نرقد معا في فراش بعد ذلك ؟ هذا افضل من ممارسة العادة السرية في فراشين منفصلين » ولكنني في الصباح ، ادركت ان عدم وجود اية اوتار لم يكن صحيحا صحة مطلقة . لقد تداخل جسدان ، وبالتالي فقد تداخل عالمان ايضا . ان عالمها لم يرق لي بشكل خاص ، فقد كان عالما شديد الغموض والعقم . ومثل كوكبين تقاربا اكثر من اللازم ، كان كل منا قد تسبب في نوع من الاضطرابات الارضية عند الاخر . وانا لم اعد قادرا على ان اتذكر ، كيف كانت تبدو في الفراش ، ولكنني استطيع ان اتذكر بوضوح حكايات معينة سردتها علي ، حول فشلها في زواجها ، وهي الحكايات التي ما زالت تزعجني . ولقد كان الافضل لي لو انني تركتها تدور في فلكها الخاص .

وهذا هو ما يجعلني اشك في صدق كازانوفا . انه لم يكن غبيا ولا محروما من الاحساس — وهذا واضح الى حد كبير . ولكن ليس هناك سوى القليل من الادلة في « المذكرات » التي توحي بان تلك الاضطرابات المتبادلة قد حدثت . ان فتاة ما ، شابة و « مقبولة » ، وتبدأ برفض الحريات التي يحاول ان يمارسها معها، حتى تستطيع مداهناته ان « تبدل غضبها الى انفعال اكثر رقة » ، وبعد ان تجعله يعدها بألا يهجرها بعد ذلك ، تسمح له بأن يحل اربطة مشدها الداخلي . وحتى اذا كانت الفتاة عذراء في السابعة عشرة من عمرها خرجت لتوها من مدرسة الدير ، لا نلمح هناك اي ايحاء بالصعوبات المعتادة ، الجسدية والنفسية ، لا نجد سوى تلميحات غامضة عن تمضية « عدة ساعات لذيذة » او « نسلم انفسنا لنشوة من المتعة تدوم حتى انبلاج الصباح . » هناك جو اشبه بجو الحلم يحلق على هذه « المذكرات » كلها .

* * *

لم يكن دونللي صورة من « السنيورجاك كازانوفا دى سينجالت » ، وكان هذا واضحا . وكان الاحتياج الى اكتشاف المزيد عنه قد اصبح شبيها بالتوتر الجسدي . ذهبت الى حجرة الطعام ، حيث احتفظ بكتبي التي تبحث في القانون وعلم الاجرام ، ورحت ابحث حتى عثرت على القصة الكاملة لقضية « قاتل جزيرة الاي » الايرلندي . وكانت قضية عادية بقدر كبير . كان ويليام بورك كيروان فنانا عاش في بلدة « هووث » مع زوجته في عام ١٨٥٢ . وفي عصر يوم من ايام سبتمبر ، استأجرا ملاحا بقاربه ، لكي يجذف بهما الى جزيرة « آى » الايرلندية ، وهي الجزيرة الجذابة الصغيرة انتي تقع على بعد ميل من ميناء « هووث » ، وهي على مرمى البصر من مالاهايد . كان يوما هادىء الجو ، وفي الساعة السابعة من المساء ، سمعت صرخات صادرة من الجزيرة . وفي الساعة الثامنة ، وصل الملاح بقاربه مرة اخرى الى الجزيرة ، فوجد كيروان ما زال مشغولا برسومه ـ وهذه واقعة تثير الشكوك ، طالما ان الظلام كان قد هبط بالفعل . وقال كيروان انه ليس واثقا من المكان الذي ذهبت اليه زوجته ـ وافترض انها كانت في مكان ما على الجانب الاخر من الجزيرة ، تسبح ما تزال . وعثروا عليها في بركة صخرية صغيرة ضحلة ، وقد امتلأ وجهها بكدمات كثيرة ، وامتلأت رئتاها بالماء . ورغم وضوح البينة على ان موتها كان نتيجة لحادث عارض ، فأن الظروف كانت مثيرة للشكوك للدرجة التي دفعت الى تشريح جسدها . وادين كيروان بتهمة قتل زوجته على اساس الادلة المستمدة من الظروف نفسها ، وكان قد زعم بأنه لم يسمع الصرخات التي كان من الممكن ان تسمع من الشاطىء ، وكانت له عشيقة وضعت له طفلا في دبلن . وقد اعتقد كثير من الناس انه برىء ، ثم استبدل حكم الاعدام الصادر ضده بحكم بالسجن مع الاشغال الشاقة . وخرج بعد هذا من السجن لكي يتزوج عشيقته ، ثم هاجر الى اميركا .

ذهبت الى غرفة مكتبي ، واشعلت المدفاة الكهربائية ، وكتبت على الالة الكاتبة خطابا الى ايزاك جينكينسون بيتس ، لاقول له انني انوي ان اكتب عن قضية قاتل جزيرة « آي » الايرلندية في كتاب عن الجريمة ، وتساءلت ان كان في مقدوره ان يشرح لي سبب اعتقاده في براءة كيروان . ثم خرجت فهبطت التل وارسلت الخطاب بالبريد . وبعد ذلك ، شعرت بما يكفي من الاسترخاء لكي اقرأ لوبسي قصة عن الارنبه بيتر .

* * *

استيقظت مبكرا في الصباح التالي ، وتمشيت طويلا حول بحيرة « روس » وحينما عدت قالت ديانا : « اتصلت بك هاتفيا من تدعى ميس دونللي من جروم ، وتريد منك ان تتصل بها . »

« هل كانت لهجتها ودية ؟ »

« بشكل ما . تقول انها كتبت لك خطابا . »

كان هناك صندوقان كبيران من الورق المقوى ، مليئين بالرسائل التي وصلت

في اثناء غيابنا ، ولم تكن لدي حتى تلك اللحظة اية طاقة لكي افحصها ، وبينما راحت ديانا تعد لي افطاري ، من البيض والباكون ، افرغت انا الصندوقين على ارضية غرفة المكتب . قلت لموبسي ان تخرج بنفسها كل الرسائل التي وصلت الى ناشري اولا ثم اعاد توجيهها اليّ — فان مثل تلك الرسائل يمكن ان تنتظر . فتحت صندوقين صغيرين من التسجيلات الموسيقية ، وعدة كتب من ناشرين يأملون لو انني اقتطفت منها فيستخدمون ذلك في اعلاناتهم (والاسف ، فانهم نادرا ما يرسلون الي الكتب التي اتمنى ان احصل عليها مجانا ، لا يرسلون سوى الكتب التي تتعرض لها المقالات الصحفية بشكل سيء) واخيرا عثرت على الخطاب الذي يحمل خاتم بريد « لايم ريك » ، وقد كتب عليه العنوان بخط دقيق واضح .

ولا بد لي ان اعترف بانني لم اكن صريحا معها صراحة كاملة في الخطاب الذي ارسلته اليها من نيوهافن . فانني لم ار فائدة من ان تصفق الابواب في وجهي منذ البداية . ولهذا فقد اخبرتها ببساطة بأنني سمعت عن ايزموند دونللي في اثناء جولة محاضراتي — وتركت لها ان تستنتج ان شخصا ما من بين المستمعين الى احدى المحاضرات قد ذكر الاسم امامي — وانني اردت ان اكتب عنه مقالا او فصلا في كتاب سأنشره في المستقبل . ثم خاطرت بذكر انني قد تبادلت حديثا مع الكولونيل دونللي وانني رايت عنده نسخة من مذكرات رحلات دونللي الكبير .

جعلني ردها اشعر بالخجل من نفسي . فانها — بشكل وقور وان لم يكن وديا ، تقول انها كانت سعيدة عندما سمعت بأن جدها الاكبر لم يكن قد نسي بعد نسيانا كاملا ، وانها قد امضت عدة سنوات في محاولة اقناع احد الناشرين لكي ينشر طبعة جديدة من المذكرات . وقالت انها وشقيقتها ستغتبطان لرؤيتي في اي وقت اذهب فيه اليهما . وفي نفس الوقت فانهما ستكتبان للمحامي الذي يحتفظ باوراق دونللي في خزانة خاصة لكي ياتي بتلك الاوراق الى المنزل ...

ومرة اخرى شعرت بوخزات الضمير ، واجتاحني احساس بالميل الى تجاهل الامر كله . ولكنني تدرعت بنظرة الى المخطوط الذي كنت قد نزعت عنه غلافه بالفعل ، وقررت انه سيكون من السخف ان اتخلى عن مغامرة كانت بداياتها مثمرة الى هذا الحد . اتصلت بمركز التحويل الهاتفي وطلبت منهم ان يوصلوني برقم الانسة دونللي ، اجابني صوت قاطع جاف ، وان كان انجليزيا بقوله :

« آه ، مستر سورم . كان عطفا منك ان تتصل بي . لقد اخبرتني زوجتك بأنك لم تعد من اميركا الا بالامس ، وفي وقت متأخر لا بد انك مجهد تماما . »

قلت انني اشعر بانني بخير ، وسألتها متى تتوقعان وصول الاوراق من مكتب المحامي .

« أوه . انها هنا الان . لقد كان سريعا جدا . وكنا نقرأها الان . انها مادة اخاذة ببساطة . كيف تتوقع ان تسافر الى هنا ؟ بالقطار ؟ »

وحينما قلت انني سأسافر بالسيارة سألتني لماذا لا اقود سيارتي الان فورا لكي اتناول معهما طعام الغداء . نظرت الى ساعتي وقلت لها انني ان فعلت هذا

فلن أصل قبل العصر . وقبل ان انهي المكالمة قالت :

« آمل الا تستاء اذا سالتك سؤالا واحدا » وغاص قلبي في صدري بينما قالت : آمل الا تكون مهتما بأية قصة من الاقاصيص ابردينة التي تحكي عنه ؟ »

« أقاصيص رديئة ؟ » كذلك تساءلت وانا اشعر بنفسي واقعا في شبكة عنكبوتية من المداورات وانصاف الحقائق ، ولكنها قالت :

« لقد رات شقيقتي واحدا من كتبك في المكتبة ، انه كتاب عن جريمة القتل، فآمل الا تكون مهتما بالشائعات البلهاء عن دونللي واللادى مارى جليني ؟ »

وكنت قادرا على ان اقول ، مع احساس هائل من الارتياح ، بأنني لم اسمع أبدا شيئا من تلك الشائعات . قالت في صوت يشبه صوت رجال الاعمال :

« حسنا . انني سعيدة بان اسمع هذا » .

سمعت فرقعة صغيرة ، ثم سمعتها تصيح : « تينا ، هل تتسمعين على الخط الاخر ؟ »

« أجل ، يا عزيزتي . »

« لا اريدك ان تفعلي ذلك . فهذه عادة تبعث على الضيق . » وفجاة مات الخط تماما . حملقت في السماعة للحظة ثم وضعتها في مكانها .

* * *

قبل ان اغادر المنزل ، اتصلت بصديق قديم من جامعة جالواى ، وهو البروفيسور كيفين روش . وقال لي مساعده انه في بيته ، فاتصلت به هناك .

« هل تعرف شيئا عن ايزموند دونللي ؟ »

« الشخص الذي كتب كتابا عن افتضاض العذارى ؟ »

« اتعتقد حقا انه كتبه ؟ »

« لا ارى سببا يمنع من الاعتقاد في ذلك . الصفحة الاولى من نسختي تحمل اسمه . »

« أهي لديك هنا ؟ ايمكنني ان آتي لكي اراها ؟ »

« بالتأكيد ، متى تحب ان تأتي ؟ »

قلت : « الان . » وفي خلال خمس واربعين دقيقة كنت في غرفة مكتب كيفين المطلة على خليج جالاوى ، والتي يمكن ان ارى منها مشهدا جميلا لفابتي آينيشمان وآينيشمور .

كنت قد قررت ان امضي في سياستي القائمة على الصراحة ، لان الاخبار تنتقل بسرعة في ايرلندا . وهكذا ، بعد ان تبادلنا التحيات ، وقبلت كأسا صغيرا من نبيذ « باشميل » ، ناولت كيفين مخطوطة « رفض فلسفة هيوم » وقلت له انه قد طلب مني ان اعدها للنشر وان اكتب لها مقدمة . قال :

« انها قصيرة ، اليس كذلك ؟ »

« آمل ان اعثر على اشياء اخرى ، خطابات ومذكرات . انني ذاهب الان

لكي أزور الانستين دونللي في باللي‌كاهان . »

ناولني الكتاب ذا الغلاف الورقي الذي كان موضوعا على مكتبه ، كان صادرا عن دار « أوبايسك » للنشر في باريس ، بعنوان : « عن افتضاض العذارى . تأليف: ايزموند دونللي . » . وكانت هناك ملاحظة تمهيدية صغيرة موقعة باسم « هنري ف. ميللر » تكرر الحقائق التي عرفتها بالفعل عن دونللي ــ تاريخ مولده ومكانه، واشارة الى مذكرات رحلاته ، ثم يقرر حقيقة ان هذا الكتاب كان قد نشر بالالمانية وصدر عن دار نشر « بروكهوس » في لايبزيج (وهي نفس الدار التي نشرت مذكرات كازانوفا) في عام ١٨٣٥ ، ثم قام ناشر هولندي مجهول بنشر نفس الكتاب ــ في ترجمة عن الالمانية ــ بالانجليزية في عام ١٨٦٣ . فتحت الكتاب على فصل عنوانه : « حول خرافة ان كل النساء متشابهات في الظلام » .

روبين : اتوسل اليك يا سيدي ، اكمل تعاليمك ، لانني متعلق بكلماتك تعاقي بمعرفة مصيري .

لوردكوبالد : انك تثير غروري ، يا ولدي العزيز . والكنني اجد جزائي الحق في اتفاقك معي على اهمية الحصول على هذه المعرفة الرقيقة . علينا الان ان ننظر في امر الخرافة ، التي روج لها كلود دي كريبيون ومستر كليلاند ، والتي عبر الناس عنها بالكلمات التي تقول : « كل القطط في الظلام ، رمادية اللون . » يمكنك ان تصدقني في هذا الامر ، حينما التفت الان الى الوراء نحو حياة باسرها في معرفة النساء ، فلا يمكنني ان اتذكر ان امراتين منهما كانتا متشابهتين حينما تنفرج السيقان . انني لا اتحدث الان فقط عن مناطق البهجة المنخفضة التي قد تكون ممتلئة او بارزة العظام ، احيمة او نحيفة ، غائرة او نافرة ، ولكنني اتحدث عما ينبغي لي ان ادعوه بالروح التي تقيم في هذا المكان . وليس هناك رجل طيب الارومة يمكن ان يخلط بين نبيذ بورجوندى الداكن ونبيذ بوردو الاصهب ، ويستطيع حتى الطفل ان يذكر الفرق بين التفاحة والكمثري ، رغم ان ثمرة قد تكون ناعمة كثيرة العصارة ، وقد تكون اخرى صلبة جافة . هكذا الامر مع النساء . وتماما مثلما يحكم على مذاق النبيذ من خلال الجرعةالاولى، فان النكهة المتميزة لفتاة ما يمكن ان تدرك بوضوح في حركة الملامسة الاولى حينما تستقبل الشفتان الورديتان الطوليتان الراس القطيفي بينهما . لقد عرفت خادمات كن حادات وطازجات ، مثل تفاحة تأكلها تحت ضوء القمر ، واخريات كن رطيبات ناعمات مثل كمثراة او ثمرة خوخ . واخريات ملمسهن صلب تستدير اجسادهن لحظة العناق ، ولكن داخلهن كان حلو المذاق ، مثل ثمرة شمام ناضجة . . .

وضعت الكتاب جانبا ، ونظرت عبر المكتب الى كافين ، الذي كان ما يزال مستغرقا في مقالة « رفض الفلسفة هيوم » . لو انه قد رفع بصره الي ، لكنت جديرا بأن اقول : هذا شيء مزيف آخر . ربما يكون دونللي هو كاتب الصفحة الاولى ، لانها تتميزبذلك الاقتحام السيكولوجي الذي اصبحت اعرفه واتوقعه

عنده . ولكن الفقرة ، المكتوبة عن الشقيقتين تحمل لمسة من تأثير كتاب صاد « فلسفة في حجرة النوم » ، اما الجملة الاخيرة فتحمل اثرا قويا عن القسوة التي لا يبررها حتى ما تتميز به من تبصر سيكولوجي واضح .

ولكن كافين رفع بصره عن المخطوطة بعد قليل ، وكنت قد غيرت رايي وقررت الا اتكلم . فلو انني وضحت الاسباب التي تدفعني الى الظن بان ما قراته الان كان عملا مزيفا لكان علي ان اعترف بهذا الشكل بأنني اعرف المزيد عن اعمال دونللي . وهكذا ، فقد ابديت ـ بدلا من هذا ـ بعض الملاحظات حول ما في هذا الكلام من جاذبية . اما كافين نفسه فكان مغتبطا بمقالة « الرفض » وسألني ان كان له ان يأمر بنسخها ، لكي يكتب مقالا حول تطور اسلوب دونللي .

ووعدته بان اتيح له فرصة الحصول عليها بعد ان اطلع الانستين دونللي على الموضوع ، ثم تركته وانصرفت . كان النهار قد جاوز منتصفه ، وكان علي ان اذهب الى « ليمريك » . وبعد ان جاوزت اورانمور فقط تذكرت انني قد نسيت ان اسأله ان كان يعرف اي شيء عن فضيحة ذكر فيها اسم لادى ماري جليني .

تركت ديانا وموبسي في ليمريك حيث كان بأمكانهما ان يقضيا بضع ساعات في شراء الحاجيات والتجول بين البضائع ، ثم ركبت السيارة على طريق كورك ، عبر ريف مسطح ناعس كانت خضرة كثيفة ساخنة قد جللته تحت شمس ابريل الساطعة . توقفت في بلدة « باللي كاهين » لكي اسأل عن قلعة دونللي ، فقيل لي انني قد توغلت في الطريق الى ابعد مما كان ينبغي لي ، وان علي ان اعود ثانية صوب بلدة « آدير » لكي ادور مع الطريق من ناحية معاكسة . وعلى هدي هذه التعليمات ، تمكنت من التوقف عند باب قلعة دونللي حوالي الساعة الثالثة .

ولم يكن البيت قلعة بالطبع ، وانما منزلا من الطراز الذي ينسب الى عصر الملكة آن ، وقد شيد باحجار فضية ، واحاطت بمدخله اعمدة كورينتية من صخور حمراء . وكانت الجدران مكسوة بالسناج ، واكتسى المنزل بجو من الاهمال الشائع في المنازل الايرلندية العظيمة ، وبشكل خاص في مقاطعتي « كونوت ، مونستر » . قادني السلم اللطيف ذو الدرجات الحلزونية الاربع عشرة الى الباب الامامي . كانت سطوح الدرجات المنحوتة غير مستوية حتى انني تعجبت كيف يستطيع اي انسان ان يصعد او يهبط دون ان يلتوي كاحله . كان نهر « ماي » يجري الى جانب المنزل ، واطلال دير آبي تنتصب عند الافق . وشعرت بالصدمة حين خطرت لي فكرة ان هذا المنزل كان يبدو جديدا وجميلا حينما ولد فيه دونللي ـ لانه كان قد شيد حوالي ١٧٠٠ ، وان الجدران لم تكن مكللة بالسناج كما هي الان حينما كان هنا . كانت هذه « الذكرى » اشبه بالقفز الى الوراء نحو الماضي ، تولد عنها احساس مزعج بجريان الزمن السريع .

وقبل ان ابلغ قمة الدرج ، فتح الباب ، وبدت وراءه سيدة قوية نشيطة في ثياب الركوب ، كانت قد جمعت فوق راسها شعرها الرمادي بلون الحديد ، ووقفت مباعدة ما بين ساقيها مثل صورة لواحد من سادة الريف في لوحة من لوحات

رولاند سون . وكانت مصافحتهـا قويـة وثابتة مثل مصافحة الرجل . قالت :
« انا الين دونللي . سعيدة لمقابلتك »

كانت لهجتهالهجةالطبقةالعليـا من الانجليز ، مع لمحة من اللهجة الايرلنديـة تبدو في متحركات الحروف . ثم اضافت تقول : « يسعدني ، انـك جئتبالفعل».

كان المكان مقبضا وباردا ، وبدا في مؤخرته سلم ضخم كثير الدرجـات يؤدي الى الاقسام العليا من المنزل التي يبدو انها لم تعد تستعمل . كـان هنـاك قدر كبير من المرمر الذي يتناقض بغرابة مـع ورق الجدران الفيكتوري المتناثر في كل مكان . ولكـن غرفة المكتبة الواسعـة التي قادتني اليها كانت تضم نارا كبيرة في المدفاة . وكانت هناك سيدة اخرى ، تعمل بابرتها الى جوار النار ،وان لاحت عليها سمات الرجولة هي الاخرى . قدمتهـا الي السيـدة الاولـى باسـم « ميس تينا » . كانت ضئيلة الحجم ، حلوة الوجه ، ولا بد ان الثياب النسائية كان يمكـن ان تناسبها اكثر . وخمنت ان سراويل الركوب المنتفخة كانت بهدف الاحتماء من البرد . عرضا علي ان اشرب الشاي ، ومضت ميس تينا لكي تعده . وقفت ميس الين امام النار، وقد باعدت ساقيها ، ووضعت يديها وراء ظهرها ، ودخلت معي في محاورة عامة حول الطقس والريف وما الى ذلك . ثم تكلمنا حول اميركا . وبدا عليهـا انهاشديدةالتطلع الى معرفة كل شيء عن اميركا ، وبعـد عشر دقائق او نحوها ، قالت بطريقـة عابرة انهـا سمعت ان هناك من الاميركيين من هو على استعداد لدفع مبالـغ ضخمة من المال لقاء منازل من هذا النوع . قلت انه من المحتمل ان يكـون الامر كذلك فعلا . سألت : كم يدفعـون ؟ فحاولت ان اخمن قيمة المنزل بسرعـة ثم قلت ان الشخص العادل من المحتمل ان يدفـع خمسة وعشرين الفا لقاء هذا المنزل . سألت بسرعة : « جنيهات ام دولارات ؟ ». قلت : جنيهات . وعند هذا بدا عليها انها تفكر بجدية وباستفراق كاملين . وبينما كانت ميس تينا تصب الشاي ، مستخدمة طاقم شاي جميلا من القرن الثامـن عشر من المحتمل ان تكون كريستينا شقيقة روبين قـد استخدمته بنفسها ،تبينت فجاة لماذا كانتا مهتمتين الى هذا الحد ، بعمليـة احياء ذكـرى ايزمونـد دونللي وانعاش شهرته . لم يكن لهاتين المراتين اي اطفال ، فلماذا لا يبيعان هذا المنزل الضخم غير المريح ، ثم يشتريان شقة جميلة في لندن ؟ وبدا شعوري بالذنب — بسبب هذا البحث عن دونللي — يتناقض . ان نشر كتاب :« مذكرات افـاق ايرلندي » يمكن بالتأكيد ان يزيد من شهرة جدهما اكثر مما يمكن ان يزيـدها كتاب مذكرات الرحلات او مقالة « رفض لفلسفة هيوم » .

سألتني ميس تينا عن كولونيل دونللي ، فاخبرتها بالقليل عن اطوار حياتـه في السنوات الاخيرة . وبدا عليهـا الحزن الشديد . قالت اختها :

« يا للرجل المسكين ، علينـا حقا ان نكتب اليه يا الين » .

« ربما . يبدوانني اتذكر انه كانت هناك بعض الشائعات حوله . هل وجدته غريبا او شاذا يا مستر سورم ؟ »

قالت : « كلا ، باي شكل من الاشكال » .

قالتميس الين وقد غرقت في التفكير ثانية :« بالطبع . انه ليس سوى ابن عم من الدرجة الثانية » .

كان بوسعي ان ارى‌انها تفكر في الزواج ـ ربما من اجل تينا . وخطر لي ان الكولونيل دونللي ربما اعجب بالين ، فقد بدت كما او كانت تملك يدا ماهرة في الامساك بسوط الركوب القصير . وسجلت ملاحظة باطنية لكي اتذكر من بعد ضرورة خلق اتصال من نوع ما مع دونللي .

قالت ميس ايلين : « حسنا » اذا كانت زوجتك في ايمريك ، فانك بالتأكيد لا تريد ان تقضي كل فترة ما بعد الظهر هنا فيما اعتقد . انها مكان مخيف ، ليمريك هذه . هناك الكثير من المتهوسين الملاعين. لقد احرقوا احد اجدادي قديما في عام ١٥٤٠ . انه الاسقف دونللي المعروف باسم جو المقدس . لم ترق لهم مواقفه وآراؤه السياسية » .

قادتني وهي تتحدث الى حجرة صغيرة ملحقة بالمكتبة . كانت هناك مدفأة كهربائية ذات قضيب معدني متوهج واحد ، ولذلك فان الغرفة لم تكن شديدة البرودة ، كذلك فأن الحجرة كانت قد نالت شيئا من دفء الشمس التي مالت الى الغرب . على مائدة صغيرة كانت هناك اضمامتان كبيرتان للاوراق من النوع‌الذي يصنع بحيث يتخذ شكل الكتاب . فتحت احدى الاضمامتين ، فتسارعت نبضات قلبي وانا احاول التعرف على « الخط »الذي كتبت به الصفحة الاولى من الاوراق الصفراء الكبيرة الحجم . قالت :

« لقد وضعت قصاصات من الورق في الاماكن التي ظننت انها قد تثير اهتمامك اكثر من غيرها . انه يصبح كاتبا احسن بكثير في لحظات الوصف . حسنا ، سوف اتركك الان لهذه المخطوطة ، وسوف تظل تينا في المكتبة لكي تناديها اذا احتجت الى شيء ما » .

تركتني بعد هذا بمفردي ، وبدات انا القراءة ـ بسرعة ـ على الفور :

« شارع جراند شوميير ، ١١ سبتمبر ١٧٦٦ .

(اي حينما كان دونللي في الثامنة عشرة على الارجح)

« بابا العزيز

كان خطاب التوصية الموجه الى مسيو بليزيو مفيدا للغاية ، وقد تناولت العشاء مع اسرته في الليلة الماضية . وهو يبعث اليك بارق تمنياته وافضلها . لقد عانى عمله من بعض الانعكاسات في الاعوام الماضية ، ولكنه ما زال يعيش طبقا لما تفرضه التقاليد والاوضاع المقررة تماما . انه يعتكف في حجرته في ساعة مبكرة بسبب اصابته بمرض النقرس ، وقد اصطحبتني مدام بليزيو وابنتاها اللطيفتان في نزهة على الاقدام على طول الحديقة التركية التي تبدو مقاهيها مناظر مدهشة ومتفردة الى اقصى حد . هذه المقاهي لا تزدحم بالداخل فقط ، انما توجد حشود اخرى خارجها وثالثة تطل من النوافذ المرتفعة ايضا ، يستمعون جميعا

في « فضول دون مبالاة » الى مغنين وعازفين من نوع معين يطلون على جمهورهم من فوق المقاعـد التي يعتلونهـا...

عبرت ما تبقى من الخطاب بنظرة سريعة . كان في مجموعه ممتعا، يحتوي على مادة إخبارية من النوع الذي يمكن ان تتوقعه في كتابات هوراس والبول او آرثر يونج ، كان من الواضح انه خطاب شاب يرغب بشدة في ان يؤكـد انه لا يضيـع حياته ولا امواله سدى . ونظرت سريعـا الى الخطابات الاخرى ، ورحت انتقـي خطابا من هنا واخر من هناك عشوائيا لكي اقراه كله . ومن خلال القراءة ، تعمق لدي احساس بخيبة الامل. لم يكـن هنا شيء من النوع الذي لم يكـن بوسعي ان اجده في « يوميـات الرحلات » . وفي الحقيقة ، لا يمكن ان يكون هناك سـوى القليل من الشـك في ان اجزاء من تلك الخطابات قد استخدمت في تصنيف كتاب « يوميـات الرحلات » .

وكانت الاضمامتان تحتويان عددا هائلا من الاوراق : خطابات ، ووثائق قانونية وشذرات من رواية ذكرتني ــ في اسلوبها ــ برواية « ايفلينا » التـي كتبتها فاني بيرني ، وحسابات ايجارات وريع بعض العقارات والاملاك ، وخطابات لتقديم بعض الاشخاص ــ انها عادة من النوع الذي قد يبتهج به كاتب تراجم اكاديمي . سجلت بعض الملاحظات على سبيل المحافظة على المظاهر ، وحتى اتمكن من مواجهة اسئلـة اذا ما حاولت ميس اليس ان تدخل لتطل على ما افعله ــ ولم يكن هذا بدافع الاهتمام الحقيقي . كان هنـاك شيء يبعث على الاحساس بالخيبة بشدة فـي كل هـذه المادة ، التـي يرجع تاريخ كتابة اكثرهـا الى مـا بيـن عامي ١٧٦٠ ــ ١٧٨٥ . فقد اردت ان اعرف اسمي الانستين بليزيو ، واذا ما كـان دونللي قد اجتذبته احداهما. كانت هناك اشارات عديدة اليهمـا في غضون الشهور القليلة التالية . ولكن لم تكن هناك كلمة واحدة تشير الى جمالهما او عاديتهما ، دع عنك مسألة مـا اذا كان دونللي قد مال نحوهمـا عاطفيا ام لا .

حاولت ان اطمئن نفسي بفكرة انني سأبدو كالابله ان توقعت ان تحتوي اوراقه العائلية على اي توضيحات من هذا النوع. فان اي شيء من هذا القبيل كان جديرا بأن يتم تدميره في خلال العصر الفيكتوري ، او حتى على يدي الشقيقتين دونللـي اللتين كانتا مضيفتيّ الان . وبشكل ما ، شككت في ان تكون الشقيقتان قد نزعتـا اي شيء من هذه الاوراق العائليـة ، فقد كانتا شديدتي البراءة والوضوح في كـل ما يتعلق بسلفهمـا القديـم .

اطلت ميس تينا من الباب وسألتني ان كنت ارغب في المزيد مـن الشاي ، فاعربت لها عـن شكري واكتفائي بما شربت . سالتني عـن تطور عملي ، فاجبتهـا بأدب انني وجدت كل شيء مثيرا للاهتمـام . وحينئذ اخرجت من جيبـي الفقرة المقتبسة من كتاب بوزويل واطلعتها عليها . قلت :

« هل لديك اية فكرة عن السبب الذي يجعل الدكتور هوارد يكره دونللي ؟»

هزت راسها نافية ثم قالت : « كلا ، باستثناء .. الم يكن يكره الايرلنديين عمومـا على اي حال ؟»

قلت انني لا اظن ذلك . ثم اضفت :

« ليس هناك في هذه الاوراق ما يشير الى ان دونللي كان « عضوا في جماعة العنقاء ذا ميول شريرة لا تخبو ».. انما برز مـن خلالهـا في صـورة الشخص المحتـرم الوقور » .

قالت : « اوه ، لا اظن انه كان محترمـا الى درجة شديدة جدا » .

« لم لا ؟» .

« اوه ، لا اعرف ، كانت هناك اقاصيص ـ شائعات . لا شيء محدد تحديدا كامـلا . لقد امضي اوقاتا كثيرة في سويسرا وايطاليا ، اليس كذلك ؟. وانا اعتقـد ان الناس كانوا اشرارا الى حد مـا في ذلك الوقت .»

قالت عباراتها الاخيرة في كآبة وحزن وهي تنظر من النافذة الى النهر حيث كانت اشكال الشجرات وجذوعها الطويلة منعكسـة بوضوح . وبعد لحظة اضافت تقـول :

« طبعا ، لا بد ان الدكتور جونسون كان يقصد نوعا من التورية . فان غلاف مذكرات ايزمونـد يحمل صورة لطائر العنقاء » .

فكرت في هذا للحظـة خاطفة ، ثم قلت :

« كلا ، ان هذا مستحيل . لقد قال جونسـون ملاحظته تلك في عـام ١٧٧٣ . وقد صدرت الطبعة الاولى من مذكرات الرحلات في عام ١٧٩١ » .

«لا اظـن هذا صحيحا . وانا واثقـة من ان لدينا طبعـة تسبق هذا التاريخ. اتسمح بأن تأتي لكي تبحث عنها ؟ ليست عيناي على ما يرام ..

ذهبنا الى المكتبة، فقالت بغموض ودون تحديد :

« يبدو انني اتذكر ان الكتاب موجود على احد الرفوف العليا هذه .. »

كانت الكتب تتصاعد الى ارتفاع يزيد على عشرة اقدام . اخذت سلم المكتبـة الذي كـان مستندا الى احد الجدران ، وتسلقته الى الرف الذي اشارت اليـه . مضت خمس دقائق من البحث قبل ان اصل الى عدد من المجلدات ذات الاغلفة الجلدية وقد طبع اسم دونللي على « كعب » كل مجلد . وكان بعض هذه المجلدات نسخا من الطبعـة الصغيرة ـ بحجم الجيب ـ من يوميات الرحلات التي كنت قد رايتها عند الكولونيل دونللي . وكانت هناك طبعـة اخرى من يوميات الرحلات تقع في اربعـة مجلدات ، وقد طبعت في لندن عام ١٧٩٣ ، ووردت فيها ملاحظة تقول : « الطبعـة الثالثة » . وكان هناك ايضا مجلد اكبر حجما ، صنع غلافه الجميل من الجلد الذي ظهرت عليه علامات الزخرفة حتى بعد قرنين من الزمان . وكان عنوانه :«ملاحظات حـول فرنسا وسويسرا » تأليف ايزموند دونللي ، طبع من اجل ج.ج. جونسون (ثم قائمة كبيرة باسماء اخرى)، لندن ، ١٧٧١ . كان الغلاف الامامي والصفحـة الاولـى يحملان صورة لعنقاء تهب من بين نيرانها ، وقد رسمت بالاسلوب المعهـود لرسم الشعارات الذي يمكـن ان نراه على اوراق الرسائل القديمـة . وحينمـا

حدقت فيه خطر لي ان الريش المنتصب على صدر الطائر يمكن ان ينظر اليه احد اصحاب مدرسة التحليل النفسي الحديث باعتباره رموزا للعضو الجنسي المذكر . ان الريش على صدر الطائر العادي ، على اي حال ، لا بـد ان يكون اتجاهه الـى اسفل ، بينمـا تكـون اطرافه ناعمة مستديرة ، امـا هذا الريش فكان منتصبا الى اعلى ، واتخذت اطرافه شكل اصابع « السجق » . قلت :

« من الغريب ان احدا لم يذكر هذه الطبعة من قبل ، ولا يبدو ان الكولونيـل دونللي يعرف عنهـا شيئا » .

« هذا محتمل . وانا اعتقد ان كل نسخ هذه الطبعة قد دمرت » .

« لمـاذا ؟ »

« لقد شب حريق ما . وسوف تجده مذكورا في احد الخطابات . لقد رايت هذا الخطاب بالامس فقط » .

هبطت من فوق السلم ،حاملا معي الكتاب . وذهبت ميس تينا الى الحجرة الاخرى ، وبعد بحـث استغرق خمس دقائق سلمتني الورقـة الاخيرة من احد الخطابات . كانت الورقة المخطوفة تقول :

« كارثة ! لقد اخبرني توك الان بأن مطبعة جونسون قد احترقت عن آخرها . وانني لسعيد الحظ لان هذه الحادثة لم تكلفني شيئا » .

وكان تأريخ الخطاب ١١ سبتمبر ١٧٧١ . اذن فان هذا مـا يفسر ان كتاب « ملاحظات حول فرنسا وانجلترا » ظل مجهولا دون ان يسمع به احد. وبالاضافة الى هذا ، فأن حتى هذه النسخة ، مثلما يمكنني ان ارى ، لم تقرأ قراءة كاملة من البدايـة الى النهاية، لان كثيرا من صفحاتها لم تكن قد قطعت بعـد . رحت اقلب الصفحات حتى توقفت عيناي على كلمة « عنقاء » . قلبت ثانية الى الصفحة السابقة وقـرات الفقرة كلها. في هايدلبرج انكسرت العربة التيكان من المفروض انيستقلها دونللي فـي رحلة خارج المدينة . وقال له صاحب الفندق انه لم يكن من الممكـن ان يوفر له عربة اخرى ، ولكنه اخبره بأن الخوري المحلي ، القس كرايز يملك عربة يؤجرها احيانا للضيوف المرموقين . وعثر دونللي على كرايز في حديقته يتطلع الـى براعم الزنابق ، فأخذه لكي يرى العربة التي كانت قائمة في حظيرة قريبة . وقال الخوري ان العربة لم تستخدم طوال الشتاء وانها قد تكون متربة مبللة ، ونظر دونللي اليها وقرر انها ستكـون عربة جميلة بعد خمس دقائق من العمل في تنظيفهـا ، ورفض الخوري ان يأخذ نقودا ايجارا لعربته . وفي طريق الخروج من الحظيرة ، لاحظ دونللي صورة خشبية لطائر العنقاء ملقاة على الارض وقد غطى القش نصفها. وسأل الخوري عـن سبب وجود هذه الصورة فيهذا المكان ، فقيل له انها كانتضمن صفقـة اثاث كان قد اشتراها في مزاد منذ عام مضى . ولما شعـر بانهـا شيء لا يتلاءم مع خوري محترمفقد القى بهـا الى الحظيرة . وفي شيء من الدهشة سأل دونللي عن السبب الذي يجعلهـا لا تتلاءم مع قس محترم .

« بدت عليه الدهشة لجهلي ، وسألني ان كنت لا اعلم ان هذا الطائر كانرمزا

لجماعة من الهراطقة المجدفين ، يعرفون احيانا باسم « اخوة الروح الحرة »واحيانا يعرفـون باسم « جماعة العنقاء » . واجبته بانني لا اعرف الا ان العنقاء كانـت تستخدم احيانا كرمز يعلق على دكاكين العطارة او الصيدليات ، وانني كنت افترض ان لهذه الصورة مغزى كيمائيا من نـوع ما . وهنـا راح الرجل العليم يحاضرني في تاريخ جماعة العنقاء . فقال انهـا ظهرت في اوروبا في عصر الطاعون (المـوت الاسود)، حينمـا شاع اعتقاد يقول بأن الاغراق في اللذة الجسدية وشهوتها وقاية مؤكدة من المرض . وكانت الحجة الاساسية لهذا الاعتقاد تقول : انـه لا يمكـن ان تكون هناك روحانية اصيلة بغير جوانية . ان الانسان لا يستطيع ابدا ان يعـرف الحقيقة بينما هو يتطلع الى الخارج نحـو ما يحيط بروحه ، مفرقا نفسـه فـي الاشياء الخارجية . ان الروح في ذروة اللذة الجنسية ـ تكون اكثر تركيزا منهـا في اي لحظة اخرى . وقد اعتقد « اخوة الروح الحرة » ان « الله » كـامن في كل مكـان وفي كل شيء . وان كل اختلاجة من اختلاجات البهجة انما هي كشف من الله . وباسم هذا الاعتقاد، راحوا يمارسون كل اشكال الاسراف الشهواني ، ويحدث هذا احيانـا فوق المذبح نفسـه . وقد اقتلعت محاكم التفتيش هذه التعاليم مـن جذورها بقسوة عنيفة ، ولكن ثبت ان « جماعـة العنقاء » كانت تحمـل الطبيعـة الاسطورية التي نسبت الى الطائر الذي اتخذته رمزا لها ، فبرزت من جديد ، مـرة بعد اخرى ، من وسط رمـاد عامود الاحراق الذي مات عليه بعض اعضائها . وطبقا لمـا قاله هيرودوتس من ان عمـر العنقاء يبلـغ خمسمائة عام ، فاننا يمكن ان نؤكـد بثقـة ان هذه الجماعة سوف تستمر في الازدهار على الاقل لمدة قرن آخر .

واجبته بانني قرات في رسالـة سانت كليمانت الروماني الى اهل كورنته قوله ان العنقاء رمز للبعث المسيحي، ولكن الرجل الطيب اجابني بان هذا نوع من الشيطنة البابوية ، وان كل الناس يعرفون بأن سانت كليمانت قد قيد الى مرساة سفينة والقي به في البحـر كعقاب له على مبالغاته . وحينئذ عرضت عليه ان اخلصه او اريحـه من امر هذا الرمز للانحطاط البابوي ، فاتفقنا على ثلاثـة تاليرات ثمنا الصورة الخشبيـة » .

كانت هذه هي نهايـة الفقرة ، ثم لا ذكر لمـا حدث لصورة العنقاء المحفورة على الخشب . نقلت الفقرة كلهـا بخط اليد ثم ذهبت الى المكتبة وسألت ميس تينا اذا كانت تعرف شيئا عـن وجود صورة محفورة على الخشب لطائر العنقاء في المنزل ـ فقـد بدا لي ان مثل هذه الصورة يمكـن ان تكون رمزا ملائمـا لكي يوضع على غلاف المجلد المقترح طبعـه من مذكرات دونللي . قالت انها لم تسمع عن وجود مثل هـذه الصورة ابدا ، ولكنهـا ابدت استعدادهـا لسؤال شقيقتها . وقبل ان اتمكن مـن ايقافهـا كانت قـد غادرت الحجرة . جلست على ذراع احد المقاعد ، ورحت اتطلع الى « الملاحظات » دون اهتمـام. انزلق الكتاب من فوق ركبتي وسقط على الارض، فوقف على حافته وقد انفتحت صفحاته . وحينمـا كنت التقطـه ، ادهشنـي ان شعرت بأن الغلاف الخلفي كان اكثر سمكـا من الغلاف الامامي ، والاكثر من هذا ،

كانت الورقــة اللاصقــة للغلاف غير محكمــة الالتصاق ،وعلى عكس الورقة المعاقبة للغلاف الامامي ، فانها لم تكن ملتصقة بالورقة الاخيرة من الكتاب . تنيت الغلاف بخفة ، لكي ارى السبب الذي جعله مفتوحا بهذا الشكل ، فتبينت انه يوجــد ثمــة جيب بين الغلاف المصنوع من الورق المقوى وبين الورقــة اللاصقة للغلاف نفسه ، وكان الجيب قد صنع بالصاق الاطراف الخارجيــة لهذه الورقة الى الورق المقوى . وفي داخل هذا الجيب كانت هنــاك ورقــة غير مطوية . سحبت الورقة من مكانهــا وفتحتها . كانت الورقــة من نوع ممتاز ، شديدة البياض ، شديدة الرقــه ، ولــم تكــن تحتوي الا على رسم رقيق لعنقاء طائعــه من عنــها الملتهب بالنار ، وكتــب تحت الرسم felix qui potuit rerum cogroseere causas ، وهي جمله لاتينية استطعت ان اتذكر انها مقتطفة من المعنى الذي اورده فيرجيل : « سعيد هو الرجل الــذي استطاع ان يكتشف اسباب الاشياء » . اما ما اثر في حقا فكــان الطائر نفســه . كــان الجناحان وريش الذيل من الذهب ، مثلمــا كانت اللهب المتصاعدة من العش. اما بقيــة جسد الطائر فكــان مرسومــا بالدقــة التي تراها في رسوم بليك . وفي الركــن الاسفل الى اليمين ، وبخط ايزموند دونللي الذي لا يمكن ان اخطئــه كانت جملــة تقــول :

« تسلمتها في ١ سبتمبر ١٧٧١ » . ولو ان هذا التاريخ لم يكن مذكورا، لكان من العسير علي ان اصدق ان الرسم لم يكن احدث عهدا به بكثير ، لان الورقة كانت اكثر بياضــا ورقــة من كل ما رأيت من اوراق تلــك الفترة من التاريخ ، ولم يكــن يبدو عليهــا اي سمــةمن سمــات تقادم الزمن .

سمعت خطوات ميس تينا في عودتها ، فدسست الورقة في الكتاب . قــالت لي انه من المؤكد ان ليس ثمة صورة خشبية لعنقاء في المنزل، الا اذا كانت مخبأة في احدى الغرف العاويــة المغلقة . شكرتهــا واعتذرت لمــا تسببت فيه من ازعاج، ثم اعدت كتاب « الملاحظات » الى مكانه على الرف . دخلت ميس الين وسألتنــيعن تقدم عملي ، ثم بدت عليها خيبة الامل بوضوح حينما قلت ان علي ان ارحل فورا . اكدت لها انني وجدت عددا كبيرا من المعلومات القيمــة بين الاوراق ، واطلعتها على كراســة مذكراتهــا لكي اثبت ذلك . اصطحبتني الشقيقتان معــا الى باب المنــزل، وقالتا لــي ان اعود في اي وقت .

قدت سيارتي الى ليمريك وانا غارق في افكار متضاربة ، وربمــا يمكن ان يقال ان هذه الساعات قد ضاعت دون فائدة ، ولكن هذا القول لا يمكــن ان يكون صائبا كل الصواب . لقد عرفت انشخصيــة ايزموند كانت ذات جانبين : الابن البار المخلص وكاتب يوميات الرحلات الدؤوب ، ثم « المســافر الشبق » اذا حــق لنا ان نستعير هذه العبارة من السير ريتشارد بيرتون . ولا يمكن لاي دارس يدرس المادة الموجودة في قلعــة دونللي ان يخمن وجود المســافر الشبــق .

ثم لقــد كان هناك اللغــز الصغير الذي تمثله صورة العنقاء . تحدثت بشأنه مع ديانا بينمــا كنا نعــود بالسيارة الى جالاواي . ان الخطابات تقرر ان كتــاب

« ملاحظات حول فرنسا وسويسرا » قد نشر في شهر يوليو من عام ١٧٧١ . اما حكاية هايدلبرج ـ حيث اشترى صورة العنقاء الخشبية ـ فقد وقعت في شهر اغسطس من العام السابق . ولسبب ما ، استخدم دونللي صورة العنقاء كرمز لكتابه على الفلاف ـ وربما كانت الصورة التي طبعت على غلاف الكتاب نسخة طبق الاصل عن تلك التي اشتراها من الخوري في هايدلبرج . وفي اليوم الاول من سبتمبر « تسلم » رسم العنقاء الجميل الذي رايته مرفقا به ذلك الشعار اللاتيني الجميل عن اكتشاف اسباب الاشياء . ومن المفترض ان هذا معناه انه قد تسلم الرسم عن طريق البريد . واعترضت ديانا قائلة ان المعنى الاقرب ان دونللي قد تسلم الرسم من الشخص الذي كان هو قد كلفه بصنعه . ولم اوافقها على ذلك بقولي انه لو كان هذا صحيحا فلماذا كلف نفسه عناء كتابة : « تسلمته في ١ سبتمبر » . ولو انني تسلمت بالبريد كتابا كنت قد طلبته ، فانني بالفعل قد اكتب عليه اسمي وتاريخ وصوله ، ولكنني لا اكتب « تسلمته » لانه من الواضح انني قد تسلمته . اننا نستخدم كلمة « تسلمته » « تم تسلمه » لكي نوضح عملية دفع قيمة الصكوك ، او للتحدث عن خطاب او رزمة . اما نظريتي فهي ان ايزموند قد تسلم رسم العنقاء دون توقع من جانبه ، ان الرسم وصله دون توقيع ودون ان يحمل اسم صانعه ـ والا لكان بالتاكيد قد كتب : « تسلمته من فلان او فلان » او حتى لكان قد احتفظ مع الرسم بالخطاب الذي ارفق به .

اذن فمن الذي يحتمل ان يكون قد ارسل الرسم ؟ شخص ما مهتم بالعنقاء باعتبارها رمزا ؟ او ـ وانا اعتقد ان هذا قد يكون مقنعا ايضا ـ احد اعضاء جماعة العنقاء كان الخوري كرايز قد ذكره ؟ كان الاحتمال الاخير احتمالا مثيرا، رغم انه لا يمكن الا ان يكون احتمالا بعيدا . وقالت ديانا انه احتمال بعيد بقدر بعد احتمال ان تكون احدى السيدات قد ارسلت اليه الرسم هدية او تذكارا ربما ارفقت به رسالة غرامية . تمنيت لو انني قد فحصته بدقة اكثر . فربما كانت الورقة تحمل علامة مائية تشير بشكل او بآخر الى اصلها. اليس من المحتمل ان ورقة ثمينة من هذا النوع لا بد ان تحمل الرمز الخاص بصانعها مدموغا في نسيجها الداخلي ؟ وكان عليّ ايضا بالطبع ان اقارن بين الرسم الموجود على الورقة وبين الشعار او الرمز الذي حمله غلاف الكتاب . ولوانهما كانا متطابقين ، لكان هذا حجة مؤكدة تشير الى ان ايزموند قد كلف شخصا ما بصنع رسم للطائر الخرافي الذي كان قد اشترى صورته من القسيس كرايز .

وكانت هناك ايضا تلك الحقيقة العجيبة القائلة بان ايزموند قد كتب يقول ان نسخ الطبعة كلها قد دمرت بعد اقل من اسبوعين من تسلم رسم العنقاء . ومن المحتمل ايضا انه من الامور ذات المغزى ـ او غير ذات المغزى على الاطلاق ـ انه ربما كان قد عاد الى استخدام رمز العنقاء على كتبه بعد هذا او انه لم يستخدمه بعد هذا ابدا ـ انني اعرف على الاقل ان هذا الرمز لم يكن موجودا على طبعة

مذكرات الرحلات التي رايت نسخة منها في لويزيانا ، او على تلك الطبعة التي رايتها في قلعة دونللي .

ولم تكن لدي اية فكرة عن الكيفية التي يمكن بها للمرء ان يتحقق من ان مثل هذا الحريق قد حدث ابدا ، كان هناك افتراض البحث عما حدث لمؤسسة ج. ج جونسون ، ومحاولة اقتفاء آثارها . ووجدت ان هذه الفكرة لا تبعث على التشجيع ، فانني لا املك الموهبة اللازمة للقيام بهذا النوع من الاعمال البوليسية. ومن سوء الحظ ان بوزويل كان في ادنبرة يتلقى تدريبا على اعمال المحاماة في السنوات بين ١٧٦٩ ـ ١٧٧٢ ؛ والا لكان بالتاكيد قد ذكر شيئا عن ذلك الحريق ـ طالما ان ج. ج جونسون كان ايضا هو الناشر الخاص للدكتور جونسون .

* * *

هذا هو ما يقدم السبب الذي جعل ايامي التالية لزيارتي لقلعة دونللي خالية من اي شيء ذي اهمية يتعلق بهذه القصة . كانت خطابات دونللي هي املي الذي تعلقت به ، اما الان فلم اكن واثقا مما ينبغي علي ان اقوم به بعد هذا . طلبت بالتليفون او زرت كل مكتبة عامة بين مدينتي كورك وسليجو . كانت بعض هذه المكتبات تملك نسخة من « مذكرات الرحلات » ولكن لم يكن لدى احداها اي شيء آخر . وحاول كيفين روش ان يقدم نوعا من العون ، مقترحا اللجوء الى بعض معارفه في العالم الاكاديمي الذين ربما كانوا يعرفون شيئا عن دونللي ، ولكن لم يؤد اي من هذه الاقتراحات الى شيء نافع . كتبت الى تيم موريسون في المتحف البريطاني ، والى كل بائع كتب قديمة اعرفه . ورغم ان تيم كان عاجزا عن اكتشاف مزيد من المراجع التي تشير الى دونللي ، فانه كان قادرا على اضافة فقرة واحدة الى « الملف » الخاص لدي بجماعة العنقاء . وكان ما كتبه كما يلي :

« لقد تبادلت حديثا مع تيد مالورى ؛ وهو خبيرنا المتخصص في شؤون الكنيسة في العصور الوسطى ، ودار حديثنا حول ما اسميته « جماعة العنقاء » وكانت لديه نتف مفيدة من المعلومات . قال لي انه ليس هناك دليل يثبت ان جماعة العنقاء واخوة الروح الحرة كانا شيئا واحدا . فقد كانت هذه الاخيرة جماعة من الهراطقة المجدفين ؛ اسسها رجل يدعى آلميريك دي بينا كان قد طرد من جامعة باريس عام ١٢٠٤ ومات في عام ١٢٠٩ . وكان اساس تعاليمهم ان الانسان يمتزج في الله عن طريق العشق ، وانه حينما يحدث هذا تصبح الخطيئة مستحيلة بالنسبة للانسان . ولهذا فقد مارست هذه الجماعة حرية جنسية كبيرة ، واحرق عدد كبير منهم على اعمدة منصات الاحراق ، وكانت بين هؤلاء امراة تدعى مارجريت من هيتولن ، وهي راهبة مزيفة ، يبدو انها كانت مصابة بداء الشبق او الغلمة » .

اما الاشارة الوحيدة الى جماعة العنقاء التي استطاع تيد ان يعثر عليها فوردت في كتاب سانت نيلس سورسكي (١٤٣٣ ـ ١٥٠٨) في نهاية مقالته الثالثة حول الصلاة الروحية . وهذه هي ترجمتها عن الالمانية من طبعة عام ١٩٠٣ ، وهي ترجمة بدائية جدا وخشنة :

« من الافكار التي شاع اعتناقها دائما ان المعتقدات الخارجة على العقيدة الصحيحة والهرطيقية لا تهدد بالخطر سوى اولئك الذين يعتنقونها ، والا اولئك الذين يتصلون بالاولين او يقعون تحت سيطرتهم . ولكن القديس ثيودوسيوس يقول لنا ان الله يبغضهم في حد ذاتهم ، وانهم قد يتسببون في عذاب (أو معاقبة) الابرياء . وان حالة جماعة العنقاء في مقاطعة سيميريشنسيك لتقدم اكثر الامثلة رعبا على ذلك . لقد آمنوا بانه يمكن للرجال والنساء ان يحصلوا على الكشف الالهي المقدس من خلال اللذة الجسدية بدلا من الصلاة . وان قريتهم (معسكرهم) بالقرب من بحيرة اسيكول كانت مليئة بالفسق والدعارة . ثم كان ان ارسل الله العزيز وباء قضى عليهم جميعا ثم انتشر الوباء من هناك في طول بلاد السكيثيين الشماليين وعرضها ، ومن ثم في العالم كله . وكان هذا في عالم الرب ١٣٣٨ . »

وبهذه المناسبة ، قد يكون من الامور الهامة بالنسبة لك ان تعرف ان الاثري الروسي تشوفولسون يؤمن بان الموت الاسود (الطاعون) قد بدأ في معسكر نسطوري بالقرب من بحيرة اسيك ـ كول في مقاطعة سيميريشينسيك ـ وهي مقاطعة في بلاد القرغيز بالقرب من حدود الصين والهند . وقد دافع عن هذا الراي وايده البروفسور ر. بوليتزير في مقالته « الطاعون » في نشرة منظمة الصحة العالمية الصادرة في جنيف عام ١٩٥٤ في الصفحة رقم ١٣ . »

كان كل هذا ساحرا للب بالطبع ، ولكنه اثار عددا من الاسئلة التي لا يمكن الاجابة عليها بحيث انه كان ايضا دافعا الى الشعور بالاحباط والخيبة . من الذي انشأ جماعة العنقاء ، ولماذا ؟ ماذا كانت تعاليمها ؟ كان القرنان الحادي عشر والثاني عشر عصرا تأسس فيه كثير من الجماعات الهرطيقية : الوالدنيين ، والالبيجانيين ، والخليسقيين ـ وقد اتهم الاخيرون دائما بانهم كانوا يقيمون احتفالات دينية ذات جو محموم تتحول الى ممارسات جنسية جماعية مسعورة . فاذا كان ينظر الى جماعة العنقاء باعتبارها مسؤولة عن وباء الموت الاسود ، فلماذا لم يعثر لها على وثائق كافية ؟

ولم يكن هذا بعيدا عن موضوع بحثي مثلما يبدو من مظهره . فلو انني لم استطع ان اعثر على المزيد من المعلومات عن ايزموند دونللي ، فانني قد اتمكن على الاقل من تغذية مقدمتي بمثل هذه المادة . اما فيما يتعلق بالنص نفسه فانه يمكن ان يتكون من مقتطفات من كتاب « عن افتضاض العذارى » ومن كتاب فليشر المتحول : « م. س » ، بالاضافة الى المخطوطة التي لا شك في صحة نسبتها والتي حصلت عليها من الكولونيل دونللي ، بالاضافة الى مقالة « رفض لفلسفة هيوم » . وكان معنى هذا ان مشكلتي الاساسية ما تزال هي العثور على مزيد من المادة لمقدمتي .

في يوم السبت التالي لعودتنا من اميركا ، وقعت احدى تلك المصادفات التي تعلمت منها ان اسلم ببعض الاشياء التي تتضمن اي نوع من انواع الهواجس او

الافكار المتسلطة . كانت ديانا ، وماري التي تأتي يوميا لمعاونتنا في شؤون المنزل ، تفحصان صندوقا قديما مليئا بالخطابات ، واضعتين في اعتبارهما ان تلقيا الى النار بأكبر عدد ممكن منها . والتقطت موبسي خطابا يحمل علامة خاتم على شيء من الدقة تعبر طرفه الاعلى ، وتمثل العلامة صورة الحية ملتفة حول جذع شجرة التفاح ، وهي تهمس لحواء . وبالطريقة التي يتصرف بها الاطفال حين يشعرون بأنهم لا يحصلون على ما يكفي من الانتباه ، جاءت موبسي الى حجرة المكتب حيث كنت جالسا اكتب وقالت : « انظر الى ما جئت لك به ، يا بابا . » وظننت ان ديانا هي التي ارسلت الخطاب معها فالقيت نظرة سريعة الى التوقيع وقرات : « كلوس دنكلمان » ثم نظرت الى الخطاب نفسه . كان تاريخ الخطاب عام ١٩٦٠ وكان خطابا متملقا حول كتاب « اليوميات الجنسية » الذي كان قد صدر في فترة باكرة من ذلك العام ، وكان كاتب الخطاب يسألني ان كنت على علم بأعمال ويلهلم رايخ ، ثم راح يسجل عناوين كتب ينبغي عليّ في رأيه ان اقراها . كان خطابا من نوع مألوف ، وحتى بالنسبة الى الايحاء بأن كاتب الخطاب يملك الكثير الذي يمكنه ان يعلمني اياه لو انني عنيت بان اصغي اليه ، وان علينا ان نتبادل الكثير من الخطابات الطويلة . وكانت ديانا قد كتبت عليه بخط مهوش :

« تمت الاجابة عليه ٩/ ١١/ ٦٠ » واعتقد انني قد شكرته على اقتراحاته ، ووعدته بان اقرا الكتب التي ذكرها . وكنت على وشك ان القي الخطاب في سلة المهملات القائمة الى جواري حينما التقطت عيني اسم « ا. دونللي » . وكانت الجملة تقول : « من الطبيعي ان تكون افكار كورنر قد اثارتها كتابات مفكرين متعددين : دى صاد وكراولى و « ا. دونللي » وكويرارار وادوارد سيلون .. الخ » . من الواضح ان كورنر كان تلميذا لرايخ الذي اعتقد ان النشوة الجنسية تحتوي سر الصحة النفسية .

وكان العنوان على الخطاب هو « كومبلين جاردنز ، هامبستيد الغربية . » وبدا لي انه من غير المتوقع ان يكون كاتب الخطاب ما يزال مقيما في نفس العنوان بعد تسع سنوات ، ولكن الامر كان يستحق المحاولة ، وهكذا فقد كتبت اليه خطابا اذكر له فيه اهتمامي بدونللي .

وفي يوم الاثنين التالي ، كان عليّ ان افكر من جديد في المشكلة المحرجة التي تمثلها الآنستان دونللي المقيمتان في قلعة دونللي . وصل خطاب في ذلك اليوم ، يحمل توقيعيهما معا ، ولكن يمكن ان نفترض ان كاتبته هي ميس الين . قالت ان مقابلتها لي كانت امرا ممتعا ، وكيف انها كانت قادرة على ان ترى من لمحة واحدة انني كنت جديرا بالثقة وان سمعة ايزموند سوف تكون في امان بين يدي . رحت ائن تحت وطأة شعوري بالحرج وانا أقرا الخطاب . كانت مسرورة من ان كاتبا له مثل سمعتي قد اهتم — في النهاية — بايزموند ، وشعرت بأنني ساكون الشخص المناسب للقيام بكتابة ترجمة ذات قيمة له ... القيت بالخطاب على الفراش واحتسيت قدح الشاي . كان عزمي الاول ان القي به في سلة المهملات

وان انساه . راودتني فكرة انه ليس سوى نوع لعين من المضايقة وانهما يجب ان تتركاني وشأني . ان لدي اشياء اخرى اقوم بها افضل من كتابة ترجمة معتمدة لها قيمتها . ومن الطبيعي ان يكون احياء الاهتمام بايزموند شيئا في صالحهما الى درجة عظيمة ، فانهما سوف تكونان قادرتين على بيع اوراقه الى احدى الجامعات الاميريكية بمبلغ كبير من المال .

ولكن المشكلة ظلت تؤرقني . كنت قد انتويت ببساطة الا اعود الى الاتصال بهما ثانية . وعلى كل حال ، فانني لم استفد في شيء بأي جزء من المادة التي تملكانها . انني لست مدينا لهما بشيء . وعلي الان ان امعن في الخداع ، او ان اقوم بعمل من اعمال كبح النفس بأن اتجاهل خطابها . وفجأة قررت انه ليس هناك سوى سبيل واحد بسيط : ان اخبرهما بالحقيقة كاملة . ارتديت بسرعة ثوبا منزليا وهرعت الى حجرة المكتب ، متلهفا على الخلاص من هذه الفكرة بتنفيذها. كان خطابا طويلا ــ وكان لا بد له ان يكون بمثل هذا الطول ، طالما انني كنت مصمما على التحلل من حملي . بدات بالاشارة الى انها لا بد تعرف ان كتاب « عن افتضاض العذارى » كان منسوبا الى دونللي ــ بل انني رايت منه نسخة في بيت استاذ في جالاواي . واخبرتها بأمر الناشر في نيويورك ، وشرحت لها انه كان مصمما على المضي في هذا العمل على اي حال ، سواء تعاونت معه ام لا . وبينت لهـا ان مخطوطة فليشر لم تكن سوى عمل مزور ، وانه في تقديري الخاص ، ليس هناك سبيل لتبرئة ذمة ايزموند ، في ظل الظروف الحقيقية القائمة ، سوى نشر اكبر عدد ممكن من اعماله الاصيلة الحقيقية . وبصراحة ايضا اخبرتها بانه لم يكن ثمة في الاوراق التي تملكها ما يمكن ان يكون ذا نفع لي ، طالما ان خطاباته التي كان يرسلها الى بيته كانت خالية من كل ما يدعو الى اللوم ، بالقدر الذي لا بد لكل انسان ان يتوقعه .

وفي طريقي الى صندوق البريد قلت لنفسي انه من المحتمل ان يكون ما افعله الان عملا غبيا . انني لم اذكر ما اقوم به لديانا ، طالما انني كنت واثقا من انها ستبذل جهدها لكي تمنعني منه . بل ان ميس دونللي قد تكتب خطابا الى الناشر والى هيئة حقوق المؤلفين تستنكر فيه مشروعي فتحجب عني كل مصادر المعلومات. ولكن كانت هذه مخاطرة لا بد لي من القيام بها وتحمل نتائجها . اسقطت الخطاب في صندوق البريد شاعرا باحساس الرجل الذي يسدد مسدسا الى راسه بنفسه .

وفي الصباح التالي ، كنت ما ازال مخدرا من اثر النوم حينما دق جرس التليفون . رفعت ديانا السماعة الموضوعة الى جوار الفراش ثم قالت :

« ميس الين دونللي تريد ان تكلمك . »

انتت متضجرا ، وشعرت بما يغريني ان اطلب منها ابلاغها انني لست في المنزل ، ولكن ضميري تدخل وكسب الموقف ، وقلت انها لو تعاركت معي ، فسوف استطيع على الاقل ان امضي في خطتي دون ان اكره نفسي .

جاء صوتها في التليفون : « هيالو ، مستر سورم ؟ »

« هو الذي يتكلم . »

« لقد تسلمت خطابك الان توا . انني شديدة السرور لانك كنت صريحا معي الى هذا الحد . هذا منتهى الرقة والدماثة من جانبك . لقد طلبتك الان لكي اقول لك انني افهم ما تقصده تماما . »

« اتفهمين قصدي حقا ؟ »

كنت مبهور الانفاس للمفاجأة ، وكنت اتساءل متعجبا عما ترمي اليه في النهاية .

« اسمع . استنتج مما تقوله انه ليس هناك الكثير الذي نستطيع عمله مع ذلك الناشر . »

« اخشى ان يكون الوضع بهذا الشكل . »

« حسنا ، بالضبط . اذن فان احسن ما يمكن عمله بعد هذا هو التأكد من ان الامور لن تفلت من ايدينا . علينا ان نحرص على مراقبته باستمرار . لقد اتفقت انا وتينا ان علينا ان نقدم كل مساعدة ممكنة . »

قلت انني اشعر بالابتهاج بالطبع . ولكني في الحقيقة لم اكن اعرف ماذا يمكن ان اقوله او افكر فيه . كنت بحاجة الى بعض الوقت لكي استجمع افكاري. ولكنها لم تمنحني الفرصة .

« اننا نود ان نناقش هذا الامر معك . متى يمكنك ان تأتي الى هنا ؟ »

« اي وقت ملائم لكما سيكون ملائما لي . »

« ما رايك في اليوم بعد عدة ساعات ؟ »

قلت انني موافق على هذا ، وشعرت بموجة من الراحة تجتاحني حينما انهت المكالمة وانقطع خط الاتصال .

في تلك اللحظات كانت ديانا قد اعدت الشاي ، وكنت قد بدات افهم ما حدث . ان الشقيقتين دوناللي لا تملكان ما تفقدانه بنشر « اليوميات الجنسية » التي كتبها ايزموند ، وخاصة اذا ما استطاعتا ان تبيعا المنزل . وقد اكدت لهما ان اليوميات لم تكن مجرد ادب داعر مكشوف ، وانها قد تؤدي الى خطوة حقيقية نحو بعث سمعة ايزموند ، وان في هذه الايام الحالية حيث تسود الصراحة الجنسية لن يطرف احد جفنه ازاء نشرها . وكنت قد اشرت الى مذكرات بوزويل وما اليها ، ولا بد ان ميس الين قد قررت انه من الافضل لهما ان تكونا في مركبة المقدمة من هذه القافلة المنطلقة الى الامام مع سائر العصابة . ومن المؤكد ان الكشف الكامل عن اوراقها سوف يكون نافعا في كتابة الجانب التأريخي عن حياة ايزموند في المقدمة . ولكنها اذا كانت تأمل في اقناع فليشر بدفع خمسة عشر الف دولار اخرى في مقابل استخدام تلك الاوراق وما تملكه من مواد عن ايزموند، فانها لا بد ستنتهي بآمالها الى الاخفاق والخيبة .

كنت اشعر بكآبة لا حد لها وانا اقود السيارة الى ليمريك بعد ساعات قليلة

من منتصف النهار ، وكنت قبل هذا قد اتصلت بكيفين روش واستعرت منه نسخته من كتاب « عن افتضاض العذارى » . وكنت احمل معي الان الشذرات الاخرى من « اليوميات الجنسية » ، ربما في ذلك مخطوطة فليشر الاصلية . ولكنه كان يوما جميلا . كانت رائحة الهواء طازجة ، وبدا كل شيء مجللا باللون الاخضر حتى لقد كان من المستحيل الا يستمتع المرء به . وحالما استرخت اعصابي وقررت ان انسى الشقيقتين دونللي ، اجتاحني احساس عظيم بالدفء والخصوبة ، وبامكانيات واحتمالات العالم الهائلة التي تحجبها ميولنا الى البقاء محصورين في سجون دوافعنا الصغيرة . وتبلور هذا الاحساس اكثر حينما جلست لكي احتسي قدحا من البيرة خارج دكان لبيع البقالة على بعد اميال قليلة الى الجنوب من جورت ، مصغيا الى خرير المياه وهي تنساب تحت الجسد وتجري نحو « لوف كوترا » . وفجأة اصبح شيئا غير ذي بال سواء ذهبت الى ليمريك ام بقيت في مكاني . سوف يستمر الماء يسيل في مجراه ، وسوف تبلى على حالها هذه الشجرة بأوراقها ذات الالوان الليمونية والتي تطل على المجرى كانها تراقبه او ترعاه . وخطر لي فجأة انه يكمن هنا واحد من اغرب واهم ما يتعلق بالوجود الانساني : هذه القدرة التي يمتلكها العقل الانساني على الابتعاد بنفسه عن الناس والاحداث ، وعلى التوقف عن تشبيه نفسه بالعواطف الانسانية او العثور على ذاته فيها ، وعلى محاولة التعرف على ذاته — بدلا من ذلك — من خلال اللانهائي وما لا زمان له ، عالم الطبيعة . ماذا يحدث ؟ وقفت على حافة الجسر ورحت ارقب الماء وهو يعكس اشعة الشمس ، وبدا لي ان شيئا ما في داخلي يسير مع سريان الماء ويجري معه في مجراه ، وينطلق بعيدا في اتجاه البحيرة . وحينما عدت الى السيارة وبدات اقودها ، اجتاحني احساس غريب كانما تحررت روحي من الجسد ، وكأنما كانت تطير بمحاذاتي مثل طائر طليق يحلق احيانا في الاعالي ثم ينقض فجأة الى اسفل من حين الى حين ، وحينما عاد عقلي الى الشقيقتين دونللي ، كان احساسي بالاختناق والضجر قد اختفى .

حينما رايت ميس ايلين وهي تهبط درجات السلم لتقابلني ، عبرت بي لحظة فهم مفاجئة ، ولكنها قضت على هذا الفهم بأن اخذت يدي في قبضتها الرجولية وراحت تقول : « حسنا ، حسنا . من بواعث السرور ان اراك ثانية . » ثم دخلنا الى قاعة المكتبة ولم تكن ميس تينا هناك . اتخذت مجلسي على مقعد مترب ذي مستلين من مقاعد القرن التاسع عشر ، كان معرضا لاشعة الشمس ، تاركا ميس ايلين تتولى مهمة الكلام . وكان عليّ ان اعجب بذهنها الوقاد .

كانت تقول :

« حسنا ، ليس هناك مبرر فيما ارى للوقوف في وجه هذا الكتاب . ومثلما قلت انت ، فانه كان من المقدر له ان يصدر آجلا او عاجلا . وهكذا فان احسن فكرة ممكنة هي محاولة الاحتفاظ به بين يديك . وبهذه المناسبة ، في اي جامعة كنت تعمل ؟ »

أجبتها بأنني لم اكن اعمل في اي جامعة ، ولكنها تجاهلت ذلك وازاحته جانبا ثم قالت : « لا تعتقد ان لهذا اية اهمية . من الواضح انك فتي من نوع كفؤ وذكي ، فلو انك كنت البادىء بكتابك عن ايزموند ، فسوف يكون على الاخرين ان يتبعوك على الطريق . »

كانت تسلم بداهة بأنني ينبغي ان اكتب ترجمة كاملة لدونللي ، ولم اكن احب ان اخيب املها في هذه المرحلة ، وهكذا فقد اومأت براسي ولم اقل شيئا . وجاءت ميس تينا بالشاي والشطائر ، وحيتني كصديق قديم ، وحينما اخذ كل منا قدحه وطبقه ، قالت :

« يجب عليّ ان اقول ، انها كانت مفاجأة كاملة لي ان اسمع ان ايزموند كان سيء السمعة الى هذا الحد . انني لم ابدأ بهذا الكتاب الذي تدعوه « بافتضاض العذارى . » نطقت بهذه العبارة دون اي بادرة تدل على الحرج ، فانتهزت انا هذه الفرصة لكي اخرج الكتاب من حقيبة اوراقي ، بالاضافة الى النسخة التي كتبت بالالة الكاتبة نقلا عن مخطوطة الكولونيل دونللي . وبينما كانتا تلقيان عليهما نظرات عابرة ، قلت :

« ترى هل يمكنكما السماح لي بأن القي نظرة اخرى على كتب دونللي ؟ »

ثم انزلت « الملاحظات » والمجلات الاربعة لكتاب « يوميات الرحلات » من مكانها ، ثم عدت فاتخذت مجلسا على المقعد القريب من النافذة ، حتى لا اشعرها بالحرج . ومن حين الى حين ، كنت اسمع ميس الين وهي تغمغم قائلة : «انظري !» ثم تدفع بالكتاب الى ميس تينا ، التي كانت ترمقني حينذاك بنظرة سريعة ، ثم تقرأ بتعمق ولسانها يصدر أصواتا متلاحقة كالفرقعات .

فتحت كتاب الملاحظات ، واخرجت رسم العنقاء . رفعت الورقة لكي اعرضها للضوء ، أجل ، كانت هناك علامة مائية ، اخفى الرسم جزءا منها . وحينئذ كان عليّ ان اكبح ما انتابني من رغبة في الضحك بصوت مرتفع . كانت العلامة المائية على شكل عنقاء !

قارنت بين الرسم الدقيق المليء بالدوائر الدقيقة (أو ما يمكن ان يدعى بالخطوط المحفورة المتلاحقة) بصورة العنقاء المحفورة بطريقة الضغط على الغلاف . كانا متشابهين في خطوطهما الخارجية ، ولكن كانت هناك ستة اختلافات . لم يكن الرسم واحدا بشكل قاطع تماما .

حينما رفعت ميس ايلين عينيها لكي تنظر اليّ ، اطلعتها على رسم العنقاء . نظرت اليه بسرعة ثم قالت : « آآم ، انه جميل ، الى حد ما . » ثم اعادته اليّ ، لم تكن مهتمة اهتماما حقيقيا .

قالت ميس تينا : « هل اطلعت مستر سورم على الخطابات ، يا عزيزتي ؟ »

« آه كلا ، لقد نسيت . »

ذهبت الى الحجرة الصغيرة المجاورة ، وعادت بحزمة من الاوراق حزمت بشريط . قالت : « اخبرتني تينا بأنك اردت ان تعرف ان كان هناك حفر على

الخشب لطائر العنقاء في الخزانة العلوية ، ولذلك قمنا ببحث دقيق ، ولكننا لم نعثر على عنقائك ، غير اننا عثرنا على الكثير من الاوراق القديمة — صناديق كبيرة مليئة بها . ولا اظن ان لاكثرها علاقة بايزموند ، ولكن يبدو ان هذه الاوراق كانت خطابات موجهة اليه . »

حللت عقدة الشريط بسرعة ، وحالما بدات في فصل الاوراق عن بعضها سقط على الارض شيء ما من مظروف مفتوح . التقطت هذا الشيء . كان رسما دقيقا محفورا ، دون اطار ، وقد رسم على قطعة صغيرة نحتت من قوقعة محارة وربما كانت من محارات اللؤلؤ . كان الرسم لفتاة شديدة الجمال ، وقد تدلى شعرها في حلقات متلاحقة حتى الكتفين ، ولم يكتب عليه شيء .

لم تكن الخطابات نفسها بخط يد ايزموند دونللي ، وبدا ان بعضها كان مرسلا من شخص يدعى توماس والجريف ، وبعضها ممن يدعى ويليام آستون ، وبعضها ممن يدعى هوراس جليني . ولم يبد على الاوراق انها كانت خاضعة لاي نظام او ترتيب . كان بعضها داخل اغلفة وبعضها الاخر دون غلاف ، ومن الواضح ان والجريف كان قسا من دبلين ، اما آستون فقد عاش في كورك . وسرعان ما تبينت ان جايني كان زميلا من زملاء الدراسة رافق دونللي في جوتينجين . ومن الواضح انه كان ابنا للورد « جليني اوف جو لسباي » في مقاطعة شاتر لاند . - وفي وسط هذه الكومة من الخطابات ، كان هناك غلاف خاص لم يكتب عليه شيء . وبداخله ، عثرت على قصاصة من الورق ، قطعت اطرافها بحيث تتشابه مع الرسم المحفور على المحارة ، وكتب عليها بخط يد ايزموند دونللي : « لادى شارلوت انيجستر . الابنة الثانية لايرل فلا كستيد . » وفي داخل الغلاف نفسه كان هناك ما ثبت انه صحيفة من خطاب كتب بخط ايزموند دونللي . وحينما قرات هذه الصحيفة عرفت انني قد عثرت على شيء جديد لكتابي . كانت الصحيفة تقول :

قال فولتير في قاموسه الفلسفي ان التحزب والخطأ مترادفان طالما انه ليس هناك مكان للراي المتحزب في الامور التي نعرف انها حقيقة صادقة . كما نرى على سبيل المثال في الهندسة او العلم . وهو يقول ان معتقداتنا الدينية ينبغي ان تقوم على امور تتفق عليها كل العقول . ولكنه يمضي لكي يؤكد ان كل العقول تتفق على عبادة الله وعلى الامانة والصدق . وليس هذا صحيحا ، لان البوذيين لا يقبلون بالله ، وللیسوعيين تحفظاتهم على مسالة الامانة . فهل ثمة اذن اي اساس مشترك للاتفاق الديني ؟

ان حجتي ايها الصديق العزيز تقوم على قولي بانه ليس هناك رجل ذكي لا يستطيع ان يقتنع بأن هذا العالم لغز غامض . إننا لا نحتاج الا للحظة واحدة من التفكير لكي نعرف ان كل معتقداتنا التي ترقى الى مرتبة اليقين ليست سوى معتقدات قامت على اساس من التعود ، نطيعها مثلما نطيع قواعد لعبة « البيكيت » او « الهويست » من العاب الورق ، ولكن دون دليل يبرهن او يؤكد صحتها .

والاديان تؤكد ان ما يقع خارج نطاق قواعد الالعاب التي نمارسها مجهول ولا يمكن معرفته ، او ان الله وحده والملائكة يعرفه ويعرفونه . ولكن العلم قد علمنا ان من الممكن ان نفهم اي شيء اذا كان منهج البحث متكاملا بما فيه الكفاية ومنطقيا .

وقد اضيف الى حجتي ايضا قولي بان معتقداتنا التي تصل الى مرتبة اليقين (او ان ما نحن موقنون بوجوده) ليس مما يمكن رؤيته ، وانما مما يمكن ان يحس به ، مثلما احس الان بدفء الشمس فوق يدي في اثناء الكتابة . وقد اقول ايضا ان ما تعودنا عليه من محاولة الوصول الى الحقيقة بوسائل الابصار او الاستنتاج العقلي ، قد اعمتنا بما تحمله من طبيعتها الحقيقية ، مثلما هي حالة الرجل الذي يحاول ان يعرف الفرق بين عصفور من عصافير الكناريا وبين الشاي البارد عن طريق حاسة الابصار وحدها . ان لغز العالم الغامض يصبح ماثلا امامنا في تلك اللحظات التي تتحرك فيها ارواحنا حركة شديدة عميقة او حينما يستبد بها القلق او يزعجها شيء ما ازعاجا قويا ، وذلك اذا ما كانت الحركة الناتجة حركة منتظمة ومتناغمة . في لحظات الغموض تلك نصبح كما لو كنا قد ادركنا وجود تيار قوي يجري تحت الارض ، مثل ذلك التيار الذي سمعت صوته بالقرب من فيرض ، وربما نشعر احيانا بشدة قربه منا حتى ليمكننا حينذاك ان نسمع صوت جريانه .

انني حينما اشكو من السأم ، فانني اصبح مثل من اصابه الصمم بسبب اصابة برد في الرأس ، حينذاك لا اسمع شيئا . وحينما ارفع بصري لكي انظر الى وجه شارلوت انجستر ، يختفي الصمم ، واسمع صوت جريان الماء تحت قدمي .

ومن المؤكد انه اذا كان الدين هو ذلك الاحساس بغموض العالم والخليقة ، وبضخامة وامتداد ذلك اللغز الغامض ، اذن فانه ليس هناك من شيء يمكن ان يدلنا على الطريق المقدس افضل من النساء والجبال ؟ لماذا لا ينبغي ان يكون ...

* * *

تنتهي القصاصة هنا ، في منتصف الصحيفة ، كما لو كان الكاتب قد قاطعه شيء ما . ولكن كلمات « ايها الصديق العزيز » بدت لي كما لو كانت توحي بأن دونللي انما كان يكتب مسودة اولية لخطاب ، وانه قد قرر فجأة انه قد يكون من الافضل ان يشرع في نسخ ما كتب في الخطاب نفسه وان يكمله بعد هذا مباشرة دون حاجة الى مسودة . فمن الذي كان سيتلقى هذا الخطاب ؟ كان الغلاف الذي احتوى القصاصة موضوعا وسط حزمة الخطابات الواردة من هوراس جليني ، وكانت خطابات جليني الى دونللي تكثر من الاقتطاف من كتابات فولتير وفونتانيل ودالامبير ، كان الافتراض المعقول اذن ان يكون جليني ــ وهو زميل دونللي في الدراسة بالكلية العليا في جوتينجين ــ هو من يتلقى خواطر دونللي الخاصة وتأملاته الدينية .

كانت ميس ايلين قد وضعت نسخة المخطوطة جانبا ، وراحت تنظر من النافذة نظرة غائمة . سألتها :

« هل حدث ابدا ان سمعت عن سيدة تدعى اللادى شارلوت انجستر ؟ »

جفلت الاختان معا لدى سماعهما هذا السؤال . وكانت ميس تينا هي التي قالت بعد ان رمقت اختها بنظرة سريعة :

« لماذا ؟ اجل . كانت ابنة ايرل فلاكسفيد ... »

ثم توقفت عن الكلام ، كما لو كانت قد شعرت بالحرج ، ولكن ميس ايلين انهت كلام اختها بقولها : « وشقيقة لادى ماري انجستر التي اصبحت فيما بعد ماري جليني . »

لم اكن بحاجة الى من يذكرني بهذا الاسم الاخير ، فقد ظل الاسم عالقا بذهني منذ الاسبوع الماضي حينما ذكرته ميس الين اول مرة في التليفون . قلت :

« هل حدث ان عرفت ان ايزموند كان يحب اللادي شارلوت ؟»

قالت ميس تينا : « يقولون انه كان يحب الثلاث » .

« الثلاث ؟ »

« لادي ماري ولادي شارلوت ، ولادي مورين . » قالت هذا ثم نظرت الى اختها بضيق . هزت ميس الين كتفيها وقالت :

« اعتقد انه سيكتشف حقيقة الامر على اي حال » .

قالت ميس تينا : « لقد كن جميعا جميلات جدا بكل تأكيد » .

« هل توجدلهن اي صور ؟ »

« اوه،اجل. ان الصورة التي رسمها رومني (١) مشهورة تماما .»

« اين هي ؟ »

بدت عليهما امارات الدهشة اجهلي ، وقالت تينا :

« هنا ، بالطبع ».

« ايمكنني ان اراها ؟ »

نهضت كلتاهما دون كلام ، وقادتاني خارج الحجرة . وفي البهو ، اختفت ميس الين لدقائق قليلة ،ثم عادت وهي تحمل مفتاحا ضخما . عبرنا البهو نحو بابين كبيرين من خشب الماهوجني . قالت ميس تينا :

« يصر رجال شركة التامين على ان تظل قاعة اللوحات مغلقة ، فان بعض الصور تساوي قدرا كبيرا من المال » .

فتحت ميس الين الباب ، فهبت علينا هبة من هواء بارد قوي الرائحة . اضاءت الانوار ، فدخلنا الى « المعرض الطويل » وكان باردا كالثلج . كانت النوافذ

---

(١) جورج رومني — ١٧٣٤ — ١٨٠٢ — رسام انجليزي رومانتيكي اشتهر بلوحاته التاريخية وبتصويره للوجوه ولوجوه الشخصيات المعاصرة . اكثر من استخدام الالوان (الاسود والاحمر والذهبي والازرق) متاثرا في ذلك بديلاكروا الفرنسي . (هـ . م .)

مغطاة بالضلف الخشبية ، والمناضد والمقاعد مختفية تحت الاغطية . كان من السهل ان اتصور ان احدا لم يدخل هذا المكان منذ سنة واحدة كاملة على الاقل. قادتني الى صورة صغيرة نوعا ما معلقة على الجدار الاخير . كانت الصورة بحاجة الى تنظيف ، ورغم هذا فأن ما علق بها من اتربة لم يخف جمال الوجوه الثلاثة . كانت الفتيات في وقفة تقليدية تبدو وراءهن خلفية من الاشجار وجزء من نبع ماء جار . كانت شارلوت — التي رأيت صورتها منذ قليل — معروفة لدي بسهولة وعلى الفور . وكان الجمال هو الشيء الوحيد الذي تشترك فيه الشقيقات الثلاث . كان وجه شارلوت بريئا ذا خدين ورديين ، كوجه اركادي اصيل . اما الفتاة الجالسة الى جوارها مباشرة وهي تلاعب كلبا صغيرا كثيف الشعر ، فكان من الواضح انها اكثر ذكاء ، بوجهها الناعم الرقيق المرتفع على رقبة مثل رقبة البجعة . اما شعرها فقصير يكاد يشبه شعر الصبيان . قالت لي ميس تينا ان هذه هي ماري ، التي اصبحت فيما بعد لادي ماري جليني . اما مورين ، والتي كان من الواضح انها اصغرهن ، فقد كان لها وجه لا بد انه اصبح بعد ذلك بالغ الجمال ، وكانت تبدو هي الاخرى رقيقة كريمة . كان من الواضح انها فياضة العاطفة دافئة القلب ، من النوع الذي يمكن ان ينفجر في البكاء عند سماع قصة محزنة . امتدت احدى يديها لكي تلاطف الكلب . هذه الاشارة الواضحة الرمز الى طبيعتها المترعة بالتعاطف .

قالت ميس تينا بكبرياء : « لقد دفع ايزموند وحده ثلاثين جنيها لرومني في مقابل تلك اللوحة . وقد عرضت علينا خمسة الاف جنيه ثمنا لها » .

كان بوسعي ان ارى السبب الذي دفع الى رواج الشائعات عن وقوع ايزموند في هوى الشقيقات الثلاث جميعا . فبعد التحديق في صورة الوجوه الثلاثة لمدة خمس دقائق اصبحت انا نفسي قريبا من الاقتناع بهذا الهوى الثلاثي كحقيقة ممكنة . كانت لكل واحدة منهن مميزات خاصة تلوح على وجهها تبدو كما لو كانت تبرز وتطفو على سطح الوجه كلما اطال المرء التحديق فيه . لقد كان بوسعي ان اكتب رواية عن ثلاثتهن .

« الديكن صورة يبدو فيها وجه ايزموند ؟ »

« اوه ، اجل ، لدينا اثنتان . واحدة بريشة ريبورن والاخرى بريشة رسام يدعى زوفاني » .

لم توح الي لوحة زوفاني الا بالقليل . كان الوجه جامدا لا ينم عن حركة ، مفتقدا الى كل اثر من شرارات الحياة . كان دونللي في الصورة يرتدي زي الضباط متكئا على شجرة . كان من الواضح انه بالغ الطول نحيف القامة . اما الوجه فكان طويلا ، بارز الفك ، مستقيم الانف .

اما لوحة ريبورن فكانت اكثر ايحاء . لم يكن فيها اي ادعاء او تظاهر ، ولا تكاد تظهر فيها اية خلفية . ومن بعض جوانبها كانت تبدو كما لو كانت رسما تخطيطيا سريعا تهيئة لرسم الصورة نفسها . ولكن ريبورن كان قد استطاع ان يقبض على تعبير يعلو الوجه ينم عن اللهفة ، حينما رسمه متطلعا الى

الامـام كمـا لو كان يصغي الى قصةممتعة. لم يكـن الوجه من ذلك النوع الذي يمكـن ان يقال عنه انه وجهوسيم، كان الانف ذو العظمة الناتئة والخدين البارزين قد جعلاني افكر في صورة شرلوك هولمز ، ولكـن الفم كان بالغ الحسية . ولما التفت عن هذه اللوحـة لانظرمرةاخرى الى لوحة زوفاني ، رايت مميزات اخـرى في تلك الاخيرة : حجم الصدغ الذي يوحي بنوع من السيطرة على وضع الوجه وما يعلوه من تعبير ، مثلما يمكن ان نراه على وجه جواد اصيل جيد التدريب واقفا كالتمثال في ساحة العرض قبل بدايـة السير .

وبينما كنا نغادر الحجرة ــ وقد تجمدت اجساد ثلاثتنا ــ قلت :

« اظن ان ايزموند كان يمتلـك كل المميزات اللازمة لاجتذاب حشود مـن المعجبيـن والمعلقيـن » .

« هل تظنهذا؟»وبدت على كلتيهمـا سمات اللهفة الى الاجابة .

« ان هذه الحكايـة عن وقوعهفي هوى ثلاث من الحسان تجعله شخصـا ملائمـا تمامـا للحكايـات العاطفية ــ شخصا « بيرونيا » تماما ، انه شخصيـة اكثر اثارة للاهتمـام من بوزويل نفسه » .

قالت ميس تينا :« لقد رأيت ذات مرة فيلمـا عن شوبان . كانوا قد صنعوا هذا الفيلم بطريقـة جيدة .وكنتابكي طوال العرض » .

« اتخيل انهم قد يروق لهم ان يصنعوا فيلمـا عن ايزموند » .

« ايمكننا ان نربح الكثير من المال ؟ »

« اتخيل هذا ».

قالت ميس تينا :«اذن لقاسمناك الربح معنا » .

« هل تعرفين شيئا عـن حكايته مع الشقيقات الثلاث ؟ »

« ليس على وجه التحديد .انها اقرب الى ان تكون حكاية عائلية » .

« وماذا عن موت لورد جليني »

قالتميس ايلين : « لقد اصيب بالرصاص . ولست اعرف الكثير مـن التفاصيل ، ولكن ابي قراها مرة في مكتبة دبلين القومية ، ولذلك فانه ليس من الصعوبة البالغة ان تراجعها . كان هناك همس حول ما احاط بايزموند من شكوك ، ولكن ابي قال انـه ليس من المحتمل ابدا ان يكون الفاعل . اتمنى ان تتولى انت توضيـح ذلك الامر ».

« سوف ابذل جهدي بالتأكيد » .

« قبل ان اغادر المنزل ، صعدت معهما لكي اشاهد الخزائن العلوية . كانت شديدة الظلام ، يعلوها تراب كثيف، مليئة بركام كثير من شتى الاشياء التيتراكمت عبر القرون : اطارات صور مكسورة ، كتل واشكـال اخرى من الخشب لا يمكـن معرفة الغرض منها ، قطع اثاث محطمة ، آنيـة اغتسـال من البورسلين، حزم من الاوراق التي يمكن ان تكون اي شيء، من حسابات المزارع الى اليوميات المفقودة. نظرت الى هذه الحزم نظرة عابرة وفهمت ما كان البروفيسور آبوت قد شعـر به

بالتأكيـد في الخزائـن العلويـة في منزل فوربس ، عندما احاطت به المخطوطات، ولكن ذكرى آبوت منحتني فكرة جديدة .

« اليست لديكما اية فكرة عن الشخص الذي عينه ايزموند لكي يكون مشرفا على تراثه الادبي ؟ »

نظرت احداهما الى الاخرى نظرة لا تنم عن شيء .

« كلا . سوف نحاول ان نكتشف ذلك » .

وقبل ان اغادر المنزل قلت انني لا بد ان اعود مرة اخرى في موعد قريب جدا لكي انظر في الاوراق. وحينذاك ــ ولشدة دهشتي ــ قالت ميس تينا :« اليس الابسط اذا هو اخذها معه ، يا عزيزتي ؟ » فقالت مسز الين دون تردد : « اوه ، بالتأكيد » . واخذتا في معاونتي في عمليـة نقل الاوراق و« تستيفها » في مقعد السيارة الخلفي ، ورفضتا بشدة قبول ما عرضته عليهمـا من دفع نوع من التأمين. ورحت اقود السيارة وانـا اشعـر بما يشبه الثقل يحط علي بسـبب ثقتهما . ولما اخذت افكـر في هذه الثقة ،شرعت في فهم السبب . لقد كانتا وحيدتيـن واقرب الى الافلاس رغم انهمـا تعيشان في ظل هذه العظمة الفاخرة وان كانت الناضبة الموارد والمعين ، دون اي احتمال لشيء جديد الا ان يتقدم بهما العمـر نحـو الشيخوخة . ومن المحتمل انهمـا كانتا تتساءلان ايهمـا سوف تغيب قبل الاخرى عن هذه الحياة . وحينمـا تموتان ، فمن المحتمل ان يذهب المنزل ميراثا لاحد ابناء الاسرة البعيدين عـن الذيـن يقيمون في كندا او نيوزيلاند . ولكن كـان العـالم الكبير يطرق الآن بابهما . كان هناك شيء ما تحلمان به ــ النـاشرون ، تعويضات الفيلم ، الدارسون المتخصصون يزورونهما . وقـد ارادتا ان تؤمنا بكل ذلك وان تصدقـاه ، ولذلك فقـد ارادتا ان تؤمنا بي وان تصدقاني ، ان تقبلاني قبولا كاملا ، وان تنظرا الي بشيء من الود المكين . اما ما اعتبرته انا اعظم العقبات ــ وهي سمعـة ايزموند باعتباره من كتاب الادب الداعر المكشوف ــ فقد تحولت لكي تصبح شيئا لا علاقـة له بالعقبات او المعوقات ، منذ ان اعلنت لهمـا عن زيف وصف كتاباته بالادب الداعـر او عدم معقولية هذا الوصف ، وصرحت لهما بانني انوي ان اعلـن هذا الراي في الكتاب المنشور نفسه . كانت الاجزاء التي حصلت عليهـا من مذكرات دونللي ــ عن طريق الكولونيل دونللي ــ صريحة من الناحيـة الجنسية ، ولكنها لم تكن اكثر صراحة من مذكرات بوزويل ، وكانت قبل كل شيء، مكتوبة باسلـوب جيـد .

جعلتني هذه الاعتبارات اشعـر بانني في حالة افضل . كنت قد ظننت انه ليس هناك فرصة معقولة لاحياء ذكرى دونللي حينمـا اعطاني فليشر مخطوطـة « المذكرات » .ورغم كل شيء فقد كانت هذه نظرة مرضية .

حينما فحصت حزمة الخطابات الجديدة ، عرفت اننا قد حصلنا على كتاب، سواء ظهرت ام لم تظهر ايـة مخطوطات اخرى لدونللي . فاذا استبعدنا مخطوطة دونللـي ، كانت هذه الخطابات اكثر ما حصلت عليه حتى الآن جاذبيـة واثـارة

للخيـــال .

من الصعب ان نتخيل ثلاثة اشخاص يتبادلون الرسائـــل ويكونون ذوي شخصيات اكثر اختلافا من توماس والجريف ووليام آستون وهوراس جليني ، الى جانب انهم قـد كشفوا عن تعقـد شخصية دونللي نفسه . كان والجريف رجلا من دبلين اهتماماته الرئيسية هي الفلك والرياضيات ، وكانت خطاباته الى دونللي تهتم اساسا بهذين الموضوعين . اما آستون فكان يدرس اللاهوت في احـدى المدارس البروتستانتية في عـام ١٧٧٢ ، وهو تاريخ الخطاب الاول ، واصبـح فيمـا بعد قسيسا في باللينكولج ، بالقرب من مدينة كورك (حيث كان يقع منزل عائلته) . وقد ازعجه الى درجة كبيرة ما ظهر انـه ميلان متناقضان في شخصية دونللي : تجاه عدم الاخلاص وتجاه « الحماس » (اي التعصب او الايمان الغيبي). فحينمـا كان دونللي يقتبس من فولتير وبايل ومونتسكيو ، كان آستون يجيبـه بحجج مستمدة من مواعظ جورتين واوجدين،وتيللوستون وسمارليدج وشيرلوك. ولقد وجدت كل ذلك حشوا لا لزوم له وكئيبا الى درجة لا تصدق ـ المناقشات الطويلة المدققة دقة من يريد ان يشق شعرة بالطول الى نصفين ، حول موضوعـات التناسخ والجبرية ومقدار ما في الاناجيل من حقيقة الخ .. ولكن كان من الواضح ان ايزمونـد لم يكن يرى ان هذه المناقشات قد تكون مضجرة ، ذلك لان اجابات آستـون كانت طويلـة مطنبة ، مما يشير الى ان رسائل دونللي مساوية لها فـي الطول والاطنـاب .

ولكن خطابات جليني كانت هي التي تلاءمت مع ما كنت اعرفه بالفعل عـن ايزموند دونللي . فبعد ان قمت بترتيبها طبقـا لتسلسلهـا الصحيح (مـع قدر معيـن من التخمين ـ فقد كان الكثير منها غير مؤرخ) اتضح انها استمرت مـن شهر مايو عام ١٧٦٧ حتى عيد الميلاد عام ١٧٧١ . كان جليني وايزموند معـا في جوتيجين اغلب تلك الفترة ، ولذلك لم تكن مراسلاتهـما مطولة كما كانت الحالة في مراسلات آستون ومن الواضح انهمـا كانا يتبادلان الرسائل حينمـا كانـا يفترقـان لمدة طويلة ، ولكن هذا الافتراق لم يتكرر كثيرا لانهما كانا صديقيـن الى حد كبيـر .

اما قصة علاقتهما ، وهي التي اصبحت قادرا على تجميعها من خلال خطابات جليني (*) فتجري كالتالي : حينما التقى ايزموند دونللي بروسو وبوزويل فـي نيو شاتل ، انتقل بعد ذلك الى ميلان حيث قضى عيد الميلاد في عام ١٧٦٤ . وفي شهر يناير قضى اسبوعا في البندقية ، ثم قضى اسبوعا في مدينة جراتز . في طريقه الى جوتنجين . وهناك تعرف على جورج كريستوف ليتشنبرج ، الذي اصبح فيما بعـد فيلسوفا بارزا (ولكنه كـان مهتمـا في الاساس في تلك الفتـرة بالرياضيات والفلك) كما تعرف بالقسيس هوراس جوردون جليني . وكـان هذا

(*) وهي التي ستنشر كملحق اضافي مع « مذكرات » دونللي .

الاخير شابا وسيما داكن البشرة ، يكاد يكون يهودي الملامح ولكنته اسكتلندية واضحة في نطقه للانجليزية ، وكان اكبر بقليل من دونللي ، ولكنه اقل ثقافة بكثير، وكان الابن الثاني لاحد سادة الريف الاسكتلنديين جاء من المناطق غير المأهولة او المتحضرة من تلك البلاد . كان هناك شيء واحد يشترك فيه الثلاثة ، ليتشنبرج وجليني ودونللي ـ وهو الاهتمام الدائم بالجنس الاخر . وكانت جوتنجين مليئة بفتيات المزارع الشابات المترعات بالصحة والعافية ، وهن اللواتي وصفهن ليتشنبرج بقوله : « المخلوقات التي تتقافز مرحة في وديان هارز او وديان سولينج واللواتي لم تقع انظارهن ابدا على مبلغ من النقود اكثر من اتالر الواحد ،واللواتي ينظرن الى قبعة السيد النبيل المزينة بالريش نظرة فزع بينما تبدو طلبات مثل هذه القبعة كالاوامر الملكية » . وكانت جوتنجين بلدة ذات شهرة اكاديمية سامية، على العكس من هال او يينا اوجيسين وهي المدن التي كانت مليئة بادعياء العلم الذين كان محط اهتمامهم الرئيسي هو المبارزات . ولكنها مثل اكثر المدن الاخرى في المانيا ، كانت منظمة تنظيما رفيعا ، يسودها انضباط صارم حيث اعتاد الفلاحون ان يطيعوا اوامر سادتهم (ولقد كانت ايضا ـ بالطبع ـ جزءا من انجلترا ، طالما ان الملك جورج الثالث كان ايضا دوقا لهانوفر بالاضافة الى كونه ملك بريطانيا العظمى . وكان هذا بدون شك هو السبب الذي دفع والدي ايزموند الى اختيارها مقرا لدراسة ولدهما) . وقد ابتهج ايزموند وجليني حينما اكتشفا ان تلك المخلوقات اللذيذة لم تكن بحاجة الى الاغواء مثلما كانت الحالة مع الفتيات في الوطن). ويذكر جليني في احد خطاباته ان لينشنبرج اغضبه باتهامه اياه بانه كان يسعى الى افتضاض كل عذراء في مقاطعة هانوفر ، استعدادا لان يقضي حياة كاملة من الحرمان حينما يقدر له ان يعود الى وطنه الطهري المتزمت .

ولكن جليني كان ابله اذا ما قورن بايزموند ، او ـ اذا لم يكن ابله ـ فانه كان رجلا ضيق الافق .وقد سيطر عليه ايزموند سيطرة كاملة ، ومن الواضح ان جليني قد اثار ثائرة استاذ لهما يدعى كاستنر حينما قال له ان ايزموند واحد من اعظم العقول في اوروبا بعد موسير مندلسون . (وبعد هذا ، اعتاد كاستنر ان ينادي ايزموند ساخرا باسم « الاستاذ الاعظم ») وكان ما سحر جليني في شخصية دونللي هو ما كان يتمتع به من جمع بين الحيوية الجسدية والسمو العقلي . كان ليتشنبرج شديد الذكاء واسع الثقافة ، ولكنه ايضا كان ضعيف الجسد عاجزا كالاحدب . كان ايزموند مثاقفا بارزا بالسيف ، وفارسا جيدا وسباحا ممتازا ، ومحببا الى النساء ، كما كان ايضا قريبا من ان يكون شاعرا وفيلسوفا ومتصوفا . اما جليني فكان قد خضع لسيطرة ابوية شديدة الوطأة ، وكان ميالا الى ان يكون تابعا مقهورا . وفي غضون شهور قليلة كان دونللي يصفه بانه :« نموذج للشهامة والشهوانية والاغواء والبذاءة والعناد والقدرة على افتراع العذارى » . ولكن سرعان ما تملكهما الضجر من خادمات المدينة ذوات

الاجساد الضخمة ، وشرعا في توجيه انتباههما الى بنات الاساتذة وغيرهم من المواطنين المحترمين . ومن الواضح ان الدهشة قد تملكتهما وغمرتهما البهجة لما لقياه من نجاح ، وكان ان اقترب ايزموند الى حد الخطر من علاقة كادت تتحول الى الزواج من الابنة الصغرى لقسيس في بلدة نورتين هاردينبرج ، وهي الانسة اولريكادوسان . ولكن علينا الا نفترض ان ايزموند وجليني لم يكونا يفترقان ابدا . ومن الواضح ان جليني ما كان يمكن ان يبتهج لو انهما افترقا ، ولكن ايزموند كان يهتم ايضا بقراءة كانط وبدراسة الرياضيات والفلك . ويشير جليني اشارات عديدة الى اهمال ايزموند لشأنه . ولكنه كان يعجب بايزموند اعجابا حارا حتى لقد كان على استعداد لان يقبل اي قدر من انتباه يمكن ان يوليه ايزموند له .

ان الخطاب الذي ارسله جليني الى ايزموند في التاسع والعشرين من شهر ديسمبر عام ١٧٦٦ خطاب نموذجي حقا . انه يستهلك صفحة ونصف صفحة في الشكوى من ان دونللي قد اهمل دعوته له لتمضية عيد الميلاد في منزل الاسرة بالقرب من جلوسبي ، وفي وصف مباهج الرحلة شمالا في اواخر شهر نوفمبر . ولا بد من قراءة وصف جليني للطعام الذي التهم في يوم عيد الميلاد حتى يمكن للقارىء ان يصدق ان هذا هو ما كتبه بالفعل . لقد بدا الطعام في السابعة والنصف صباحا بافطار من شطائر الشعير واسماك السالمونالمسلوقة ، واللحم المقلي ولحم سيقان الخنزير ، والحلوى والفواكه المسكرة . ولكن الموضوعالرئيسي في الخطاب ــ بشكل حتمي ــ كان متعلقا بوصف مغامراته الغرامية في اثناءالعطلة: « كنت قد قررت في البداية ان علي ان استحوذ على كرم فتاة تدعى ماجيماكبين، وهي ابنة احد الفلاحين الذين يؤجرون ارضنا ، والتي كانت قد اعربت عن بعض المشاعر الرقيقة تجاهي قبل ان اغادر المدينة ، رغم انها كانت قد اقسمت في ذلك الحين انها تفضل ان تموت على ان تفقد احترامها لنفسها ». وقد ثبت ان افتضاض ماجي كان اسهل بكثير مما كان يتوقع . وقد تم ذلك في احد اهراء الحبوب بعد حفلة رقص كان السيد الشاب في اثنائها محور اهتمام الفتيات كلهن .(ففي مثل هذه المنطقة النائية ، يختلط السيد باجرائه ومؤجري ارضه بحرية كافية) . وشعر جليني بنوع من الاغراء يدفعه الى مواصلة قصة غرامية مع ماجي ، الامر الذي كنت جديرا بأن اقوم به في الماضي دون اي تفكير ، ولكنني في هذهالمرة راجعت نفسي على ضوء مبدئك العظيم القائل بان الهدف الاساسي في الحياة هو تحقيق نوع من طزاجة التجربة وجدتها ، وكان عليّ ان اعترف بان رغبتي في الفتاة كانت تفقد حرارتها تدريجيا ، وان رؤية قبعتها الحريرية الخفيفة وازارها الملون لم تعد تؤدي الى تأثيرها القديم . وقد حاولت دون نجاح ان اكرس عقلي للدراسة .. »

« وفي اليوم الثامن والعشرين عادت شقيقتي ماري (التي قابلتها انت في بيرث (من كينكاردين ، حيث كانت قد قضت عيد الميلاد مع فيوناجوتري وهي ابنة صديقة قديمة لامي . واختي ، كما تعرف ، نحيفة ضئيلة الحجم بالنسبة

لسنهـا (الرابعة عشرة) ويمكنني ان اقول ، دون كبرياء لا لزوم لها ، انها تحبنـي بدفء لم افعل انـا سوى القليل لكي استحقه . وقد احسست بمـا يشبه الصدمة حينمـا اكتشفت ان فيونا قد تغيرت الى درجة عظيمة في اثناء الثمانية عشر شهرا التي انقضت منذ رايتهـا لاخر مرة . انها تمر بتلـك المرحلة الساحرة حيث تبقى افكـار واساليب الطفلة ، بينمـا يكون الجسد جسد امراة . انهـا تملك وجهـا ساحـرا ورديا ، وشفـة عليـا اقصر بكثير من رفيقتها الامر الذي يعطي لفمهـا شكلا بارزا قد يظنه البعض تجهما على سبيل الخطأ . كانت في طفولتها اقرب الى الصبيـان في العابهـا وسلوكها (اذا جردنـا هذه العبارة من كل مـا تدل عليه من عدم تواضع او رقـة) ولطالمـا تعاركت معها وصارعتها وامسكتها من ساعديهـا بقوة . اما الان ، وطالمـا انها اصبحت على مثل هذا الجمال ، فقد قررت انني قد افعل ما هـو اسوا من اتباع نصيحة مسترشتيرن فانشيء علاقة عاطفية معها ، حتى ولو كانت من جانب واحد الى حد مـا . .

(لقد وضعت انا هذه النقاط في الامـاكن التي يبدو فيها من كلامه نوع من الانحطاط في دوافعه ، طالمـا انهـا لا تؤدي الى غرض ما) وقد ثبت ان هذا كان اكثر سهولة مما توقعت ، ذلك ان كل ما كان علي ان افعله هو ان اعـاملها مثلما اعامل ماري ، باهتمام كثير وبود اخوي. انني اقول لك في امانة كاملـة انافكاري حتى تلك اللحظة كانت بريئة الى الدرجة التي يمكن ان يتمناها الراعي الصالـح جايس . كانت في حجرتهما مدفاة جيدة ، وقد قضيت هناك ساعات طويلة احتسي اقداحا من الشاي واصف لهمـا عادات هانوفر واهلها ، شاعرا بالعالم كله مثلمـا كان يشعر به عطيل المغربي . ولقد وجدت ان الانتباه الرقيق الصادر عن هاتين الطفلتين اكثر امتاعا ومسرة من دراسـة فلاكوس واقنعت نفسي في لحظة مـا بأن هذا هـو ما عناه روسو وما كـان يفكـر فيه حينمـا يتحدث عن النعيـم الثانـي الذي تهبنـا ايـاه الطبيعـة .

« ولكن للاسف ، لقد لقيت مشاعري الساميـة هزيمتها الاولى في اليـوم الثاني من العام الجديد ، قبل حوالي نصف ساعة من تناول العشاء . كانـت الفتاتيـن تلعبـان حينمـا دخلت الحجرة ، وحينمـا اشتركت في لهوهما ، لم استطع ان امنع نفسي من ملاحظة اهتزازات ردفي فيونـا حينمـا قفزت فـوق السرير لكن تهرب من ماري ، ولا شكل سمانتي ساقيها الجميلتين حينمـا انحنت الى الامام مرة ثانية . وحينمـا امدحت ما طرأ على شكل جسدها من تغير ، لـم يبد عليهـا الحرج ، وانمـا ضحكت على ما قلته ، وقالت ماري ان السبب يرجـع الى تناول الكثير من اللحم السمين . وبعد ذلك طلبتا مني ان اقرأ لهمـا من كتاب « جرانديسون » ، الامـر الذي قمت بـه تلبية لسؤلهما ، جالسا امـام نـار المدفاة على البساط السميك ، بينما جلستا الى جواري تحيطان الثوبين الازرقين من الموسلين اللذيـن كـان عليهمـا ارتداؤهما في حفلة الرقص التي ستقـام في « ستراشبيفير » في شهـر فبراير . وبعد قليل ، استغرقت ماري تماما فيما

كانت تسمعه حتى لقد القت بالثوب جانبا ووضعت راسها على حجري مادة ساقيها لكي ترفعهما على مقعد صغير قريب ، وبعد لحظات قصيرة حذت فيونا حذوها . ثم تحركت ماري الى اعلى بطريقة جعلت خلفية ثوبها ترتفع فوق فخذيها ، كاشفة عن اجمل ساقين رأيتهما في عيد الميلاد .. وحينما دق الجرس يدعو اهل البيت الى العشاء ، ابتهجت حينما لاحظت ترددها في النهوض ، وتظاهرت بأن هذا التريث كان لانها غرقت في النوم ، ولكنني انا ، الذي كان بوسعي ان ارى حركات جفونها ، اعرف الحقيقة .

« في اليوم التالي لم يقع المزيد من التقدم ، لان الوزير كان يريد ان يردعلى دعوتنا ، ثم اخذهما ابي واخي موراي في نزهة بالعربة لكي يطلعاهما على منظر ابراج قلعة داتروبين . ولكن حينما رايت فيونا قبل ان نتناول طعام العشاء ، قالت : « لقد افتقدنا قراءتنا اليوم . عليك غدا ان تقرا ضعف ما قراناه امس». جذبتها قريبا مني ، وتركت يدي تتجول فوق ظهرها . سألتني عما افعله ،فقلت: « ارى كم من الازرار غير مثبت في موضعه ».

« كان اليوم التالي، الاربعاء، مشمسا وباردا ، وكان « اللورد » جليني بالخارج طيلة اليوم في طلب سيدة عجوز تشتكي امر اغنامها ، وحينما اخبرني جامي هذا الخبر ، قلت له انني سأستمر في النوم لكي اتناول طعام افطاري ، واطلب الماء الساخن في العاشرة . وبعد ذلك بقليل ، وبينما كنت في ثياب نومي واقفا اؤدي تمرينات الصباح ، دخلت ماري وسألتني ان كنت احب ان اتجول معهما في غرف القصر الخالية . وسرعان ما جاءت فيونا للبحث عنها ، واعجبت الاثنتان بقماش قميص نومي الذي كان واحدا من تلك القمصان التي اشتريتها في ستراسبورج من سوق الحرير . وحينئذ قصت فيونا حكاية عن خادم يعمل لدى عمتها الذي كان يجري وقد ارتدى اكمام قميصه دون قميص حقيقي لكي يعد المائدة للضيوف . وقالت له ان يرتدي سترته فأجابها :« بالتأكيد ياسيدتي ،ولكن السترة تحمل كثيرا من الاشياء الصغيرة التي تجري هنا وهناك . وقد نزعتها الان لتوي ، وانا اكره ان اخلع سترتي وصداري ، ولا ادري الى متى سأظل قادرا على تحمل هذه «اللااكمام» الباردة . « وضحكنا جميعا على هذه النكتة ، ولاحظت في رضا كيف انها نظرت الي وانا في هذه الثياب الليلية دونما حرج يزيد على ما قد تشعر به ماري ، الامر الذي دلني على انها تفكر فيّ مثلما تفكر في اخيها الشقيق . وهكذا ، فقبل ان استأذنهما في الخروج ، لكي ارتدي ملابسي ، احطت خصر كل منهما بذراع وضغطتهما الى صدري ، ولاحظت ان امتلاء فيونا قد يحفظ للرجل دفئه دون حاجة الى قميص للنوم .

« ليس عليّ هنا ، يا عزيزي تيد ، ان اصف الصباح وصفا كاملا ، والا لاصبح هذا الخطاب فيمثل طول موعظة من مواعظ مار بورتون . ولذلك فدعني اكتفي بالقول اننا قد فرحنا وضحكنا كثيرا ، وانتهزت انا كل فرصة لكي اطارد كلامهما ، من اجل ان نشعر بالدفء في ذلك الجناح البارد من القصر ، ولكي

اجعل فيونا تتعود على ان تألفني . وكان عليّ بالطبع ان اكرس الكثير من انتباهي لماري ، لكي لا اثير الاحساس بالتنافس بينهما ولكي اجعل فيونا تتقبل لمساتي كشيء طبيعي . ولم التق في هذا المجال باية مقاومة ، لانهما جميعا كانتا تتمتعان بروح رياضية عالية . . لسوف تسجل ملاحظة عن الدرس المستخلص من كل هذا يا تيد ، لكي تضمنها في تاريخك . ان الموقف هنا يكشف عن حقيقة وصدق ما يؤكده ليتشنبرج من ان المشاعر والاحاسيس تتداخل وتمتزج مثل المواد الكيميائية . لقد كانت ماري شقيقتي ، وقد انتهزت كل فرصة لكي تؤكد ذلك لفيونا ، كما لو كنت شيئا قابلا للاقتراض ، وقد قبلت فيونا هذا القرض وما تبعه من انواع الرعاية والاهتمام الاخوي ، ولما كنت الان قد حصلت على تصريح بأن اعامل فيونا مثلما اعامل ماري ، فلم يكن عليّ حينذاك سوى ان اعامل ماري بالالفة التي اريد ان اعامل بها فيونا حتى اجعل الامر كله يبدو طبيعيا دون افتعال .

« وقد ظهرت ميزة هذا الوضع في وقت لاحق لعصر ذلك اليوم ، حينما ذهبت الى غرفتهما لكي اقرا لهما من كتاب « جرانديسون » . كنت اعرف انهما تنويان تجربة الثوبين الازرقين من الموسلين قبل القيام بخياطة الاشرطة ، ولذلك فقد ذهبت مبكرا . كانت فيونا ما تزال تخيط ثوبها ، ولكن ماري وقفت في قميصها الداخلي ، تحاول ان تجرب مشدا مصنوعا من عظام الحوت . وطلبتا مني ان اقدم النصح من وجهة نظر الرجل ، الامر الذي قمت به بسعادة بالغة ، بينما كنت اساعد ماري في شد اربطة المشد . قلت لهما ان نساء باريس ، في البلاط الملكي ، يفضلن ارتداء ثياب تترك صدورهن كلها عارية . . .

وبعد ذلك ساعدتها في ارتداء الثوب ، وتحدثت مثل مليونير عن المحاسن النسبية لكل من المواد المعدنية او العظام في صناعة الازرار ، وعن محاسن اتخاذ بعض الفرز المتينة فوق عروة الزرار !

« حينذاك ، كانت فيونا قد وضعت ابرتها جانبا ، فسألتها ان كانت تحتاجني لكي افك ازرارها ، هذه الازرار التي كانت بين نهديها هذه المرة . وبدا عليها الخجل ، ولكن ماري المخلصة لي اكدت – مثل تاجر مشرقي ذكي – انها لن تفوز ابدا بمثل هذا الخادم المدرب ، وبناء عليه ، دخلت الفتاة في جو اللعبة ، فسمحت لي بأن افك ازرارها وان اجذب ثوبها الى ما تحت الكتفين ، وفي هذه المرة لم اسمح لنفسي بمزيد من الحريات مع الكرتين الناعمتين اللتين كانتا مكشوفتين امام عينيّ ، لانني شعرت ان ماري قد تجتاحها الغيرة . وبدلا من ذلك ساعدتها على ارتداء ثوبها الازرق . .

« دخلت الخادمة لكي تزود النار بالخشب ، فجلست على مقعد وتظاهرت بالانغماس في قراءة كتاب ما . ولكن حالما اصبحنا وحيدين مرة اخرى ، اقترحت ان نعود الى قراءتنا قبل ان يسود الظلام (لان الساعة كانت بعد الرابعة) . قالت ماري انهما لا بد ان تبدلا ثيابهما اولا ، ولكني قلت لها ان الامر لا يستحق

هذا التعب ، وانهما على اي حال يمكن ان تعرفا ان كانت مادة نسيج الثياب من النوع القابل للتكسر ام لا . واقنعتهما تلك الحجج ، فجلستا الى جواري على البساط السميك . وحالما بدات في القراءة ، عادت ماري فوضعت راسها على حجري ، وسرعان ما حذت فيونا حذوها واتخذت كل منهما وضعا لا يسمح لها برؤية الاخرى ، ولكنني اتخذت اجراء وقائيا اضافيا ضد التلصص المتبادل بان اسندت الكتاب الى راس ماري بحيث يمكن ان يسقط اذا هي تحركت . ويمكنك ان تلاحظ ان هذه الحيلة تركت يدي كلتيهما حرتين .. وفي هذا الوضع شعرت كأنني مشعوذ « محشور » بين جرانديسون الفاضل وبين زهرتي الشتائيتين . ولما كانت فتحة ثوب فيونا واسعة هابطة الى اسفل ، والظهر مفتوحا ، فلم تكن هناك مشكلة في ان ادس يدي الى ما وراء الابط ، ثم الى ثديها الايمن . دلتني حركات جلدها تحت ملاطفاتي ان هذا التقدم لن يكون موضع الرفض .. وحينما بدات في الضغط على الحلمة اليمنى ، لم يكن بوسعي ان احكم على النتيجة الا من تزايد معدل تنفسها شهيقا وزفيرا . وجدت في ذلك بهجة كبيرة حتى انني بعد قليل ، حركت يدي الى فمها ، وضغطت على الشفة السفلى ، ثم لعبت بها قليلا بين ابهامي وسبابتي . واطبقت هي شفتيها حول اصبع السبابة ، وراحت ترضعه كما لو كان حلمة طفل صناعية يعطاها لكي يهدا حتى يأتيه الطعام . وحينما تعبت من هذه اللعبة ، دسست يدي الى صدرها مرة اخرى ، ولكنني توغلت هذه المرة تحت الجانب الامامي من الثوب ...

.. ثم قالت فيونا :« لقد ساد الظلام بدرجة تمنع القراءة . حدثنا عن جوتينجين . » قلت : « ماذا تحبان ان تعرفا ؟» قالت :« احك لنا مرة ثانية حادثة قتال الطلبة مع الرحالة » . وهكذا تنفست عدة مرات بعمق حتى استعيد سيطرتي على نبضات قلبي ، ثم اعدت عليهما الحكاية القديمة المعتادة ..

« كنا نعرف جميعا ان الجرس سرعان ما سوف يدق ، واضاف هذا الى متعتنا متعة اخرى . وحينما قلت: « سرعان ما سيحين وقت العشاء » غمغمت فيونا نافدة الصبر . وجعلني هذا اقرر ان الوقت قد حان للتقدم الى الامام . سمحت اليد التي استقرت على ردف فيونا ان تتحرك الى اسفل ، وجذبت جانبا قماش الثوب . وبعد لحظة واحدة ، كانت يدي مستقرة على مؤخرتها العارية ، مبتهجة بنعومتها ورقة استداراتها . ومن المؤكد انها كانت شيئا ممتع الملامسة ، حتى لقد كان بوسعي ان استمر في ملاطفتها حتى دق الجرس ...

« اسرعت هابطا الى مائدة العشاء وحينما سألني الوالد عن الفتاتين قلت انني لم ارهما ، ثم ارسلت جامي الى الطابق العلوي لكي يدعوهما . هبطا بعد ان ارتدت كل منهما ثوبا اخر ، واعتذرتا بالنوم امام نار المدفاة ..

« والان يا صديقي العزيز ، وانا اختتم هذه الرسالة الجرانديزونيانية ، يجب علي مرة اخرى ان اثني على التعاليم الملهمة التي ادت الى هذه النتائج المرضية . فان الرجل الذي يستطيع ان يمضي ساعتين منكبا على مثل هذه النشوة السامية انما يكون قد مارس جانبا من حالة الالهة ، ولا بد ان تصبح روحه اكبر بعد تلك

المادبــة .».

وينتهي خطاب جليني بصفحة ونصف صفحة في تاملات من هذا النوع . ولن اقتطف هذه التأملات لان في اسلوبها الكثير من القعقعة الناتجة عن التفاخر ،ولا تصل الى مستوى الجزء السابق من الخطاب . والى جانب التأملات ، يؤكــد في النهايــة انه سوف يستفيد مما حققه من نجاحات ، وانه سيحاول استكمال العمل الذي بداه . ولكن فشله في ذلكيظهر من خطاب كتبه في شهــر يونيو التالــي، حيث يهنىء نفسه لانه لم يكمل خطته ، « لان التفكير في التعقيدات التي كــان يمكــن ان تنشا يجعلني اعرق واهتز من الخوف والالم » واظــن انه يشير ببساطة الى التعقيدات التي لا بد ان تنشأ من وقوعه في هوى فتيات بريئات براءة كاملة وبعيدات بعدا كاملا عن اي ثقافة ، وقد اصبح عشيقا لفيونــا في عــام ١٧٦٨ ، اي بعد تاريخ كتابة ذلك الخطاب بعامين ..

* * *

لقد اقتطفت الفقرة السابقة على شدة طولها لانها توضح اشياء معينة . هناك اولا ، الاشارة الى « التعاليم الملهمة » التي توحي بأن جليني يعتبــر نفسه تلميذا لايزموند في مثل تلك الامور. هل يستطيع احد ، في الحقيقة ، ان يقبل كل مــا كتب عن عصر ذلك اليوم الثاني من شهر يناير عام ١٧٦٧ ؟ كان ميلي الاول هو ان ارفض الكثير منه باعتباره نوعا من الاعراب عن رغبات كامنــة اكثر منه استعادة لاحداث وقعت بالفعل ، وعلى انه يشبه ــ بوجه خاص ــ مجموع تطور الفقرة انتي تشيــر الى ما كــان للاخوين كريبيون وكليلاند من نفوذ وتأثير . ولكــن ظهر لي بعد هذا ان جليني لم يكن ذلك الرجل الماهر . بل ان بعضا من التعبيرات اللبقــة في الخطاب كانت مستعارة من ايزموند نفسه . والحق انه قد ينبغي للمرء انيقول ان الاهميــة الرئيسيــة لذلك الخطاب هي انــه يكشف عن مقدار ما تأثر هوراس جليني بطابع ايزموند وشخصيته . كــلا بل انني اعتقد ان ما حدث هنــا كــان اكثر اهمية بكثير . فقد كــان جليني . ــ مثله في ذلك مثل اكثــر النبلاء الشبان في ايامه ــ شديد الميل الى النزعــة الحسية الشهوانية منذ سن مبكرة ، وهو يذكر في مكــان اخــر ان زوجة احد الفلاحيــن قد اغوته وهو في الحادية عشرة مــن عمره ، ويذكر في مكان ثالث انه قضى اسبوعا سيئا للغايــة حينمــا استغرقت الدورة الشهرية لفتاته وقتا اطول مما ينبغي . ولكــن كان شهوانيا بطريقة عكرة لا خيال فيها ، مولعا بقرص ارداف الخادمات ، بينمــا كان سريع الضجر بالــغ الكآبة على الفتيات اللواتي ينتمين الى طبقته ، بينمــا يحبس لسانــه تماما مــع النساء اللواتي يعجب بهن حقا . كان ابوه يطغي عليه ثم فرض عليه حمايته ، كما كان فيتعب مستمر معشقيقه الاكبر (الذي مات في عام ١٧٧٠ بالتسمم الكحولي، بعــد ان اخذ يشرب البراندي والمادريا طوال ثلاثة ايام متواصلة في رهان) ولكنه لم يكــد يعرف امه التيكانت قد انفصلت عن ابيه قبل هذا التاريخ بعشر سنوات لانه ضربها بسوط من سياط الركوب . كان هوراس جليني احــد ســادة الريف المتخلفين عاطفيا . ثم حدث ان التقى بايزموند الذكي المتوقــد ، الذي ربما كان اكثر

منه نضجا بما يعادل عشرين عاما من التجربة . ولست اظن ان هوارس جليني كان شاذا جنسيا ، ولكنني اظن ان الطريقة الوحيدة الملائمة للتعبير عما حدث في جوتينجين هي القول بانه قد وقع في حب ايزموند . لقد اخذ عنه افكاره ، واساليبه في التصرف ، واسلوبه الادبي ، والاشياء التي يشغل بها نفسه ، كان الامر يشبه الوضع بين « الاسطى » المعلم الكبير ، وبين صبيه الذي يتدرب عنده ويتلقى اسرار الصنعة والحرفة . كانت النساء يتنهدن ويستسلمن كما لو كان ذلك بسحر ساحر . وكانت المسألة كلها تحمل طابع خاصية مدهشة اشبه بتحقق حلم من احلام اليقظة . لقد عاد الى « جلوسبي هاوس » ، فعاملته الفتيات كما لو كان بطلا مظفرا عائدامن‌الحرب. ولكن رغم انه كان يعيش على بعد اربعمائة ميل او نحوها من « حبيبه » فانه راح يعيش ويفكر كما لو كانا ما يزالان معا في جوتينجين . وبدلا من ان ينام مع كل فتاة يقع عليها بصره ، فقد فرض على نفسه نظاما ، وراح يدرس هوراس‌وارسطو ثم عقد عزمه على اقامة علاقة « عاطفية » – اي انها علاقة مصعدة وعلى قدر من التباعد – مع صديقة شقيقته الجميلة – واذ كان يقيم تلك العلاقة ، فانه كان يستلهم نوفاليس وبو ودوسون وعددا اخر من الرومانتيكيين الذين وقعوا في حب فتيات في سن الطفولة . ولما الهمته مثله العليا وافكاره ، اصبح قادرا على تجاوز حدوده الضيقة والارتفاع عنها. ولكنه عاد بعد ذلك – برهانا على ان الالهة ما تزال معه ، وان السحر يعمل عمله دون شبهة في الفشل كما كان ابدا – عاد فتبين ان هاتين الطفلتين تعجبا به مثلما اعجبت به ماجي‌ماكبيد والقرويات الاخريات ، وانه يستطيع ان يلعب بالنار، معرضا حتى لباب قلبه‌للحريق . ويظل حلم اليقظة دون ان يقطعه او يحطمه احد . لم يكن لديه‌اي اهتمام جنسي بشقيقته . فقد كان يعرفها جيدا جدا. ولكنهما مثل اوراق الاشجار ، سقطافي دوامة حلم اليقظة ، ومن مركزه الساحق كالالهة ،كان باستطاعته ان يختار ما يصنع ... ولكن كان من الحكمة – من جانب والده – ان يضع الفتاتين في سرير واحد . وتصرمت ايام العطلة ، وفي منتصف يناير ، بدأ رحلة العودة الى جوتينجين، متخذا الطريق الطويل والشاق المار بلندن من اجل ان يسافر مع ايزموند بدلا من ان يسافر بالطريق الاقصر والاقل مشقة من « داندي » الى « سوكسهافين » ...

... كان باستطاعة المرء ان يدرك ان من طول الخطاب وما حشي به من تفاصيل تلك الكبرياء المتفجرة التي شعر بها جليني وهو يكتب تقريره الى معلمه . لقد كان وحيدا ، دون ان يكون معه من ينصحه او يوجه خطاه ، ولكنه اجتازالامتحان باحسن العلامات الممكنة ..

ولكن علي ان اعترف بان خيبة الامل كانت هي استجابتي الاولى ازاء خطابات جليني ، كما ان مشاعري ازاء دونللي عادت – بتأثير تلك الخطابات – فعبرت بأزمة هبوط من تلك الازمات الدوريةالسابقة . ولكن من الضروري ان اوضح هنا انني لم ارفض تلك الخطابات في البداية على اساس اخلاقي – مثلما سيعرف

ذلك اي قارىء لكتابي « اليوميات الجنسية » . لقد كنت دائما ـ مثل دوناللي ـ مسحور اللب بمشكلة الجنس ،لانها تبدو كما لو كانت تحتوي على المفتاح المؤدي الى اسرار نوع من الوعي اكثر عمقا. ولقد سيطر عليّ دائما شيء كالهاجس المتسلط من الكيفية التي تبدو بها التجربة الجنسية وكأنها تنزلق من بين الاصابع كالزئبق او الذهب المسحور في الحكايات الخرافية ، ولا بد لي هنا من ان اسرد ـ مكررا ـ عددا من التجارب الاساسية التي تبدو لي انها تحتوي على مفتاح هام يؤدي الى الكشف عن ذلك الغموض .

في عام ١٩٥٥ كنت قد قضيت عصر احد الايام في الفراش مع فتاة تدعى كارولين ، وهي طالبة في احد معاهد الدراما كنت قد تعرفت عليها عن طريق جيرترود كوينس . وقد كانت كارولين ـ ولم ادر لذلك سببا ابدا ـ واحدة من هؤلاء الفتيات اللواتي يولدن عندي مستوى حادا الى درجة غريبة من مستويات الشهوة ، اي من الرغبة الجسدية المجردة من اي شيء اخر . وقد قالت لي ذات مرة ، انني حينما مارست الجنس معها تظاهرت هي احيانا بانها كانت تغتصب، وان هذا قد زاد من متعتها . وقد جعلني هذا اتبين بطريقة تكاد ان تكون لا شعورية ، بانني كنت اتظاهر باغتصابها ، فأعاملها تماما مثلما يعامل رجل جائع قطعة جيدة الطهو من اللحم ، فيقضم ويلتهم بشهية متفتحة كشهية حيوان . وفي عصر ذلك اليوم بالذات ، مارست الجنس معها سبع مرات . كان الامر اشبه بمباراة .وبعد احدى هذه المرات عدت من الحمام ، فوجدتها جالسة بسروالها الداخلي ، وهي تحاول ان تربط مشبك حمالة صدرها . دفعتها على ظهرها فوق الفراش ،وجذبت ساق السروال ، وولجتها بحركة واحدة تقريبا . ومرة اخرى فيما بعد ،وحينما كانت قد ارتدت كل ثيابها وعلى وشك الانصراف مارست الجنس معها مستندا على الباب. كان هناك دائما عنصر من الصدمة والمفاجأة في التحامنا .

وبعد ذلك شعرت بالاجهاد الكامل، والاسترخاء الشبيه باسترخاء المتعبد الهادىء النفس ، كما لو كانت كل رغبة جنسية في داخلي قد نضبت تماما وجفت، حتى استطيع ان اركز ذهني على اشياء اكثر اهمية . فتحت الباب بعد ذلك وخرجت لكي اتناول زجاجة اللبن من على عتبة الباب ، وكنت اسكن في شقة ببدروم احد المنازل ، وكانت هناك فتاة تسير في الطابق الاعلى بمحاذاة سور الدرج الحديدي قريبة منه الى درجة انني كنت قادرا على القاء نظرة خاطفة الى ساقيها حتى اطراف جواربها العلوية . كانت هذه النظرة مثل ضربة قوية اعلى المعدة. تبينت مصدوما ان رغبتي الجنسية لم تكن قد نضبت . لم يكن قد نضب سوى فضولي المباشر ورغبتي المؤقتة ازاء كارولين . كان من الواضح ان البئر لا قرار لها .

وتحققت من الشيء نفسه بعد عدة شهور ، حينما كنت في طريقي لكي امضي الليلة مع كارولين والتي كانت في ذلك الوقت تشترك في شقة واحدة مع

احدى صديقاتها . دخلت محلا لبيع حاجيات النساء لكي اشتري لها زوجا من الجوارب . وفي المكان الذي وقفت فيه من المحل ، كانت ورائي مجموعة من تلك « الخانات » ذات الستائر التي تجرب فيها النساء ثيابهن الجديدة . التفت بطريقة عارضة ، فرايت ان سيدة كانت داخل احدى تلك « الخانات » ،وقد اولتني ظهرها ، دون « جونلة » ولا قميص داخلي . ومرة اخرى ، تملكتني صدمة الرغبة الهائلة . ورغم ان المراة كانت متوسطة العمر ، كما تبينت حينما التفت . وفي ظل ظروف عادية ما كنت لاوليها اهتماما لثانية واحدة ، واذ كنت اغادر المحل، كنت ادرك ـ في غير ارتياح ـ ان ليلتي مع كارولين لن تلمس هذا العمق من الاستجابة الجنسية ولن تبلغ اطرافه .

وقد ادى بي ذلك الى تكوين فكرة تقول بان الانحرافات الجنسية انما هي محاولة للهروب من ذلك الجوع الغريب الذي لا يشبع والذي يكون عنصرا اساسيا من عناصر الفعل الجنسي الطبيعي . ان « الموقف » الخاص بالفعل الجنسي العادي هو ما ينتج خيبة الامل . (وهناك قصة الطبيب النفسي الذي نصح رجلا غنيا بان يجرب التنويم المغناطيسي الذاتي ، فقبل ان يذهب الى الفراش كان عليه ان يغمض عينيه وان يردد المرة بعد المرة :« انها ليست زوجتي . انها ليست زوجتي ..») . تقوم كل اشكال الانحراف على اضافة عنصر من عناصر « المحرم » الى الموقف الطبيعي : على الفتاة ان تسير جيئة وذهابا وهي ترتدي جوارب سوداء ،وهكذا . وقصة الكولونيل دونللي عن قيام الخادمة بضربه تؤدي الى نفس النتيجة .وقد تكون هذه النظرة كئيبة او على شيء من التجهم الى الدافع الجنسي، طالما ان اي شيء يمكن ان يكف عن ان يكون محرما طالما انك استطعت ـ مرة واحدة ـ ان تقنع شخصا اخر بأن يشاركك في حلم اليقظة. عندئذ يصبح الجنس مطاردة لا تنتهي لهدف لا يكف عن الابتعاد ..

ولكن في دبلين ، منذ خمسة اعوام ، وقع حادث عارض صغير ، فأدى الى تعديل تلك النظرة . كنت اسير في مكتبة كلية ترينتي ، حينما قابلت فتاة تخرج من مكان ما . كانت ترتدي جوارب بيضاء اللون ، وشيء ما في وجهها صدمني صدمة هائلة . لم اكن قد رايتها قبل ذلك ابدا ، وحاولت لمدة عشرة دقائق ان استخلص سبب تلك الصدمة من ذاكرتي .ثم تذكرت : لقد ذكرتني بفتاة تدعى هازل كانت ترعاني في طفولتي . كانت فتاة جميلة ، وكانت في العاشرة او الحادية عشرة من عمرها حينما كنت انا في الرابعة او الخامسة . وكنت انظر اليها كما لو كانت اما اضافية لي . ولم اشعر ابدا بمثل السعادة التي كنت اشعر بها حينما كانت تلاطفني او تبدل لي ملابسي او تساعدني على ارتداء حذائي . وحينما بلغت العاشرة ، تزوجت ، كنت اعرف التفاصيل الجسدية للفعل الجنسي ،وكان هذا الفعل يبدو لي مثيرا وشريرا الى درجة مرعبة .وذات يوم رايت هازل في محل البقالة ، جميلة مثلما كانت وكانت ترتدي ازارا اسود اللون وجوارب بيضاء . وجعلتني فكرة ان زوجها يملك الحق في رفع هذا الازار

وخلع تلك الجوارب اشعـر بغيرة معذبة . فكرت في الاشياء التي لا بـد انهمـا يفعلانها في الظلام ، ونظرت بقوة الى وجهها ، ظانا ان هذه الاشياء لا بد ان تكـون قد تركت اثرا ما . ربما كان اثرا من نشوة حالمـة ، او ربمـا علامة شريرة مـا . تخيلت ان حياتهمـا ؛حينمـا يعود زوجها من العمل الى البيت ، لا بـد ان تكون حفلا جنسيـا طويـلا مترعـا باللذائذ . ورغم هذا فقد بدت طبيعية وعادية تماما، بالضبط كمـا عرفتها دائمـا ،ربمـا كانت اكثر نحافة بقليل ، ودون شريطهـا الـوردي ..

هذا التفكير في هازل ــ التي كنت قد نسيتهـا طوال خمسة عشر عامـا او اكثر ــ اعاد الي ذكريات فتيات اخريات كنت اعجب بهن حين كنت صغيرا جدا: فتاة كانت تسكـن على بعد منزل واحد من منزلنـا وكانت تبدو لي مثل قديسة. وفتاة اخرى في الشارع التالي لشارعنـا كـان وجهها البيضاوي يدفعني الى الظـن بانهـا اجمل شيء وقع بصري عليه في الحياة . وعمة لـي ذات امومـة فياضة ، لم تكـن تكبر هازل كثيرا ، تعودت ان تاخذني الى السينما ثم الى مشرب شاي قريب .. كان شيئا شبيها بالصدمة ان اتذكر كم كان كبيرا ذلك العدد من الفتيات ــ وكلهن اكبر مني سنا ــ اللواتي نظرت اليهن نظرتي للربات المقدسات . لم يكـن قد طرا على ذهني من قبل انني قضيت طفولتي في مجتمع امومي ،محاطا بنساء عبدتهن كالالهة ، ولا اطلب من احداهن غير ابتسامة ، او تربيـة حنون ، لانني في سنوات مراهقتي ، كنت افكـر في النساء باعتبارهن مخلوقات تطاردهن الرغبـات ، يملكـن اليد العليـا على الرجل بسبب الكنز الكامـن بين افخاذهن ، الكنز الذي يستطعـن ان يمنعنه او يهبنه حسب ارادتهن ووفق مشيئتهن . وكانت وظيفة الرجل عندي هي ان يحصل على الكنز ، بالاقناع ، او الحيلة ،اوبالعنف . ومنذ ذلك الحين ، كرست نفسي لمهمة الذكر العادية ، مهمة الكشف عن اكثر مـا يمكن من تلك الكنوز . كن الطريدة وكنت انا الصياد . ومع هذا فقد ظـل الميـل الى تجسيدهن او تخيلهـن في صورة مثاليـة قويا على حاله ، وبدا هذا الميل في حالة تناقض مـع فلسفة الحرب الجنسية. والان ادركت هذا التناقض . كانت الحرب الجنسيـة هراء لا علاقة له بالحقيقة . ما اردته عن النساء هو نفس مـا كنت اريد من هازل : تعاطف الاخت الكبرى ورقتهـا ، الملاطفات والانتبـاه ، تلـك الاشياء التي تولد الاحساس الذاتي بالامان والثقة . لقد لاحظت دائمـا ذلك الاحساس بالسكينة الذي ياتي حينما يخترق العضو الذكري حلقة العضـلات عند فتحـة عضو الانثى ، ثم ينزلق الى الاعماق الداخلية الدافئة التي تربت عليـه بحنان . وقـد رايت الان ان هذا كـان ببساطـة اكثر الملاطفات الرقيقة قربا من المطلق . كانت هازل ،في لحظة من لحظات الود الخالص تمد يدها فتلمس خـدي برقة ، او تضع يدها على راسي ، وكنت جديرا في مثل تلـك اللحظـة بان اشعر بفيضان فوري من الرضا والاحساس بالاشباع. ان عمليـة ولـوج جسد امراة ليس سوى صورة متضخمة من هذه اللحظة .انه نوع من الملاطفة ، ايماءة رقة ، ولكنها تلاطف ــ في هذه الحالة ــ اكثر اجزاء جسدك خفاء والتصاقا بدخيلتك وبمـا

تخفيه حناياك ـ تلاطفه باكثر اجزاء جسدها خفاء وحميمية . ان النزعة العدوانية التي اطلق عليها لورنس اسم « الحرب الجنسية » تتطور من الجوع الى ذلك الاحتياج ، تماما مثلما تتطور نزعة الاجرام من الفقر وحتى فكرة « كازانوفا » المتسلطة يمكن تفسيرها على هذا الاساس ـ وخاصة ذلك النوع من ال « كازانوفا » الذي يريد ان تظل نساؤه في حالة اخلاص كامل له ، بينما يسمح له بان يفعل ما يحلو له .انهاالرغبةفي الثقة الكاملة بحب الانثى وبخضوعها . كل نساء العالم يحببنه ، وكلهن يرغبن في منحه حبهن ، وحتى معرفتهن لأنه الان في الفراش مع امراة اخرى لا تؤدي الى اي فرق او اختلاف ..

قادني كل هذا الىمعرفة السبب الذي جعلني افقد كل اهتمام بالحرب الجنسية في الاعوام الاخيرة القليلة . لقد حصلت ـ في شخصيتي ديانا وموبسي ـ على مجتمع مكون من شخصيتين نسائيتين تعجبان بي . وتم اشباع الجوع الى الانثى حتى هدأ متخما . اما ذلك النوع من الثقة بالنفس الذي تمنحه النساء فقد تحقق واصبح في وسعي ان اكرس كل انتباهي لامور اكثر جدية، لمسائل الفلسفة والنمو الانساني .

كل هذا يفسر عدم صبري مع هوراس جيلني ، ومع ما افترضتهعند ايزموند دونلاي من فلسفة خلاعية قائمة على « فكرة » الفجور . شعرت ان هذهالفلسفة تدل اما على عدم التحقق او عدم النضج : رغبة الصبيان الصغار في الامن . ولم تكن هذه الحكاية بالذات ـ عن ماري وفيونا ـ هي التي اقلقتني ، لانني قدرت انها حادثة عارضة وقعت دون تدبير، لقد اراد جليني علاقة «عاطفية» فتحولت الى علاقة جنسية . ولكن كانت هناك خطابات اخرى اشارت الىانه كان قادرا على اتباع اسلوب اكثر خشونة واكثر منهجية . فقد حدث على سبيل المثال ان عاد في عيد الميلاد التالي الى البيت عن طريق الشمال ، مبحرا من امستردام الى جريمسي،فقرر ان يمضي عدة ايام في « اوزنا بروك » ،لكي يتفرج على كاتدرائيتها وقلعتها . كان الفندق الصغير مزدحما فأعطى جليني غرفة في الطابق العلوي تقع فوق المغسل ،فشاركه فيها خادمه ،وهو من اهالي لندن ويدعى دوجيت . وبعد منتصف الليل بوقت كثير ، هبطالى الطابق الاسفل ليذهب الى دورة المياه ،ثم وقف برهة قصيرة مستندا بظهره الى جدار المغسل الذي كان دافئا . وبينما كان يقف هناك ، خرجت فتاة من الفندق وذهبت الى المغسل ، ولما اصبحت بالداخل خلعت ملابسها ،وصبت ماء دافئا في احد الاحواض ، وغسلت نفسها ، بينما راح جليني يتلصص عليها من النافذة. ثم ارتدت الفتاة ملابسها ، وذهبت لكي تنام في غرفة اخرى من نفس البناء . وكان جليني علىوشك ان يتبعها ، حينما سمع صوت رجل ، بدا له انه صادر من غرفتها .وفيالصباحالتالي، طلب جليني من خادمه دوجيت ان يكتشف كل ما يستطيع عن الفتاة ، وما اذا كان من الممكن الحصول عليها ذلك المساء .وجاءه دوجيت بعد عدة ساعات وقال له انها فتاة محترمة ، وانها ابنة اخت صاحب الفندق ، وانها مخطوبة لرجل يعمل مساعدا

لاحد النجارين ، ولكنهـا لم تستطع ان تتزوجه حتى الان لان « معلمه » رفض ان يعطيه الاذن بذلك ،ورفض صاحب الفندق رفضا قاطعا ان يقرضه ما يكفي مـن النقود لكي يفتتح لنفسه محلا يعمل فيه لحسابه . وقدر جليني انه من المحتمل ان يكـون صوت هذا المساعد هو الصوت الذي سمعه يصدر عن غرفتهـا في الليلـة السابقة ، فقرر ان يتخلى عن فكرة النوم معها .

وبعد ذلك في نفس اليوم ، قال دوجيت لجليني انه سمع اشاعة تقول ان الفتاة حامل ــ فقد كانت تصاب بحالات غثيان في اثناء عملها . واحس جليني بامكانيـة اتخاذ سبيل آخر الى الفتاة ، فقـال لدوجيت ان يحاول اكتساب ثقتها ، وان يحاول معرفة مقدار المال الـذي قد يحتاجه عشيق الفتاة لكـن يبدا عمله الخاص . « كنت على استعداد لان ادفع الفاً من الجنيهات في سبيل متعة ان اترك دفقة من ماء الحياة في هذا الرحم الفاضل . » ولكن اكتشف ان العشيق يمكن ان يبدا عمله معتمدا على مبلغ اقل من هذا بكثير ، لا يزيد على مائة وخمسة وسبعين تاليرا ، وهو ما يساوي خمسة وعشرين جنيها . وقال دوجيت للفتاة ان لسيده قلبا عطوفا وانه قد يستحق ان تلجأ اليه ــ فان هؤلاء السادة الانجليز مبـذرون ومندفعون . وتبعا لذلك ، طرقت الفتاة بخجل باب جليني في ساعة متأخرة من عصر ذلك اليوم ، فقيل لها ان تدخل . القت الفتاة « خطابها » عن حاجة حبيبها الى النقود ، وعن كيف يتعهد بدفع دينه كاملا ، وما الى ذلك . فتح جليني كيس نقوده واخرج عدة قطع ذهبية . ولما اتسعت حدقتا الفتاة وهي تحملق الـى تلـك القطع ، احاط خصرها بذراعه ، وهمس لها قائلا انها تستطيع ان تربح تلك النقود لحبيبها بسهولة كبيرة . وحاولت الفتاة ان تخلص نفسها وان تبرح الحجرة ، فقال لها انه يعرف بانها حامل . واخافها هذا القول ، فترددت ، واشار جليني الـى النقود ، وقال ان احدا لن يعرف ابدا ، وان الامر لن يستغرق اكثر من خمس دقائق . وانها ستعيش في سعادة بعد ذلك الى الابد ... سمحت له بأن يقبلها ، وان يداعب صدرها . اغمضت الفتاة عينيها ، ومن الواضح انها قررت ان الامر يستحق التضحية ، حينما سمعا شخصا يناديها . انفلتت مبتعدة ، فاخذ جليني النقود ووضعها بالقوة في يدها ، ثم قبلها ثانية ، فأسرعت خارجة .

وفي ذلك المساء كانت هي التي تخدم على المائدة ، استطاع جليني ان يجعل عينيه تلتقيان بعينيها مرتين ، فأحمر وجهها في المرتين . كانت قد اصبحت مدينة له بجسدها . وكان جليني يعرف انه لا خطر على نقوده معها . فقد كان دوجيت قد استطاع ان يعرف انها واعدت حبيبها على لقاء في ذلك المساء ، وانها بلا شك قد حملت اليه النقود .

وفي تلك الليلة ، انتظر جليني حتى سمعها تعبر الفناء وتدخل المغسل . وفي تلك المرة تخلع ملابسها كلها ، واحتفظت بقميصها . فتح جليني الباب وانـدس داخلا . بدا عليها الذعر ، ورجته ان يخرج . وقالت له انه « هو » كـان ينتظرها في حجرتها . همس لها جليني ان الامر لن يستغرق سوى لحظة واحدة . امضى

عدة دقائق في تهدئتها ، واقناعها ان تهدأ وتسكن .. ودفعها حتى استند ظهرها الى المرجل الخامد ، واخذها في تلك اللحظة ، وعلى الفور . وبعد ذلك ، همس لها انها اذا كانت تريد خمسة وعشرين جنيها اخرى لكي تقيم منزلها ، فليس عليها الا ان تأتي الى غرفته في اليوم التالي . ثم ارتدى ملابسه وتركها .

استبد به الغضب حينما لم تلب الفتاة دعوته . قابلها بالصدفة في احد دهاليز الفندق ، فنظر اليها متسائلا ، فهزت راسها واسرعت تبتعد . ولم ينجح دوجيت هو الآخر في اقناعها . كانت الفتاة قد وفت بنصيبها من الصفقة ، ولكن لاح لجليني انه من غير المعقول اطلاقا ان تكون قد سلمت نفسها له مرة واحدة ، ثم منعت نفسها عنه بعد ذلك . « كنت على استعداد لان انفق كل جنيه املكه لكي اقضي ليلة في الفراش مع هذه الشيطانة الصغيرة الفاضلة . » . قال لدوجيت ان يحاول ابتزازها بأن يهددها باخبار عشيقها ، ولما فشل هذا التهديد راح يفكر في اختطافها وحملها معه في عربة خاصة . ولكن الفتاة كانت قد نالت كفايتها ، فاختفت في تلك الليلة . والمفترض انها قد لحقت بعشيقها ، الذي كان الآن قد اصبح مستقلا عن معلمه . وفي حالة مزاجية سيئة الغاية ، استقل جليني عربة الى امستردام معزيا نفسه بفكرة ان « تلك الدقائق الخمس في مواجهة المرجل الخامد، كانت تستحق خمسة وعشرين جنيها من نقود اي رجل . » هذه الحادثة تفوح منها نكهة منفرة . كان قد رآها عارية فاراد ان يمتلكها ، ولم يدفعه اكتشاف انها تواجه بعض المشاكل الا الى زيادة تصميمه على امتلاكها ، كان بوسعه ان ينتظر ، وان يجعلها تأتي الى غرفته في اليوم التالي . فقد كان من الواضح انها مستعدة للوفاء بنصيبها من الصفقة ، ولكن كان من الاكثر اثارة ومتعة ان يمتلكها في الظروف التي كان قد قرر في البداية ان يمتلكها فيها ــ وخاصة ان عشيقها كان ينتظرها في حجرتها . ومن المهم ان نلاحظ استخدامه لكلمة « فاضلة » . لم تكن الفتاة فاضلة ، لانها كانت حاملا . ولكن رؤيته هذه اليها هي ما جعلته يرغبها : رؤيته في صورة المحترمة الفاضلة ، تعشق رجلا آخر . فكم يكون رائعا ان يخلع عنها قميصها فيضاجعها مستندا الى مرجل المغسل ، وبنطلونه متدل على كاحليه ! ولكن اذ انجز هذا ، فقد اراد ان يحتل الارض التي غزاها ، وان يكرر كل العملية الممتعة برمتها. لم يكن من الطبيعي ان يبتز فتاة فيهددها لكي يأخذها الى فراشه ، او ان يفكر في حملها عنوة في عربة خاصة ، ولكن هذه الفتاة « الفاضلة » ولدت عنده رغبة في الغزو ،وفي ان يحط من شأنها ،وحتى اذا كان قد شعر بالخيبة في النهاية ، فانه يعتمد على فكرة انه قد حصل عليها مرة ، واذا ظلت هي مخلصة لزوجها حتى نهاية حياتها ، فلا شيء يمكن ان يمحو تلك الحقيقة . ان اكثر انواع النزعة الصادية عند الرجال خشونة وفظاظة هي ما تجلل الحكاية كلها . ولكن جليني يصفها في خطابه الى دونللي كما لو كان واثقا من موافقته على سلوكه . وكان احساسي الخاص هو انه اذا لم يكن دونللي قد وجد الحادثة ونظر اليها باعتبارها شيئا رديئا وغير « مشرف » بنفس نظري لها ، اذن فانه لن يكون احسن من جليني في شيء، واذن لكانا مجرد صعلوكين يحملان عقلين قذرين . ولكن لما لم اكن املك شيئا من

خطابات دونللي ، فانني لم اكن املك سبيلا الى معرفة ردود فعله ازاء مكاشفات هوراس جليني .

* * *

طوال الايام العشرة التالية لم يحرز « بحثي » عن دونللي اي تقدم . ولا بد لي من الاعتراف ببعض الكسل المحبب ، او بالاحرى ، بشيء من الميل العكسي، الرافض لان استغل طاقاتي بمهمة مدفوعة الاجر او لان انكب عليها وحدها دون غيرها . لقد شعرت وانا اقرأ الخطابات المختلفة والوثائق المستعارة من الآنستين دونللي بانني اشبه بتلميذ يقوم باداء واجبه المنزلي ، ولقد كنت اكره مثل هذه الواجبات . وبدلا من هذا رحت املأ صفحة اخرى من مذكراتي حول موضوعات متعلقة بفلسفة الظاهراتية وحول دراسة ويتينجشتاين ، الذي كانت روايته « زيتيل » قد وصلت لتوها من بلاك ويلز .

ثم حدثت بعد ذلك عدة اشياء دفعة واحدة . فقد نشرت صحيفة التايمز الايرلندية خطابي الذي اعلن فيه عن طلبي لاية مواد تتعلق بدونللي ، وبعد يومين ، نشر الملحق الادبي للتايمز اللندنية خطابي الذي كتبته في لندن . واخيرا ارسل الي كلاوس دنكمان خطابا اعتذاريا من هامبستيد ، واوضح فيه ان خطابي اليه لم يصله في موعد مناسب ، لانه ترك لمدة طويلة على مائدة قاعة الاستقبال في عنوانه القديم ، حيث لاحظه احد الاصدقاء بالصدفة . وكتب الي رجل يدعى و.س.ل آلوريتش من بلدة كورك ، يقول انه كان صديقا للمرحومة جين آستون التي ماتت في عام ١٩٤٩ والتي كانت تمتلك خطابات مختلفة بخط يد دونللي . ولكنه لم يكن واثقا مما حدث لتلك الخطابات بعد ذلك . واخيرا ، كتب الي كليف م. بيتس ، حفيد ايزاك جينكينسون بيتس ، كتب الي من دبلين ليقول ان جده مريض ، ولكن اذا تصادف وجئت الى دبلين فانه سيكون سعيدا لرؤيتي . واضاف ان جده ابتهج لانني ابدت آراءه حول مرتكب جريمة قتل جزيرة الآي الايرلندية ، وانه يود ان يناقشها معي شخصيا . ثم اضاف في لاحقة ذيل بها الخطاب يقول : « لقد رايت خطابك في عدد اليوم من التايمز الايرلندية . وانني قد اكون قادرا على تقديم بعض الاقتراحات . » واثارت قلقي هذه الجملة الاخيرة باسلوبها الحذر . فانه لم يستطع حتى ان يذكر اسم دونللي . وبدا لي هذا الاسلوب دليلا على انه يكاد بالفعل يعرف شيئا ما : ربما كان شيئا اكثر حتى من ان يثق بنفسه اذ يلمح اليه .

وكان خطاب كلاوس دنكمان طويلا جدا ، وراح يناقش كتبي مناقشة مطولة مستفيضة . ولكن اشاراته الى دونللي كان مختصرة . قال انه سمع الاسم من اوتو كورنر ، تلميذ ويلهلم رايخ ، الذي تحدث عن دونللي باعتباره واحدا من اوائل الكتاب الذين لاحظوا اهمية بلوغ ذروة النشوة الجنسية كعلامة على الصحة النفسية . ثم قال دنكمان ، انه مع ذلك غير قادر لسوء الحظ على ان يزودني بالمزيد من التفاصيل . فعلى قدر علمه ، كان كورنر قد عاد في ذلك الحين الى المانيا .

كان عزمي هو ان اسرع الى دبلين لكي ارى كليف بيتس . ولكن كانت هناك اشياء اخرى كثيرة لا بد من انجازها ، والى جانب هذا ، فان العجلة التي هي من الشيطان قد تدمر كل شيء . وهكذا فقد كتبت اليه خطابا دون توقيع ، اتحدث اليه فيه عن مشروعي لكتابة مقدمة تأريخية لكتابه يتضمن مذكرات دونللي ، واضفت انني ارجو ان اراه عاجلا في فرصة مقبلة . ثم تحولت الى مسألة اقتفاء آثار خطابات دونللي التي كانت في حوزة جين آستون ـ رغم انني فعلت هذا دون كثير من الحماس . فلا شك انها سوف تكون خطابات دونللي حول موضوع جورتان وتيللوستون وغيرهما من اصحاب محافل التنويم المغناطيسي . ذهبت الى كورك وقابلت مستر آلدريتش الذي كان بوسعه ان يخبرني انه كان لجين آستون اقارب يقيمون في بلدة بيلجولي بالقرب من كينسيل . فذهبت الى هناك بالسيارة لكي اكتشف ان هؤلاء الاقارب قد ذهبوا الى كورك لكي يبتاعوا حاجياتهم وانهم سيغيبون نهارا بأكمله . وهكذا فقد عدت الى كينسيل وحجزت غرفة في الفندق ، ثم عدت لزيارة مستر فيليب آستون ـ وهو حارس شواطىء متقاعد ـ في الساعة السابعة مساء .وقد كانت هذه الرحلة سدى ، فالرجل لم يكن يعرف شيئا عن خطابات دونللي، ولكن اعطاني عنوان قريب آخر له يدعى برنارد آستون في ليمريك. وقصدت هذا الاخير في اليوم التالي في طريق عودتي الى جالاواي ، وكان الرجل قد سمع شيئا عن خطابات دونللي ، ولكن لم تكن لديه فكرة عما حدث لها ، واقترح ان اتصل بطبيب جين آستون ، جورج اوهفرنان في كورك الذي كان يعرفها جيدا. (ولاحظت ان اجفان عينيه قد تكسرت قليلا حين ذكر اسم الطبيب الامر الذي وحى الي بأن تلك العلاقة مع الطبيب كانت اقوى قليلا مما يستطيع ان يوافق عليه .)

كان احساس « كافكاوي » قد بدأ يتملكني بأنني اوجه من مكتب الى آخر دون الاقتراب ابدا من الهدف المقصود ، وشعرت باغراء الاستسلام . اردت ان اقتطف نصف صفحة من حديث دونللي عن موضوع الخطيئة والفداء ، ولكن بدا الموضوع يلوح اكثر ازعاجا مما يستحق . وحينما وصلت الى البيت ، ودعمت عزيمتي بكأس كبيرة من الكلاريت ، اتصلت باستعلامات هاتف بلدة كورك وسألت عن رقم تليفون الدكتور اوهفرنان.. قيل لي انه ليس من يحمل هذا الاسم سوى شخص واحد ، ولكن لم يعد يعمل في المستشفى . بشعور آخذ في التبلد سألت ان كان بوسعهم ان يوصلني بالطبيب المشرف ، ثم اخذت كأسا كبيرة اخرى . بعد قليل جاء رجل يتكلم على الطرف الآخر ، وقال ان الطبيب المشرف كان خارج المستشفى في تلك اللحظة وسألني ان كان يستطيع ان يساعدني في شيء . عرفت انه كان من المستحيل ان اقنعهم بأن يعطوني الرقم ، ولكني رجوت ان يجعلوا الطبيب المشرف يتصل بي لدى عودته . ان ايرلندا بلد من نوع هادىء الاعصاب يكاد يكون مستهترا . وهكذا فقد كان علي ان اوضح نوع العمل الذي اقوم به ـ وهو انني كاتب وانني اريد ان اتتبع مصير بعض الوثائق ، وانني قدرت ان الدكتور اوهفرنان يمكن ان يساعدني . وطلب مني السيد المتحدث على الطرف الآخر ان

انتظر قليلا ، وبعد عشر دقائق عاد لكي يقول لي ان الـ « اوهفرنان » موضع البحث لم يكن مسجلا باعتباره طبيبا . شكرته وقطعت المكالمة ، ولاح ذلك لي كأنه نهاية الخيط والطريق .

ولكن ، وبعد ذلك بساعتين ، وبينما كنت على وشك الاستسلام النعاس وانا استمع الى موسيقى « قراصنة بينزانسة » دق جرس التليفون . فاجابت ديانا على النداء ، وقالت لي ان الطبيب المشرف في مستشفى كورك يريد ان يكلمني . وكان هو نفس الرجل ، وكان قد القى نظرة على القوائم القديمة فعثر على اسم الدكتور اوهفرنان ، ثم استطاع بشكل ما ان يعثر على مكانه . كان العنوان في كيلارني . شكرته مضطرا الى ذلك ، ثم اخذت اسمه وعنوانه لكي ارسل اليه نسخة من احد كتبي . ورغم ان الساعة كانت قد جاوزت العاشرة ، فقد قمت بمهمة محاولة طلب رقم الدكتور اوهفرنان . ذكرت له اسمي وقلت انني كاتب ، فأصبح على الفور وديا جدا ، وقال لي انه قد نشر عدة كتب ، ولم يكن قد سمع بي قبل ذلك ابدا ، ولكن حينما وصلت الى موضوع ايزموند دونللي تذكر انه « كان قد » رأى خطابي في التايمز الايرلندية وكان يريد ان يكتب الي . وقال ان نعم ، بالتأكيد. انه يملك عددا كبيرا من خطابات دونللي بالاضافة الى اوراق اخرى ، وانني سأكون موضع الترحيب الكامل اذا شئت ان افحصها في اي وقت يكون ملائما لي . فأتفقت معه على موعد في اليوم التالي .

ليس ثمة مهرب هنا من وصف الساعات الاربع والعشرين التي قضيتها مع جورج اوهفرنان ، رغم انها تستحق الوصف بالتاكيد . انه رجل قصير ربعة قوي البنيان ذو خدين متوردين وشعر ابيض وشارب ابيض ، كان يبدو كواحد من اولئك الناس الذين يولدون سعداء مفعمين بالاهتمام بكل ما يجري حولهم من احداث او ظواهر . اهداني نسخا من كتبه : « كلونماكنويز وقصائد اخرى »، « مانجان ، وعصبته » ، « مذكرا تمتمرد ايرلندي » . بالاضافة الى مجموعة مترجمات عن اللغة الغالية . كان قد عرف ييتس معرفة جيدة ، وامضى عدة امسيات مع جويس في باريس ، وكان نديم شراب لجو جارتي . سجلت ملاحظة طويلة عن اقاصيصه في مذكراتي اليومية ، لان صورة هذه الاقاصيص التي وردت في كتابه « مذكرات متمرد ايرلندي » اكثر تهذيبا الى حد كبير واقل نزوعا الى اسلوب رابليه التهكمي اللاذع من الصورة التي سردها لي بنفسه . كان الطبيب مضيافا كريما ، فقد دعا اثني عشر صديقا لتناول العشاء معي فأستهلكنا عدة جالونات من الجعة المصنعة في المنزل بالاضافة الى عددكبير من زجاجات ويسكي جامسون . وفي الساعات الباكرة من الصباح ، حينما تخبط آخر ضيوفه نحو سيارته ، حكى لي قصة علاقته بمسز آستون في خلال السنوات العشرين الاخيرة من حياتها ، وكانت قد ماتت في الثامنة والاربعين من عمرها بسبب الربو . واخيرا اخذني الى صوان هائل ، يمتد من الارض الى السقف في حجرة النوم حيث كان علي ان انام . واطلعني على اكوام من المخطوطات الملفوفة والخطابات المغلقة في

حزم محكمة ووضعت في اضبارات سوداء ثقيلة ، وقال « سوف تعثر على الكثير من تراث دونللي في وسط هذه الكتلة » ، ثم تركني لكي ابحث عما اشاء . كانت الساعة الرابعة صباحا ، والغرفة باردة كالثلج رغم وجود مدفأة كهربائية ذات مشعل واحد . كنت قد شربت كثيرا وانتابني صداع خفيف . ولكنني شرعت في جذب الاوراق من الصوان اعتمادا على الصدفة في رؤية خط يد ايزموند دونللي . وبعد ان ازعجت عددا قليلا من العناكب واثرت كمية لا بأس بها من الغبار عثرت على حزمة من الخطابات موجهة الى ويليام آستون . وكنت حتى ذلك الحين قد اخرجت معظم ما كان في الرف السفلي من الصوان . ولكن في نهاية طرف الركن، كان هناك مغلفان اسودا اللون . جذبتها والقيت نظرة على احدهما . كان الخط هو خط ايزموند . نظرت الى الصفحة الاولى ، كانت تبدأ من منتصف فقرة ناقصة من بدايتها . فتحت المجلد الاخر . كان يتكون من اوراق من الحجم المتوسط ، وبطت اطرافها بعضها الى البعض ، وقد كتب على الصفحة الاولى : « ١١ اكتوبر عام ١٧٦٤ . كنت دائما اعقد العزم على الاحرفاظ بمذكرات يومية اسجل فيها اخمالي يوما بعد يوم ، ولكنني فشلت حتى الان في المداومة على تنفيذ هذا العزم . لقد فقدت ذكرياتي عن عدد كبير من الاحداث الهامة ، حتى كان علي في النهاية ان اصمم على تنفيذ هذا القرار ، مهما كان الثمن من الجهد او الشموع ... »

خلعت ثيابي وارتديت منامتي وصعدت الى الفراش ، ولم اعد راغبا في النوم . في عام ١٧٦٣ كان ايزموند في السادسة عشرة ما يزال . اذن فان هذه المذكرات هي اقدم ما وقع عليه بصري من كتاباته حتى تلك اللحظة . كان خط اليد اكثر وضوحا وسهولة في القراءة من الخط الذي رايته من قبل في مذكرات لاحقة لهذه التي في يدي الان . كان احساسي بالانتصار قويا لدرجة انني شعرت باغراء ان اذهب الى الدكتور اوهفرنان في حجرة نومه لكي اطلعه على ما وجدت . ولكن لم يمنعني من ذلك الا شكي في انه ينام فيها مع المراة الشابة الممتلئة التي تخدم منزله ، الامر الذي جعلني اكبح جماح نفسي . وكان ما ادهشني هو ان اوهفرنان لم يذكر لي تلك المذكرات . لقد قال لي انه يعرف ان ثمة خطابات من دونللي ، ولكن كان هذا هو كل شيء . فالاستنتاج اذن هو انه لم يكن يعرف شيئا عن وجودها . وحينما سالته في الصباح التالي ، اكد لي هذا الاستنتاج ، فأن مذكرات رجل ايرلندي ، بروتستانتي انجليكاني النزعة والمذهب ، من القرن الثامن عشر ، لم تكن من الامور التي يمكن ان تثير اهتمامه ، لانه كان كاثوليكيا ووطنيا ، وكانت مشاعره ازاء كرومويل اكثر عنفا من مشاعر اي انجليزي تجاه هتلر .

قرات حتى مطلع الفجر ، ونمت حوالى ثلاث ساعات ، حتى ايقظتني مدبرة المنزل بالشاي ، ثم ارتديت معطفي فوق المنامة وعدت ثانية الى الصوان . وفي خلال نصف ساعة ، كنت قد «فرزت» ثلاث حزم اخرى من الخطابات ، ومجلدين آخرين من المذكرات ، بالاضافة الى مخطوطة « يوميات الرحلات » الخاصة

بدونللي . وحينما دخل الدكتور اوهفرنان لكي يقول لي ان طعام الافطار قد وضع على المائدة ، وجدني محاصرا بالاوراق مغطى بالتراب ، جالسا في مواجهة الصوان الخالي . وحينما اطلعته على المذكرات ، ابتسم وقال :

« حسنا . انني مسرور لانك لم تقم بهذه الرحلة لقاء لا شيء »

حينئذ انتهزت الفرصة لكي اطرح السؤال الذي شغل ذهني طوال الليل :

« اتعني انني استطيع ان استخدم كل هذه المادة ؟ »

« بالتأكيد . لم لا تستخدمها ؟ »

« هل تفضل ان اعمل هنا ، ام ان بوسعي ان استعيرها ؟ »

« أوه ، اي شيء تفضل . انزل الان معي وكل شيئا . »

ثم عرج خارجا في خفه وردائه المنزلي الواسع ، بينما جلست في مكاني اغمغم كمجنون .

* * *

ولا بد لي من الاعتراف بأنني حينما درست المذكرات ، بدات في الندم على قبولي التعاقد مع فليشر . كان مبلغ الخمسة عشر الفا من الدولارات قد لاح لي مبلغا عظيما في ذلك الوقت ، ولكن مع وجود كل هذه المادة « رهن اشارتي » شعرت بأنني استحق اكثر من هذا بكثير . ذلك ان المذكرات الجديدة ازاحت جانبا آخر من شكوكي حول قامة دونللي الثقافية وقيمته الذهنية . اقد اطلعتني هذه المذكرات على السبب الذي جعل هوراس جليني يعجب به الى هذا الحد . لقد كان رجلا تسلطت عليه الطبيعة المراوغة للتجربة الانسانية . ولكن فلندعه يتحدث عن نفسه :

« يقول لي ابن عمي فرانسيس انني قوي الشعور بذاتي مسرف في الغرور ، ولكنني ادعو السماء لكي تشهد علي ان هذا غير صحيح . انني في الاغلب اكثر من يعيش تحت الشمس من مخلوقات لعنة وتحقيرا لذاته ، وكثيرا ما يبلغ عدم رضاي عن ذاتي ان اشعر باغراء ان اطلق على راسي الرصاص فانسفه . انني اكتب هذه المذكرات عساي استطيع ان ادخل شيئا من النظام والاستمرار على حياتي ، لانني اشعر بالسقام حتى لباب القلب بسبب استهجاني واستنكاري لذاتي . كثيرا ما تشكو النساء من انتقاد الرجال الى الثبات على العهد ، ولكن لماذا ينبغي علينا ان نتمتع بصفة الثبات على العهد في الحب بينما نحن لا نملك شيئا من الثبات في اي شكل آخر من اشكال الفكر او الاحساس او الرغبة ؟ بالامس ، القى الواعظ المشهور الدكتور جيلليس موعظة في كنيستنا ، وقد حركتني هذه الموعظة الى حد عظيم ، فأقسمت على ان ابدل حياتي في المستقبل لكي اسير تبعا لوصاياه فأعيش فقط على اساس من الاتفاق مع ضميري واحساسي بالفضيلة . ولكن اليوم عاصف الرياح شديد البرد الى درجة اكثر مما يسمح بالمغامرة بالخروج من الباب . وفي هذا الصباح قرات في خرافات جيلليرت بالالمانية لمدة ساعة قبل ان يتملكني سوء المزاج المعتاد مرة اخرى ، فأصبحت غارقا في احساس وحشي من الفراغ والخواء . ومنذ ذلك الحين وانا عاجز عن رؤية اي طريق يستطيع من خلاله ضميري او احساسي بالفضيلة ان يؤثر على هذا الاجهاد الذي يستهلك الحياة

ويدمرها . ربما يستطيع ضميري ان يدلني كيف اتجنب ارتكاب الخطأ ، ولكنه لن يستطيع ان يدلني على كيفية الهروب من الملل والضجر . وهل يمكن ان يكون ثمة شيء اقتل للمخلوق الذي صاغه الله على صورته من نفس هذا الضجر ؟ ذلك ان الله اله لانه يستطيع ان يخلق ، ولذلك فان رجلا يسحقه الضجر لاكثر المخلوقات بعدا عن صورة الله .

لقد عقد الدكتور جيليس مقارنة شديدة الحذق والبراعة بين الجسد والعقل ، قائلا ان الجسد يملك نظامه او اسلوبه الخاص للتخلص من الافرازات السيئة او الضارة سواء كانت طبيعية او من نتاج المرض ،بينما لا يملك العقل مثل هذا النظام او الاسلوب . لو اصابني « دمل » لانصرف من تلقاء نفسه . ولو اصابني الامساك فان تفاحة خضراء ستكفي لتخفيف الانقباض ، ولكن لو انني ممتلىء حسدا او ضغينة ، فلن ينفعني اي مظهر مهما كان ، فاما ان اتيح الفرصة للتعبير عما يحتبس في صدري ، او ان اسحبه عن طريق فعل مضاد . وليست هناك قناة طبيعية للتصريف ، لا بد لتصريفه من طريقة تشبه ولادة « ماكدف » قاتل ماكبث في مسرحية شيكسبير : « انتزع من رحم امه قبل اوان النضج والولادة » .اوليس يصدق هذا ــ وحتى اكثر منه ــ على ذلك « الضجر الحياتي »الذي يخنقني . انه نوع من انقباض الروح ، دمل لا يريد ان ينصرف .

اعرف انني لا يمكن ان اكون سعيدا دون الشعور بان نشاطي موجه نحو غاية ما ، ولكنني لا اعرف كيف احشد روحي فاشحنها بهدف معين او غاية محددة . منذ نصف ساعة ، تناولت ديوان تومسون (١) الذي يحمل عنوان « شتاء » وقرات فيه :

يتنزل الوابل الابيض عبر الهواء الساكن ،
رقيقا يترنح في البداية ،حتى تأتي في النهاية الرقائق السميكة
تسقط في كل مكان ، طولا وعرضا ، وسريعا ما يعتم النهار
بالفيضان المستمر . الحقول المدللة الحبيبة ،
ترتدي ثيابها الشتائية من انصع الوان البياض .
كلها نصاعة مشرقة ، عدا حيث يذوب الجليد الجديد
على طول المجرى المراوغ . . .

لماذا تحمل تلك الكلمات سلاما يشبه سقوط الجليد الهابط على حواسي ؟ الا توجد في داخلي شهية الى السمو الجليل يفسدها الان الاجهاد، مثلما يشم جوع معدتي فأشعر بالغثيان اذا اكلت كثيرا من الشطائر المسكرة ؟

---

(١) جيمس تومسون ١٧٠٠ ــ ١٧٤٨ شاعر انجليزي ، مؤلف ديوان « الفصول » الذي اخذ فكرته عن استاذه فيالللاهوت روبرت ريكالتون . ظهر ديوان « شتاء » في مارس عام ١٧٢٦ ، واكتمل ديوان « الفصول » في خلال السنوات العشر التالية . يعد جيمس تومسون اول شعراء الحركة الرومانتيكية في الشعر الانجليزي ، وكان تمهيدا لظهور كاوبر ووردزورث . (هـ . م)

اولا تستثار تلك الشهية فتستيقظ من خمودها اذ تتذكر حقول الشتاء ؟ وكذلك حين تتذكر قعقعة السيوف في ملحمة اوسيان ؟ (١) وايضا اذ تتذكر اهتزازات نهدين حينما تسرع فتاة في صعود الدرجات . لماذا لا نملك عصا نضرب بها صخرة الروح لكي يتفجر منها الينبوع دفاقا ؟ »

هنا يردد ايزموند الموضوع الرئيسي في المذكرات : انه ما ندعوه الان بالطاقات والقدرات الخفية للاوعي . هذا الموضوع يتسلط عليه كالهاجس المسيطر . وهو يعود اليه مرة بعد مرة . « ان قوى الطبيعة تحيط بنا طول الوقت ، الاندفاع الجبار لتيار الفيضان ، وقذائف مدافع الرياح ، النجوم نفسها ترقص عبر السموات لكي تقول لنا ان لا شيء في العالم يبقى ساكنا سوى روح ملعون لا يعرف سوى القلق وتانيب الذات » . وهو يسأل مرارا عن السبب الذي يجعل ذكاء الانسان « ينفيه » بالضرورة من حياة الكون ويتساءل متأملا فيما اذا كان هذا هو معنى قصة آدم وحواء ؟ ان المعرفة ذاتها ، القدرة على التفكير ، هي التي كانت تفصل الانسان وتفرقه عن الله . وحتى في سن السادسة عشرة يبدي دونللي معرفة واسعة تماما بمقدسات ومشاكل القرن الثامن عشر، بل انه يقتطف عبارات من جورج هربرت(٢) . ولكن في الصحيفة رقم ٤٨ من المجلد الاول ــ المؤرخة في يوم يسبق عيد الميلاد بأسبوع واحد ــ تتغير النغمة. واظنه قد اعاد قراءة جملته التي يطالب فيها « بعصا نضرب بها الروح لكي يتفجر منها الينبوع دفاقا » ،لانه يتحدث مرة اخرى عن النهود المهتزة . كان النهدان اللذان يفكر بهما هما نهدا ابنة عمه صوفيا ، التي كانت تقيم عندهم فترة الاجازة مع والدها ووالدتها . ان صوفيا مونتاجو ، ابنة عم اليزابيت مونتاجو (وهي احدى العضوات الاصليات في جماعة « الجوارب الزرقاء ») ، قد اصبحت واحدة من فاتنات هذه المرحلة المرموقات ، وحتى في ذلك الوقت ، حينما كانت في التاسعة عشرة او تكاد ــ فانها قد جذبت الكثير جدا من الاهتمام حينما كانت تقيم في بيت « ماي فير » الذي اقامته المضيفة الشهيرة. وكان ايزموند يملك ما يكفي من القدرة على التحليل لكي يعرف انه لم يكن

---

(١) اوسيان ــ شخصية ذات وجهين ، تاريخي وادبي . في التاريخ كان « اوسيان » احد المحاربين الغاليين الذين نزلوا شمال اسكتلندا في القرن الثالث ، وفي الادب زعم الشاعر الاسكتلندي جيمس ماكفيرسون (١٧٣٦ ــ ١٧٩٦) ان اوسيان هو الشاعر المؤلف الحقيقي لما نشره ماكفيرسون نفسه من شعر ملحمي عن حروب الغاليين في فرنسا وانجلترا والمانيا ونشرها في عام ١٩٦٠ . وبذلك بدأت المناقشات « الاوسيانية التي ما زالت تجلب بعض الاهتمام .(هـ.م).

(٢) جورج هربرت ١٥٩٣ ــ ١٦٣٣ . شاعر انجليزي اخلص للشعر وحده ، ويعد من شعراء مدرسة جون دون الميتافيزيقية. اهتم بنقل الاعمال الشعرية الايطالية الفرنسية المعاصرة له الى الانجليزية ، فساهم بذلك في ازدهار الشعر الانجليزي في القرن السابع عشر وما بعده ، كما اهتم بالموسيقى ، ودرس علاقة الموسيقى باوزان الشعر الاوروبية ، والف عددا من المقطوعات الموسيقية لكي تصاحب قراءة بعض قصائده . (هـ . م) .

واقعا في حبها ، لانه كتب يقول :« انها بلهاء ، ولكنهـا بلهاء جميلة تتمتع بالكثير من نقاط التشابه معاحدى الربات » . ويكتب عنهـا فيمـا بعد قائـلا :« قالت لي صوفيـا انهـا سمعت مستر بوزويل يتناقش مـع دكتور جونسون مدافعـا عـن تعدد الازواج ، وان مسز مونتاجو اجابت بأنه ليست هناك امراة على قيـد الحياة تمتلك حكمة ضئيلة الى الحد الذي يجعلها تريـد اكثر من زوج واحد فـي الوقت الواحد » . ان افكرة بوزويل جذورها ، وقد تأصلت فيمـا بعد ، وكذلك تأصلت افكار روسو في كتاب« هيلويز الجديدة » التيقراها بالفرنسيـة ، كمـا قرا روايـة ريتشارد سون « كلاريساهرلو » . ففي روايـة روسو تنشأ علاقة حب بين البطلـة جولي ومعلمهـا سانت بريو ، ويدافع عنهمـا روسو محتجا بان هذا الحب حق وطبيعي بيـن شخصين يحب احدهمـا الاخر وتمنعهمـا الظروف مـن الزواج . امـا روايـة ريتشارد سون فهي اخلاقيـة اذا مـا قورنت بروايـة روسـو : انهـا معالجـة لحكايـة اغواء كلاريسا الفاضلة واغتصابها علـى يدي افاق الصعلوك لفليس . وتموت كلاريسا تحت وطأة تعذيبها لنفسهـا وشعورها بالعار ،ويقتل لفليس في مبارزة . ويكيل ايزمونـد صنوفا مـن التهكم اريتشارد سون باسم روسو . لماذا يمكـن ان تنهار فتاة وتضمحل حتى الموت لان رجـلا قد فعل معهـا شيئا طبيعيا ؟ ان حضور ابنة عمه الجميلة يحفظ موضوع الاتصال الجنسـي في طليعـة مـا يشغل ذهنه ، وفي وقت قصير يشرع في التعبير عن آراء تدفعه الى تقرير المحافظـة على سريـة مذكراته . انه ـ مثل عدد كبير من النقاد ـ يشك في انموقفريتشارد سون ازاء اغتصاب كلاريسا لـم يكن موقف الرفض المرتعب ، وانمـا المتعـة السرية الشريرة . « فمن الـذي يمكـن الا يستمتع باغتصاب فتاة جميلة ، خاصـة اذا لم تكـن متمالكـة لوعيهـا ولا تعرف شيئا عـما يجري لها ؟ » وهو يسأل عـن السبب الذي يجعل ريتشارد سـون يسمح باغتصاب كلاريسا وهي تحت تأثير المخدر ، بدلا من اتباع طريقة لوريس ، ثم يجيب على تساؤله قائلا : « اذا كانت الفتاة فاضلة الى الدرجة التي تمنعها من تسليم جسدهـا باي طريقـة اخرى، فان لفليس على حقفي اتباعه لهـــذا الاسلوب . ان جمال الفتاة ، مثل جمال انواع معينة من الطيور الاستوائية ، قد خلق لكي يغري الذكور ويوقعهم في حبائله ، فلمـاذا ينبغي عليهـا ان تشكـو اذا كانت قـد حققت كل هذا القدر من النجاح ؟ انهـا تشكـو لان هدفهـا هو ان تحصل على زوج في مقابلفضيلتها . ولكن لنفترض ان زوجهـا المحتمل قـد وجدها بلهاء ولم يرغب في ان يكرس حياته للدفاع عنها فهل يلزمه شرفه بـأن يتوقف عن الطراد ؟ لمـاذا لا يستطيع ان يحاول انتزاع الزهرة بدلا مـن ان يشتري الحديقـة بأكملهـا ؟ »

ومن المهم ان نلاحظ انه لم يجب بالفعل على سؤاله عمـا دفع ريتشارد سون الى تفضيل ان تغتصب كلاريسا وهي غائبة عن الوعي . ولكـن هذا السؤال يستمر في مداعبة تفكيره . انـه يسأل :« اليس ذاـك لان احساس الرجل بالالتزام يقلـل من متعته ؟ اليس من الحق ان استمتاعي بزجاجة من النبيذ يمكن ان يضيع تمامـا

اذا عرفت ان علي ان ادفع خمسينا من الجنيهات لقاءها غـدا ؟ » وهـو يمضي الى مناقشة فكرة بوزويل عن تعدد الازواج ، ويؤكـد ان هذه الفكرة ليست سـوى تعبير اخر عن رغبة الرجال الطبيعية في ان يعربوا عن ولائهم وان يدفعوا مـا قرر عليهم .. « بأن يصبوا دنانا من عصير الخلق في الحلق الصحيح المناسب» .

ولم يؤد الاهتمـام بصوفيـا الى شيء . ولكنه على الاقل ادى الى بدايـة تفكير ايزموند في الجنس . ويؤدي هذا به الى كتابة معالجـة تقريرية ممتعة عن تجاربـه الجنسيـة حتى ذلك الحين . وكانت هذه التجارب قد وقعت قبل ذلك بستـة شهور فحسب ، كانت الفتاة هي خادمة شقيقته الكبرى ، جوديث ،وكانت قد جاءت عائدة من ليونز . وهـو يدعوهـا باسم مينو رغم انه مـن الواضـح ان « ماري » هـو اسمها الحقيقي :

حينمـا عدت من دبلين ،كانت جوديث قد عادت الى البيت منذ نحو ستـة اسابيع . وفي البدايـة لم انتبه الى مينو اقل انتباه ، اذ وجدت ان وجهها علـى شيء من القبح ،كان صدغهـا كبيرا جدا ، وكان لهـا انف مثل الزرار الكبير . ولكـن في اليوم التالي لعودتي، وبينمـا كنت راقدا على الحشائش الحديثـة التشذيب بالقرب من حافة مجرى الماء ، سمعتهـا تضحك وتقول :« كـلا ، كلا . ليس هذا هو المكان المناسب»،ثم سمعت صوت رجل يتهكم على لكنتها قائلا :« كالا، كالا . ليسا هذا هـوا المكان المناسب » وكان الرجل هو شون رافرش ، الذي كان يسوس الخيل ويساعد على شؤون الحديقة ، وكان عملاقا هائلا ضخم الجثة برزت على صدغه الايمـن ندبة كانت نتيجـة ركلة قاسية من مهرة عصية . لم تكـن سراويله ولا ستراته تناسبه ابدا ، لانهـا كانت غالبا مما يستغنى عنه شقيقه الاكبر، الذي كان اقصر منه بمقدار ست بوصات . لم اكـن قادرا على رؤية اي منهمـا ، لانهمـا كانا راقدين في وسط الحشائش الطويلة تحت احدى شجرات التفاح . وبعد دقائق قليلة من الصمت ، قالت مرة ثانية : « كلا ، ليس هنا . » اجابها :« اذن تعالي الى الجرن » قالت : « كلا . لا استطيع . يجب ان اعود لاقدم الشاي » . (وكانت جوديث لا بد ان تتناول الشاي في العصر . عادة جاءت بهـا من الخارج) . ولكنني سمعتهـا تعده بان تذهب الى الجرن بعد تقديم الشاي ، ثم وقفت ،ونفضت شعرهـا بيديها ، واسرعت تبتعد . وقف شون رافتي ، وربط بنطاله عنـد وسطه بقطعـة حبل ثم ذهب في اتجاه الجرن .

كنت اعرف سمعة شون بين فتيات القرية ، رغم انني لم اكن قادرا ابدا على فهمها ، لان ندبته وعينه المشقوقة اعطياه مظهرا مفزعا الى اقصى حـد . كانت شقيقاتي تطلقن عليه اسم « سيكلوبس ». ولكنني كنت الان اتحرق شوقا وفضولا لمعرفـة مـا انتوى ان يعمله معها ، رغم ان ذلك لم يكن صعب التخمين . كنت قد راقبته وهـو يرشـد العضـو المنتصب لاحد الجياد النافذة الصبر لكي يولجه في مهرة جديدة ، ولم يكـن لدي شك في انه جيد التدريب على استخدام « آلته » والسيطرة عليها . ولكنني لم اكن اعرف شيئا عن التحام الرجل بالمرأة ، غير انـي

قررت الان ، الان وقد سنحت الفرصة من تلقاء نفسها ، ان عليّ ان اعالج هـذا النقص الخطير في تعليمي. وعلى هذا فقد دفعت نفسي الى مخزن القش في الجرن ــ لانني خمنت ان هذا هو المكان الذي كان يقصده ــ ثم تسلقت صاعدا الى القسم العلوي منه ، بين اكياس الفاصولياء واجولة البذورة . كانت الارضية كلها مغطاة بالقش ، والرائحة لذيذة مثيرة . كان تخميني انهما ينويان ان يستمتعا بالتحامهما فوق هذا البساط الطبيعي ، ولكن اذا كان قد « وضع في راسه » ان ينظر الى القسم العلوي ، فانه سيتعين عليّ ان اختبىء وراء الاكياس والاجولة في الركن .

بعد نصف ساعة دخل شون وبدا في تقليب القش بشوكة كبيرة ، لم يكن بوسعي ان اراه ، ولكني عرفته من صوته وهو يغني اغنية « موللي مالون » . ثم صعد بعد ذلك الى الطابق العلوي ، آخذا معه « احضانا » هائلة من القش ، لكي يبعثرها وينشرها على الارضية على بعد بضعة ياردات من المكان الذي رقدت فيه . من هذا التصرف خمنت انهما ينتويان ان يخلعا ملابسهما وان يفعلا ما يريدان هنا في القسم العلوي ، وليس في المدخل السفلي كما كنت اظن .

بعد دقائق قليلة ، جاءت مينو ، ولبرهة قصيرة لم اسمع صوتا . رفعت جذعي على ركبتي وتلصصت ناظرا فوق الاجولة . كانا واقفين بالقرب من الباب ، وكانت قد احاطت عنقه بذراعيها ، تبادلا حديثا هامسا ، واشار هو الى السلم . خفضت جذعي ورقدت . اغمضت عيني ، حتى يظناني نائما ان وقت عيونهما عليّ . صعد هو اولا ، ثم استدار وعاونها على الصعود على السلم الذي كان ممتدا وراء المنصة العالية . كان الضوء ضعيفا ، ولكن كان بوسعي ان اراهما بشكل جيد . وقف هو وظهره الى الجدار ، فالقت هي بذراعيها حول عنقه ومنحته قبله طويلة . ثم انزلت احدى يديها ومدتها الى الحبل الذي حلت عقدته بجذبة واحدة . سقط بنطاله الى ركبتيه ، كاشفا عن ردفين هائلين مشعرين كانا في مواجهتي . تحركت يدها متجولة بينهما ولم يكن بوسعي الا ان اخمن ما كانت تفعله في هذا المكان ... رفعت وجهي فوق الاجولة ، ولكن لم استطع ان ارى سوى القليل ، لانهما كانا غارقين وسط القش ، وكان الضوء قليلا بالقرب من الارض . وفجاة صرخت صرخة حادة ، وخشيت انا ان تكون قد راتني ، فاخفيت نفسي غاطسا الى الوراء من جديد . ثم سمعته يأمرها بالصمت ، فصرخت مرة ثانية ، ولكن بصوت اقل ارتفاعا . همس القش وصر كما لو كانت الاف من الجرذان تمرح داخله ، واستمرت هي في اطلاق الصرخات والانات ، كما لو كانت تتألم . ثم اصبح الصرير عنيفا حتى دفعني الى التلصص من جديد ، فرايته يحرك ردفيه فوقها كما لو كان يأمل ان يصنع ثقبا في الارض ... بينما اندست قدماها في ثنيتي ظهره ، ولو كان هناك المزيد قليلا من الضوء ، لكان في وسعي ان ارى المشهد الصحيح الدقيق للعملية . ثم حاولت ان تصرخ مرة ثانية فوضع يده فوق وجهها ، بينما توقفت حركاته كما لو كان قد تجمد فجاة . رقدا في مكانهما ، ساكنين تماما ، ثم تنهد تنهيدة عظيمة ، وبدا عليه انه يوشك ان

يجفل مرتدا الى الوراء من فوقها . وحلت هي وثاق ساقيهـا من حول ردفيه ، وتركتهمـا تتمددان مستقيمتين ، بينمـا رقد هو في مكانه فوقها دون حركة .

لا بد لي من الاعتراف بأن كل هذا قد دفعني الى حافة قريبة من الاستثارة التي بلغت لحظة انفراجها الخاصةقبل ان تتوقف حركاتهمـا ببضع دقائق . ولما كنت قـد انتهيت ، فقد املت ان يرتديا ثيابهمـا وان يسمحا لـي بالهرب من هذا الوضع المقيد . ولكن الصمتالذي اطبق واستطال اقنعني بانهمـا قد غرقا فـي النوم ، رغمانني لم اجرؤ على الحركة لكـي اكتشف ان كـان تخميني صحيحـا ام باطلا . وبعـد ان مرت عشر دائق ، شرعا في التحرك ثانيـة ، ولكـن الصريـر استمر لمدة طويلـة حتى انني رجحت انهمـا لم يفعـلا سوى ان عادا الى مؤتمر العشق الذي يعقدانه . رفعت عيني فوق الاجولة فاكتشفت ان تخميني لم يبلـغ سوى نصف الحقيقة ، لانه كان راقدا على ظهره مثل مجالد مصروع ، بينما جثت هـي على اطرافها الاربعة ، وبدت كما لو كانت تحاول ان تنفث قدرا من الحيـاة في الجمرات الخابيـة بأن تنفخفيهـا بعض الهواء . وبعد قليل ، اثمر جهدها ثمرته ، وتأجج اللهب في الجمرات من جديد . . »

يمضي تقرير ايزموند في اطناب واستطالـة حتى ليكون من غير المجدي ان ننقل منه المزيد هنا . كانت الفتاة مصابة بالغلمة مستعرة الشبق ، رغم ان ايزموند كان اقل خبرة بكثير من ان يدرك هذا ، لقـد دفعت فارسها الى مزيـد مـن النشاط ثلاث مرات ، ثمتركته في النهايـة غارقا في نوم بلـغ من العمـق ان ايزمونـد كان اخيرا قادرا معه علىان يخطوعلى اطراف اصابعه فوق جسـده دون ان يشعـر بـه .

ولكن الطور التالي كان نموذجياومطابقا لما هـو منتظـر من ايزموند حتـى انه يجب ان يسجل هنا . انه يعترف بانه لم يكن قادرا على رؤيـة مـا يجري . ولكن الاصوات كانتدالة ولا يمكن الخطأ في تفسيرهـا حتى آقـد كانت الرؤيـة غير ضرورية . والان ، وقد راى الفتاة عارية ، فـان فكرته الوحيـدة كانت هي كيفية ان يتقاسمها مع فتى الاصطبل . انه يكرر عدة مرات ان جمال جسدهـا قد ادهشـه ، وكان قبل هـذا يظن دائمـا ان المثاليين الاغريـق قد اسرفـوا فـي المبالغـة في جمال شكل الجسد الانثوي . وفي طريق عودته الى المنزل ، خطر له ان الفتاة يمكن ان تخضع للابتزاز والتهديد لكي تسلم نفسها . لم يكـن عليه الا ان يهدد بان يبلـغ شقيقته بانهـا تعشق فتى الاصطبل . ذهب بعد هذا الـى حجرته لكي يغتسل وينفض التراب عـن ثيابه ، ثم ذهب عبر جناح الخدم الـى حجرة مينو . ولم يلح لـه ان ثمـة احدا بالداخل ، فتح البـاب واطل براسه في الحجـرة .

« كانت حجرتها خالية ، وللحظة ناقشت نفسي اانتظرها ام اكر راجعا الـى حجرتي . ثم سمعت صوت مياه تسيل في المرحاض الملحق بالحجرة . وهو قسم صغير من الحجرة نفسها يفصله عنهـا حاجز صغير ــ فعرفت انها هناك بالداخل .

اغلقت الباب خلفي وخطوت الى الداخل على اطراف اصابعي . ولكن احد الواح الارضية صرّ تحتي فنادت : « من هناك ؟ » فقلت باكثر ما استطعت هدوءا : « ايزموند » . اطلت براسها وقالت : « اوه ، سامحني ، انني دون ثياب » . وقفت في مكاني ، شاعرا بانني ابله لا شأن له ، الامر الذي اغضبني ، امسكت بثوبها ، الذي كان ملقى على احد المقاعد ، ورفعته لتفطي جسدها عند العنق وهي تسأل : « اتحمل رسالة ؟ » ولكنها كانت تبتسم كما لو كانت قد وجدتني ممتعا ، وساعدني هذا على التخلص من توتري . كنت احدّق فيها بقوة ، محاولا ان اعرف ان كانت ترتدي قميصها ام لا ، حتى انها لم تبق طويلا في شك من هدفي . كانت هذه هي اول مرة اعرف فيها ان تبادلا في الاراء يمكن ان يحدث دون نطق كلمة واحدة . تحركت عيناها من قدمي الى راسي ، وعادت ثانية . قلت : « الجو بارد هنا » او شيئا من هذه البلاهات ، ثم خطوت الى الامام ، واخذت يديها وامسكت بهما فرفعتهما واطللت تحت الذراعين . كانت ترتدي القميص ، ولكنه كان متدليا تحت عنقها ، غير ان منظر الكرتين غير المحميتين دفعتاني الى العمل بقوة حتى انني لم اطل التردد ، وانما اخذت الثوب منها والقيته على الفراش . على النهد الايسر رايت آثار صفين من الاسنان ، وحينما بدا عليها انها على وشك الاحتجاج اشرت الى تلك الآثار . هبطت بعينيها نحو صدرها وقالت شيئا بالفرنسية لم استطع سماعه ، ثم حنيت راسي الى الحلمة الصفيرة التي وقفت الان عارية . وبينما كانت تنظر ، جذبت حزام القميص . توقعت منها ان تقفز مبتعدة ، ولكنها وقفت في مكانها بهدوء وتركتني لكي اخذها بين شفتي ، ثم بعد لحظة ، وضعت يدها على راسي وربتت على شعري . ثم حلت رباط حزامي ... لم اضيع وقتا اكثر من هذا ، وانما دفعتها الى الوراء نحو الفراش الصفير ، ووضعت يدي على الاجزاء المنخفضة التي كانت مبتلة لانها كانت تفسلها حينما دخلت الحجرة . ودون ان اخلع بنطالي او حذائي سقطت فوقها ، وولجتها دون صعوبة ....

مرة اخرى يبدو الوصف اطول جدا من ان نقتطفه كله . لقد بقيا في حجرتها ساعة اخرى ، ودفعته الفتاة المدهشة الى ان يمارس الجنس معها ثلاث مرات اخرى . وبعد ذلك تبادلا الحديث ، واعترف ايزموند بانه قد راقبها مع شون رافرتي . وبدلا من ان تشعر بالمهانة ، ضحكت ضحكة مرتفعة ، وسألته ان لم يكن قد شعر بالفيرة فقال : « لم اكن حينذاك . ولكني اشعر بها الان » قالت له ان ذلك سخف لا معنى له ، طالما ان المفروض في الرجال والنساء ان يتبادلا المتعة .

من الصعب ان نقول ان كان ايزموند سعيد الحظ ام تاعسه في اختياره عشيقته الاولى . حقا ان آراءه حول الاتصال الجنسي غير الشرعي كانت قد تطورت من قبل تطورا كبيرا ، ولكن قصة حب اكثر طبيعية ــ ذات جانب عاطفي بالاضافة الى جانبها الجسدي ــ كانت جديرة بأن تساعد على موازنة تلك الاراء . كان ما يزال غير مدرك لان هناك شيئا ما غير طبيعي في مطالب مينو الجسدية ،

طالما انه وجد نفسه قادرا على ان يمارس معها الجنس بالكثرة التي تريدها . كذلك فانه ليس من الحقيقي تماما ان الانجذاب القوي بينهما كان محروما من جانبه الوجداني .بل لقد كانت هناك نقطة اعتبرها هو اندماجا معها . لقد كف عن التفكير في كلاريسا ولفليس ،او جولي وسانت بيو ، وراح يفكر في قصتهما باعتبارها قصة مينو ودي جريو ـ رغم انه يعترف بانه كان قد صرف النظر من قبل عن مسرحية بريفو باعتبارها شيئا سخيفا وغير واقعي.

من المؤسف ان ايزموند لا يقول لنا شيئا عن تاريخ مينو السابق ، ولاحتى عما اذا كان قد سالها هوعنه ام لا . لقد كان من المهم ان نعرف ان كانت حيويتها الجنسية غيرالعادية فطرية ام مكتسبة ، انها تبدو بشكل واضح في صورة حالة من حالات الفلمة الشبقية جديرة بان تدرس في كتاب مرجعي. كانت تحب ان تُعَض بالاسنان وخاصة في نهديها وردفيها ، وكانت تحب ان تُضرب على مؤخرتها بشريط من الجلد ..

وفي خلال الشهرين اللذين استمرتهما تلك العلاقة ، لم تكن تخفي عنه انها كانت تمضي اكثر ما تستطيع من الوقت مع شون رافيرتي ،وكان ايزموند واقعا تماما تحت سيطرتها حتى انه لم يشك في ذلك . بل انها حاولت ان تقنعه بأن يختبيء في الجرن مرة ثانية لكي يراقبها وهي تمارس الجنس مع شون .ولكن كبرياء ايزموند ـ او ربما تظاهره الاخلاقي البروتستانتي ـ ثار ضد ذلك .. بل انه اعترض على اقتراحها الذي قالت فيه انها ستخبر شون عن علاقتها به هو ، وان ثلاثتهم يمكن ان يشتركوا في الاعيب الجرن .

في اغسطس اتخذت القصة تحولا غير متوقع ، يدفع المرء الى ان يتساءل اذا كانت مينو (واسمها الاخر لم يسجل) واحدة من اكثر نساء زمنها تعقيدا وابعدهن عن التقيد بالمواصفات المعتادة . فقد حدث ان فتاة تدعى دلفين‌لانتير، وهي احدى معارف جوديث ، جاءت لكي تقيم في قلعة دونللي . ويستطيع المرء ان يستنتج من وصف ايزموند لها انها لم تكن ذات جمال تقليدي ، لانه يقول ان وجهها كان‌يتمتع بنوع من الجمال الناتج عن رقتها وعينيها الواسعتين البنيتين. وكان من سوء حظها ايضا ان تكون مشوهة تشويها بسيطا ، فقد حدث ان سقطت من احدى العربات في طفولتها، فانكسرت عظام احد ردفيها واحد كتفيها ولم يستطع الاطباء ان يعيدوا العظمتين الى حالتهما الطبيعية ، فكان عليها ان تحمل نفسها على ساقيها بطريقة مضطربة . ورغم ان اباها كان فرنسيا فقد كانت امها ايرلندية وكانت تتحدث‌الانجليزية بطلاقة . (ومن الامور ذات المغزى ان ايزموند يتحمل مشقة تسجيل التفاصيل الشخصية عن فتاة من طبقته ، بينما هو يتجاهل تلك التفاصيل الخاصة بمينو ، الاكثر تعقيدا وجذبا للاهتمام) .

كان ايزموند صبيا في السادسة عشرة من عمره ، رومانتيكيا ، وكان ينظر في تأمل الى كل امراة يقابلها . فاذا كانت مينو صورة من مانون ليسكو ، فان

دلفين كانت اقرب الى شخصية جولي ـ او ربما كانت اقرب الى « كلير » الرقيقة الحلوة الطبع في نفس الرواية . راى ايزموند انها كانت على قدر من الخجل ، فتحمل مشقة ان يسليها . اعارها كتاب « هيلويز الجديدة » بعد ان انتزع منها وعدا بان تخفيه عن الانظار . (والسبب في هذه اللمسة من السرية ليس واضحا ، لانه يذكر في مكان اخر انه لم يكن بوسع ابيه ولا امه ان يتحدثا الفرنسية وربما كان يريد ان يقيم مع الفتاة نوعا من العلاقة الخاصة) . ولكنه كان يخشى ان تشعر مينو بانفيرة ، فحاول الا يكون اهتمامه بالقادمة الجديدة شديد الوضوح . ولكنه كان يبخس مينو قدرها ! فبعد عدة ايام ، وكان قد قضى معها ساعة في فراشه ، قالت له انها تظن ان دلفين واقعة في هواه ، وقالت له انه غبي لانه لم يلاحظ ذلك . وقرر ايزموند ان يكتشف الامر ، بالاساليب العادية، وهي ان يجعل يده تحتك بيدها وهي تمر الى جانبه ، وان يلمس يدها او وسطها حينما ينفرد بها ، لكي يرى ان كانت ستقبل هذا النوع من الالفة . وقد قبلته . وفي اثناء نزهة وسط خرائب الدير امسك بها في احدالاركان وقبلها ، فانفجرت في البكاء . ابتعد هو منزعجا وقد اختلط عليه الامر ، لكي يسأل مينو رايها . قالت له مينو ان دلفين كانت اكثر جدية ازاءه منه ازاءها ، وان دموعها كانت لانها حدست ذلك ، وهذا تحليل جدير بالاحترام . وهكذا فحينما انفرد بها في المرة التالية سألها ايزموند : « الا تحبين ان اقبلك ؟ » واكد لها انه لن يفعل ذلك ثانية اذا هي اعترضت .احمرَّ وجهها ، وقالت عدة جمل لا رابط بينها ، .وحينما ضغط عليها ، اعترفت بانها لا تعترض على ذلك . دعاها ايزموند لجولة اخرى بين اطلال الدير ، وامضى عصر ذلك اليوم وهو يقبلها . وفي عودته ، كان لا بد ان ينطلق الى حجرة مينو لكي يمتلكها ، كانت سيطرته على نفسه طول النهار اكثر مما يحتمل . قالت له مينو انه عاشق بليد ، وان ما يحتاج اليه هو الرقة والملاطفات . ان عليه ان يربت على وجهها وذراعها ، واي جزء من جسدها يتصادف ان يكون مكشوفا . اي ان يعودها ان تستجيب باستمتاع للمسته ، ثم يتقدم بحذر نحو المناطق المحرمة . ويستغرق وصف ايزموند لتلك الحملة تسع صفحات من الكتابة الضيقة الحروف والمساحات . كانت دقائق عملية الاغواء تسحر لبه . وبعد اسبوع سمحت له بأن يكشف نهديها لكي يلاطفهما ، وان يقبلها فوق الركبتين ـ رغم انها كانت تمسك بقوة بطرف الثوب بكلتا يديها لكي تمنع اي مزيد من التقدم .تناقشا في شخصيتي جولي وسانت بريو ،ووافقت نظريا على ان شخصين في وضعهما لا بد ان يكونا عاشقين . ولكنها ـ في التطبيق ـ وضعت خطا فاصلا حادا بين الملاطفات وممارسة الحب .

غير ان مينو الفريدة في نوعها قدمت اقتراحا ادار رأسه . كانت مقتنعة بان دلفين كانت فاضلة .« فضيلة نظرية وبسبب عدم الخبرة » ـ حسب تعبيرها ـ ولكنها كانت تملك فضولا كافيا . قالت لايزموند ان يأتي بدلفين الى الجرن في عصر اليوم التالي ، وان يؤكد عليها الا تنبس بأي صوت حينما يدخل

شون رافيرتي لكي ينشر القش استعدادا لدورتهمـا المعتادة من ممارسـة الجنس : « فاذا رفضت ان تنظر ، فأنها فاضلة حقا ، ويكون من الافضل لك ان تهرب قبل ان تتزوجك . فاذا نظرت ، فأنهـا ملكك بالفعل ».

وبينما كانت السـاعة الفاصلة تقترب ، اصبح ايزموند عصبيا ، وقرر عدة مرات ان يتخلى عن كل هذا المشروع المستحيل المنافي للطبيعة والعقل . وانتابه الشك في ان الفتاة التي تستطيع ان تضع خطا فاصلا بمثل تلك الحدة ، جديرة بأن تهدم اللعبة كلها بأن تكشف عن مكان اختبائهما . واعلنت شقيقته عن رغبتهـا في القيام بزيارة لبعض الجيران عصر ذلك اليوم ، فقالت دلفين انها تود ان تذهب معها ، واطلق ايزموند تنهيدة ارتياح عظيمة . ولكن دلفين — في اللحظة الاخيرة — عادت فقالت انها تشعر بصداع ، وقالت امه انها ستذهب بدلا منها . وبـدأ ايزموند يلعب لعبة اشبه بالروليت الروسي ضد القدر . لقد اراد للمشروع ان يفشل ، ولكنه كان راغبا في ان يمضي في تنفيذ كـل خطواته — باحثا بلهفة عـن اول عذر يبرر له التخلي عنه . ذهب الى حجرة دلفين في الساعة الثالثة والنصف وسألها ان كانت تشعر بالرغبة في التمشي معه قليلا . خرجت معه فاتخـذا طريقهما المحبب صوب بلدة آدار ، ثم عادا سائرين الى جانب المجرى المائي وهما يلقيـان الحصى في القيعان الضحلة . وتحدث ايزموند عن طفولته ، وعن الساعات التي امضاها في قراءة الكتب الممنوعة في الجرن . (ولا يبدو ان في هذا شيئا اسوا مما جاء في كتاب « الراهبة » لمسز افرا بيهن ، او في كتاب « فردينانا » او « الكونت فاثوم » لسمولليننس) . وبينما كانا يعبران فناء المزرعة ، اقترحت دلفين ان يلقيا نظرة على الجرن . كانت الساعة الان النصف بعد الرابعة ، وكانت هناك فرصة لاحتمال ان يكون شون بالداخل بالفعل . ولكنه لم يكن هناك . قادها ايزموند فوق السلم الى القسم العلوي الشبيه بالمنصة ، ثم ذهب الى المكان الذي كان قد اعده بالفعل في الركن — واضعا اجولة نظيفة على الارضية — ثم القى بنفسه عليها . فعلت دلفين نفس الشيء دون تردد — ولا شك ان هذا كان هو ما انتوته بينها وبين نفسها .

« اضعنا قليلامن الوقت في الحديث، ولكننا غرقنا على الفور في القبلات والملاطفات الناعمة التي عبرت بسرعة الى النقطة المعهـودة من الالفة . لم تكـن ترتدي ايـة مشدات ، ولذلك كان سهلا اكثر من المعتاد ان اكشف نهديها وان ابدا الهجـوم بشفتـي . وكنت قد لاحظت من قبل انني استطيع ان ازيـد متعتهـا بأن اعض الحلمتين برقة شديدة ، ولحظتها كانت تشبك كاحليها وتضغط بشدة في حركة تلقائية ، الامر الذي استنتجت منه ان النقطة التي تنضغط بينهما كانت مستعدة لتقبل مزيد من الاهتمام . ولكن حينما تحركت شفتان فوق ركبتيها ، اسرعت تغرس اصابعها في شعري وتمسكني بقوة . كنـا في هذا الوضع حينمـا سمعنا صوت الخطوات القادمة صاعدة على السلم ، فأسرعت مـن فورهـا تسوي ذيـل ثوبها ، وكانت على وشك ان تنهض جالسة حينما وضعت اصبعي على شفتي

وهززت راسي محذرا . جلسنا في مكاننا ؛ لا نكاد نتنفس ، ثم سمعت حفيف القش بينما كان شون ينثره ويرتبه فوق الالواح بشوكته الطويلة،ثم هبط الى اسفل وعاد حاملا « حضنا » آخر من القش وهمست آنا لها ان تظل صامتة وان كل شيء سيكون على ما يرام ،لانه لم يكن سوى فتى في الاصطبل ، وهو صديق خاص لي . ولكن حينما حاولت ان اقبلها ثانية هزت راسها ودفعتني بعيدا .

سمعنا شون يهبط ثم يخرج من الباب ، فقالت : « اسرع . هذا هو وقت الخروج . » ولكن حينما وقفنا سمعنا صوت مينو في الطابق الاسفل ، فجلست بسرعة مرة اخرى دون ان احثها على الجلوس . كنت قد رتبت الاكياس المليئة امامنا بحيث تستطيع ان تنظر من ثفرة بين اثنين منهما دون حاجة الى الوقوف . انزعجت دلفين وهمست تقول : « ماذا اذا كانا سيجيئان الى هنا ؟ » ولكنني طمأنتها ، مشيرا الى القش . اظن انها في تلك اللحظة بدات تشك في الفرض الذي كان شون يرتب القش من اجله بهذه الطريقة لانني رأيت وجهها يصطبغ بالحمرة .

صعد شون اولا ووقف هناك ، وما ان لحقت به مينو حتى القت ذراعيها حول عنقه ومنحته قبلة بالفة الطول ، عرفت طبيعتها لانني كنت قد خبرتها بالفعل، فقد كانت ماهرة مهارة رائعة في اشعال النار في الدماء بحركات جريئة من لسانها. ثم حلت الحبل حول وسطه حتى سقط سرواله حول كاحليه ... لاحظت حينئذ بابتهاج ان دلفين كانت تتابع كل حركة بأكثر ما يمكن من الفضول وتذكرت ما قالته مينو من انها اصبحت بالفعل ملكا لي . حينئذ مددت يدي وجذبت كتفي ثوبها الى اسفل ، ومددت كلا من يدي تحت ابطها لكي اضع كلا منهما فوق احد نهديها . لم تبذل اية محاولة لمنعي ، كان بوسعي ان احس بقلبها يضرب ضرباته الثقيلة السريعة تحت اصابعي . كانت مينو الان دون ثيابها راكعة امام شون . وكنت اكثر اهتماما بالبحث عن الكيفية التي قد يمكنني بها ان استفيد من موقفي الحالي مما كنت مهتما بمتابعة تطورات مباهجها الحارة ... وعدت الى ملاطفاتي ... فرفعت ذيل ثوبها فوق مستوى ركبتيها ، وسمحت ليدي بأن تضغط على فخذها . وفي هذه المرة لم تأت بأية حركة لكي توقفني ... ولكن حينما حاولت ان ادس اصبعي هزت راسها وضغطت فخذيها باحكام اكثر . كان تنفسها الآن ثقيلا حتى ان صرير القش وحده هو الذي منع الآخرين من سماعه ... غيرت وضعي ، وبدات اعض نهديها ... ثم قبضت اصابعها على شعري ... وانطلقت من صدرها تنهيدة طويلة ، ثم هوى جسمها الى الامام ، وكانت على وشك السقوط بكل ثقلها لو لم اكن على استعداد لدعمها بيدي. كانت الاصوات القادمة من ناحية القش قد بلغت الآن مرحلة الصراع ، ولكنها كانت غير مبالية كما لو كانت تلك اصوات عاصفة تهب في الخارج ، تركت نفسها تسقط على الاجولة ، واغمضت عينيها ، وهي تمد وتفرد وتسوي ثوبها لكي تستعيد رونقها . هدأته من لهفتي بشيء من الصعوبة ، وانا الاحظ عودة تنفسها الى انتظامه ، ولكنني بعد خمس دقائق او نحوها ، وخشية ان تفرق في النوم ، تفقدت ما احرزته من تقدم ، فرقدت الى جوارها وقبلتها . رقدت في مكانها كما لو كانت

نائمة ، فوضعت يدي على ركبتها ، ثم زحفت بها ... وكانت الاصوات القادمة من الناحية الاخرى للحاجز قد توقفت ، وكان كل شيء قد صمت الان حتى كان بوسعنا ان نسمع حركة فار صغير . ولذلك لم ابذل اي محاولة اخرى لتحسين وضعي ، وانما رقدت في مكاني ، ويدي فوق فمها الداخلي المبال ... رقدنا في مكاننا هناك لمدة تقرب من ربع الساعة ، ثم سمعت همس مينو ، فعرفت انها قد جددت طاقاتها ،وانها الآن قد عزمت على اثارة خنزيرها النائم الذي كانت اجابته مجرد زمجرة ... وانطبقت ذراعاها بقوة حولي ، فغطيت فمها بقبلة .

تمنحنا لهجة هذه الحادثة كلها انطباعا بأن ايزموند كان قد اصبح بالفعل كازانوفا لا يترك شيئا للظروف او للمصادفات . ولكن الاحداث تكشف عن عدم صحة ذلك الانطباع . ان كازانوفا كان جديرا بأن ينتابه التعب من الفتاة قبل ان يبتعد عنها . اما ايزموند فقد قرر ان يحبها ، وانه سوف يتزوجها . ومن المحتمل ان يكون قد شعر بالخجل من الخطة التي اتبعها والتي تغلبت على مقاومتها . وكان بالتأكيد يدرك الضرر الذي قد ينزله بها اذا ابدى اي تناقض في رقته ازاء اهتمامه بها . كانت بالفعل تشعر بالخجل منه لسماحها له بأن يطلع على استثارتها الجنسية ، ولكن خجلها كان اكبر لأنها سمحت له بأن يستفيد من هذه الاستثارة . ولو انه قد هجرها كلية بعد استسلامها ، لكان هذا قد بدا لها في صورة الجزاء الذي تستحقه فعلا . ولكن ايزموند صمم على ان يثبت ان هذا لم يكن حقا . لقد انفرد بها ـ بعد ان غادر شون ومينو الجرن ، وهدأ صرير القش مرة ثانية ـ فقال لها انهما قد اصبحا مخطوبين . وفي تلك الليلة ، حينما ادارت مينو مقبض باب حجرته ، وجدت ان مزلاج الباب مغلق من الداخل . وفي الصباح التالي ، بحث هو عنها واخبرها انه مخطوب وانهما يجب الا يكونا عاشقين من تلك اللحظة . ويبدو انها تقبلت هذا الموقف بطريقة فلسفية ، بل انها كانت متعاطفة معه الى الحد الذي جعلها تحذره من ان يحتفظ بسر هذه الخطوبة بعيدا عن والده . فعمل بنصيحتها . ولكن دلفين لم تكن بهذا القدر من اللباقة ، لانها اطلعت جوديث ، شقيقة ايزموند ، على السر ، الامر الذي ثبت انه اسوأ انواع التقدير . كان من الواضح ان جوديث مغرمة بدلفين ، وربما كانت تستطيع ان ترحب بها كزوجة لاخيها في ظل ظروف مختلفة . ولكن دلفين كانت كاثوليكية رومانية ، وكان آل دونللي من البروتستانت . وكانت هذه هي اكبر العقبات جدية ، لان الكاثوليكي في ايرلندا كان نوعا من المنبوذين . كان سادة الريف من البروتستانت ، اما الكاثوليك فكانوا مطرودين من الدائرة الاجتماعية . وكانت دلفين ابنة لارستقراطي فرنسي ولكن هذا لم يؤد الى اي اختلاف ، طالما انهم كانوا في ايرلندا . واشارت جوديث الى هذه الحقيقة ، وكانت دموع ومناقشات طويلة . وبدأ ايزموند يشعر بأنه ارتكب غلطة جسيمة . كان امرا لا اهمية له عنده على الاطلاق سواء تحولت دلفين الى البروتستانتية ، او اصبح هو كاثوليكيا ، او اصبحا كلاهما بوذيين . لقد اراد ان يتزوجها لانه مدين لها بالحب والحماية ، ولان اغواءه لها قد منحه احساسا قويا بالرضا عن نفسه . وقد اصبحا الآن

« مخطوبين » وكانت هي ترفض حتى ان تذهب الى الجرن . وهو يقول بسخرية في مذكراته انهمـا كاناجديرين بأن يكونـا اكثر سعادة لو انه لم يذكر كلمة الزواج ابـدا .

واستمتعت جوديث بدورها باعتبارها خاطبة وموفقة بين الرؤوس فيالحلال، ونصحت ايزموند بألا يقول لوالديهما شيئا حتى تتمكن من اعلان انها ستتحول الى البروتستانتية . وبعد ثلاثة ايام ، رحلت هي ودلفين الى دبلين لكي يعرضا القضية على والديها . وكانت هذه هي آخر مرة يراها ايزموند فيها . فقد عادت جوديث بمفردها ، واعلنت ان والد دلفين ، ال « شيفالييه دي سانت آن » قد قرر العودة الى فرنسا على الفور مع عائلته . .واطلق ايزموند تنهيدة ارتياح ، وتسلل عائدا الى فراش مينو . ولكن فقد مينو هي الاخرى بعد شهرين ، حينما ضبطها السيـد دونللي الكبير في الجرن مع صبي الاصطبل الجديد . وكان السيد يتمتع بما يكفي من سعة الافق ، ولكنه كان مهتما بفضائل ولده وارثه . ارسلت مينو في عربة البريد الى ليونز ، في الدرجة الثالثة ، حاملة مرتب شهر وعددا من ثياب جوديث القديمة . واهداها ايزموند عشرين جنيها كان قد ادخرها للنزهة والاستمتاع .وقال لنفسه انه اصبح سعيدا بقدرته على ان يقول انروحه ــ واعضاءهالاخرى بالتأكيد ــ قد عادت اليه ، ملكا خالصا له من جديد . ولكن بعـد رحيلها بشهر واحد ، بـدأ ايزموند يومياته بقوله : « انني غالبا اكثر من يعيشون تحت الشمس لعنة وتعذيبا للذات . . » كان قد تذوق من المباهج ما هو اكثر جدا من ان يسمح لنفسه بعدهـا بالخنوع لهذا الوجود الداجن الساكن لاحد السادة المزارعين . لقـد اقتسمت تجربتاه مع مينو ودلفين منهاج تعليمه الكامل في مجال فن الحب . كان قد خبر بهجة الفزو الذكرى ، واحساس السيطرة على عواطف امراة ، بالاضافة الى التخلص من كل مكبوتاته الجنسية . كان يتوق الى الجنس مثلما يتوق مدمن الخمر الى دنانه ، ولكن لم يكن هناك من تقدمه اليه . ومضى يتخفف من احساسه بالاحباط في يومياته ، محاولا ان يعيش ساعاته مع مينو مرة اخرى ، وان يستعيد لحظات اغوائه لمينو . وحاول ان يقرأ ، ولكنه وجد ان روسو صار مضجرا ، وفولتير ضحلا، وشتيرن مزعجا دون مناسبة . ولم تستطع سوى كتب جونسون : « راسيلاز » و« امير الحبشة » ان ترضي توقه الى الجدية ، وراح يقرأ الكتابين ويعيد قراءتهما حتى حفظهما عن ظهر قلب . ان جونسون يثير مسألة رغبة الانسان في شيء « اكبر من » السعادة ، واكثر من مجرد القناعة والرضا . قبل ذلك بستة شهور ، كـان ايزموند جديرا بأن ينظر الى هذه الرغبة باعتبارها رغبة في الاشباع الجسدي ، وفي التجربة ، وفي المتعة ، ولكنه كان يعرف الآن معرفة افضل من ذلك .

بعد ذلك ، نأتي الى ما كان بالنسبة لي اكثر اقسام اليوميات اهمية . فبينما كان ديسمبر المطير يخلي مكانه لينابر المطير ، غرق ايزموند في ازمـة من الانقباض العصبي الحاد ، ضاعفهـا انزعاجه على والده الذي حدث في اواخـر ديسمبر ان هاجمته وضربته بقسوة عصابة من المتشردين يبدو بشكل غامض ان دوافعهم كانت

سياسية . وقعت هذه الحادثة في الظلام ، حينما كان الاب عائدا من منزل خاص محلي غير محبوب ، ضرب جواده بحجر ، ثم اصابه على الفور حجر كبير آخر فوق عينه اليسرى ، فسقط عن جواده فاقد الوعي . وحينما لم يعد الى البيت عند منتصف الليل ، خرج ايزموند وجماعته من الاتباع وسط عاصفة لكي يبحثوا عنه ، فوجده يجر نفسه على طول الطريق، نصف عار ، ومـــا زال ينزف دماءه بشدة . كان منظر الجراح مخيفا اكثر من حقيقتها ، فبعد عشرة ايام في الفراش ، عـاد ادوارد دونللي معافى قويا كما كان . ولكن احدا لم يستطع ان يعثر على اثر المعتدين الذين من المحتمل ان يكونوا فريقا من البحارة كانت سفينتهم تحت الاصلاح في ميناء كاربيرت على مصب نهر شانون .

صدم الاقليم كله بسبب هذا العنف ، رغم ان ادوارد دونللي لم يكن بالرجـل المحبوب ، فقد كان هناك الكثير جدا من انفاقة والبؤس في ايرلندا ، من نصيب الفلاحين وحدهم ، لدرجة تمنعهم من الشعور بأي تعاطف مع مزارع بروتستانتي على شيء من الثراء . كانت السرقة شائعة ، وكانت هناك اعداد من عصابات قطاع الطرق تساوي ما يوجد منها في كورسيكا . ولكن الريف حتى عام ١٧٦٠ كان هادئا نسبيا ويسوده السلام . ثم بدات المشاكل مع بداية حكم جورج الثالث ، كان هناك اضطراب في الامور الزراعية ، وبدا سادة الريف الكاثوليك في استعادة شجاعتهم بعد اخضاع اليعاقبة . ولم يكن ادوارد دونللي مؤيدا لجورج الثالث ، ولكن بأعتباره بروتستانتيا كان ينظر اليه كعميل للمغتصبين الانجليز . ولكن ايزموند كان قد شب في جو من الامان ، ولم يكن بوسع الفلاحين ان يكونوا اكثر خنوعا وذلة ، فكـان دائما « صبيا لطيفا وسيما يستحق تقدير الشرف » وما الى ذلك .. ولكنه الآن ، وفي حالته العصابية من الانقباض ، بدا له انهم محاصرون من قبل جيران معادين، ينتظرون جميعا الفرصة المناسبة للضرب في الظلام .

بعد ذلك بوقت قصير ، تلقت جوديث اخبارا عن دلفين . كانت مخطوبة وعلى وشك الزواج من محام محلي . ولم يذكر اسم ايزموند في الخطاب الذي من المحتمل ان يكون قد كتب تحت اشراف ام دلفين ، ولكـن كانت هناك جملة تقـول : « لا استطيع ان اصف البهجة التي اشعر بها حينما اتذكر ساعات حوارنا السعيـدة في الجرن القديم » ولم تفهم جوديث معنى هذه الجملة ، فأنها لم تذهب ابدا الى الجرن القديم مع دلفين ، ولكن ايزموند ادرك المعنى . غير ان المضحك هو انه كان قد نسي دلفين تقريبا ، ومن المؤكد انه لم تكن لديه اية رغبة في ان يكون زوجها ، ورغم هذا فقـد ملأه الخطاب شعورا بالبؤس والغيرة . وعرف ما يتصف به هـذا الاحساس من سخف ، وانه لم يحبها ، وانه كان سعيد الحظ اذ تجنب الوقـوع في شراك ارتباطات اكثر غورا . ولكن معرفته لكل هذا لم تؤد الى اي فرق ، فكان كلما فكـر في ملاطفاتهما وسط خرائب الدير او في جرن القش ، اجتاحه احساس بالخسارة الفادحة ، ويتضاعف هذا الاحساس الى درجة لا تطاق لانه كان يعرف انه نتيجة لعدم وجود ما يفكر فيه غير هذا .

في فبراير كان مريضا لمدة ثلاثة اسابيع بتأثير جرثومة معوية ، وتركزت افكاره على الدوام حول الموت وحول عفونة القبر . قرا صلوات جونسون ،وتأمل في كتابات روسو،ثم اختطف فجأة لمحة من « الحقيقة » التي كانت تروغ منه على الدوام . لقد قال روسو ان ما كان طبيعيا فهو خير ، وان الشر ينبع من تعقيد الانسان الذهني ، ومن تدخله في شؤون الطبيعة . ولكن اليس العقل نفسه تدخلا في شؤون الطبيعة وقطعا لمسارها ، نتاجا مصطنعا لها ؟ ان الحيوان لا يحتاج الى اي قدر من العقل يزيد عن القدر الضروري للتغلب على مشاكله اليومية . وقد طور الانسان ذهنه لكي يخدم كسله ، لكي يخلق حضارة مريحة دافئة . ثم لما خلقها (ومن المهم ان نتبين هنا ان ايزموند قد ظن ان القرن الذي عاش فيه هو الكلمة النهائية في التعقيد الذهني الحضاري) لم يعد لديه ما يفعله سوى التفكير . وكل فكرة تبعده خطوة اخرى عن الطبيعة .

ولكن الشيء الذي بث الذعر في قلب ايزموند كان هو شكه في ان تلك الفكرة قد فسرت اجهاده العصبي وضجره . ان توقده الذهني قد حكم عليه بأن يمتلكه احساس باللاحقيقة . ووقف الدكتور جونسون امامه باعتباره مثالا حيا لما يمكن ان يحدث حين يكون الانسان متوقد الذهن اكثر من اللازم . سيعيش حياة بكاملها من اليأس وتعذيب الذات ، مع ومضات قصيرة من الاحساس بالارتياح . وبدا ايزموند يفكر جديا فيما اذا لم يكن من الافضل له ان يموت :« كل شيء انظر اليه يذكرني ببؤسي . فمثلما تعيد اي ذكرى لعشيقة مفقودة احساسا مقبضا باليأس،كذلك فان اي شيء طبيعي تقريبا يذكرني ببراءتي المفقودة . تذكرني اطلال الدير بالموت ، ومجرى الماء الموحل يجعلني افكر في الفرق ، والاشجار العارية تذكرني بالمشانق ، ونباح كلب يشعرني بأنني اسير في جنازة ميت . اما الاشياء التي لا تثير اي تداعيات خاصة ــ قدر صغيرة ، حذاء ركوب ، كتاب ــ فانهما يمكن ان تخلق يأسا خانقا يشبه الحزن . »

وذات ليلة مطيرة في اواخر فبراير . جلس ايزموند في فراشه وواجه هذا الاحساس بالخيبة وانقطاع الامل . اذا لم يشعر جسده بأي امتنان لوجوده في حجرة دافئة ، بينما تعوي الرياح في الخارج ، فهل يمكن ان يكون هذا الاحساس قد ثار كاستجابة للمطر نفسه ؟ نهض وارتدى ملابسه ، واخذ معطفا ثقيلا ، ثم خرج من المنزل . وبدا له ان اسوا مخاوفه قد تحققت . ملأته الريح احساسا بالبرودة ، ولكنه استمر في احساسه باللامبالاة ازاء التعب . سار الى الدير ، وجلس محتميا بأحد الجدران . ورغم ان قدميه كانتا مبللتين ، لم تنجح فكرة نار دافئة في ان تمنحه ومضة من المتعة . كانت بعض البقرات تحتمي بالجدار ، حسدها لانها يمكن ان تقدر قيمة ما تقدمه لها حظيرة دافئة جافة من مأوى . وتساءل عن مقدار ما يجب ان يواجه من برد وتعب لكي يستطيع ان يخرج من حالة سباته اللامبالي .

سار عائدا الى المنزل ، وعبر امام الجرن ، وفجأة تذكر مينو ودلفين ــ

ففمرته ومضة من المتعة . دخل الجرن لكي يستعيد رائحته . صهل جواد عجوز وتنفس تنفسا ثقيلا . تسلق صاعدا الى المنصة العلوية ، فوجد هناك كومة من القش ما تزال . حركها الى ما وراء الاجولة ، ثم خلع ثيابه المبللة ، وغطى نفسه بالقش الخشن الجاف المتكسر. كان هذا هو الموضع الذي رقد فيه بين فخذي دلفين . وحينما رقد في مكانه ، يعيش التجربة من جديد مرة ثانية ، غلبه النعاس، فغرق في النوم . وكان آخر ما سمعه من الاصوات هو شخير الجواد العجوز وتنفسه الثقيل اسفل الجرن .

كانت ليلته في الجرن نقطة تحول . في اوائل مارس ، اصبح الجو اكثر دفئا على حين فجاة . وذهب ايزموند يتمشى في الحقول الموحلة ، ليجدد نشاطه تحت اشعة الشمس التي بدات تمد كل شيء بفتة بالحياة . وقف على ضفة نهر ميغ الموحلة ، وتساءل عن السبب الذي جعله عاجزا عن ملاحظة مقدار ما كانت المويجات الصغيرة عليه من جمال . كان صحيح الجسد وكان في السابعة عشرة تقريبا ، وبعد شهور قليلة سيكون على وشك الشروع في الخروج الى « الجولة الكبيرة » . ولا بد ان تكون هناك الكثيرات من مينو ودلفين . وفي يوميته في يوم ٢٣ مارس عام ١٧٦٥ ، يكتب قائلا :

« ان ما اجد نفسي عاجزا عجزا مطلقا عن فهمه هو السبب الذي يدفع الكائنات الانسانية الى الفشل في رؤية التصميم الجميل المبارك الذي يتجسد في الطبيعة في كل مكان ؟ اية كارثة غريبة اعمت عيوننا عن رؤية اعظم الحقائق وضوحا وجدارة بالملاحظة ؟ اي رب مظلم يهدم فوق متاهة مصيرنا البشري ، يراقبنا لكي يقبض على عنق ذلك الذي قد يكتشف بالصدفة طريقه الى بساطة الطبيعة السامية ؟ »

قبل اسبوعين من رحيله ني دبلين ، ومن ثم الى باريس (في ابريل عام ١٧٦٥) كان قد انغمس في قصة حب قصيرة اخرى . ففي زيارة قام بها مع والده لاحد المستاجرين من الفلاحين ، راى ابنة اخي ارجل ذات الثلاثة عشر عاما التي كانت تعيش معه . كانت الفتاة فائقة الجمال . وامضى ايزموند ليلة كاملةيحلم بها ، متسائلا عن الطريق الى رؤيتها مرة اخرى . ولكن الانتصار كان اسهل مما توقع . لقد جاءت الفتاة في اليوم التالي حاملة بعض البيض . وسار ايزموند الى البيت معها ، واتفق معها على موعد في المساء . كانت الفتاة مسحورة به ولم تبذل الا الحد الادنى من المقاومة ، ورغم انها كانت عذراء ، فانها كانت ذات تجربة جنسية سابقة . في هذا المساء الاول ، سمحت لايزموند بأن يكتشف نهديها وفخذيها . وفي عصر اليوم التالي قابلها في الجرن ، واستولى على عذريتها في نفس المكان الذي فقدتها فيه دلفين . وفي خلال الاسبوعين التاليين التقيا كلما كان ذلك ممكنا ، وامضيا المزيد من الساعات في الجرن على الاجولة ، واقسما على الاخلاص الابدي . ولكن ايزموند في هذه الحالة كان يعرف انه ليس واقعا في الحب . لقد دفعته سهولة الانتصار الى ما يكاد يكون خيبة امل فورية . كانت

الفتاة جميلة جمالا لا يضارع ، ولكنه حينما اعاد قراءة بداية يوميته حول رؤيته لها للمرة الاولى ، بدت له كما لو كانت فكاهة ساخرة اخرى من فكاهات القدر برهانا آخر على وقوع الكائنات الانسانية في شرك المتاهة التي يبدو الهها في صورة اعظم الدهاة المحتالين .

في صباح يوم ١٧ ابريل ، استقل عربة ليمريك ــ دبلين ، وغمره احساس عميق من الرضا بينما كانت تلال مونستر .وحقولها تتراجع الى الوراء . في هذه المرة ، على الاقل ، كان اله المتاهة قد هزم ، فان قصة الحب قد انتهت قبل ان تسنح الفرصة لمرارة ما بعد التذوق بأن تتسلل الى اللسان . وقد حدث حينذاك، في اثناء رحلة الست والثلاثين ساعة من ليمريك الى دبلين (١٢٠ ميلا) ان صاغ ايزموند واحدة من افكاره المحورية : ان الحياة معركة ضد اله المتاهة . ولاح انه يفكر في هذه الحرب كما لو كان صليبا مرسوما بين عنكبوت هائل ورجل سمين ذي اذنين مشرعتين . وان الميدان الذي يجب ان يختاره للمواجهة هو ميدان الجنس ...

ان قراءتي لما كتبه ايزموند عن رحلته الى دبلين قد ذكرتني فجأة بكليف بيتس ، حفيد ايزاك جينكينسوبد بيتس .حقا انني كنت الان قد حصلت على ما يزيد عن حاجتي من المادة لاستكمال طبعة فليشر لكتاب «مذكرات افاق ايرلندي» . كنت قد ربحت مبلغ الخمسة عشر الف دولار الموعود . ولكن هذا لم يعد له اهمية. كان هناك الكثير جدا مما اردت معرفته عن ايزموند ــ وحينما يتم طبع الكتاب ، لا بد ان يكون هناك الكثير جدا من الناس الذين سيتملكهم مثل ما تملكني من الفضول . ولا بد ان سيمتلىء الميدان بالباحثين . .وقد اردت ان اعثر على كل ما يمكن العثور عليه قبل ان يبدأ الاندفاع والزحام . كان ايزموند قد بدأ يسيطر علي كالهاجس المتسلط . وقد انتهى المجلد الثاني من المذكرات حينما كان قد غادر لندن متجها الى بولوني في ٢٨ مايو عام ١٧٦٥ ، ولكن من المؤكد انه مستحيل ان يكون قد كف عن كتابة يومياته بانتظام بعد ذلك . كانت هناك اسئلة كثيرة اردت الاجابة عليها . ماذا عن جريمة قتل هوراس جليني ، وعن الشائعات حول ايزموند واللادي ماري ؟ وماذا عن « القصة » مع الشقيقات الثلاث ؟

ولماذا يكره دكتور جونسون دونللي ؟ وماذا عن « جماعة العنقاء » تلك ، التي لم اقم بشأنها الا على اشارات مثيرة للشهية ؟

بعد عودتي من منزل الدكتور اوهفرنان بيومين ، تسلمت بطاقة بريدية من ميس تينا كانت تقول : « ايلين مصابة بنزلة برد قوية ، ولكنها طلبت مني ان اخبرك بأن المشرفين على تنفيذ .وصية ايزموند الادبية كانا هما القس ويليام آستون واللورد هوراس جليني . المخلصة تينا دونللي . » للحظة تملكني الارتباك . آستون؟ اجل . كنت قد خمنت هذا من قبل . ولكن كيف يمكن ان يكون هوراس جليني منفذا لوصية دونللي الادبية بينما هو قد سبقه الى الموت ؟ شعرت باغراء قوي

يدفعني الى القفز في السيارة والذهاب الى قلعة دونللي ، لان قراءتي لليوميات جعلتني شغوفا بأن اراها مرة ثانية . ولكنني كنت قد كتبت بالفعل الى كليف يتس لاخبره بأنني انوي الذهاب الى لندن في اليوم التالي ، وشعرت بالانقباض ازاء فكرة هذا السفر . رفعت سماعة التليفون وادرت رقم قلعة دونللي . أجابتني ميس تينا . وتم توضيح مشكلة هوراس جليني في لحظة واحدة . انها كانت تشير الى هوراس جليني الابن ، ابن صديق ايزموند . قالت ميس تينا :

« اعتقد ان هذا مما يمكن ان يدركه المرء بالبداهة ، حقا . اعني اذا كان ايزموند قد وقع في حب ماري جليني . »

« ولكن هل انت واثقة من ذلك ؟ »

« لست واثقة تماما بالطبع . لقد قال والدي لايلين ذات مرة شيئا عن هذا ، ولكنها لا تستطيع ان تتحدث الآن . »

« الا تعرفين – اتفاقا – اين اطلق الرصاص على اورد جليني ؟ »

« اعتقد ان هذا حدث في بيته ، في اسكتلندا . »

شكرتها ووضعت السماعة . الى القدر الذي يمكنني ان اصل اليه من الفهم، فان ذلك كله يضع نهاية القصة التي تقول بأن ايزموند قتل هوراس جليني ، فلو كان هناك حتى شك في مثل هذه الواقعة ، فهل كان يستطيع ان يطلب من ابن جليني ان يقوم على تنفيذ وصيته الادبية وان يكون مشرفا على تركته من المؤلفات والمذكرات ؟

* * *

كنت اشعر بابتهاج وتفاؤل شديد حينما شرعت في قيادة السيارة متجها الى دبلين في الصباح التالي . ولم يكن هذا مرتبطا كل الارتباط بدونللي . كنت قد نويت ان اسافر بالقطار ، حتى تستطيع ديانا ان تستخدم السيارة ، ولكنها في اليوم السابق رات اعلانا عن سيارة « لاندروفر » مستعملة . وشعرت بأننا نستطيع الآن ان ندفع ثمن هذه السيارة ، وهكذا فقد اشتريناها على الفور . كنت اعرف ان هذا تصرف سخيف – وانه من السخف ايضا ان يكون حدث بالغ الضآلة مثل هذا سببا في وميض دائم من التفاؤل يتحول الى نار مستعرة في العظام . ولكن هذا السخف نفسه سحرني ، وبدات غرائزي الخلاقة في الانسياب . ابهجني ايضا انطلاقي نحو الشرق ، وذكرني بأول مرة جئنا فيها للاقامة في ايرلندا فقضينا ايامنا الاولى في اكتشاف البلاد والريف . خطر لي في تلك اللحظة ان كل ما يهم في الوجود الانساني هو اتساع معين في الوعي ، وفي المعنى ، واننا يجب ان نكتشف الحيلة . حينما اشتريت هذه السيارة ، كانت ذات ناقلة اوتوماتيكية ، وكان هذا الشيء اللعين ينقل السرعة تقريبا في نفس اللحظة التي اشرع فيها في تشغيل المحرك ، او يقطع التشغيل حتى كانت الآلة تتوقف عند اول تل في طريقي الى البلدة . ولذلك فقد ركب محل الاصلاح القريب فيها ناقلة يدوية بدلا منها ، وعلي الآن الا اشغل الناقلة الاصلية حتى تشحن الالة بالدرجة الكافية لكي تصعد التلال في راحة كاملة . ولكن اذا حدث ان استيقظت في الصباح بعقل بارد

مكتئب ، فانني لا املك « ناقلة ثقيلة » استطيع ان اشغلها حتى يسخن العقل الى الدرجة الكافية . انني كثيرا ما امضي الساعات ، واحيانا الايام ، محاولا ان ادفع عقلي رغما عنه الى حالة من الاتساع ، محاولا تشغيل الضغط الداخلي لكي يصبح مناسبا للكتابة . والى حد ما استطيع القول بانني اكتشف الحيلة : عشر دقائق من التركيز الكلي الكثيف الذي يضم الكائن كله ــ عضلاتي بالاضافة الى عقلي . وحينما اقوم بهذا ، واذا لم يقاطعني احد ، فانني استطيع تقريبا ان الاحظ ضغط وعي وهو يرتفع ، حتى تكف الاشياء عن التمظهر في صورتها الكئيبة المحايدة . انها حيلة تشبه بالضبط شربك اول كأس لك في المساء ــ تلك الومضة الدافئة التي لا تستقر في المعدة ــ وانما في الوعي » .

الآن حدث الشيء الغريب ــ شيء قد لا استطيع ان انقله الى القارىء ، ولكن قد استطيع على الاقل ان احاول وصفه . خطرت لي فكرة انه بهذا الشكل ، وان هذا هو الشعور الذي انتاب ايزموند حينما بدا خروجه الى « جولته الكبيرة » في عام ١٧٦٥ . وحينئذ امتزجت في ذهني صورتان . الاولى كانت لايزموند جالسا في العربة الراحلة الى « لايمريك » ــ وكانت صورة كشيء حلمت به في اثناء الليل ــ والثانية كانت صورة الاشجار في « لونج آيلاند » تبدو فجأة كما لو كانت قدت من البرونز المطلي بالفوسفور ، بينما بيفرلي تنحني فوقي . كانت هذه الصورة الاخيرة قوية جدا . كان بوسعي ان اشم رائحة بيفرلي ، شاعرا بدفء نهدها العاري على صدغي . ومع هاتين الصورتين انفجرت في داخلي نوافير البهجة . ان ما تريد الكائنات الانسانية ان نحققه لهي تلك اللحظات من الطزاجةوالاتساع ، والا يفقدوها في كل مرة يتسكع انتاجهم بين الاشياء دون تركيز على شيء محدد . انهم يريدون « استمرارية الوعي » . ولنفترض ان رجلا قال لنفسه : « من الواضح انه لا شيء هاما مثل هذا : منذ هذه اللحظة سأكرس حياتي للبحث عن هذا الاتساع والاستمرارية ..»؟ وقد عرفت دون ان تخالجني ذرة من الشك ان شيئا مثل هذا قد عبر بعقل ايزموند في تلك اللحظة ذات صباح وهو في طريقه مسافرا من لايمريك . كيف ؟ لانني عشت مع ايزموند طوال اسابيع ، حتى عرفت كيف كان عقله يعمل .

لحظتها ، ودون اي تغير مفاجىء ، دون اي احساس برؤيا او بالهام ، انتابني احساس كالهلوسة بأنني « انا ايزموند » . كان احساسا قويا الى درجة سخيفة . كنت اعرف انني اجري بالسيارة عبر مزرعة صغيرة تدعى « فار درام » ، على بعد اميال قليلة وراء آثلون ، وانني كنت انوي ان اتوقف امام الحانة عند بلدة موآت ، لكي اتناول شطيرة باللحم وكوبا من عصير العنب البري . في نفس الوقت كنت جالسا الى جوار سائق العربة فوق صندوق العربة المتقافز ، اتشمم عرق الجياد القلوي والهواء النظيف اصباح يوم من ايام ابريل بالاضافة الى رائحة دخان الاذرة والتبغ الصادرة عن ثياب السائق .

كان هناك شيء بالغ الغرابة متعلق بمقدار ما كان في هذه الصورة من حيوية: انها لم تكن « خيالية » بالمعنى العادي ! انني لم اكن « اتعمدها » بشكل ما . وانما كانت كأنما تحرك شيء ما فاقترب مني ، مثل قطار يعبر الى جوار القطار الذي

تصادف ان كنت راكبا داخله فيعطيني لمحة قريبة مفاجئة الى داخل عربة عابرة . ولم يدهشني كل ذلك ، وانما بدا كجزء طبيعي من تصاعد نافورة البهجة . كان ضغطي العقلي مرتفعا . وكانت السماء اقرب الى ان تكون مساحة زرقاء باردة ، وشعرت بها كما لو كانت صفحة شاسعة من المياه الباردة . خطر لي بثقة يقينية كلية مفاجئة : ان الزمن وهم . انه ليس حالة مطلقة . انك اذا كنت حشرة جالسة على ورقة شجر يجرفها تيار نهر ، فانك قد تظن انه من المحتم ان تظل الاشجار تعبر بك وتتوارى من خلفك ، وان الاشجار ، بطبيعتها ذاتها ، لا تعيش الا لحظات قليلة ، وان الحقيقة الوحيدة الثابتة دون تغير هي انتشار الماء وسقسقته . ولكن الضفة حقيقية ، واذا امكنك ان تغادر ورقة الشجرة التي تجلس عليها لتهبط على الضفة ، فانك جدير بان تكتشف انها صلبة تماما ودائمة باقية .

وحالما تبدت لي هذه الصورة للزمن باعتباره شيئا وهميا ، ولحقيقة العالم الذي يعبر خلالها ، رايت طفولتي كما لو كانت شيئا استطيع ان امد يدي فالمسه ، تماما مثلما استطيع ان افتح كتابا عن صفحة قرانها منذ ساعة مضت ، او مثلما اجمل شريط تسجيل يعود الى الوراء نحو قسم منه كنت قد سمعته منذ قليل . وطرا لي ان حياة ايزموند لم تكن اكثر بعدا من هذا . مجرد قرنين مضيا ، اي ما يساوي مقدار حياتين بشريتين . ان مشكلتنا هي ضعف الوعي الذي يتردد مثل التيار الكهربائي الصادر عن بطارية مستهلكة . فاذا كان بوسعنا ان نستبدلها ببطارية جديدة لاستطاع العقل ان يسير بخطوات واسعة عبر القرون .

توقفت عند حانة « مايك كيللي » لاشرب كوب العصير . انها حانة هادئة على الطراز القديم ذات دعامات خشبية واطئة ، ومدفاة اعشاب اسفل الجدار . طلبت شطيرة باللحم ، فقالت لي ابنة صاحبة الحانة انني سأحصل عليها ساخنة يفوح منها دخان الفرن ، وفي الحقيقة ، كانت القطع الضخمة من اللحم الطري تصاعد البخار . وبعد ان قدمت لي طلباتي ، خرجت وتركتني بمفردي . نظرت حولي ، وباغتتني فكرة في سرعة الضوء الكهربائي ، ان هذا المكان ربما كان يبدو بنفس الشكل الذي كان عليه في ايام ايزموند دونللي . وحينئذ ، وبشكل اوضح من ذي قبل ، انتابني الشعور بأنني « اصبح » ايزموند دونللي ، او انني انحني فوقه وانظر الى داخل وعيه بينما هو ينفلت عابرا امامي . وفي هذه المرة ، وقد قويت حواسي برائحة اللحم ومذاق العصير المخمر ، بذلت مجهودا اراديا لكي استبقي ذلك الاحساس وامسك به . للحظة راوغني . ثم حينما استرخيت ولم احاول ان ارغمه على البقاء ، عاد ثانية : مزيج من الروائح ، والاحاسيس والافكار . ثم فجأة تماما ، بدا انه « يتركز » واصبح كل شيء اكثر وضوحا . بشكل ما تطابق وعي ايزموند مع وعيي ، حتى اصبح بوسعي ان التفت انا فانظر الى ماضيه ، الى دلفين ومينو ، والى الفتاة الفلاحة الجميلة التي كانت تدعى ايللي (وهو تصغير ايلين) . والاكثر من هذا ان هذا الاسم الاخير كان جديدا بالنسبة لي ، فان ايزموند يشير اليها في يومياته بحرف «ا» ـ ربما خشية ان يفضح فتاة تعيش قريبا منه الى هذا الحد . واثارني هذا . لم اكن بالسذاجة التي تجعلني اقبل ببساطة بأنني

بشكل ما قد « اصبحت » ايزموند . انني اعرف الكثير جدا من الاعيب العقل الشبيهة بالاحلام لاصطناع مثل تلك الفروض او الاحتمالات . ومن الذي لم يؤلف موسيقى او شعرا في احلامه ، او خلق مواقف من الغرابة بحيث تبدو من اختراع شخص آخر ؟ لو انني استطعت ان اتأكد من ان اسم الفتاة كان ايللي ـ ولم يكن هذا من المستحيل ، اذن لاستطعت ان اعثر على المزيد من مذكرات ايزموند ـ اذن لكان في وسعي ان اتيقن من ان هذه التجربة الغريبة كانت نوعا من الحاسة السادسة، وليست حلما من احلام اليقظة .

قاومت الاغراء بشرب المزيد من العصير المخمر ـ عارفا انه يمكن ان يدفعني الى النعاس ـ وقمت لاستقل السيارة حالما انتهيت من تناول طبق اللحم ، لم اكن اريد ان استرخي . ان ما اردته كان هو ان اعمق هذا الشعور بالتبصر العميق ، بالوصول الى المعنى . وبعد عشرين ميلا من السير خارج دبلين بدأت تمطر ، ونسيت كل شيء عن تركيزي ، مستمتعا فجأة بحركة زحف مساحتي ازجاج الاماميتين ، وبطرقات القطرات الضخمة الدافئة . وحينئذ ، ومرة اخرى ، ودون اي مجهود ، اصبحت « ايزموند » . فجأة ادهشتني منازل بلدة « ماي نوه » ودكاكينها ، كما لو لم اكن قد رايتها من قبل ابدا . ولكن حينما اقتربت من كارتون وعبرت بها ، ورايت المنزل الضخم من القرن الثامن عشر الذي آل ذات مرة الى دوقات لاينستر ـ تحققت من انني كنت اعرف المكان . وانني كنت داخله ذات مرة . بالطبع لم يحدث لي « انا » ان دخلته ، لقد كان ايزموند هو الذي دخله ضيفا على صديق دراسته روبرت فيتزجيرالد ، ماركيز كيلدار .

طول الوقت ، وبينما كنت اقود السيارة الى داخل دبلين ، وعلى مسار شارع كونيجهام ، كنت اشعر بتأثير هذا « الوعي المزدوج » . ولو ان احدا كان معي في السيارة ، لكنت قد قلت له : « كان هذا هو شارع شابيليزود في عام ١٧٦٥ ، وها هو قد اصبح شارع باراك . » ولكن قبل ان ادخل شارع باراك القديم ، كنت اجري بالسيارة على طول شارع وولف تون كواي ، فتنتابني دهشة بسيطة اذ اجد نفسي بالفعل الى جانب نهر الليفي . في عام ١٧٦٥ كان علي ان اتقدم من شارع شابيليزود المزدحم الى شارع باراك ، بينما ارى النهر عبر حديقة « اونج ميدوز » الى اليمين ، ثم على طول شارع كرافل دوك ، الذي يكون علي عند ناحيتين ان استدير الى اليمين نحو شارع آران كواي ـ الذي كان في ذلك الوقت اقصى اطراف ضواحي دبلين الغربية . عبرت الشارع الواقع الى يميني ـ الذي كان دونللي قد نسيه ـ والذي يؤدي في النهاية الى جسر بلود . وعند جسر جراتان شعرت باغراء يدفعني الى الاستدارة يمينا ناسيا انه كان بوسعي ان استمر في نفس الشارع حتى اوكونل ؟ ففي ايام دونللي ، كان جسر جراتان (الذي كان يدعى جسر اسكس في ذلك العهد) هو آخر نقطة يمكن للمرء عندها ان يعبر نهر الليفي. كنت مقيدا باتجاه نهر شيلبورن في وادي « سانت ستيفانزجرين » ؟ ان دونللي حينما ذهب الى دبلين في عام ١٧٦٥ قد انطلق الى حانة « الكلب والبطة » في

شارع بودنج رو (الذي يسمى الان وودكواي) وكان المحل تحت ادارة الاسطى فرانسيز ماجين. وهناك اكل عشاء من اسماك السالمون الواردة من بوين ، ولحم حمل مشوي ، وغسل ذلك بكمية كبيرة من البيرة الحلوة ذات النسبة القليلة من الكحول ، ثم غرق في النوم في حجرة مريحة بالطابق الاول مصغيا الى صيحات « نشتري جلد ارانب الغابة وارانب البيوت » ، « سمك البوري من خليج دبلين ». كان كل ذلك حيا امامي حتى انني وجدت نفسي اتجه اتجاها خاطئا عند كوليج جرين ، فيكون علي ان ادور دورة واسعة لكي اصل الى شيلبورن . في حجرتي هناك ، فتحت زجاجة من نبيذ فولني كنت قد جئت بها معي — رغم ان الساعة كانت في الرابعة والنصف فحسب — ووجدت نفسي أقل انزعاجا بسبب تلك المؤثرات الغريبة ذات الوجهتين المزدوجتين . وحتى في تلك الحالة ، لم يكن علي الا ان اغمض عيني لكي ارى صورا واضحة لدبلين التي كانت من نواح عديدة شبيهة بتلك التي كان بوسعي ان اراها من نافذتي (رغم انه في تلك الايام ، كان وادي ستيفنز جرين محاطا بسور مجري وخندق ، وليس بسياج من قضبان الحديد) — ولكن تلك الـ « دبلين » البعيدة كانت ايضا مزدحمة وصاخبة ، ولكن شوارعها كانت مبلطة بقطع حجرية صغيرة في الغالب ، ومنازلها اكثر نظافة ووقارا . وكانت ايضا تفوح برائحة المقانق والسمك وخاصة في منتصف الصيف . والقوارب ذات الاشرعة المنتفخة التي زحمت نهر الليفي ولدت تأثيرا لم يكن بعيد الشبه بقنوات البندقية الكبيرة . بعد كأسي الثالثة من النبيذ ، كان « الكشف المزدوج » قد خبا من ناحيتين ، وطرأ لي انه من المحتمل ان يكون شيريدان اوفانو قد كتب قصة قوية وكئيبة محزنة عن عقل انسان ذي طبقتين ، يشغله رجل من قرنين مختلفين. بل لقد كان بوسعي ان ارى — اذ انظر من خلال مزاج يشبه مزاج لوفانو — انها كانت يمكن ان تكون تجربة مخيفة . ولكن في ذلك الحين ، كانت نظرة لوفانو الاساسية نظرة مهزومة وسلبية . وهذا هو السؤال الجوهري الوحيد .

* * *

اتصلت بديانا لكي اخبرها انني وصلت بسلام ، وفي نفس اللحظة التي كنت اعيد فيها السماعة الى مكانها ، جاءتني مكالمة من كليف بيتس وكنت قد كتبت اليه لكي اخبره بأنني سأنزل في فندق شيلبورن . سألته ان كان يجب ان ينضم الي في تناول الطعام ، فقبل واقترح ان اذهب اليه لكي نشرب كأسا اولا . كان يقيم في رانيلاغ رود ، في مواجهة المدير ، فسرت الى هناك في حوالي الساعة الخامسة . كان شابا ممتلىء الجسد له صوت ممتد مثل صوت الدارسين في اوكسفورد . وكانت شقته مريحة ، وقد امتلأ صوان المشروبات بالكثير من الاصناف . كانت هناك اعداد عظيمة من الكتب ، بعضها حول المسرح والباليه . كان من الواضح ان كليف بيتس يملك دخلا خاصا او وظيفة حسنة ، او كليهما . كان كل شيء في حجرته ينم عن انه رجل مغرم بأسباب راحته . وكان يتمتع بجاذبية عظيمة واسلوب سهل في التعامل والسلوك ، ولكن شيئا ما لاح على فمه اوحى الي بانه

قد يكون بالغ الخشونة او عصبي المزاج اذا فشل في الوصول الى ما يريد او في شق طريقه اليه .

حينما كنا نشرب كؤوس الفودكا والمارتيني ، كان الحوار عاما ، ثم انتقل الموضوع الى كتبي ، والى اعمال كتاب عديدين قابلهم كل منا . كان قد عمل في وزارة الخارجية لمدة من الزمن ـ بعد التخرج من ايتون وباليول ـ وقابل عددا كبيرا من الشخصيات المسرحية والادبية في لندن . اما عني ، فأنني دائما ما كنت اتجنب الكتاب الآخرين ، وكانت محاورات المحترفين تضجرني ، ولم اكن اعجب الا بأعمال عدد قليل منهم . وهكذا فسرعان ما بدأت اضجر من هذا الحديث . وبعد نصف ساعة او نحوها حاولت بلباقة ان اوجهه الى موضوعات اخرى . سألته عن صحة جده .

« أوه ، اجل . الولد العجوز يريد ان يـراك . كنت قد اخبرته عن عملك . »

نظر الى ساعته وقال :

« عادة ما يكون بمفرده في هذا الوقت تقريبا . هل تود ان تذهب اليه قبل ان نأكل ؟ »

قلت نعم ، محاولا الا ابدو متلهفا بالقدر الذي كنت اشعر به .

ذهبنا الى شارع باجون ، رغم انه كان مغلقا بدرجة كافية للتعطيل . كان كليف بيتس يملك سيارة من طراز « بورش » واطئة لدرجة ان انتابني احساس بأن اردافي تجلس على ارتفاع بوصة واحدة من ارض الشارع . وفي الطريق قال بيتس:

« انك بالطبع ، تقوم بكل ذلك في مقابل بعض المال ؟ »

للحظة واحدة لم استطع ان افهمه ، وبدا علي عدم الادراك . قال :

« هذا الشخص دونللي . اعني انه من الدرجة الثانية تماما : اليس كذلك كنت انظر الى كتابه عن « افتراع العذارى » منذ ايام . انه شيء فج الى حد كبير . »

هممت بان اقول انني اظن ان هذا الكتاب مزيف ومنحول للرجل ، ثم لسبب ما ، التزمت السكون ، وبدلا من هذا شرحت له حكاية فليشر والمهمة التي اوكلها الي .

اوقفنا السيارة في شارع باجون . قال كليف بيتس بشكل عارض :

« بهذه المناسبة ، هل سمعت ابدا عن جماعة العنقاء ؟ »

حدقت فيه . ثم حدث شيء غريب . فجأة كنت ايزموند مرة اخرى ، كان ايزموند يطل عليه من عيني .

قلت :

« بغموض . ألم تكن هذه نوعا من العبادات السحرية »؟

« بشكل او بآخر كان دونللي عضوا فيها . »

« كيف عرفت ذلك ؟ »

« هذا مسجل في اوراق جدي . لقد كان مهتما دائما بهذه الجماعة المسماة « جماعة العنقاء » . وكان قد سمع عنها من ساحر يدعى ماك جريجورماترز . ربما كنت قد قابلته ؟ »

« بالطبع . لقد حصلت على ترجمته لكتاب الظهور . »

لم يكن هناك وقت لمزيد من الحديث ، كنا ندق جرس الباب ، وبعد لحظات قليلة فتحت الباب ممرضة شابة . دعاها بيتس باسم « عزيزتي بيتي » وقرصها من مؤخرتها . بدت محرجة لوجودي . صعدنا الى حجرة نوم في الطابق الاول . كانت حجرة معتمة ، رغم ان الضوء كان منتشرا بالخارج . كانت الستائر نصف مسدلة ، ونواسة صغيرة تشتعل فوق الفراش .

كان ايزاك جينكينسون بيتس هزيلا نحيفا كما كنت اتوقع من خلال وصف حفيده : عجوزا ضئيل الحجم اصلع الراس جلده مثل رق قديم مجعد . حينما رفع يديه من فوق المسند لكي يصافحني اهتزتا وارتعشتا رغما عنه ، فأعادهما سريعا مستويتين فوق الفراش مرة اخرى . سألنا ان كنا نود ان نشرب شيئا ، فرفضنا كلانا ، ولكنه اصر وقال : « اعرف انكم ايها الشباب تحبون ان تشربوا كأسا في مثل هذا الوقت . » وقال للممرضة ان تصب لكل منا كأسا من الشيري . قبلته بدافع الادب ، ولكنه كان شيئا كريها . تحدث الرجل العجوز دقائق قليلة عن تاريخ الشيري ، وعن نظريته حول السبب الذي كان الشيري لاجله يدعى «ساك»، اي حقيبة ، لان ثمرات العنب كانت تعصر من خلال اجولة كالحقائب . ثم ، وفي نصف جملة لم يكملها ــ حول حديثه الى موضوع جريمة قتل في جزيرة الآي الايرلندية . كنت قد قرات كل ما استطعت العثور عليه قبل ان ابرح البيت ، ولكن ثبت ان هذا لم يكن ضروريا . فقد راح الرجل يتحدث في انسياب بمعدل ثابت لمدة عشر دقائق او نحوها .

وحينما توقف للحظة قصيرة ، قال كليف بيتس !

« لقد سمع مستر سورم عن جماعة العنقاء . »

« أوه ، اجل ، حسنا . بالطبع . لقد كان دونللي عضوا في تلك الجماعة . وكانت ايضا شيئا مقرفا من نوع لا يثير البهجة ابدا . اجل ، بالطبع . ينبغي ان تعرف انها نبعت من اعتقاد يقول بانه اذا تضاجع رجل وامراة فانهما يصبحان غير قابلين للعدوى بأي مرض . وبذلك اصبحت هذه العقيدة في زمن الموت الاسود مبررا لكل انواع الفجور . ومع حلول عصر دونللي اصبحت مجرد عصبة شبه سحرية تضم جماعة من المتهوسين الصعاليك . هل تعرف كتاب دي صاد « مائة وعشرون يوما من ايام سدوم »؟ انني واثق ثقة كاملة من ان دي صاد كان يسخر من جماعة العنقاء في ذلك الكتاب ــ اتعرف الصعاليك العواجيز القذرين الاربعة الذين اقاموا نوعا من المعرض الجنسي في احد المنازل الريفية ؟ لقد ظن توم وايز العجوز دائما ان هذا هو السبب الذي جعل دي صاد يمضي اكثر حياته في السجن، لقد كان يعرف الكثير جدا عنهم . »

تدخل كليف قائلا : « توماس .ج وايز . المزيف الادبي ، انك تعرفه . »

« حسنا ، ربما كان كذلك وربما لم يكن . انهم يقولون ذلك ولكنني لست واثقا الى هذا الحد . غير انه كان دائما صديقا جيدا لي الى حد بعيد . مثلما اقول ، فانه كان على اقتناع كامل بأن جماعة العنقاء هذه ، كانوا يسعون وراء

دي صاد ..»
غمز لي كليف بعينيه
« ولكن لماذا ينبغي ان يطاردوه اذا كان مثلهم في السوء ؟ »
« انه لم يكن . كلا . لقد كان يسخر منهم . اتفهم ؟ »
يجب علي ان اوضح ان تفسيرات الرجل العجوز لم تكن بمثل الوضوح الذي جعلتها به هنا . كان حديثه من النوع الذي يصعب تتبعه ، تقطعه وترقمه غمغمات واصوات انفية غريبة . لم احاول ان انقض او اناقش حديثه الغريب عن دي صاد، ولكن املي في الحصول على اية معلومات مفيدة راح يخبو ويتلاشى . سألته عن كيفية بداية اهتمامه بجماعة العنقاء .
« لقد رايت نسخة من تلك النشرة النادرة . وكانت هذه هي بداية معرفتي بوايز ، في الحقيقة . »
« اية نشرة ، يا سيدي ؟ »
« أوه ، النشرة الشهيرة .. التي كتبها هنري مارتل وجورج سميثسون . كليف ، انظر في الدرج العلوي هناك ، اتسمح ؟ »
لم تكن النشرة في الدرج العلوي ، ولكن بعد عشر دقائق ــ راح بيتس في اثنائها يصب الاتهامات القائمة على راس العالم كله بشكل عام،وعلى راس ممرضته خاصة ــ تم العثور عليها في صوان آخر . اختطفتها بلهفة . كانت موضوعة في غلاف خارجي مراكشي احمر ، وكانت في حالة اقرب الى الفساد .

فضح للمؤامرة الشريرة ، المعروفة باسم جماعة العنقاء

بقلم هنري مارتل ، م . ا . جورج سميثسون .د.د
طبعها للمؤلفين ج. روبينسون . ضفة النهر القديمة ، ١٩٧٣ .
كان كليف يسأل بأكثر ما يملكه من نعومة وقدرة على الاقناع :
« لا افهم لماذا تظنها حقيقية مع انها جاءتك من رجل مثل وايز ؟ »
انتفض الرجل العجوز للنقاش،واصبح لاذعا حادا :
« سوف اشكرك اذا انت لم تتحدث بهذه الطريقة عن وايز . انه لم يكن مزيفا اكثر مني . لقد كان يحاول ان يدافع عن ذكرى صديقه هنري باكستون فورمان . »
قلت :
« على اي حال ، من المؤكد ان النص الاصلي لاي عمل مزيف كان على الدوام حقيقيا ؟ لم يكن الامر سوى نوع من التأريخ المجترىء على النشرات ؟ »
« تماما . كذلك قال الرجل العجوز،ثم التفت الى كليف وقال : « أترى ؟ انه يعرف عن المسألة اكثر مما تعرف انت ! »
تركتهما يتناقشان ، ورحت اقرا بسرعة عاصفة . اتخذت النشرة كلها نغمة اخلاقية مرتفعة ، واتهمت جماعة العنقاء بانها السبب في سقوط لويس الرابع عشر ملك فرنسا . وطالما ان هذه النشرة سوف تطبع كاملة في ملحق خاص مع

مذكرات دونللي ، فانني لن اقتبس الكثير منها هنا . واذا كانت هـذه النشرة هي المصدر الوحيد لمعلومات بيتس العجوز عن الجماعة ، فقد كان بوسعي ان ارى لماذا كان ينظر اليها بعين الرفض . وجدت نفسي اتذكر عددا معينا من النشرات والمقالات التي صدرت عن راسبوتين بعد مقتله في عام ١٩١٧ ، وكانت مليئة باتهامات غامضة ، صعبة التصديق عن مؤامرات وحشية ، وعن جرائم الاغتصاب والعهر ، والاحتفالات المقززة. وطبقا لما قاله كاتبا النشرة، كانت الجماعة اساسا تنظيما من السحرة لممارسة اعمال السحر . وكانت الفقرة التي اثارت اكثر المناقشات ــ بعد نشر مقالي عنها في مجلة « اتلانتيك منثلي » . كانت هي تلك التي تصف الطريقة التي يتبعها « السيد الاعظم » او اي واحد من اتباعه المصطفين لكي يتمكن من استعباد الفتيات عن طريق جمع ثلاث من « سراويلهن الداخلية الملوثة بالدم » بعد دورتهن الشهرية ، ثم يقطع ثقبا في وسط بقعة من الدم متخذة شكل العضو التناسلي الانثوي ، ثم يرتدي هذا السروال فوق ذكره العاري لمدة سبعة ايام وسبع ليال . وبعد هذه الفترة تصبح العذراء مجبرة على تلبية نداءات السيد الاعظم لكي تسلم له عذريتها ، ثم تستسلم له بعد ذلك في اي وقت ، حتى ولو كان على بعد الف ميل. وتتلو ذلك ، القصة الغريبة عن « اديلى كريسبين » التي امتلكها السيد الاعظم في ليلة زفافها « في نفس الوقت » الذي كان زوجها يمتلكها فيه ، والتي كان طفلها يحمل ملامح السيد الاعظم ــ شعر اسود ، وبشرة سمراء ، وما الى ذلك (كان السيد الاعظم في ذلك الوقت هو الفارسي عبدالله يحيى ، الذي تفاخر بانه قد ترك بذرته في رحم كل امراة جميلة من المجتمع الروماني الراقي . ويشير المؤلفان الى هذا التفاخر باعتباره مثالا على الفقر الاخلاقي الوحشي بدلا من ان يكون صورة للكذب الخيالي المختلق) وقد قتل عبدالله يحيى ومزق جسده في عام ١٧٩١ على يد هندريك فان جريس ، الهولندي الشبيه بالوحش . والمفترض ان فان جريس كان يزن اكثر من ثلاثمائة رطل انجليزي (١٥٠ كيلو جرام)، وانه غالبا ما كان يفقد ضحاياه الوعي ، بل يقتلهم ، بمجرد ان يترك وزنه الضخم يسقط فوقهم ، واصبح فان جريس سيدا اعظم لمدة لا تزيد على العامين ، اصيب خلالهما بمرض الزهري الذي نقلته اليه سيدة البلاط الرومانية ماريا جرينجا التي قيل انها كانت ذات طبيعة قاتلة ، حتى ان فان جريس حينما جاء عام ١٧٩٤ كان قد اصبح جبلا لا ملامح له من اللحم المترهل . وفي « مجلة التحليل النفسي » الصادرة في شهر يوليو عام ١٩٦٩ م فسر البروفيسور آرام روث القصة كلها على اساس التصور الفرويدي ــ بادئا من النشاطات الفيتشية (التي تقوم على الولع الجنسي بالاشياء ذات العلاقة او المدلول الجنسي) المرتبطة بالسراويل الملوثة بالدم ــ ورفض القصة ــ او رفض تصديقها ــ على اساس انها نتاج الخيال القوطي المليء بالاسرار الوحشية . وفي عدد سبتمبر من نفس المجلة ، اشارت ميس مارجانينا بونديسون الى انه لم تكن ثمة حاجة الى الاختراع ، طالما انه من الممكن العثور على اكثر الطقوس الموصوفة في كتب السحر الاسود العربية والفارسية في القرن الثامن عشر ، وتشير ايضا الى ان ستيف دي لابريتون قد وصف شخصا ما يبدو شديد الشبه بفان جريس

تحت اسم كوبيير ـ باليزو) في كتابه « ليالي باريس في عام ١٧٨٨) واصفا اياه بانه « المنحرف الاسطوري ». وكنت انا من لفت انتباهها الى الفقرة المتعلقة بريستيف.
قال الرجل العجوز : « لقد كانوا مجرمين ، هؤلاء الناس . مجرمين منحطين. ارأيت من الذي جاء بالجماعة الى فرنسا ؟ »

كنت قد رأيت ذلك حقا. قال مؤلف النشرة ان جيل دي ريز قد اصبح عضوا في الجماعة في السابعة عشرة من عمره (١٤٢١) بعد ان رشحه لها كاهن مخلوع . كان مارتل وسميثسون على اتفاق مع سانت نيلوس سورسكي من ان الجماعة لم تكن اكثر من تطور لتعاليم « اخوة الروح الحرة » . فبعد ان رفضوا كل قانون اخلاقي هدفه الى تحقيق اكمل تعبير عن « اعضاء المتعة » . ويقول المؤلفان ، كان اعضاء الجماعة يرتدون ثياب الرهبان، ويتخصصون في الاغتصاب او في مضاجعة الجثث. كانوا يتقدمون للتطوع لحراسة جثث الفتيات الصغار ـ والصبيان . وينتظرون حتى ينام الجميع ثم يغتصبون الجثة جنسيا . والشيء الوحيد الذي يمكن ان يقال في صالحهم ـ في الحقيقة ـ هو انهم حاولوا دائما ان يتجنبوا انزال اي ضرر جسدي حقيقي بضحاياهم . وقد حدث ان فتاة من بائعات اللبن اغتصبها اثنان منهم ثم تركاها مقيدة مكممة تحت كومة من اوراق الاشجار ، حتى عثر عليها بعد ذلك بيومين. وهددت اخرى بانها ستجد نفسها حاملا بجنين كالوحش اذا فاهت بكلمة واحدة، وبذلك كتمت السر حتى طمأنتها دورتها الشهرية التالية . « ولما كانت القاعدة التي يتبعونها هي الا يقتلوا ضحيتهم ابدا بهدف تجنب التعرف عليهم فيما بعد ، فقد كانوا مضطرين الى ان يكونوا اساتذة في فن التنكر والتخفي ». وكان كثيرون منهم يحملون صناديق مليئة بمختلف الادوات (باروكات الشعر والاهداب والعدسات .. الخ) من الوان مختلفة حتى يكون بوسعهم ان يغيروا الوان كل شيء ، حتى عاداتهم نفسها ». وكان جيل دي ريز هو اول ثري يعتنق آراءهم ، وكان قد استقبله وتلقاه كعضو في الجماعة شخص يدعى جيل دي سيبى. كان الحديث عن السيمياء في محاكمته ضربا من السير في طريق مظلم مسدود ، طبقا لما جاء في النشرة . وكان القتل الجماعي للاطفال ـ ببساطة ـ تعبيرا عن « الشهوانية الشيطانية » التي افعمت بها قلوب جماعة العنقاء .

فاذا ثبت ان ريز كاو عضوا في جماعة العنقاء ، اذن لاقام مارتل وسميثسون قضيتهما على اساس انها كانت منظمة شريرة ومروعة . ولكنهما في الحقيقة لا يقدمان اي دليل على اعتقادهما في انه كان عضوا في الجماعة . شعرت بالميل الى ان اشير الى ذلك للرجل العجوز ، ولكن كان من الصعب ان تعترض الطوفان الجارف من الذكريات. واخيرا استطعت ان اسأله ان كان لديه المزيد عن جماعة العنقاء .

« اجل . ان لدي اهم خطاب يمكن ان تتصوره كان قد وصلني من توم وايز. كنت اتراسل معه بشأن هذه الجماعة ـ لا بد ان هذا كان في عام ١٩٠٥ . كليف انظر في هذا الدرج العلوي مرة ثانية » .

اعرض كليف بوجهه ، ولكنه راح يبحث ـ طائعا ـ بين اكوام من الاوراق

القديمة . دخلت الممرضة حاملة اناء يحتوي على سائل ساخن يتصاعد منه بخار له رائحة نفاذة وضعته في اطار معدني معلق بالسرير . وحينذاك غطى بيتس العجوز راسه بكيس من البلاستيك وراح يستنشق البخار. واعتقد ان هذا كان نوعا من العلاج للربو . عرضت ان اساعد كليف بيتس في البحث عن الاوراق، فقال: « اتوقع ان تعثر على شيء هام . . » والتقط النشرة التي كنت اقراها . القيت نظرة على كومة من الخطابات القديمة ، ولكن لما لم تكن لدي فكرة عما كان من المفروض انني ابحث عنه ، فقد شعرت بعدم جدوى هذا العمل كله وعقمه . جذبت اضمامة سوداء من قاع الدرج ونظرت الى ما بداخلها .وجعلني ما رايته انظر بسرعة الى الرجل العجوز ،ثم الى حفيده ، ولكن لم يكن احدهما منتبها اليّ . كانت الاضمامة تحتوي على اثنتي عشرة صفحة او نحوها من مخطوطة كتبت باليد ، وتعرفت على الخط ، كان خط بوزويل . كان اول سطر من الصفحة الاولى يقول: « السبت ، اول فبراير » وكان شخص ما قد اضاف عام ١٧٦٦ بالقلم الرصاص . مرة اخرى نظرت الى كليف . كان منغمسا كلية في قراءة النشرة . وكان الرجل العجوز يستنشق بصوت خشن ويشكو حاله للممرضة التي كانت تعيد ترتيب الفراش . جذبت مقعدي قريبا الى الدرج، وجلست لكي اقرا المخطوطة . في لحظة ما ، نهض كليف ونظر من فوق كتفي . تساءلت صامتا ان كان يمكن ان يسالني عما كنت افعله بحق الشيطان. ولكنه ذهب وجلس في مكانه ثانية ، واستأنف القراءة.

كان التقرير يصف مغادرة بوزويل لباريس في صحبة تيريز لوفاسور ، عشيقة روسو (وهي التي كان بوزويل قد وصفها في يومية اخرى ــ اكتشفتها فيما بعد ــ بقوله :« انها فتاة فرنسية خالصة مليئة بالحياة ») . وكان الاثنان في طريقهما الى انجلترا ، وقد سافرا معا بحثا عن المؤانسة . وفي الليلة الثانية قررا ان يشتركا في فراش واحد في احد الفنادق الصغيرة . ولشدة مهانة بوزويل ، فشل في اداء واجباته الرجولية ، فانفجر باكيا ،وقال :« ويستطيع من يقرا هذا الكلام ان يجد آثار بكائي على الصفحة السابقة . » ولكن تيريز اعادت اليه ثقته بنفسه في الليلة التالية بان ادت اليه الخدمة التي كانت مينو تؤديها لعاشقيها معا ، ــ وهي الركوع على ركبتيها امامه وملاطفته بفمها . « جعلني منظرها وهي متكومة امامي في هذا الوضع المهين اشعر بالشفقة الامر الذي اعاد حيويتي اليّ بقدر عظيم حتى انني ارقدتها على ظهرها فوق البساط واتيتها في التو والساعة مثل عجل بري . واظن انها رضيت تماما عن « حجمي » لانها شهقت بدهشة ، ثم تركت نفسها المحتبس في صدرها ينطلق في تنهيدة طويلة » . انني انقل الان من الجمل القليلة التي استطعت ان انقلها بسرعة بالقلم الرصاصي في مذكرة صغيرة كانت في جيبي . عرفت انني كنت انظر الى مخطوطة بوزويل التي استطاع ابزالك جينكلينسون بيتس ان يختلسها بشكل ما من مالاهايد . ومن الواضح تماما انه لم يكن له اي حق في امتلاكها. ولذلك فقد عرفت انعدام اي فرصة لسماحه لي بان استعيرها او حتى بأن انسخها في منزله .

قال كليف بيتس :« هل عثرت على تلـك الورقة عن دونللي ؟»
جفلت وقلت :«لا» ثم نظرت الى الرجل العجوز . كان رأسه مختفيا تماما ، وكنت واثقـا من انه لم يسمع ، قال كليف :
« ارجـو ان تقرأها . انهـا مضحكة بشكل مرعب » .

غمغمت بشيء ما ، آملا الا يطرأ على ذهن بيتس العجوز ان يسألني عما كنت اقرأ ، او ماذا كنت قد عثرت على خطاب وأيز . قفزت صفحتين من الكلام الذي يحاول فيه بوزويل ان يبرز نفسه ، مخاطبا ذاته بكلمة « أنت » متأملا في مميزاته من الجاذبية والجدية الاخلاقية . في يومية الاحد ٩ فبراير ، عثرت على الاسـم الذي كنت ابحث عنه . وصل بوزويل وتيريز الى كاليه وسط عاصفة ممطرة . ونزلا في فندق يقول عنه ببساطـة انه فندق مدام دوتشيزن ، حيث نزل هـو وتيريز في غرفة واحدة كبيرة في الطابق الارضي . بدل بوزويـل ملابسه وهبط يتمشى في المدينة . « وبالقرب من رصيف الميناء ، ربت شخص مـا علـى كتفي ، والتفت لكي ارى ايزموند دونللي الذي كـان قد وصل الى هنا بعربة البريد القادمة من دانكيرك » . وذهبا عائديـن الى فندق بوزويل ، حيث كان بوسع دونللي ان يحصل على حجرة لنفسه . ومن الواضح ان بوزويل ودونللي كانا قد التقيـا في دريسدن . امرا لنفسيهمـا بطعام وقنينة كبيرة من النبيذ الجيد ، وتحدثا عن ويكليز وهوراس والبوك اللذيـن كانا قـد قابلاهمـا في باريس . ودخلت تيريز ــ ولم يكن بوزويل يعرف انها كانت قد قابلت دونللي وهي مع روسـو في نيوشاتل ــ ويقول بوزويل : « علي ان اعترف بانني شعرت بغصة لحرارة تحيتها ، وللطريقة التي ظلت تردد بها ان هذه كانت مفاجأة ممتعة» . قرروا ان يتناولوا العشاء معا ، واخذهما ايزموند الى منزل خاص لتناول الطعام . « وعلى مائدة العشاء ، تحدث كثيرا حديثا فاحشا ، ولما لم يبد على الانسة انهـا تضررت من ذلك فقد اشتركت في الحديث ، وشعـرت باختفاء كآبتي وانحراف مزاجي » . ثم عادوا الى فندقهم ، وقال بوزويل مازحا انه يأمل من ايزموند ان ينظر الى لقائهم نظرة بريئة اذا حدث والتقى بروسو في لندن. وحينئذ ، وبالصراحة غير المعقولة التي عرف بهـا بوزويل دائما ، مضى فاخبر ايزموند عن فشله مع تيريز ، وعن كيف شعـر بالانزعاج في مناسبة تالية حتى انـه شرب زجاجة كاملـة من النبيذ قبل ان يذهب معها الى الفراش . واصبح الحديث اكثر ودا وكله جـو من الصداقة الحميمة . وتحدثت تيريز عـن غلظة الانجليز وغبائهم فيمـا يتعلق بفن ممارسة الجنس . وحينئذ صدم بوزويل حينمـا عرض ايزمونـد ان يعرض استاذيته في هذا الموضوع في التو واللحظة . ثم خطر له انه اذا استحـوذ ايزمونـد على تيريز فانه سيحصل على سبب معقول يشعره بالبراءة اذا التقـى بروسو فيمـا بعد ، وهذا فقـد عبرعـن موافقته على هذه الفكرة . وجـاء دور تيريز في اظهار الدهشة وما اصابها من صدمة ، وراح ايزموند يلومهـا ويسخر منها متهمـا اياها بالتصنع وعدم الصدق . وعند ذاك ، قررت انه لن تكون هنـاك جدوى من اخفاء ميلها الحقيقي، ووافقت على ان تكون عمليـا رأيها وتقديرها لقوة ايزموند في فن العشق . قال ايزمونـد لبوزويل :« هيا ياسيدي ، هيا لكي تثبت لها ان

الكلتهم دم الحياة لاوروبا .» قهقهت تيريز ، وكان بوزويل مصمما على ان يبدو في صورة لا تقل عقلانيــة وثقافــة عن صديقه الشاب (وكان ايزموند يصغره بثمانـي سنوات) فاصطحبهمـا الى حجرة النوم.

وما حدث بعد ذلك يتلخص في ان بوزويل وايزموند ساعدا تيريز في خلـع ثيابها . وحينمـا اصبحت في ثيابهـا الداخليـة شرع الرجلان في ملاطفتها . وثبت كل منهمـا فمه على احد نهديهـا (...)

ان وصفه لمنظر ايزموند وتيريز وهما يمارسان الجنس سوف يكـون ــ دون شك ــ نموذجا كلاسيكيـا في مجاله .. وهذا الوصف يستمر لصفحتين اخريين ، ولكـن كان هذا كل مـا استطعت نقله في ذلك الوقت القصير . كانت المرضـة تساعد بيتس العجوز لكي يخلع حقيبة البلاستيك ، ولذلك فقد اسرعت في القراءة حتى اصل الى النهايـة ، حيث يصف بوزويل ، بعد فشله الاول ، كيف استطاع ان يشفي نفسه بمضاجعتها بقوة « باسلوب شعرت بالاسف لانني لم اكن قادرا علـى مشاهدته بنفسي ». وشعر بالرضا الكامل عـن نفسه حينمـا غمغمت تيريز قائلة: « آه ، انه لمصير محزن ان اكون عشيقــة رجل عجوز » . وامضى بوزويل وتيريز وايزمونـد الليلة في نفس الفراش ــ الذي كان كبيرا بما يكفي ثلاثتهم ــ ونظر الثلاثة الى الموقف بطريقـة طبيعيــة حتى انهم كانوا يغرقون في اغفاءة قصيرة يستيقظون بعدهـا لاستئناف ممارستهم للجنس . واخيرا غرق بوزويل في النوم بينمـا كـان ايزموند يحاول اقناع تيريز بأن يأتيها من الخلف ، ولكنه في النهاية قنع بأن يلقيها على ظهرها ثم يصعـد فوقها مرة اخرى . وفي هذه المرة ، شبعت حتى رغبة تيريز التي طال كبتهـا في جواد قوي شاب ، فرقدت مستسلمة في سلبية ، وهي تشهق بضعف ، بينمـا كان بوزويل يمارس الجنس للمرة السادسة « كنت اخر مـن امتلكها تلـك الليلة » كذلك يقول مفاخرا ، ولكنه يضيف :« ولكن عليّ ان اقول ــ للامانة ــ ان دونللي سجل سبع مرات مقابل الست التي سجلتها » . وفي الليلة التالية ، مرض بوزويل بسبب التهاب في معدته ، فامضى الليلة في فراش ايزموند . ويعترف بان قلبه كان قد انصرف تماما عن الاستمرار في تلك المناسبة الرياضية ؛« رغم اننا كنا قد راينـا فتاة صغيرة في نحو الرابعــة عشرة من عمرهـا في دكان الفران ، كانت جديرة بان تلهمني الحياة طوال ما تبقى من ايام الاسبوع » . وفي اليوم التالي قال لهـا ايزمونـد ان لديه عمــلا لا بد ان يبقيه في كاليه عدة ايام اخرى . وبينما تحرك بهمـا القارب عن رصيف الميناء الى السفينة التي كانت ستقلهمـا الى انجلترا ، نظر بوزويل خلفه فرأى ايزموند واقفا على راس الرصيف مع الفتاة ذات الاربعــة عشر ربيعا . ولحسن الحظ فان تيريز لم تلحظهمـا . « بعد العودة الى دوفر في اليــوم التالي (٢) فبراير تمضي يومية بوزويل المنشورة قائلـة : «ذهبـت صباح امس الى الفراش في ساعة مبكرة جدا ، وقمت بواجبي مرة واحدة ، لكي تبلغ اهدافي ثلاثة عشر في مجموعها . وكنت حقـا منفعلا بها في ود صادق .» ولكنه لا يسجل كيف اصبحت اهدافه الصحيحة تماثـــل عدد اهداف دونللي .

التقت عينا بيتس بعينيّ فهز راسه محذرا . كانت المرضة قـد خلعـت

الحقيبة المصنوعة من البلاستيك . اغلقت المخطوطة التي كنت قد انهيت قراءتها لتوي ، ودسست كراسة مذكراتي الصغيرة في جيبي . التقطت كتيبا صغيرا من تأليف روسكين ، وحينما سألني الرجل العجوز عما كنت اقرا قلت انني وجدت هذا الكتيب وانه سحرني . قال حفيده ان علينا ان نرحل الان ، وبدا ان الممرضة توافق على ذلك .

« هل سألني صديقك كل الاسئلة التي كان يفكر فيها ؟»

قلت بتردد : « هناك سؤال واحد اخير ، يا سيدي .عن ايزموند دونللي . . »

« دونللي ؟ من ذاك ؟» .

وضّح كليف من اقصده . قال الرجل العجوز :

« آه ، اجل ، اتذكر الان ، لقد كان عضوا في جماعة العنقاء . . »

« كيف عرفت ؟» .

« دعني اتذكر . . كيف عرفت ؟ آه ، اجل . اخبرني وايز بذلك . قال ذلك في الخطاب الذي اردتك ان تراه . هذه النشرة التي كنت تقراها . . انها ليست بقلم . . . ايا كانت اسماؤهم . انها بقلم شخص اخر ، صديق لدونللي .لا استطيع ان اتذكر اسمه . ان له لقبا » .

« لا يمكن ان يكون هوراس جليني . ايمكن ذلك ؟»

« آه ، اجل . هذا هو الرجل . لورد جليني » .

« ولكن كيف عرف وايز بذلك ؟ »

لسوء الحظ ، تدخل كليف بيتس لانه فسر هذا الكلام على انه هجوم اخر ضد وايز ، وشرع يشن دفاعا طويلا عن صديقه القديم . قررت ان اترك المسألة عند هذا الحد ، الى جانب انني كنت جائعا ، شكرته ووعدته بان ازوره مرة اخرى وغادرت المكان . وفي الخارج قال كليف بيتس معتذرا :

« اترى . ان الولد العجوز ثرثار كبير . »

« هل قرات الصفحات التي كتبها بوزويل والتي كنت اقراها ؟»

« آه ، هل عرفت انه بوزويل ؟ اجل ، بالطبع ، لقد قراتها . اظنها قطعة رائعة من ادب الدعارة . لقد ظللت احاول طويلا ان اقنعه بارسال نسخة منها الى ذلك الرجل الذي يشرف على نشر مذكرات بوزويل . ولكنه لم يوافق » .

« بالطبع . انها ليست ملكه » .

« االنت واثق ؟»

لخصت له قصة اوراق بوزويل . قال :

« انه يزعم دائما انه اشتراها مقابل خمسة جنيهات ، ويقول ان لادي كاليوت راتها بالصدفة ذات يوم وطلبت من زوجها ان يحرقها . فقال انه سيفعل ذلك ، ولكنه وافق على بيعها الى جدي مقابل ورقة بخمسة جنيهات » .

« ربما كان هذا صحيحا . هل لديك المزيد من اوراق بوزويل ؟»

« كلا على قدر ما اعلم . هذه هي الاوراق الوحيدة التي رأيتها » .

كان المطـر قد بدا يهطل حينمــا توقفنا بالسيارة في مقابل فندق شيلبورن . قلت ـ بطريقــة تقليديــة :

« اشكرك لاصطحابي اليه . انه رجل عجوز لطيف » .

« اوه ، انه على مــا يرام . انـك لا تعرفه » .

عجبت لهذهالاجابة ، ولكني قررت الا اضغط عليه . فلم تكن هناك حاجة الى ذلك . وحينما جلسنا في البار رحنا نحتسي بعض النبيذ الاحمر ، قال :

« يحق لي ان اتخيل ان جدي واحد من الشخصيات التي تمثل اسوا تركيبــة من الخصائص المتضاربة التي يمكــن ان تجدها في دبليــن فيهذه الايام . انـــه ـ اولا ـ كذاب . لقدتظاهــر بانه لم يعرف اسم دونللي . هراء .انه يعرفه مثلمــا تعرفــه انــت . .

« اذن لمــاذا . . . »

قاطعني قائلا : « وهو ثانيا ، ربمــا كــان اصفر رجل في ايرلنــدا . . . » وطوال الدقائق الخمسالتاليــة راح يضرب لي امثلة على حقارة جده ووضاعته كانت بالتأكيــد مقنعــة تمامــا . وربمــا كان الرجل نموذجــا مـــــن الانماط الايرلندية ، لان مانسيورين ، يصف شخصا يماثله في بدايــة روايته « ميلموث الجوال » ، ويرجــو هذا الشخص متوسلا وهو يلفظ انفاسه الاخيرة ، ان يدفن في مقبرة من مقابر الصدقــة المخصصة للفقراء . ثم تلت ذلك قصص عن عدمامانة جده . « ثم هنالــكتلــك الفتاة المسكينة التي ترعاه . انها مــا تزال طالبة فــي معهــد التمريض ، ولذلك فانه لا يكــاد يدفع لهــا شيئا . ولكنه يقنعهــا بــأن تنــام معه مقابل وعده لهــا بأن يترك لها مالا في وصيته . وهو بالطبع ما كـــان يحلــم بهــذا ».

دهشت وسألته : « !انت واثق من هذا ؟ » فان الرجل لم يكــن يبدو علــى صحــة كافيــة لكي ينجــو من آثار حلم جنس ».

« بالطبع . ان الفتاة تنــام معي في ليلة عطلتها » .

كنت قد بدأت اشعــر بالانقباض . كان كليف بيتس يصف خطايا جده واخطاءه في تشف وحقد شعرت بأنهمــا على شيء من الوحشية .

« لماذا لم تخبرهــا بان الرجل لا ينوي ان يترك لهــا نقودا في وصيته ؟»

غمز بعينه وقال:« انها قد تتركه . وهذا لن يفيده .ولن يفيدني » .

اقترحت ان نأخذنبيذنــا معنا الى حجرة الطعام . قال :

« هل تمانع في تناول الطعام في البار الطويل بالطابق الاسفل »؟

« كلا . اذاكنتتفضله».

وجدنا مائدة الى جوار النافذة المطلة على الشارع . سألته :

« من هو وارث جدك ؟»

« اعتقد انني الوارث » .

« اذن لمــاذا تحتقره الى هذا الحد ؟ »

« ليس لهذا علاقة بذاك . انه خنزير عجوز . وانا على اي حال لست بحاجة الى نقوده .انني ميسور الحال تماما . وربما كان هذا هو السبب الذي سيدفعه الى ان يجعلني وارثه . انجيم ، ابن اخيه ، جيم هيرد ، يحتاج اليها أكثر مني . »

قطع كلامه فجأة واطل من النافذة . كان المطر ما يزال يهطل ، وكانت طفلة تبدو في صورة تنظر الينا . نظر احدهما الى الاخر ، ثم ابتسم لها . سألته :

« اتعرفها ؟ »

« كلا . » ولكنه مع ذلك كان يشير اليها باصبعه . هزت راسها رافضة . قام وخرج اليها . توقعت ان اراها تختفي قبل ان يصل اليها . ولكنها وقفت في مكانها ، تبدو مقرورة باردة مبتلة ، تكاد تكون زرية المظهر . قال لها شيئا ما ، هزت راسها علامة الرفض . ثم اخذها من كتفها ، واجبرها على السير امامه . بعد لحظة كانا قد عادا الى مائدتنا . قال :

« انك لن تنزعج اذا انضمت الينا . اليس كذلك ؟ »

قلت انني لن انزعج . ولكنني كنت اكثر اهتماما بما ستشعر به ادارة المحل . كانت اكبر سنا مما بدت عليه من وراء الزجاج . اربعة عشر ، او خمسة عشر عاما ، تقريبا . كان شعرها مرفوعا على شكل ذيل فار ، وكان انفها يرشح من البرد ، وترتدي سترة قصيرة ذات كتفين منتفخين وليس فيها سوى « زرار » وحيد . كان المط قد رسم خطوطا على ما تأصل فوق وجهها من اوساخ ، وكانت تبدو كمن لم يغتسل منذ اسبوعين ، ولكي اكون امينا ، فقد لاح لي ان المطر كان سببا فيما فاح منها من روائح اكدت تلك الحقيقة . سألها كليف :

« ما اسمك ؟ »

« فلورنس » .

« هل يدعونك فلو ؟ »

« اجل »

كانت لهجتها لندنية قحة Cochsney جلست في مكانها ، تحك يديها الباردتين الواحدة بالاخرى ، فتبدو صورة مجسمة للبؤس . كان النادل ينظر الينا في اشمئزاز رافض ، وظننت ان مدير المحل كان على وشك ان يأتي الينا ليطلب منا مغادرة المكان فقد كان يحملق فينا بقوة . قال كليف :

« اتودين ان تأكلي بعض السمك والبطاطس المقلية ؟ »

اومأت براسها ، ولكنها ظلت تبدو مخدرة من البرد فاقدة الحياة . نادى كليف على النادل ، وامره بأن يأتي بما ارادته الفتاة بطريقة ظهر عليها الافتعال وتصنع الكبرياء . كانت مشاعري مختلطة غير واضحة . اذا كان قد دعاها الى الدخول بدافع الشفقة او العطف اذن لكنت اوافق ، رغم انني كنت سأفضل اصطحابها الى مكان اكثر هدوءا وعتمة . ولكنه كان شخصية من نوع غريب ومعقد حتى انه كان من الصعب التأكد من دوافعه . ظننت ان الفتاة بدت غير مستريحة غريبة عن المكان الذي دخلته . واخيرا اقترحت انه من الافضل ان نصعد الى حجرتي ، على ان نطلب ارسال طعامها الى هناك .

« كلا ،كلا. ولماذايجب علينـــا ذلك ؟ اننا على ما يرام هنا » .

كنت جالسا الى جانب الفتاة ملاصقا لها .وكنت افضل لو انني كنت اقـل قربا . اخذت سترتهـا منهـا لكي‌اعلقها على المشجب ، ففاحت منها رائحـة جهلتني اظنهـا قد وجدتها على كومة من القمامة بعد ان كانت قد استخدمت في تجفيف بعض السمك . ان‌لي‌انفا حاسا الى درجـة غير عادية ، ولكن حتى رغـم ذلك ، فان السترة لم‌تكـن شيئـا عادلا بالنسبة لجيراننا على الموائد القريبة .

كانت الوجبة واحدة من اكثر ما عرفته بعدا عـن الراحة او المتعة ، فطلبت زجاجة اخرى من النبيذ في‌محاولة نسيان مـا شعرت به من حرج . لم استطع‌ان افهم السبب الذي جعلها توافق‌على‌الدخول . كانت تجيب على الاسئلة بكلمـات مفردة في خشية واضحة من ان ترفع صوتها ، وقد جلست في وضع متجمدمقيد، كما لو كانت تتداخل في‌نفسهـا لاحساسها المستمر بالبرد . وبدا كليف كما لـو كـان مستريحـا لهذا الجـو .راح يتحدث بصوت مرتفع وبابتهاج واضح، .وهو يقص علي حكايات عن مهرجان كان السينمائي ، وعن اخر افلام برجمان ؛ وهـي حكايات لم تستطع ان تثير لدي اقل قدر من الاهتمام . حاولت ان اتحدث الـى الفتاة ، ولكـن كان واضحـا انهـاتفضل لو تركت لشأنها . شعرت براحة اكبر حينمـا غادر جيراننـا على المائدة المجاورة المكان . وحينما وصل سمكهاوبطاطسها المقلـي ، اغرقتهمـا بالخل .والطماطم المحفوظة ، فاصبحت رائحتها هي السمكية الرطبة اقل ظهورا . رفضت الفتاة ان تتناول شيئا مـن الحلوى ، الامر الـذي شعرت له بالراحـة والغبطـة .كنت قـد نويت ان اضيف الوجبة كلها الى‌حسابي في الفندق ، وبدلا من هذا دفعت الحساب نقدا وتركت للنادل هبة كبيرة .لم اشعر بالرغبة في الظهور بمظهر نزيل‌الفندق .

قال كليف بأقصى ما يملكه صوته من ارتفاع وارستقراطية :

« حسنا ، اذا لم تكن ستتناول المزيد ، فيمكننا ان نذهب الى مسكني لنتناول شيئا مـن الشطائر بالجبن !»

كنت بالغ السرور بانتهاء تناول الطعام ، فلـم اعترض . الـى جانب انـي توقعت ان تتركنـا الفتاة بعـد هذا. كـان منظر وجهها التعيس يجعلني كئيبا . ولم تكن سعادة النادل بالهبة الكبيرة سوى نصر ضئيل .

وفي‌الخارج قال كليف :« حسـنا . انني لا اعرف كيف سنحشر جميعا فـي سيارتي ذات المقعدين »

ظننت ان هذه الجملة كانت ايحاء مؤدبا للفتاة بالانصراف ، ولكنهـا ظلت واقفـة في مكانها . قال :

« اوه ،حسنا،سنرتب‌هذا الامر .تعاليا . » وجذب ذراعها بقوة . قلت :

« الا يتوقع والداك عودتك الى البيت ؟»

هزت كتفيها بلا مبالاة وقالت : لا ــ اه ! »

في السيارة البورش جلست على ركبتي . في هذه الزنزانة المقفلة . وقد طلب مني كليف بيتس الا افتح النافذة . كانت الرائحة السمكية اكثر قوة . كان

عليها ان تضغط بظهرها علي لكي تدخل ركبتيها في مساحة الفراغ الضيق. ربت كليف على ركبتها وهو يقول : « سنكون في البيت حالا ــ او هو ــ هناك ثقب . . هنا ــ » وكان يشير الى جواربها . ثم غمز لي بعينه وقال : «احسدك!» . نظرت اليه بدهشة قليلة . من المؤكد انه لم يكن يستطيع ان يرى في هذه الطفلة المبللة ذات الانف السائب موضعا للرغبة الجنسية ؟ ربما لم تكن لديه حاسة للشم ؟ »

بدت لي سلبيتها نوعا من الشذوذ . حينما توقفنا امام شقته توقعت منها ان تبدي شيئا من المعارضة . فكيف لها ان تعرف على اي حال اننا ــ نحن الاثنين ــ لا ننوي اغتصابها ؟ ولكنها وقفت في مكانها دون ان تبالي بشيء، حتى اخذ كليف بذراعها وقادها نحو الباب.

بدت تاكثر غربة وشذوذا في هذه الغرفة الجيدة التأثيث . القت بسترتها فوق الاريكة ،ثم ذهبت فقبعت متداخلة بجانب المدفأة ، وبدت غير مهتمة على الاطلاق بكل ما يحيط بها . قال كليف :

« فلنسمع بعض الموسيقى ، ما رايكم ؟هل تعرف كانتاتا جيمس اوزوالد المسماة عربة التراب ؟ عليك ان تعرفها . انها ممتعة ». تساءلت بيني وبين نفسي ان لم يكن في هذا الاختيار تعريض ساخر بالفتاة ، ولكنه اخرج اسطوانة موسيقية تحمل هذا الاسم بالفعل ، ووضعها على الحاكي. عرض عليها ان تشرب كأسا ولكنها رفضت . اخرج الجبن والشطائر والزيتون المحشو ولكنها رفضتها ايضا . غير انها حينما قدم اليها علبة كبيرة من الشطائر الجاهزة المحشوة اخذتها دون ان تنبس كلمة واحدة ، وجلست تلتهمها . وقد باعدت ما بين ساقيها امام النار ، وراحت تسقط نثار الشطائر فوق مقعده الحديث ذي المسندين وعلى البساط الابيض الفاخر . اتخذت مقعدا على الجانب الاخر من المدفأة ،ولكن كليف جلس بالقرب منها . بدات اتساءل ان كانت قد سكرت . ولكن وجهها الصغير الحاد ظل على لامبالاته الكاملة ، ولم يكن حتى ينم عن الكآبة . وحينما كان يتحدث اليها كانت تجيبه اما بكلمات مفردة ؛ واما ان تهز راسها او تومىء به . وبعد ان التهمت عدداهائلامن الشطائر الصغيرة طلبت شيئا تشربه . ذهب الى المطبخ وجاءها بزجاجة من الكوكاكولا وانبوبة لامتصاص اشراب . وحينما انتهت كانتاتا « عربة التراب » قالت دون ان يبدو في صوتها الاهتمام الشديد: « لماذا لا تضع شيئا من الموسيقى اللطيفة». اخرج اسطوانة من موسيقى مانتوفاني وفرقته، وبدا ان هذا الاختيار قد ارضاها ،ثم انها لم تقل شيئا .

لم اعرف ان كان يأمل ان اقوم انا فأنصرف لكي اتركه معها بمفرده، ولكن حينما قلت ان الوقت قدتأخر،عارضني على الفور ، واضاء جهاز التليفزيون لكي نشاهد نشرة الاخبار . جلست في مكاني ، ارتشف كأسا من البراندي ، عارفا بانني سرعان ما سأشعر بالسكر ، ومع ذلك فقد كنت اشعر كما لو كنت لم اشرب سوى الماء طول النهار .

بعد نشرة الاخبار كان هناك برنامج عن الاضطرابات السياسية في شمال ايرلندا . ربت كليف على ذراعي واشار الى الفتاة . كانت نائمة . قال برقة :

« انهــا لطيفة. الا تظن ذلك ؟» وجدت انه من الصعب ان اعثر على اجابة مناسبة. واخيرا قلت : « انها بحاجة الى حمام جيد » . بدا عليــه الحزن بشكل غير متوقع، وغض بصره وقال:« اجل ، المسكينــة ... »

« الا تظن انه يجب عليك ان تأخذها الى البيت ؟ الا يمكن ان يثير والدهــا بعض المشاكــل ؟»

« اوه ، لا اظن ذلك . يمكنها ان تنام هنا اذا ارادت ذلك »

سلمت دون مزيد من المعارضة . كان يعرف ما يفعله خيرا مني .

كانت قد غرقت في النوم واضعــة احدى ساقيهــا فوق احد مسنــدي المقعد ، ومدت الساق الاخرى امام النار. غيرت وضعها بعض قليل فانــزلق ذيــل ثوبهــا قليــلا فوق ركبتيها .ابتسم كليف في وجهي ، وانحنى الى الامام وصوّب نظرة قريبة فوق ذيل الثوب .توقعت ان تستيقظ ولكنها لم تتحرك . التفت اليّ وقــال : « انظر » ولكني هززت راسي قائلا :« كلا ، اشكرك » . تظاهر بانه يريد ان يطلعني على شيء هام، فغيرت وضعي ونظرت الى ما فوق ذيل الثوب . كان الجوربان السميكان مليئين بالثقوب والشقوق .كانت ترتدي سروالا طويــلا مصنوعا من القطن، ولكنه كان ممزق « الحجر » بشكل سيء حتى انه لم يكــن يخفي شيئا . ابعدت عيني سريعا ــ ليس بدافع الترفع او اللامبالاة ، وانمــا لانني كنت سأشعر بخجل شديد لو انهــا فتحت عينيهــا في تلك اللحظة .قلت :

« مــاذا في ذلك ؟»

بدا عليه الحزن والتفكير مرة ثانية .

« من الواضح انهــا تنتمي الى اسرة فقيرة ، فلا عجب انها ليست نظيفــة جــدا » .

لمس كتفها وقال : « اتريدين النوم هنا ؟» . جفلت ولكنها لم تفتح عينيها ، وفجاة اصبحت عاجزا عــن معرفة ما اذا كانت تتظاهر بالنوم . تحســس قماش ثوبها وقال :« ستصاب بنزلة برد اذا ظلت بهذه الملابس » . نهض واقفا ووضع يــدا تحت ذراعهــا ويده الاخرى تحت ركبتيها، ورفعهــا . حركت راسها وقالت شيئا . خطر لي الان انهــا امــا ان تكــون تتظاهر بالنوم او انه قد وضع شيئا في المشروب الذي تناولته . فاذا كــان ذلك قد حدث ، فلا بد انه استخدم مادة هايدريت الكلور، فهي وحدها القادرة على انتاج هذا الخدر الكامل .

تبعته الى حجرة النوم ــ وكان من الغباء الكامل ان اساله عما كان يفعله . كانت الحجرة مريحــة ودافئــة. وضعهــا على حافة الفراش الكبير ، ثم خلــع حذاءها، ثم بحث حول الخصر حتى عثر على الزمام . سألته : « أهذا تصرف حكيم؟» قال :« انني لا انوي ان اضعهــا في فراشي بهذه الملابس . لقد قلت بنفسك انها متعفنة .» عثر على الحزام فجذبه وفتحه بعنف ، ثم جذب الثوب النصفي فخلعــه من قدميهــا . لم تكــن ترتدي قميصا داخليا . لا شيء سوى الجوربين الممسوكين بزوج من دوائر المطاط ، والسروال الداخلي الذي كــان رباطه المطاطي بعيدا تقريبا عن خصرها . قال : «جسد صغير جميل». وكان في هذا شيء من المبالغــة . كانت

نحيفـة ، والبطـن الصغير كان مسطحا لدرجة ان عظمتي الردفين برزتا بوضوح: امسك بطرف الصدار الصوفي الخفيف ،وكان ذا لون اخضر شابه لون الطيـن والتراب ــ ورفعه ، ثم حركهـا فقلبها علـى جنبهـا حتى يستطيع ان يجذبه من فوق راسهـا . كانت ترتدي حمالة صدر كانت بيضاء ذات يوم ، وكانت اشرطـة الحمالة على ظهرها موصولة بقطعـة من المطاط الاسود الى بقايا القماش بطريقة خشنـة . وقطع شريط المطاط باظافره . كان النهدان الصغيران مسطحين ولـم يكتمل نموهما .نظر اليّ وقال :

« هل سننالهـا ؟»

قلت على الفور :« كلا . دعها وشأنها ».

مد يده فجأة ووضعهـا على مقدمة بنطالي فقفزت الى الخلف كمـا لو كان قد ضربني .ابتسم وقال :

« لا يمكنك ان تتظاهر بأنك غير مستثار » .

كبحت رغبتي في ضربه وقلت : « لماذا لا تضعها في الفراش ثم تتركهـا لكـي تنـام ؟»

« كلا . سيخيب املها ».

كانت مشاعري مختلطة وغامضة . كنت واثقا من انها مستيقظة . ولكن اذا لم تكن ، فانني كنت سأعتبر شريكـا في اغتصابها . كنت سأعتبر شريكا على اي حال ، طالما انها لم تبد اي نوع من الاستجابة . انحنيت الى الامام وقرصت كتفها. لم تتحرك . كان كليف بيتس في تلك اللحظة يقهقه بطريقة غير عاقلة . قبض على نهدها باصابعه وقال :« قولي له انك مستيقظة يا حلوة » . انحنى الى الامام كمـا لو كان يريد ان يقبلها ، ولكنه اخذ شفتها السفلى بين اسنانه وعضها (..)

اقترب مني وامسك ذراعي.وما زال انتصابه ظاهرا ، ووجدت انه مـن الصعب ان ابعد عيني عنه. قال متملقا :

« لقد اديت لك خدمة اليوم. اسمع ، حينمـا يموت الرجل العجوز ، سوف ارث كل ما لديه من مخطوطات . وسوف اسمح لك بان تأخذ مـا تشاء .»

« ذكرني الموقف فجـأة بالكولونيل دونللي ، وكان هذا اكثر بكثير مما يمكـن ان احتمـل ، قلت :

« اسمع ، اذا كنت تريد ان تنالها ، فاذهب وافعل ما تشاء . انني لن امنعك، ولكنني لا اريد مشاركتك في هذا . وانا لا اريد ايضا ان احممها » .

قلت ذلك بسرعة لانني استطعت ان ادرك انه كان يرمي الى اقامة حفل جنسي ثلاثي الاطراف .

« الن تنصرف ؟»

« كلا . سوف انتظر .»

« سأترك الباب مفتوحا ». ثم اندفع الى حجرة النوم ، فرايته يقذف بنفسه فوقهـا مرة اخرى (...) ذهبت فعثرت على زجاجة من النبيذ في صوان مشروباته فصببت لنفسي كاسا كبيرة . ولم تدع الاصوات القادمة من حجرة النوم مجالا

للشك في انه كان يستمتع بها . وكانت تتخللها انات وتعليقات مثل :« أوه، اوو ، ايتها العاهرة الصغيرة.. » .واخيرا توقفت الاصوات . مضيت في تناول الجبن والزيتون،مع قراءة نسخة من كتاب وايت :« اخوة الصليب الوردي »وجدتها على احد ارفف الكتب .بدات اشعر بالنعاس . سوف يكون من الكذب ان اقول انني لم اكن مستثارا جنسيا الى حد ما . كانت سلبية الفتاة المطلقة قد اثارت فضولي ، وان ما تشعر به من فضول ازاء فتاة لقريب جدا من الرغبة في انتخلع لها ملابسها .واذ جلست على المقعد ذي المسندين الذي كانت تجلس عليه ، تذكرت سروالها الداخلي الممزق واعضاءها التناسلية المكشوفة وتجدد الشبق. كنت جديرا بان امارس معها الجنس فيظل ظروف مختلفة . ولكن ما اضعف من عزيمتي كانت شخصية كليف بيتس ، ومحاولته لدفعي الى مشاركته فيعملية بدت لي كالاغتصاب .

كانالوقت قد تجاوز منتصف الليل وفكرت في العودة الى فندقي ، ولكنني سمعت صوت حركات صادرة من حجرة النوم،ولم ارفع عيني لانظر ما يجري. ثم رايت كليف بيتس واقفا على بساط صغير عند باب الحجرة ، عاريا ، حاملا الفتاة بين ذراعيه مرة اخرى .

« لقد جئتك بها مرةاخرى ».

« هذا عطف منك،ولكنعلي ان ارحل »

« اوه ، لا.لا ترحل » ركع على ركبته ،ووضعها على البساط المصنوع من جلد حيوان ابيض عند قدمي . كانت هي الاخرى عارية كما ولدتها امها الان ..ثم خرج من الحجرة .

انحنيت فوقها ولمست ذراعها .قلت:« اانت مستيقظة ؟» . لم تصدر عنها حركة. كان صوت المياه الجارية يأتي منالحمام، .وبعد دقائق خرج كليف بيتس منهناك، حاملا اناء من البلاستيك الاحمر يتصاعد منه البخار .

« ماذا تفعل ؟»

كان الماء معطرا . أخذ منه اسفنجة استحمام ، وعصرها ،ثم دعكها بصابونة كبيرة معطرة بعطر الليمون . وبدأ يغسلها بعناية ، متجاهلا ما جرى على البساط من ماء ، ثم اخذ منشفة وجففها (...) ثم رفع عينيه نحوي وقال : « هاكهي، لا يمكن ان تكون انظف من هذا »..

« ان كل ما تحتاجه الان هو بعض الثياب النظيفة » .

« اوه ، اظن اننا نستطيع ان نرتب ذلك » .

نهض واقفا وقال :

« هاك هي ، انها ملكك ..

استدار وذهب خارجا من الحجرة ، واغلق وراءه باب حجرة النوم . كان هذا نوعا من الاغراء ، كانتمراقبتي له وهو يلاطفها بالاسفنجة قد جعلتنيانتصب. انحنيت فوقها ولمست نهديها .كانا باردين . خطوت فوقها .واتجهت الى خزانة الكتب ، ثم خطوت على اطراف اصابعي نحو باب حجرة النوم وجذبته فانفتح.

سمعت صوتا خافتا ووجدت كليف بيتس جالسا على البساط ،وقد بدا عليه الانزعاج . قلت : « معذرة . انما اردت ان آخذ شيئا اغطيها به . « واتجهت الى الفراش ، واخذت غطاء ثم عدت ثانية الى الفتاة الراقدة على البساط امام المدفأة . وبينما كنت اغطيها ظننت انني رايت ابتسامة على شفتيها .

سمعت صرير قفازات السرير في الحجرة الاخرى . جلست وفتحت كتاب وايت على فصل « الصلب الوردي » .ثم غلبني النعاس ولا بد انني نعست فعلا. استيقظت حينما انزلق الكتاب من فوق ركبتي . نظرت الى الساعة ، كانت في الثانية والنصف . فجأة ،جلست فلورنس ، ونظرت الى الغطاء الذي غطيتها به .

« كان هذا شيئا لطيفا منك ».

« عفوا » .وكنا كلانا نتحدث بصوت منخفض .

قالت : « حسنا ،اظن ان من الافضل لي ان ارحل »

« بهذا الشكل ؟»

« كلا .»

عبرت الحجرة واتجهت الى صندوق اثري مليء بالادراج في احد الاركان، وجذبت احد الادراج ففتحته. بدات في القاء الملابس الداخلية على الارض . فتحت الدرج الاخير ، واخرجت زوجا من الاحذية .

قلت : « لقد جئت الى هنا من قبل؟ »

« آخذ حماما مرة واحدة في الاسبوع ، في المتوسط » .

ودون ان يبدو عليها الحرج ارتدت مشدا ذا حزام ، وقد بدا هذه المرة جديدا ومن طراز حديث . ثم ارتدت جوربين. ارتدت بعد ذلك سروالا داخليا ، ثم حمالة صدر : طلبت مني ان اربط خطافها . زحفت نحو باب حجرة النوم ونظرت داخلها ، ولكن لم يكن هناك شك في هذه المرة في ان كليف بيتس كان غارقا في نوم عميق . كانت فلورنس قد ارتدت قميصا داخليا دون صدر صنع من النايلون من نفس لون حمالة الصدر والسروال الداخلي، وقد بدا غالي الثمن لعيني غير الخبيرتين . ذهبت الى صوان قريب من الباب واخذت حقيبة طويلة من البلاستيك كانت معلقة على مشجب في الصوان،اتضح انها كانت تحتوي على حلة خضراء اللون كالليمون مكونة من قطعتين . اتجهت الى المرآة المعلقة فوق المدفأة ومشطت شعرها بفرشاة اخذتها من الدرج . كان شعرها الان جافا ، وبعد ان مشطته بدا اللون الاحمر الذهبي نفسه الذي رايته في مكان آخر . زينت وجهها بضربات قليلة من احمر الشفاه وبعض البودرة التي نثرتها بقطيفة صغيرة على صدغيها. حينما التفتت الي لم اكد اتعرف عليها . كانت ما تزال تبدو صغيرة السن ، ولكن كان يمكنني الان ان اقدر عمرها بعشرين عاما . كانت قد ارتدت الملابس الجيدة التفصيل كما لو كانت معتادة عليها .

« مستعد ؟»

« ايه .. اجل » .

من صوان البهو اخرجت معطفا كله متناسبا مع الحلة ، ومظلة من نفس اللون.

واخيرا وضعت قبعة حمراء صغيرة على راسها . اطفأت المدفاة الكهربائية ، ثم اطفأت النور ، وخرجنا ،واغلقنا الباب وراءنا بهدوء .

سالتها :« اين تقيمين »؟

« اوه ، لن اعودالانالى البيت،انت تقيم في شيلبورن ؟»

« اجل ».

« ساعود معك الى هناك لارى ان كانت لديهم حجرة لي. لا يمكن اناتحمل مشقة الخروج الى مالاهايد ».

كانت لهجتها ماتزال لندنية بوضوح،ولكنها لم تعدلهجة الكوكني(سوقةلندن).

كان المطر قد توقف ، فسرنا في الشوارع الخالية . سالتها ان كانت تعرف جد كليف بيتس .

« اوه ، اجل.انه كان يعيش في مالاهايد . وهناك قابلت كليف . والولد العجوز لا يقل عنه سوءا » .

« باي شكل ؟»

« انه يحبهن صغيرات .كان من عادته ان يناوشني حينما كنت فيالعاشرة».

بدت راغبة تماما في الحديث ، وتكلمت بطريقة تلقائية ، واحيانا بطريقة تشبه اسلوب رجال الاعمال ،وليست كمن تبوح بدخيلتها او تكشف عما بنفسها. كان كليف قد اغواها حينما كانت في الثانية عشرة ـ اي انه عرض ان يعطيها ما يكفي من النقود لكي تشتري دراجة غالية اذا هي جاءت الى حجرته بعد نصف ساعة من انصرافها منالمدرسة لعدةايام . كانت ابنة غير شرعية لامراة تعملسائقة سيارة عامة ، وكانت ترتدي ثيابا سيئة ولا تتناول ما يكفي من الطعام . كان من الواضح تماما ـ رغم انها لم تصرح بذلك بوضوح ـ ان ما جذب كليف اليها هو انفها السائب وثيابها الممزقة .كان فقدها لعذريتها صدمة مؤلمة . وكان كليف يعاملها معاملة طيبة جدا ،فلاطفها وهداها ، وجعلها تشعر بالثقة والامان .وذات يوم ، بعد ان خلع ثيابها بعناية ودلكها بزيت الزيتون ، انقض عليها بكل قوته وازال بكارتها بضربة واحدة عنيفة . صرخت وبكت لمدة نصف ساعة ، حتى خرج من المنزل واشترى لها الدراجةالتي كانت تريدها منذ وقت طويل . واستمرت مواعيد لقائها معه في حجرته ، وسرعان ما اشترك معهما الرجل العجوز ، كانا يدفعان لها نقودا كثيرة ، وتحدث الرجل العجوز مع امها عن تبنيه لها . كانت الام تعرف ما يجري بالطبع، ولكن النقود كانت اكثر من ان ترفض .

كان اعتراض كليف الوحيد هو انها تنفق على الملابس اكثر مما ينبغي . كان جزءا من خياله الجذاب انها يجب ان تظل مشردة مهلهلة الثياب . وكان قد اعتاد ان يتسكع امام محلات الثياب المستعملة لكي يشتري لها ثيابا مهلهلة قذرة. وكانت هذه الثياب تصلها بالبريد ، مع بطاقة صغيرة يخبرها فيها انتقابله، وفي اي وقت . كان عليه ان يمثل دور من يلتقط فتاة من الشارع ، وكانعليها ان تتصرف كما لوكانتلم تره من قبل ابدا . وكلما كان في مقدوره ، كان ياتي معه بشخص اخر ،ثم يقوم بتمثيل مشهد الاغتصاب العجيب الذي شاهدته بنفسي.

سألتهـا ان كان اصدقاؤه قدقبلوا ان يمتلكوها بناء على دعوته بينمـا تكون هـي غائبة عـن الوعي بشكل واضح . قالت :

« اوه ، اجل انك الثاني ــ الذي يرفض ذلك».

« فماذا يحدث حينذاك ؟»

« انك،انك جـدير بان تدهش . احيانا تبلغ بهم الاستثارة حدا كبيرا حتى انهم يستمرون في تبادل الفرجـة طول الليل . فاذا كنت سعيدة الحظ ، انشغل الرجلان احدهمـا بالاخر وتركاني وشأني ».

« اذن فان كليف شاذ جنسيا ؟ »

« اوه،انه كل شـيء »

لاح لي ان كاتب الفندق كان يعرفها . اخذت منه المفتاح ، وصعدنا الى الطابق العلوي معا . وفي الطابق الثاني،حيث كان يجب ان نفترق ، قالت :« هل آتي اليك واتحدث معـك؟ » عرفت ما كانت تعنيه قلت :

« اظـن ان عليك ان تنالي قسطا من النوم ، لقد قضيت ليلة متعبة ».

ابتسمت في وجهي وقالت :

« انك لطيف . لن يهمني التعب . . »

وقفت على اطراف اصابعها واحاطت عنقي بذراعيها . قبلتهـا وشعـرت بنبضة شبق مفاجئة .

قالت : « ليلة سعيدة » . ثم سارت مبتعدة في الدهليز . كبحت رغبتي في متابعتها ، وذهبت الى حجرتي . وقبل انادخل الفراش ، تناولت ستة اقراص من فيتامين «ب» وشربت كأسا من الماء . ولكـن هذا لم يؤد الى النتيجـة المرجوة . استيقظت في الصباح بفم جاف وراس يدق ويلف كالمحرك او مولد الكهرباء .

قدحان من القهوة وبعض قطع الخبز الجاف بالزبد جعلتني اشعر بمزيد من الانسانية . جلست في الفراش ،اقرأ صحيفة الصباح ، واتساءل ان كانت الرحلة الى قلعة مالاهايد يمكن ان تساوي ما سوف يضيع فيها من وقت وطاقة ، ولكـن الاغراء كان اقوى بأن اضع الورقة التي كتب عليها « لا تزعجني » على باب حجرتي من الخارج ثم انام مـا تبقى من ساعات الصباح . دق جرس التليفون ، فكان مثل محراث دائري يغوص في تربة تركيزي الهشة . تساءلت بيني وبين نفسي وانـا ارفع السماعـة ان كـان المتكلم هو كليف بيتس ، وشعرت باغراء يدفعني الى وضع السماعـة في مكانها دون اناجيب . دق الجرس ثانية ، فرفعت السماعـة . سمعت صوت رجل يقول :

« مستر سورم ؟ »

« انه يتكلـم » .

« انا الستير جليني . هل كتبت اليّ رسالة ؟»

قلت : « يا رحمة السماء . كيف حالك ؟ جميل منك ان تطلبني ».

« اخبرتني زوجتـك بأنك تنزل في فندق شيلبورن . اسمع ، ما الفرص

المتاحة لقدومك الى لندن ؟»

« هذا ممكن . ما الذي تفكر فيه ؟»

« هذا شيء اطول من ان اشرحه في التليفون ، ولكنني مسحور اللب تماما بكل هذه الحكاية عن دونللي ..وانلدي فكرة عن احتمال قدرتي على مساعدتك. هل تعرف ان قصر جلوسبي قد بيع ؟»

« كلا . لم اعرف بذلك » .

« اخشى ان يكون هذا هو ما حدث ، منذ عامين . لقد تنبأوا بخطابك . كان اخي الاكبر قد قتل في سويسرا ــ غرق في حادث قارب . واكتشفنا ان اوضاعنا اكثر تعقيدا مما كنا نظن ــ ضرائب التركات وما الى ذلك ــ مع اننا قررنا ان نبيع قصرجلوسبي . اشتراه رجل من كندا يدعى ميللر . اعرف ان هناك ادراجا ضخمة مليئة بالاوراق . وهي ما تزال ملكي بالطبع . »

« هل حاولت الاقتراب منها ؟ »

« أوه ، اجل . هذا الرجل ميللر ، شخص لطيف تماما . لو استطعت المجيء الى لندن لامكننا ان نذهب معا الى هناك . »

فكرت بسرعة ثم قلت :

« متى ستكون خاليا من العمل ؟ »

« اي وقت . انني لا اعمل الآن . »

« لو انني اخذت طائرة الى لندن اليوم ، هل ستكون خاليا ؟ »

« أوه ، اجل ، بالتأكيد . سأسعد لرؤيتك . »

اخذت رقم تليفونه ، وقلت له انني سأتصل به ثانية . وانهيت المكالمة . اتصلت اولا بالمطار فعرفت ان طائرة من شركة « اير لينجوس » ستطير الى لندن في الثانية عشرة وخمس وثلاثين دقيقة ، وان علي ان اكون في المطار قبل ذلك بثلث ساعة لكي احصل على تذكرتي ، فأكدت لهم انني حجزت التذكرة لنفسي ، ثم اتصلت بمكتب الفندق ليعدوا قائمة حسابي . اتصلت بديانا بعد ذلك ولكنني لم اجد غير موبسي التي كانت في رعاية المراة التي تاتي لتنظيف المنزل بينما خرجت ديانا لتصفيف شعرها . قلت لها ان تقول لامها انني ساطير الى لندن وانني سأتصل بها فيما بعد . ثم اتصلت بالستير جليني مرة اخرى ، وقلت له انني سأكون في مطار هيث رو في الواحدة وخمس واربعين دقيقة . كنت في عجلة من امري ، وراح رأسي يدق محذرا ، ولكنني اتخذت موقفي النهائي ، وصعدت الى الطائرة قبل خمس دقائق من اقلاعها . نعست قليلا خلال الرحلة ، وصحوت فجاة بينما كان الطيار يعلن هبوطنا .

في مبنى المطار اعلن صوت في مكبر الصوت عن اسمي وعن طلبهم لي ان اذهب الى مكتب شركة « ايرلينجوس » للطيران . ذهبت الى هناك ، فوجدت في انتظاري شابا طويلا اشقر الشعر .

« مستر سورم ؟ انا الستير جليني . »

كان اصغر سنا مما توقعت ــ لا يكاد يكون قد انهى عقده الثاني . كان شعره طويلا ، وكان بنطاله « البلوجينز » وسترته المصنوعة من جلد الحمار ابعد ما كنت اتوقع ان اجده في نطاق هذا العمل . كان وسيم الطلعة الى اقصى حد ، ولو كان شعره اقصر قليلا لاستطاع ان يجمع ثروة اذا عمل « موديلا » للرجال .

قلت انه لطيف منه ان يقابلني . فقال :

« عفوا . لو انك لم تأت الى لندن ، اجئت انا الى ايرلندا . »

سرنا نحو ميل حتى بلغنا المكان الذي ترك فيه سيارته من طراز « ميني مايستور » . في طريق العودة في لندن ، سرد علي بالتفصيل ما كان قد اخبرني به في التليفون . كان اخوه جوردون قد مات في الثامنة والعشرين من عمره ، بعد عام واحد من زواجه . وكانا آخر من تبقى من عائلة جليني ، واصبح قصر جلوسبي ملكية مشتركة بين الستير وبين زوجة شقيقه ، وكان الستير ما يزال يدرس في كلية سانت آندروز . وكانت الضرائب المفروضة على التركة ثقيلة ، وحينما تم تصفية حسابات آلستير لم يكن قدبقي له الا القليل بالاضافة الى قصر جلوسبي (رغم ان آلستير كان له دخل مستقل ورثه من جدته لامه) . كان قصر جلوسبي نادرا مثل فيل ابيض ، ولكنه ايضا كان متهالكا وقال لهم الوكيل انه لم يكن يساوي متاعب بيعه ، وان الثمن المحتمل لن يكفي لتغطية الرسوم القانونية للبيع . ومع ذلك فقد قرر هو وزوجة اخيه ان يبيعاه . وفي خلال اسابيع قليلة تسلما عرضا كبيرا الى درجة لا تصدق من رجل اعمال كندي كان يريد « قلعة اسكتلندية » لكي يستخدمها كمقر له في اجازاته . ابرما الصفقة بسرعة ، وقرر آلستير ان هذا هو الوقت المناسب لتحقيق امله في تكوين فرقة للغناء (البوب) فانتقل الى لندن . ولكن مشروع الفرقة لم يتحقق ، فاصبح يعيش بهدوء في هولاندبارك ويدرس فن التصوير على امل ان يصبح مصورا صحفيا .

سألته كيف اصبح مهتما بدونللي .

« اظن انه من الافضل ان اترك انجيلا لكي تشرح ذلك . انها زوجة شقيقي جوردون . وهي تنتظرنا في الشقة . »

يجب علي ان اعترف بأنني شعرت بنوع من خيبة الامل . كان آلستير جليني شابا لطيفا يبعث على البهجة بشكل واضح ، غير انه كان من الصعب ان يبدو في صورة تتلاءم مع بحثي عن دونللي . ولكنني ظننت انه من الممكن ان تكون لمسة ساخرة في مقدمتي لكتاب « مذكرات افاق ايرلندي » اذا انا ذكرت ان لورد جليني الحالي مغني « بوب » فاشل وانه يطمح في الدخول الى عالم الصحافة . ولاح انه ــ على الاقل ــ مهتم بتاريخ اسرته ، فقد لخص لي ما حدث لهم في القرن التاسع عشر ، وكيف حدث ان تزوج اللورد اسكندر جليني ــ جده ــ وارثة اميركية في عام ١٩٠١ فاستعاد بذلك ثروة الاسرة . ولكن والده عاد بهم الى الفقر باقامته في لندن واتخاذه نصف « دستة » من العشيقات .

وصلنا الى شقته في حوالي الثالثة والنصف . كان عصرا ناعما ذهبيا ،

واجتاحني فجأة احساس بالرخاء وسعادة الحظ وانا اقف على رصيف الشارع في « هولانديموز » اراقبه وهو يغلق السيارة . كانت فتاة تقف في النافذة وتنظر الينا ، وتلوح لنا . فقال لي : « هذه هي انجيلا » .

كانت انجيلا جليني « اسكتلندية » جدا بشكل ما : نحيفة ، جميلة ، حيوية ، ذات شعر متموج في تجعدات صغيرة ووجه محدودب قليلا . كانت ترتدي صدارا صوفيا كاد يبلغ ركبتيها ، وبنطالا من التيل .

« اتود شرب الشاي ؟ ام مشروبا آخر ؟ »

قلت انني افضل الشاي في هذه الساعة ، فذهبا معا الى المطبخ ورحت أنظر الى الكتب على الرفوف والى الصور المعلقة على الجدران . كان من الواضح ان آلستير قد اتى بهم من جلوسبي . فقد كانت هناك مجموعة جيدة من كتب سكوت وجون جالت في طبعاتها الاصلية ، ولعدد كبير آخر من الكتاب الاسكتلنديين الذين لم اسمع بهم من قبل . كانت ظهور « الكتب تحمل اسم هوراس جليني ، ولكن التواريخ المصاحبة للاسم دلتني على ان هذا لا بد ان يكون هوراس الابن ، منفذ وصية دونللي .

في ركن رف الكتب رايت كتابا يحمل اسم « خطابات من احد الجبال » تأليف ريجنالد سميتسون . لم يكن على الصفحة الاولى اسم الناشر ولا تاريخ النشرة ، ولكن احدهم كتب تاريخ « ١٧٨٠ » على ورقة ملصقة بالغلاف . كان هناك رسم على الصفحة الاولى ــ يمثل جبلا تعلوه شجرة جرداء وظبيا طويل القرنين . شعرت فجأة بان فيه شيئا مألوفا لي بصورة غريبة . احسست فجأة بالدوار ، وجلست ، واغمضت عيني . بدا لي ان صداعي ما زال مستمرا . حينما اغمضت عيني أصبح الدوار عنيفا كما لو سقطت في دوامة ،ففتحت عيني ثانية ونظرت الى الكتاب . وحينئذ وفي وضوح كامل عرفت ما كان يحدث . كنت « اصبح » ايزموند مرة اخرى . ولكنني في هذه المرة لم اكن ارى العالم بعينيه . وانما كان الامر كما لو كنا نقتسم راسي . فنرى الاشياء بصورة مزدوجة وبمعنيين مختلفين . ولكنني عرفت الآن لماذا كان الكتاب مألوفا لدي . كنت قد رايته من قبل ، فأثار لدي احساسا بالنفور . كان شيء منفر غير سار مرتبطا به .

حدقت في الكتاب ،والى ماوراءه شاعرا بصدمة مفاجئة . فتح الباب ،ودخل منه هوراس جليني ، حاملا صينية . نظر الي وقال :

« أانت بخير ؟ »

اختفت الرؤية المزدوجة ، وتعرفت في المتكلم على آلستير جليني . قلت :

« أجل . انني اعاني من صداع خفيف . هذا كل شيء . »

نظر الى الكتاب على حجري :

« أوه ، اتعرف ذلك الكتاب ؟ »

« كـلا »

دخلت انجيلا ، فقال :

« اليس هذا مدهشا يا آنجي ؟ لقد عثر على كتاب « خطابات من احد الجبال » الا يثبت هذا شيئا ما ؟ » .

كانا قد اعدا بعض الشطائر ، فتبينت انني كنت جائعا . وبينما كنت اتناول الشطائر واحدة بعد الاخرى ، اختفت آخر آثار الدمار . كنت قد اصبحت «نفسي» تماما مرة ثانية . واكتمل العلاج بثلاثة اقداح من الشاي الساخن . وبينما كنت آكل اخبرتني عن سبب اهتمامهم بأيزموند دونللي . فبعد موت زوجها ، قررت انجيلا ان تكمل دراستها الجامعية التي كانت قد هجرتها لتتزوج ، فأدرجت اسمها في جامعة ادنبرة ، وكان استاذهــا هو البروفيسور ديفيد سميللي ، كاتب ترجمة جيمس هوج ، الراعي الصالــح الاتريكي. وحينما اكتشف سميللي ان انجيلا هي لادي جليني ، سر وثارت حميته العلمية . كان يكتب تاريخا عن مجلــة « ادنبرة ريفيو » وكان جليني واحدا من كتابها الاصليين ، ولكنه كان قد ابعد عنها على يد الدكتور جيلبرت ستيوارت ، وهو رجل كانت سمته المميزة الاساسية هي الحقد والضغينة . كانت حدة اللهجة سببا في ان حققت مجلة « الريفيو » نجاحا فوريا منذ صدور عددها الاول في شهر يونية عام ١٧٧٣ : وكان جليني قد كتب في العدد مقالا نقديا ممتازا عن لورد مومبودو ، كما كتب عرضا على شيءمن الخشونة لكتاب في التاريخ من تأليف الدكتور هنري ، وهو واحد من اكثر الكتاب الاسكتلنديين نجاحا في عصره . واخيرا ، وبشكل واضح ، بدأ جليني يشعر — مثل عدد كبير آخر من الناس ، بان كل هذه المرارة والسخرية لم تكــن لتبلغ اي هدف ، فكتب الى ستيوارت خطابا طويلا — في اكتوبر ١٧٧٣ —موضحا احساسه بأن على مجلة « ريفيو » ان تهدف الى ان تكون اكثر بناء ، وانه لا شك في ان كلا من هنري ، وروبرتسون .وبلاير يتمتع بقيمة حقيقية ، مثلهم في ذلك مثل عدد كبير آخر من الكتاب الذيــن حقر من شأنهم على صفحاتها . وكتب ستيوارت ردا وديا ومعقولا، ولكن يبدو انه شك في ذلك الوقت من ان جليني قد وقع تحت تأثير هنري او بلاير ، فكتب خطابا ثانيا وصف فيه جليني بأنه « كلب حراسة كهنوتي » ، (وكان هنري « كاهنا » مسيحيا) .

ويمكن ان يعثر القارىء على ملخص لهذه القصة من كتاب ايزاك ديزرائيلي « خصومات المؤلفين ومعاركهم » . وفي شهر نوفمبر ، نشرت مجلة « سكــوتس مجازين » وهي مجلة منافسة ، دفاعا قويا وذكيا عن هنري وروبرتســون ، اختتم بهجوم ماهر مميت ضد ستيوارت . ويقتطف ديزرائيلي هذا الدفاع كله . وعلى صفحات مجلة « ريفيو » اكد ستيوارت ان كاتب الهجوم — الذي وقع بحروف « ام د » — كان هوراس جليني . واجاب جليني بخطاب على الفور ، يقول فيــه لستيوارت انه بينما يوافق على كل ما جاء في الهجوم ، فان كاتبه الحقيقي كــان صديق ايزموند دونللي . .وكانت نتيجة هــذا الخطاب نقدا عنيفــا لكتاب دونللي « ملاحظات عابر في فرنسا وسويسرا » في عدد فبراير مــن مجلــة ستيوارت . ويقول ديزرائيلي ان جليني اراد ان يتحدى ستيوارت بما رزقه ، ولكــن دونللي منعه من ذلك وثبط من عزمه .

استمرت المعركة ، حتى بعد ان انهارت مجلة ستيوارت . ذهب ستيوارت الى لندن ، وساهم بانتظام في الكتابة لمجلة « جنتلمان مجازين » . وفي هـذه المجلة ،في يونية عام ١٧٨١ ، حدث ان ظهر عرض قصير .وان كـان شريـرا سيء النية لكتاب « خطابات من احد الجبال » وصف فيه الكتاب بأنه : « ابخرة عقل مختل بسبب الشهوات المريضة والحماس الهوائي . وفي العدد التالي من المجلة ، اعلن ان مؤلف كتاب « خطابات من احد الجبال » كان في الحقيقة هوراس جليني .

مات ستيوارت بعد ذلك بخمس سنوات ، في سن الرابعة .والاربعين ، مليئا بالمرارة ، يمور صدره بالكراهية ، مقتنعا بأن اعداءه قـد تآمروا لكي يحطموه .

كانت هذه هي القصة التي سردتها على انجيلا جليني . وكان من الممكن ان تثيرني اكثر مما فعلت بالفعل . او انـني كنت اقل تعبا . في كل مـرة ذكرت فيها اسم هوراس جليني ، كنت انظر الى آلستير جليني ، واتعجب ان كان حقا يشبه جده كل هذا الشبه الذي خيل الي . فاذا تحققت من ذلك ، لحصلت على برهان يثبت انني كنت على اتصال نفسي (او روحي) بأيزمونـد . وحينما انتهت من حكايتها ، سألت ان كانت هناك صورة لهوراس جليني في جلوسبي .

« أوه ، اجل » .

« كيف يبدو ؟ »

نظر احدهما الى الآخر وضحكا . قالت انجيلا :

« انه يشبه آلستير الى حد مذهل . وهذا هو السبب الذي يجعله مهتما به الى هذه الدرجة ! »

.وبذلك لم يكن هناك اي احتمال للشك . وبدلا من ان احس بالاستثارة لهذا الكشف ، شعرت بالانقباض .

التقطت كتاب « خطابات من احد الجبال » وقلت :

« ما موضوع هذا الكتاب ؟ »

« أوه ، انه عمل معقد متشابك . يظن دكتور سميللي انه متأثر بكتاب « المواطن العالمي » الذي كتبه جولد سميث . انه في الحقيقة قريب الشبه بالروايات القوطية ـ اقرب شبها برواية « قلعة اوترانتو » التي كتبها والبول . انه كتاب مدهش حقا بالنسبة لعصره ـ حينما تضع في اعتبارك ان مسز رادكليف وماتيورين لم يكونـا قد شرعا في الكتابة بعد . »

« ايمكنك ان تسردي علي ملخصا لحبكة الكتاب ؟ »

« القصة تدور حول صديقين اسم الاول كونراد والاخر رودلفو . انهمـا يشبهان داود وجونافان في الكتاب المقدس . حينما يقعان في حب نفس الفتاة ، يحاول كل منهما اقناعها بأن تقبل الآخر . يذهبان الى الجامعة معا ويقسمان على الصداقة الابدية واخوة الدم ـ انت تعرف مثل هذه المشاعر . وذات يوم ، بينما كان رودولفو واقفا في احدى المكتبات ، يقترب منه مراكشي غامض يدعى عبدالله صباح ، يعرض عليه ان يقرأ له طالعه . يقول له ان من المقدر له ان يكون واحدا من

حكام العالم، ثم يدعوه للذهاب الى بيته . ويذهب رودلفو ـ رغم تحذيرات كونراد ـ فيقع في حب فتاة تدعى نوري ـ من المفترض انها ابنةعبدالله صباح ... »

عند هذا ، قاطعها آلستير قائلا : « من المؤكد انه لا يريد ان يسمع كل كلمة جاءت في هذا الكتاب . »

اكدت له انني اريد هذا . استمرت انجيلا في سردها بشرك المراكشي رودلفو فياحتفالات طقوس سحرية تتضمن كرة من البلور ،يقفانفي اثنائها فوق قمة برج مرتفع تحت ضوء القمر المكتمل وينظر رودلفو الى الكرة البلورية . يرى فيها ثعبانا ضخما ينظر اليه بعينيه الصفراوين ،ثم يبدو انه ينقض عليه . وتنقذ نوري رودلفو من السقوط من فوق البرج ، ومن ثم تصبح عشيقته وتعده بأنها ستتزوجه اذا وافقت اسرته على ذلك . وتعترف له بأن عبدالله ليس والدها ، وان العملية كلها مؤامرة الهدف منها ضم رودلفو الى جمعية سرية فرعية تخطط لتدمير اوروبا .

وفي اليوم التالي يكتشف ان نوري و « أباها » قد رحلا . يمتلكه اليأس ويبحث عنهما في كل مكان . وذات يوم ، وفي كنيسة قديمة يرى تمثالا لثعبان ضخم مصبوب من البرونز فيشتريه بعدد قليل من الكرونات . ثم يكتب كتابا في ادب الرحلات ، يصف فيه الاماكن التي زارها في اثناء بحثه عن نوري ، ويطبع على الغلاف صورة الثعبان . وبعد بضعة اسابيع يتلقى رودلفو مظروفا مغلقا يحتوي على رسم للثعبان ، وامر بأن يحرق كل نسخ كتابه . وينفذ رودلفو الامر بأن يشعل النار في مخزن ناشره في لندن ، ويموت عدد من الناس في الحريق ، الذي انتشر حتى اشتعل في المنازل المجاورة . وحينما يتم ذلك ، يتصل به المراكشي مرة اخرى ، فيصبح في مقدوره ان يرى حبيبته وسيدة احلامه . وبذلك يصبح عضوا كامل العضوية في الجمعية الشريرة المعروفة باسم « أمر الثعبان » . ويشعر اعضاء الجمعية بأن لنوري تأثيرا سيئا او بالاحرى طيبا ـ عليه ، فيأمرونها بالابتعاد عنه ولكنها ترفض فيقتلونها . ولما كان رودلفو قد اصبح خاضعا تماما لاوامر الثعبان فانه يقبل بدلا منها عشيقة جديدة تدعى فاتيما ، وهي الاخرى ساحرة ...

قد يكون من الممل ان نلخص بقية القصة المضطربة والميلودرامية . ولا يمكن ان يكون ثمة شك في انها تدين بالكثير لرواية « قلعة اوترانتو » وانها بدورها قد اثرت في كتابات مسز رادكليف وماتيورين . ان رودلفو يقع فريسة الاغراء بالقيام باعمال اكثر شرا باستمرار ، على الرغم من محاولات كونراد لانقاذ حياته . واخيرا يؤمر بأن يقتل كونراد ، ولكن هذا كان اكثر مما يحتمل . ان الرابطة التي تربطهما والتي تشبه علاقة داود بجوناثان قوية قوة بالغة رغم تعاقب السنين . وفياللحظة الاخيرة يرمي رودلفو بالخنجر ويتعانق هو وكونراد . ويتملك اليأس رودلفو بسبب اعماله الشريرة، ، فيقرران الذهاب الى جبل آشوس لكي يطلبا المغفرة . وفي المرحلة الاخيرة من رحلتهما ، يستيقظ رودلفو في الليل على صوت نوري الميتة ، ويستيقظ لكي يتبع الصوت ، ولكنه يسقط من فوق قمة الصخرة . وحينما يعثر

على جثته ، يكون الوجه قد تشوه تشوهات فظيعـة حتى ان رهبان جبـل آتوس يرفضون دفنه في ارضهم المقدسة ، معلنين انه من الواضح ان هذه جثة شيطان . ويقوم كونراد بنفسه بدفنها في وسط منطقة جرداء ، ثم يذهب الى جبل آتوس ، حيث يكتب قصته على شكل خطابات الى القسيس الكاهن الذي يتلقى اعترافاته .

بينما كانت آنجيلا جليني تلخص حبكة الرواية ، اختفى ما كنت اشعر به من التعب . عرفت في تلك اللحظة ان بحثي عن دونللي قد دخل مرحلة حرجة . ان اكثر اجزاء لغز الخطوط المتشابكة اهمية قد كشف عن مكانه الصحيح . كنت اعرف ان ايزموند كان قد تلقى ــ في الحقيقة ــ رسم العنقاء بعد طبع كتابه « ملاحظات » عام ١٧٧١ بوقت قصير . وكنت اعرف ان الطبعة كلها كانت قد دمرت فـي حريق اتى على مخزن الناشر في لندن . والآن كان من المستحيل ان اشك في ان ايزموند قد تلقى رسالة اتصال من جانب جماعة العنقاء في عام ١٧٧١ . ولكن فـي نفس الوقت ، لا يمكن النظر الى بقية القصة بجدية ، فان ايزموند لم يشترك فـي اية خطط شريرة بعد ذلك التاريخ . وظل هو وجليني على صلة ودية وثيقة بعد ذلك طوال سنوات ، والمقالة المنشورة في مجلة « سكوتس مجازين » في عـام ١٧٧٤ قد كشفت عن انه كان ما يزال قارئا مخلصا لكتب الصلوات . ولم يحدث ان كتب جليني رواية « خطابات من احد الجبال » الا بعد ذلك بعشر سنوات .

انني مدين بهذا المفتاح الرئيسي لكل من آلستير وانجيلا جليني . وبذلك ، فقد كان من الواضح انني ادين لهما بحكايـة القصة الكاملة لبحوثي الخاصة . وهكذا ، فحينما سألتني انجيلا : « والآن ، ما الذي اكتشفته عن ايزموند دونللي ؟ » اقترحت ان تشرب كأسا من الويسكي ، ثم سردت عليهما القصة الكاملة ، بالصورة التي كتبتها بها هنا . استغرقت عملية السرد ثلاث ساعات ، وانتهيت منها فيمطعم في نوتينج هيل ونحن نتناول طعام العشاء . كنت احمل معي مذكرات ايزموند ، بالاضافة الى خطابات جليني ، كنت سعيدا بهما لانه كانت هناك اوقات لاح لي الامر كله سخيفا لدرجة انه كان من بواعث الراحة ان اقنع نفسـي بأنه لم يكن حلما متشابك الاطراف انتابني وانا غارق في النوم . اصغت انجيلا دون ان تقول الكثير ، ولم تصرف عينيها عن وجهي طول الوقت . وظل آلستير يردد : « يا الهي » وهو يتمشى في الغرفة جيئة وذهابا . وبينما كنا نسير متجهين الى المطعم ، قال : « هل تعرف ان هذا هو اكبر اكتشاف ادبي منذ اكتشاف اوراق البحر الميت ؟ » ، وكان فكاهيا ان شرعت انا وانجيلا على الفور في الضحك .

ولكنهما لم يثارا حقا الا حينما اخبرتهما بأن ايزموند كان قد اعيد اليـه هوراس جليني منفذا لوصيته الادبية ومتصرفا في تراثه الادبي . كانا يأملان في العثور على بعض ما تركه جليني من مواد في جلوسبي ، فأصبح من الممكن الآن ان يعثر ايضا على بعض من اوراق ايزموند هناك . واشارت انجيلا الى انه من الممكن ان يعتبر آلستير منفذا لوصية ايزموند الادبية ومتصرفا في تراثه الادبي طالما انه حفيد مباشر لهوراس جليني الابن ، ولم يكن هناك من بقي على قيد الحياة من اسرة آبيتون . وهذا يعني انه اذا نشر المزيد من اوراق ايزموند فان آلستير وآنجيلا

يمكن ان يشتركا في الارباح . وكنت انا قد حصلت بالفعل على اكثر مما يكفي لطبعتي الخاصة من كتاب « مذكرات افاق ايرلندي » .

جلسنا حتى الثانية من صباح اليوم التالي نتبادل الحديث عن ايزموند وهوراس جليني . وكان ندمهما الرئيسي بالطبع صادرا من ان احدا منهما لم يهتم بحياة جليني قبل بيع قصر جلوسبي . وتذكرت انجيلا ان زوجها كان قد اطلعها على حجرة في قصر جلوسبي حيث وقعت في الماضي جريمة قتل - اذ عثر على رجل ميتا في ظروف غامضة . وظن آلستير انه يتذكر شيئا من هذا النوع هو الآخر . ولكنها حين وصفت الحجرة ، لم تكن هي التي تذكرها آلستير باعتبارها « حجرة القتل » .

نمت ليلتي على اريكة في حجرة الجلوس ، كانت انجيلا تحتل السرير الموجود في حجرة الضيوف . وكان آلستير يريد ان يرحل الى اسكتلندا في صباح اليوم التالي ، ولكن انجيلا قالت انه ما يزال عليها ان تقوم ببعض البحوث في مكتبة المتحف . وقررت انا انه من المناسب لي ان اذهب معها . قضيت الصباح هناك ، وعثرت على نسخة من نشرة « مارتل وسميثسون » التي كتباها عن جماعة العنقاء . شعر تيم موريسون بالحرج حينما اشرت له اليها ، وقال انه لم يلتفت اليها في بحثه لان عنوانها كان « جمعية العنقاء » . ولكي اقارن بينها وبين النسخة التي رايتها معه من قبل ، طلبت منه ان يصورها لي لكي احمل الصورة معي .

تناولت انا وانجيلا طعام الغداء في مطعم يوناني باقرب من سيرك كامبريدج . قلت لها فجاة انه كان عطفا من جانبهم ان يثقوا بي على هذا النحو . فنحن ، على اي حال ، متنافسون من الناحية التكنيكية . فقد كان من المحتمل ان يقوما - عاجلا او آجلا - والاكثر احتمالا ان يكون ذلك عاجلا - بالبحث عن اوراق جليني في قصر جاوسبي ، وان الاكتشاف في تلك الحالة - اذا افترضنا انهما حققا اي نوع من الاكتشافات - كان سيعزى اليهما بشكل كامل . قالت :

« كلا . انني سعيدة بانضمامك الينا . اننا نثق بك . »

قلت لها شكرا لك ، قالت :

« في الحقيقة ، انني مبتهجة لمجيئك . اتعرف ان آلستير كان يعبد اخاه جوردون . وكان آلستير هو الذي اقنعني بالزواج من جوردون في الحقيقة . كان مصرا على التحدث عن فضائله والاسراف في ابرازها لكي يقنعني بان التقي به . وينبغي ان تعرف انني كنت صديقة آلستير في البداية . »

« ألم يجرحه زواجك من جوردون ؟ »

« أوه ، كلا . لقد ابتهج بذلك . اتفهم ذلك ؟ هذا الزواج قربه من جوردون اكثر - كان معنى هذا انه قد منح لجوردون شيئا ذا اهمية حقيقية . على اي حال ، انما اردت ان اقول لك في البداية انني اظن انه مال الى ان ينظر اليك بنفس الطريقة التي كان ينظر بها الى جوردون . »

« ولكنه لم يعرفني الا منذ اربع وعشرين ساعة . »

« لا يؤدي هذا الى اي فرق . والشيء الغريب هو انك على شيء من التشابه

مع جوردون ، من الناحية الجسدية . »

توقفت عن الكلام ، وظننت ان وجهها علاه شيء من الاحمرار . شربت جرعة كبيرة من الجعة المعتقة لكي تغطي احمرار وجهها . ادركت ما كانت تفكر فيه : وهو انه اذا كان آلستير قد اهداها الى جوردون ، فانني يجب ان اعتبر صاحب المكان التالي من بعده . غيرنا الموضوع وتحدثنا عن دونللي . وحينذاك تذكرت شيئا كنت قد نسيت ذكره من قبل : الخطاب الذي جاءني من كلاوس دنكمان . كنت احمل عنوانه ورقم تليفونه في كراسة العناوين التي احملها . قالت :

« لماذا لا تتصل به ؟ قد يكون على شيء من الاهمية ؟ »

« اعتقد انه يجب علي ذلك . »

ذهبت الى تليفون المطعم . اجابتني امراة ذات لكنة اجنبية ، ولاح على صوتها شيء من العداء حتى ذكرت لها اسمي ، فأصبحت ودية للغاية ، وقدمت نفسها باسم اناليزا دنكمان ، وشرعت تتحدث باسهاب عن كتبي . واخيرا جاء زوجها لكي يكلمني بالتليفون ؟ سألني ان كان بوسعي ان اذهب اليهما لتناول طعام الغداء . قلت انني سأذهب اليهما في ذلك الموعد ، ولكنني سألت ان كان بوسعي ان اذهب في وقت متاخر من عصر اليوم ، فاتفقنا على موعد في الساعة الرابعة .

لم اكن سعيدا سعادة كاملة بهذا التطور ، وبدا لي انه لن يؤدي الا الى طريق مسدود . ولكن انجيلا قالت : « جيد جدا ، انه يبدو على شيء من الاهمية . ايزعجك ان آتي معك ؟ » .

امضينا ساعة اخرى في المتحف ، ولما كان عصر اليوم دافئا ومشمسا فقد قررنا ان نتمشى حتى هامبستيد . سرنا عبر حدائق باو مزبري على طول كامدن تاون ، ثم اخذنا سيارة عامة الى بلزي بارك . كان عنوان اسرة دنكمان في كيتس جروف .

فتح الباب فظهر وراءه رجل طويل نحيل يرتدي نظارة سميكة جدا جعلت عينيه تبدوان بعيدتين وغريبتين ، مثل اخطبوط ينظر من وراء حوض زجاجي كبير . بدت عليه دهشة ضئيلة حينما راى انجيلا ، ولكنه دعانا للدخول بطريقة مهذبة . تبعناه عبر دهليز طويل حتى قاعة عمل (استديو) تسطع بنور الشمس . كانت الارضية مغطاة بتراب الاحجار المنحوتة ، وكانت هناك تماثيل هائلة الحجم لنساء امازونيات ذوات اثداء وارداف هائلة . تقدمت الينا لتحيتنا امراة ضخمة الحجم رمادية الشعر بعد ان وضعت على المائدة مطرقتها وازميلها . صافحتني بحماسة بقبضة مثل قبضة مصارع ، واومأت في لا مبالاة ميكانيكية الى انجيلا . كانت اقل طولا من زوجها ، ولكنها في بنية مصارع حقيقي ، وبدا ان ذراعيها المكشوفتين تحت الكمين المشمرين الى ما فوق المرفقين — قادرتان على الاطاحة بأي واحد منا بضربة واحدة . كانت لكنتها الالمانية اوضح من لكنة زوجها ، ولكنني لن احاول ابرازها هنا ، ولن احاول ابراز تكوينات جملها الغريبة . وضعت يدا على كتفي وقالت :

« حسنا ، لقد كنت انتظر نافدة الصبر تماما . فمنذ ان قرات كتابك

« اليوميات الجنسية » اردت ان اقابلك . تعال معي الى حجرتي الصغيرة الخاصة .» ثم التفتت الى انجيلا وابتسمت وقالت : « اتسمحين ؟ اريد ان اتحدث اليه على انفراد . كلاوس سيفرجك على الحديقة . »

كانت دهشة انجيلا اقوى من ان تسمح لها بالاعتراض . اما السيدة دنكمان فقد جذبت ذراعي بقبضة من حديد ، ودفعتني لكي اصعد بضع درجات . التقت عيناي بعيني انجيلا للحظة ، فرفعت حاجبيها وعضت على شفتها السفلى .

قادتني آنا ــ اسمها الاول الذي اصرت علي ان ادعوها به على الفور ــ الى غرفة صغيرة مريحة كانت تفوح منها رائحة التبغ . في انصوان الجانبي المفتوح ، كانت هناك ثلاث زجاجات سعة كل منها « جالون » تحتوي بالتتالي على مشروبات الجين والويسكي والبراندي . عرضت علي ان آخذ كأسا ، ولكنني قلت ان الوقت مبكر جدا على الشرب . صبت لنفسها كأسا ضخمة من الجين ، ثم ملأته حتى الحافة بعصير الليمون الحامض ، ثم اشعلت سيجارة وضعتها في « مبسم » للتدخين لا يقل طوله عن قدم ، والقت نفسها على مقعد مريح في مسندين وقد صالبت ساقيها . وفي نفس الوقت ، شعرت بالقلق وعدم الراحة لقدرتي على رؤيتها تفعل الكثير من الاشياء ، ورؤية جزء كبير من جسدها في مثل هذه اللحظة الخاطفة والنظرة القصيرة ، ذلك ان الازار القصير المصنوع من صوف التويد لم يكن يبلغ الطرف العلوي لجوربها الطويل الا بصعوبة وهي واقفة . اشارت الي لكي اجلس على المقعد المقابل لها الذي لم يترك لي فرصة سوى النظر اليها وتأملها .

« اجل ، انك تتمتع بقدرة على النفاذ اكثر جدا مما يسمح به الشباب صغير . كم عمرك ؟ حقا ؟ انك تبدو اصغر بكثير . حينما قرات كتابك قلت لكلاوس ! « آه، اشد ما آسف لانه لا يعيش في لندن . هناك الكثير الذي نستطيع ان نعلمه اياه . » وها انه الان هنا لمدة يوم واحد ! يا لـه من امر شنيع ! ماذا يمكنك ان تفعله في يوم واحد » .

قالت لي ان كل كتبي تشهد على انني امتلك قدرا كبيرا من الذكاء ، والحدس العظيم ، ولكن التجربة هي ما ينقصني . « يجب الا تشعر بالغضب اذا قلت لك انك غير ناضج من جوانب كثيرة . » قلت انني لست غاضبا . حينئذ ، ودون ان تكلف نفسها مشقة تفسير تحول مجرى الحديث ، بدات تتحدث عن مؤهلاتها الخاصة التي تسمح لها بتعليم الشباب . كان المفروض ان اصبح مدرسة مثل امي . ولكنني لا املك صبرا مع الاعداد الكبيرة من الطلبة . ان ما ارغب فيه هو اثنان او ثلاثة من التلاميذ النجباء . انني خلاقة مبدعة ، اتفهم ؟ لا بد ليدي من تشكيل الحجر والطين ، ولا بد لعقلي من تشكيل الارواح . »

حدقت في عيني بطريقة نفاذة وقالت : « والآن اريد ان اسألك سؤالا صريحا . حينما تمارس الجنس مع امراة ما ، هل تستطيع ان تسيطر على ذروة نشوتك فلا تبلغها الا بعد ان تعطيها كل ما تحتاج اليه من متعة ؟ »

فكرت في ديانا ، ثم قلت انني اظن انني افعل هذا .

« كلا ، كلا . ليس هذا ما اردت سماعه . انما اردت اجابة مخلصة صريحة . يجب ان تفكر في اعتباري طبيبة ـ كما لو كنت طبيبتك النفسية ... »

اخذت جرعة طويلة من الجين ، ومدت يدها لتأخذ سيجارة جديدة ، وفكت تصالب ساقيها . كان من الصعب ان احتفظ بعيني مركزتين على وجهها . صرفت نظرها عني للحظة ، ثم رمقتني بنظرة سريعة ، وكان من الواضح انها تأمل ان « تضبطني » وانا اتفحص جسدها . ثم القت براسها الى الوراء فأسندته على وسادة المقعد ، واصبح وجهها مصوبا الى السقف ، واغمضت عينيها . تساءلت ان كان في هذا الوضع نوع من الاختبار . كانت ترتدي سروالا داخليا ربما كان مصنوعا من السيلوفان القرمزي ، وكانت تواجهني بقدميها اللتين رفعتهما على وسادة جلدية على الارض ، وقد انفرج ما بين ركبتيها ... كانت مؤخرتها وساقاها جميلة . ولكن الذراعين القويتين والكتفين العريضتين والشعر الرمادي ، جعلتها تبدو كما لو كانت وحشا اسطوريا ، نصفه الاعلى من جنس يختلف عن نصفه السفلي . نظرت عامدا الى ناحية المدفأة الخالية ، وركزت نظري هناك . كانت تقـول :

« احس انك شخص بالغ الخجل يحاول ان يخفي تلك الحقيقة . في هذا انت تشبه كلاوس الى حد ما . ان كلاوس هو ابني ، بالطبع ..

« ابنك ؟ » صدمتني الدهشة لسماعي ذلك .

« ليس حرفيا .اعني ان علاقتنا هي علاقة ام بابنها . انني الطرف الخلاق في العلاقة . الارض الام . مثل « اردا » عند فاجنر . علاقتنا قوية جدا . انني مدرسته . لو انك سألته لقال لك انه قد اصبح شخصا مختلفا منذ ان عرفني ، اكثر عمقا واكثر حساسية . انني املك تلك القدرة على نقل مواهبي الى اولئك الذين احبهم . وحينما اقول « الحب » اعني بالطبع حب المدرسة للتلميذ ، لانه ليس هناك ما هو اعمق من هذا الحب ... »

كنت القي عليها نظرة سريعة من حين الى حين ، لكي اكتشف انها قد غرقت في مقعدها اكثر ، حتى انها كانت تجلس في وضع الجماع على الظهر . ولكنها ظلت تتحدث دون علامة تدل على الحرج . كما لو كانت تقف في مواجهة صف من التلاميذ تناقش رسما توضيحيا على السبورة . لاح لي ان ما كانت تسأل عنه ـ بطريقة معقدة وملتوية ـ هو ما اذا كنت اود ان انضم الى كلاوس كواحد من تلامذتها ، لكي امتص بركات معرفتها وموهبتها الخلاقة . كانت تشرح لي الفرق بين ذهن الانثى وذهن الذكر وذكائهما ، حينما سمعنا طرقة رقيقة على الباب . تجاهلتها واستمرت في الكلام . توقعت منها ان تضم ساقيها ، او ان تعتدل قليلا في جلستها على الاقل ، ولكنها ظلت في وضعها دون حركة على الاطلاق . اطل كلاوس من الباب لينظر الى الداخل .

« هل ستأتين الى الطابق الاسفل يا شانز ؟ »

« بعد لحظة . »

كان منظر ساقيها المنفرجتين من المكان الذي نظر هو منه اقل قربا الى مكاني ـ فقد كان بوسعي ان انحني الى الامام فادس اصبعا ـ ولكنه كان يستطيع ان يستوعب هذا المنظر كاملا . لم تلح عليه الدهشة . قال :

« ربما ارادت السيدة الشابة ان تتناول كاسا هي الاخرى . وهذه الحجرة صغيرة جدا . حينئذ سمعت خطوات « السيدة الشابه » وهي تصعد الدرجات. كان عليّ ان اعجب بتوقيتها المناسب . للحظة ، ظننت انها كانت تعني ان تظل راقدة في وضعها لكي تسمح لانجيلا بالانضمام الى المتفرجين ، ولكن قبل وصول الخطوات الى الباب بثوان قليلة ، تثاءبت ، وضمت ساقيها واعتدلت جالسة وقالت :

« اذن ، فلنذهب » .

واتجهت الى الباب ، وناولت كلاوس ضربة مداعبة ولكنها قاسية على مؤخرته، ثم اشارت اليّ وهبطنا الى الطابق الاسفل في « طابور » واحد . حينما وقعت عيناها على انجيلا ، قطبت تقطيبة خفيفة ، كما لو كانت تجد صعوبة في تذكر من تكون، ثم لاح عليها تعبير من استطاع اخيرا ان يتذكر وهو يقول لنفسه « يا للتعب ! »

ذهبنا الى حجرة اكبر واوسع ، اثاثها اكثر طبيعية . قبلت كاسا صغيرة من الشيري ، وكذلك فعلت انجيلا . ولدهشتي ، اصبحت السيدة دنكلمان الان ودية جدا مع انجيلا . وربما كان ذلك لان انجيلا قالت انها لم تقابلني الا بالامس فقط . سألتها كم من كتبي قرأت ؟ وحينما اكتشفت ان الاجابة كانت « لا اكاد اكون قرات له شيئا على الاطلاق .» اشارت اليها بسبابتها اليمنى وهي تقول :« عليك ان تبدأي قراءتها على الفور » . وبذلك كانت انجيلا قد لقيت القبول في القطيع بوصفها تلميذة ، وسمعت محاضرة عن القدرة على الابداع والخلق . جلس كلاوس في احد الاركان ، وهو يرشف ماء الصودا (« ليس من المسموح له ان يشرب . فالشرب يجعله مسرف العاطفية ») ودون ان يبذل اية محاولة للتدخل في الحديث . وحينما توقفت انا عن الكلام لكي تأخذ كأسا اخرى ، طلبت منه ان يقص عليّ شيئا عن كورنر . قال بسرعة :

« انني لانصحك بان تهتم به او تنزعج بشأنه . انه « شارلتان » مهرج حتى النخاع » .

قالت زوجته : « ليس هذا القول عادلا تماما . انني اوافق على انه قد اصبح مهرجا . ولكنه لم يكن كذلك دائما » . ثم وجهت كلامها اليّ : « هل تعرف شيئا عن رايخ ؟ »

« ليس الكثير » .

« كان عالما سيكولوجيا عظيما ـ في مثل عظمة فرويد . وقد آمن بان الطريق الوحيد الفردي الى خلق مجتمع صحي هو الحصول على اناس لا يعانون من اي كبت جنسي » .

« هذا يماثل ما قال به فرويد » .

« بالتأكيد . ان افكاري الاساسية تشبه تلك التي قال بها فرويد الى حد كبير ، وكانت مساهمته العلمية العظيمة في مجال معالجة الامراض العصابية. لقد آمن بأن انواع الكبت تشكل نوعا من الصدفة او المرارة الصلبة فوق الشخصية ، مثل السلحفاة ، اتعرفها ؟»

لوت وجهها التواءة شنيعة ورسمت بيديها حركة تشير الى الدرع التي تحمله السلحفاة . اشارت الى زوجها وقالت :

« حينما التقيت به اول مرة كان وجهه يشبه القناع ـ كانت كل عضلاته متوترة مشدودة . كان من الضروري ان اعلمه كيف يسترخي استرخاء كاملا وان يحب اعضاءه التناسلية » .

جفلت انجيلا لسماعها التعبير الغريب . سألتها بحذر :

« بأي شكل ؟»

« باي شكل ؟»

« ان يكون صريحا وواضحا في كل ما يتعلق بوظائفه الجنسية . كان من عادتنا في ستوكهولم ان نعقد اجتماعات للعلاج النفسيالجماعي . كان علينا ان نجلس دون اي بنطالات او ثياب ، وندير مناقشة فيما بيننا ، ونشرب القهوة، ويشجع الرجال على ان يلعبوا باعضائهم التناسلية . تمامامثلالاطفال . كان هذا رائعا » .

قال كلاوس بوقار :

« تعودت ان تأتي فتجلس الى جواري ، ثم تجلد لي عميرة بينما نحن نناقش مشاكلنا . كان في هذا تخفيف عظيم لكل التوترات . ان اتعلم الا اخجل من اللعب بالاعضاء التناسلية . حينما كنت صغيرا ، كان من عادة مربيتي ان تضربني اذا لمست عضوي . وقد علمني رايخ ان العضو التناسلي ليس سوى اداة للتواصل الاجتماعي ، تماما مثل اللسان او اليد » .

نفد صبرانا لكل هذه المقاطعة ، فضربت ذراع المقعد بقبضتها وقالت :

« لو فهم الناس نظريات رايخ فهما صحيحا ، لكانت الحرب الاخيرة مستحيلة . لقد استخدم هتلر الكبت الجنسي كسلاح سياسي . ان الالمان هم اكثر الامم كبتا في العالم . وهذا هو السبب في عدوانيتهم الشديدة ».

سألتها : « وماذا من امر كورنر ؟ الى اين وصل ؟»

« انه هو الذي نظم جماعات العلاج النفسي في ستوكهولم . انه هو مبتكر فكرة الكبت الجنسي الجماعي وليس رايخ.كان رايخما يزال تلميذا نجيبا صغيرا . انت تعرف هذا النوع ، وفي ذلك الوقت كان ما يزال مصرا على تلك الافكار المجنونة حول الطاقة الاصلية العضوية ،قائلا انها زرقاء اللون ـ وقال ان الطاقة العضوية الاصلية هي التي تجعل السماء زرقاء » .

قال كلاوس بكآبة :

« فيهذا الوقت ، آمنـا بان كورنر وحده هو الذي يحفظ التعاليم الحقـة في نقائها الاصلي . ولذلك فانه حينمـا جاء الى لندن ، جئنا معه » .

« وهل مضيتم في عقد اجتماعاتكم للتعبير الجنسي الذاتي؟»

« آخ ، اجل . اكثر من ذي قبل . وكانت هذه هـي المشكلـة . كان رايـخ قد حذرنـا من اننا اذا لم ننتبه بمـا فيه الكفاية ، فان هذه الاجتماعات لن نظـل ذات قيمـة علاجية ، فتتحول الىاحتفـالات جنسيـة صاخبة . ولكن كورنر لم يلق اذنا صاغيـة لهذا التحذير . كانت تسيطر عليه فكرة معينـة مؤداها ان يطهرالدافع الجنسي وكان هذا هـو تعبيـره عن فكرته . قال ان الجنس يجب ان يتخلص من كل خجل . وعلى اي حال، فان اكثر الحساسين من الناس مصابـون بالخجـل الاجتماعي . فاذا كـان عليهم ان يقفوا على منصة مرتفعـة وان يخطبوا في جمهور محتشد ، يصابون بما يسمى « خوف من المنصة » . ولكنهم يستطيعون التغلب على هذا الخوف ، وحينمـا يتغلبون عليه يعبرون عن انفسهم بحرية ، دون خوف .لقد اراد كورنر ان يتغلب الناس على خوفهم الجنسي من المنصة » .

كان قائل هذا الكلام هو كلاوس. كانت انجليزيته اكثر طلاقة بكثير من انجليزية زوجته . كـانت انجيـلا تقطب حاجبيها . قالت :

« ولكن الا تكون من نتيجة الحرية الجنسية الاكثر جدا من اللازم ان تدمر كل مـا فيـه من متعـة ؟»

« كلا ! » كذلك صاحا في لحظة واحدة . اسكتت انًا زوجها بنظرة صارمة، ثم استمرت تقول في تصميم :

« بالعكس ، ان الخجل الشديد يستبد بالناس من ان يتعلموا كيف يستمتعون بالجنس . لماذا تظن ان هناك الكثير جدا من حوادث الاغتصاب وجرائـم القتـل الجنسية ؟ لان هناك جدرانا سميكـة بيـن الجنسين . يركب رجل سيارة عامة، وتكون هنـاك فتاة جميلة ، فيصبح مثل الثعلب مع الدجاجة . انه لا يغتصبهـا لانه ليست هناك فرصة لذلك ، وربمـا كان خائفـا من القانون .هذه ليست علاقـــة طبيعيـة بيـن الجنسين . المجتمع كله جائع جنسيا . في مجتمع صحي، يستطيع ان يجلس الى جوارها ، وان يقنعهـا بان تجلد له عميرة ، دون ان يولي اي انسان للامر ايـة اهتمام .لم لا؟انت ــ« انطلق اصبعها فجاة نحو انجيلا ، التي كانت تجلس منحنيـة الى الامـام ، وقد وضعت معصميها علىركبتيها . ــ « لماذا تجلسين فـي هذا الوضع ؟ لانك تظنين انه وضع طبيعي . ولكنه ليس كذلـك . انـك ترتدين « جونلة » قصيرة لانك تظنيـن انهـا جذابة . لماذا لا تفتحين ركبتيك فيجسارة؟»

ابتسمت انجيلا ــ وقد تراجعت قليـلا الى الخلف ــ وحاولت ان تحـول الامر الى نكتة ، وقالت :

« اذا فعلت هذا فانني قد اغتصب ».

« كـلا ! ليس هذا منطقيا ! لماذا ترتدي النسـاء« جونلات » قصيرة؟ لكـي يثرن اهتمام الرجال . انـك تلعبيـن مباراة مع نفسك لكي تنظري الى اي حديمكنك

ان ترفعي « جونلتك » الى اعلى . الا ترين ما يعنيه هذا ؟ انك تريدين استعراض اعضاءك التناسلية . ولكنك خائفة . انك تريدين ان تجعلي الرجال يحدقون فيك ، ولكنك خائفة من الاغتصاب . اليس هذا دليلا على ان ثمة خطأ في مكان ما ؟»

بشكل تلقائي امسكت انجيلا بطرف « جونلتها » وجذبته الى اسفل . اكملت الاخرى تقول :

« اترين ؟ لماذا ترتدينها اذا كنت تريدين ان تنزليها الى اسفل ؟ لماذا لا تجلسين هكذا ؟ .

انحنت في متعدها الى الوراء وفتحت ركبتيها ، حتى استطاعت انجيلا ان ترى نفس المنظر الذي كنت قد رايته في الحجرة الصغيرة الخاصة بالطابق العلوي . غضت انجيلا من بصرها ، دون ان تضم اثنا ساقيها ثانية ، مضت تقول :

« كلا ! ان علينا ان ننمي وجود مجتمع دون مخاوف جنسية ودون رغبات محبطة مكبوتة . اذا اراد الشاب الذي يركب السيارة العامة معك ان يعرف ان كنت ترتدين سروالا او مشدا ، فانه يجب ان يسمح له بالقاء نظرة ليتأكد !»

تدخلت لكي الفت الانظار عن انجيلا :

« لماذا تقولين ان كورنر اصبح مهرجا ؟»

« لانه بنظرية مثل تلك ،يمكنك ان تجذب كل الناس غير المناسبين الذين تدفعهم كل الاسباب غير المناسبة . هذا هو ما فعله . انه يقول بان غرضه هو ان يعلم الناس الوصول الى النشوةالصوفيةعنطريق الجنس . ولكن كل ما يفعله هو تنظيم حفلات للفسق » .

كان من الصعب ايقاف هذا الفيضان من الكلام الذي استمر على هذه الصورة لمدة نصف ساعة اخرى وبدا لي ما قالته في صورة فهم جيد الى حد ما لبعض المشاكل النفسية . من الحق ان اكثر الناس يسيطر عليهمهاجس جنسي من نوع ما بطريقة سلبية . ولكنني حينما فكرت في ديانا وفي موبسي ، وفي مكتبتي التي تحيط بها الكتب على الجدران من كل جانب ، طرأ لي ان هناكاشياء كثيرة اكثر اهمية من الجنس . ليست الطريقة المثلى لمعالجة رجل يسيطر عليه هاجس الجنس هو ان اقول له ان يجلد عميرة في السيارات العامة ، ولكن انادفعه الى ان يتعلم كيفية الاستمتاع بالموسيقى والافكار والشعر . وحينما اقترحتذلك لاسرة دنكمان ، وجهت بانفجار من الاحتقار العاصف .

« ليس هذا سوى ما دعاه فرويد بالاعلاء . انه رفض لمواجهة المشكلة الحقيقية . انك تكبت مصدر المشكلة ، ثم تتظاهر بالاهتمام بشيء اخر .»

بدات اشعر بنفاد الصبر . كانت الساعة ــ على اية حال ــ قد قاربت السابعة ــ وكان لا بد ان يبدأ آلستير في التساؤل عن مكاننا . قلت ان علينا ان نرحل . حاولا ان يقنعانابالبقاء لتناول العشاء ، ولكننا انتحلنا بعض الاعذار . قالت اثنا انها سوف تكتب الي خطابا طويلا ، وانني ربما اجد الفرصة لمساعدتها على

انجاز تأليف كتابها حول الحرية الجنسية للجميع .
وحينما وقفنا استعدادا للانصراف، سألت انجيلا :
« بالمناسبة ،هل تعرفان شيئا عن جماعة المنقاء »؟
هزت انّا كتفيها وقالت :
« وما تلك ؟ جماعة متهوسة جديدة من الشبان ؟»
كان من الواضح ان الاسم لا يعني شيئا بالنسبة لها، فلم تلح انجيلا على طرق الموضوع . وعند الباب ، قال دانكلهام :
« انك مغادر لندن اليوم، صحيح »؟
« غدا .»
« آمل ان نلتقي حينما تأتي الى هنا في المرة القادمة » .
انحنى انحناءة يابسة ،قلت :
« يجب ايضا ان اكتب الى البروفسور كورنر » .
قالت انّا : « لن يكون في هذا فائدة . لقد امرته الشرطة بمغادرة انجلترا . لقد عاد الى المانيا » .
« اوه . اني آسف لذلك . ولكن ، لماذا ؟»
قال كلاوس : «لم يكن اكثر من صاحب بيت دعارة محترف » .
في سيارة الاجرة ، وفي طريق العودة الى هولاندبارك ، قالت آنجيلا :
« من المؤكد انك تبدو كما لو كنت قد قابلت اناسا يبعثون على الدهشة .من المؤسف حقا اننا لا نستطيع ان نقابل الدكتور كورنر » .
« ولكن من المحتمل جدا ان تكون هذه طريقا مسدودة . عليّ ان اعترف بأن دانكلمان قال لي ان كورنر كان اول من ذكر ايزموند دونللي ، ولكنني افترض ببساطة انه كان قد قرأ كتابه « عن افتراع العذارى » .
تحدثنا عن اسرة دانكلمان . قالت انجيلا :
« لا اظن انك على صواب في النظر الى كلاوس باعتباره زوجا ضعيفا تسيطر عليه زوجته . لقد اجتاحني احساس غريب جدا حينما نظر اليّ اول مرة » .
« بأي شكل كان هذا الاحساس ؟ »
« احسست احساسا فكاهيا بانه كان يريدني انافتح ساقي . لقد رايت الوضع الذي كنت اجلس به ــ حتى زوجته لاحظت ذلك » .
« انني اظن ــ على اي حال ــ انها نصف شاذة جنسيا » .
« ما كنت لادهش من هذا . لم يسبق ابدا ان شعرت بمثل الشعور السيء الذي اجتاحني وانا اتحدث معهما. هل لاحظت ذلك ؟»
« اي نوع من المشاعر السيئة ؟»
« حسنا ــ انهما « قبيحان »جدا ، وهما حقا منفران جدا حينما يتحدثان كل هذا الحديث عن الجنس .ومع هذا فقد كان لحديثهما ــ من جانب اخر ــ

سحر من نوع خاص » .

كنت اعرف ما تعنيه . فحتى ذهابنا الى اسرة دانكلمان، كنت قد نظرت الى انجيلا باعتبارها شخصية تبعث على السرور الى حد كبير ، ولكن دون مزيد من الاهتمام الجنسي الذي يزيد عن شعوري ازاءها لو كانت شقيقتي . اما الان وانا اجلس الى جوارها ، فقد وجدت نفسي انظر الى استدارة نهدها تحت الصدار الصوفي الاسود ، واشعر بان عليّ ان اكبت رغبتي في مداعبته . كانت انّا دانكلمان قد دفعتني الى هذا الشعور بشكل ما ، بتوجيه الانتباه الى انجيلا باعتبارها موضوعا جنسيا .

قالت فجاة : « انا سعيدة لانك كنت هناك » ، وارتجفت وهي تتحرك لتصبح اقرب اليّ . كان من الطبيعي ان اضع ذراعي حول كتفيها . بعد لحظة ، ارتفع وجهها نحو وجهي ، وكنت اقبلها بانفعال عاطفي جفلت انّا لقوته . كان الامر مثل التهام ملء فم من الطعام ،ثم تكتشف بعد هذا انك جائع جوعا وحشيا ، تعانقنا بقوة متعلقين احدنا بالاخر ، ولساني داخل فمها ، ويدي تسحق النهد الذي كنت انظر اليه منذ لحظة واحدة . لم تكن هناك مجرد رغبة بسيطة في ملاطفة جسدها ، ولكن كانت الرغبة هي جرحها ، عصرها ، التهامها وامتصاصها . كانت متعلقة بي في استسلام كامل ، وحينما تركت يدي الى اسفل ، ضاغطة بقوة على ضلوعها ،ثم على معدتها،انفرج ساقاها (..) كنت فيحالة حادة منالتعب في جلستي ، بعد ان وصلت الى هذه النقطة ، كان الامر الطبيعي ان اخلع ما تبقى من ثيابها .. ولما كان ذلك مستحيلا ، فقد تحول جسدي الى قضيب حديدي من الشهوة .

انحرفت السيارة مرتين متتاليتين لكي تتفادى سيارة اخرى كانت تندفع ناحيتنا باضوائها الباهرة . انفصل احدنا عن الاخر مثقلا بالاحساس بالاثم . قالت :« آسفة » .

« لماذا ؟»

« كانت هذه غلطتي . لقدكنت اريدك ان تفعل هذا منذ غادرنا منزلدانكلمان».

كنا ما نزال متعانقين ،وكان قلبي ما يزال يضرب بعنف حتى كان من الصعب ان اتكلم . قالت :

« لم افعل هذا ابدا من قبل – ليس بهذا الشكل . لا اعرف ان كنت ستصدقني . ولكنني طهرية متزمتة تماما من الداخل » .

قلت ، بطريقة نصف تهكمية : « لقد نوّمانا مغناطيسيا ! »

« نظرت اليبجدية وقالت : « اظن ان هذا يمكن ان يكون صحيحا . انني واثقة من ان لهما قوة غريبة مننوعما. سوف اقول لك شيئا يصدمك من الدهشة . لو انني هناك بمفردي، لانتهيت الى ان امنح نفسي لهذا المنفركلاوس».

قلت ضاحكا : « ولو انني ظللت وحيدا في تلك الحجرة الصغيرة لمدة عشر دقائق اخرى ، لانتهيت الى ممارسة الجنس مع انّا »

« ولكنهـا منفرة الى حد مروع»!

اخبرتها بما كان من جلوسها وقد فتحت ساقيها ، وكان صحيحا ما قلته من انني لو ظللت جالسا امامها بمفردي لمدة خمس دقائق اخرى ، لانحنيت الـى الامام لكـي المسهـا (...) ومن المؤكـد انه كان من البلاهة ان ارفض ذلك .

توقفت سيارة الاجرة خارج المنزل . قالت :

« من الافضل ان ارتب ثيابي ».

ادركت ما كانت تعنيه . فقدكنت اتوهم انا ايضـا انني مهوش الشعر والثياب كمـا لو كنت قد نهضت من الفراش لتوي. دفعت الحساب لسائق السيارة بينمـا مرت بسرعة على شفاهها باصبع الاحمر وجرت بالمشط في شعرها على عجل .

فتحت انجيـلا الباب بمفتاحها ،ودخلنا الى الشقة . كان كل شيء ما يزال على حاله كمـا تركنـاه في الصباح . نادت قائلـة :« آلستير » ،ولكـن لم تسمع اجبته . هزت رأسها وقالت : « لا » وعرفت انها لم تكن تعلق على غياب آلستير ، وضعت يدي على صدرها . قالت : « ليس هناك وقت » . ولكني ادركت انها لم تكن جـادة . كنت ما ازال ساخنا مفعمـا بوهج الشهوة الغريبة العنف ، التي كادت تكـون كالحمى . جذبت طرف الصدار الصوفي فنزعته من تحـت وسـط الازرار ودسست يدي تحت الصدار . كانتترتدي حمالة صدر ، وبحركة جذب بسيطـة عريت النهدين . اخذت الحلمة بـن سبابتي وابهامي ودعكتها . اندفعت الى حضني وفتحت فمها مرة اخرى (...) وقدتها الى غرفة النوم ...

نادرا ما وجدت الجنس مدوخـا كالدوران بهذا الشكل . واظـن انه لـو ظهـر في تلك اللحظـة حشد كامل من المصورينعندالباب بآلات تصويرهـم ذات الاضواء الخاطفة ، لظللنـا على ممارستنا للجنس ، عاجزيـن عجزا مطلقـا عـن الفصل بيـن جسدينا . كان الاحساس الشبيه بالحمى مـا يزال قائمـا مضفياعلى الغرفـة جوا غير واقعي . بدونـا كمـا لو كنا قـد غرقنـا في ميـاه العـرق والافرازات الرطبة ... خطر لي ان آلستير قد يدخل الان في اية لحظـة ، ولكن كان هنـاك نوع من المتعـة من التفكير بأن يراقبنـا شخص ما . ثم اصبحت اللذة اكثر حدة من ان تكبـح او تمنع من الوصول الى ذروتها ..

بعـد عدة دقائق ، رقدنـا جنبا الى جنب ، وبدا العرق يبرد . فتحت عيني ونظرت اليها ، وتبينت مصدومـا ان انجيلا هي التـي كانت بجانبي ، الفتـاة الاسكتلندية الرزينة المحتشمة التي بدت لي في صورة الفتاة « اللطيفة » ولكنهـا ليست من النوع الذي احبه . فتحت عينيهـا ، ولاح انهـا جفلت عندمـا رأتني. وفجأة ، تذكرنا معـا ان نصف ملابسنا ملقاة على الارض في الحجرة الاخرى ،وان الباب كان مفتوحا . نهضت وذهبت الى الحجرة الخارجية لكي اجـيء بالملابس . وحينمـا عدت كانت واقفـة تشد سروالهـا الداخلي الى وسطها . ذهبت اليهـا وقبلتهـا . اعطتني فمهـا بطريقة آليـة ، كمـا لو كانت تمنحني قبلة مـا قبـل النـوم بشكل عادي كل يـوم . ثم ، كمـا لو كانت تتأسف على ذلك ، وضعـت

ذراعيهـا حول عنقـي . قالت :
« مـا الذي حدث لنـا ؟»
ادركت ما كانت تعنيه . لم يكـن ذلك جنسا « عاديا » ، الجنس الذي يمارسه شخصان قررا ان احدهما يروق للاخر واراد كل منهمـا ان يكتشف جسد صاحبه ويرتاده لنفسه . انما كان نوعا من النوبة العصبية ، كمـا لـو كنـا زوجـا مـن الحيوانـات . ولكنني كنت الان « مستر سورم »مرة اخرى ، وكانت هي قد عادت فاصبحت لادي انجيلا جليني ، وكنا شخصين راق كل منهما للاخر ، ولكن لسنا عاشقين ، بالطبع ، فيمـا عدا انه كان من المستحيل بالنسبة لنـا الا نكـون مدركين ان كلا منا قد افنى نفسه في جسد الاخر منذ قليل .
قالت فجاة :« يا الهي ، لقد نسيت . هذه اسوا فترة من الشهر ».
وضعت يدي برقة على معدتها ،قلت: « اذن فمن المحتمل ان يكون هناك سـورم صفيـر هنـا بالداخـل » .
« هذا محتمل » .
« هل يزعجك هذا »؟
ضحكت فجاة .
« كلا . لا اظـن ذلك » .
دق جرس التليفون . كان آلستير هو المتكام ، ليقول انه يحتسي كأسا مـع بعض اصدقاء دراسته ، وانه لن يعـود الا بعد ساعـة اخرى .
دخلت انا وانجيلا الحمام وتحممنا معا. احسستبانني منتعش رطب الجسد بشكـل غريب ، مسترخ تماما .وفي كل مرة نظرت الى انجيلا ، عانيت صدمةواهنة كمـا لو كان ما حدث مجرد خيـال جنسي حدث داخل راسي فحسب .
بعد نصف ساعة ،وبينمـا كنا نجلس متقابلين امام جانبي المدفاة . نحتسي كؤوس الفودكا ، قالت :
« اظـن انهمـا وضعـا لنـا شيئا في كؤوس الشيري ».
« اتعنين عقارا مثيرا الشهوة الجنسية ؟ لا اظـن هذا . ان للذبابة الاسبانية تاثيرا مزعجـا ومنبهـا للعصارة المعويـة ـ وقد ذقت شيئا منها في الجزائر » .
« ولكنك بالتأكيـد لا تعتقـد ان المنبه هنـا كان نفسيا . اتعتقد ذلك ؟ »
قلت :« سأقول لك مـا اعتقده . اعتقـد ان كلاوس اراد ان يمارس مـعك الجنس ، وانها ارادتني ان امارس الجنس معها . ولو اننا تناولنا العشاء معهمـا، لانتهى كل منـا الى الفراش مع صاحبه . ولكن ما حدث ، وايا كان ما فعلاه بنا ، هـو انهمـا جعلانـا يرغب كل منـا في الاخر ».
وحينمـا عدت بذاكرتي لكي افكر في عنف وسخونة ممارستنا للجنس ، عرفت انه كان على شيء من الغرابة.
قالت : « ان هذه الغرابة تجعلك تتساءل عمـا اذا كان هنالك حقا شيء ما في تلك القصص التي تحكى عـن تمائم الحب ـ مثلمـا قيل فـي اسطورة تريستان وايزولده ، ومـا الـى ذلـك ؟»

« لقد عرفت رجلا بوسعه ان يقول لك ــ رجلا يدعى كارادوك كانينجهام. »

« اجل ، انني اسمع عنه . لقــد قرات كتابك . ولا اظنني احب ان اقابله». حينما جاء آلستير بعد نصف ساعة ، كانت تطهو وجبة طعـــــام ، وكانت الشقــة مفعمــة برائحــة الخل والثوم . قال :

« ارجــو الا تكونا قد سئمتما من الضجر بدوني ».

قالت انجيلا : « كلا ، لقــد وجدنا الكثير مما نفعل ».

« تفعلان ؟ »

« اعني مما نقول ونتحدث عنه . »

كان ينكت بالطبع ؟ كان يعرف انه لا آنجيــلا ولا انا من النوع الذي يمكن ان يقع في حب الآخر في خلال ساعات من اللقاء الاول .

* * *

في الليل ، انتابتني احلام مزعجة لا استطيع ان اتذكرها . ولكنــي حينما استيقظت كنت ايزموند مرة اخرى . كان هذا هو اغرب ما احسست به حتى ذلك الحين ، كنت قد شربت قدرا كبيرا من عصير التفاح المخمر بعد العشاء ، ورغم انني لم اكن سكران ، فقد انتابني ذلك الاحساس بالانفصال البسيط عن الواقع ، وباللامعنى . ومن الجانب الآخر ، كان ايزموند مستيقظا يقظة كاملة . بالنسبة له، بدت هذه الحجرة ذات السقف المرتفع مالوفة بشكل كاف ، وكان العنصر الــذي يسبب له قدرا بسيطا من عدم الفهم هو صوت سيارة ركوب او شحن عابرة تجري على طريق هولاند بارك . كان احساسي بالعودة الى القرن الثامن عشر اكثر قوة مما كان في دبلين ، ربما لانه لم تكن هناك عناصر تشتيت في وسط الظلام . غرقت في النوم مرة ثانية ، ورحت احلم احلاما مشوشة عن هوراس والبول ، وليتشينيرج وبوزويل وجونسون . وحينما استيقظت في الصباح ، كنت اذكر جونسون بوضوح تام وهو يقول مؤكدا بقوة ــ وهو ينثر الرذاذ بشفته السفلى الكبيرة المتدلية :« ان الرجل متشرد محتال وغد شرير يا سيدي ، ولسوف تحسن صنعا لو انك تجنبته تمامــا . »

اخذنا طائرة في الحادية عشرة والنصف ، فوصلنا ادنبرة بعد ساعة ونصف . تناولنا طعام الفداء في غرفة خلفية باحدى الحانات مع الدكتور دافيد سميللي ، استاذ آنجيلا ، وهو رجل ضئيل الحجم له وجه كوجه كلب صيد صغير . كان قد كتب ذات مرة عرضا شريرا بشكل خاص لاحد كتبي ، ولذلك فقد ابتسم بخنوع وهو يقدم الي ، ولكنه حينما اشار الى الموضوع اشارة متعمدة ، تظاهرت بانني لم ار المقال وان علاقتنا طيبة بشكل كاف . لم تكن بي حاجة الى ان اتحدث كثيرا ــ فقد اراد كل مــن الستير وآنجيــلا ان يخبراه بكــل ما يتعلق بايزمونــد دونللي وباكتشافاتي . انصت بأدب لبرهة ، ثم قال :

« اخشى ان اقول انني لا ارى السبب الذي يجعلك تنظر اليه بكل هــذا الاهتمام . انه يبدو لي كما لو كان افاقا نموذجيا من افاقي القرن الثامن عشر . هل

حدث ابدا ان فكر في اي شيء آخر باستثناء الجنس ؟ »
نظرت آنجيلا الي ، واظن انها كانت تميل الى الموافقة . قلت :
« بمعنى ما ، كلا . وبمعنى آخر ، فان الجنس لم يكن يهمه على الاطلاق . »
قال بخبث : « اليس هذا هو ما يدعى بالتحايل الشرعي على القوانين ؟ »
لم يكن متعاطفا ولم يكن لطيفا ، ولكنني قررت ان احاول الشرح . قلت :
« كلا . انما ارى ايزموند كرجل تملكته وسيطرت عليه مشكلة المعنى . »
« معنى ماذا ؟ الوجود الانساني؟ » تذكرت انه كان قد كتب عددا من التعليقات الحادة المرتفعة النبرة في مقاله عن كتابي حول ما دعاه بانه « هاجس العجز الديني المتسلط علي » . ولكنني اردت ان اوضح الموقف للاثنين الآخرين ، قلت :
« انها مسألة اما ان تفهم او تعجز عن الفهم . بالنسبة لي ، انها مشكلة واضحة في حد ذاتها . احيانا تبدو الحياة مثيرة للاهتمام بشكل واسع وعميق مفعمة بالمعنى ، فيبدو هذا المعنى حقيقة موضوعية ، مثل ضوء الشمس . وفي احيان اخرى تبدو عقيما خالية من المعنى مثل الريح . اننا نقبل هذا الخواء من المعنى ، هذا الانهيار في وجوده ، مثلما نقبل تقلبات الطقس . انني اذا استيقظت مصابا بالصداع او بنزلة برد سيئة ، فانني ابدو كما لو كنت غير قابل لادراك اي معنى . والآن ، اذا استيقظت وانا مصاب بصمم حقيقي او وانا نصف اعمى حقا ، فانني سأحس بأن ثمة خطأ ما في جسدي وسوف اذهب لاستشارة طبيب . ولكنني اذا كنت غير قابل لادراك اي معنى ، فانني اقبل هذا الوضع كما لو كان شيئا طبيعيا . ولكن ايزموند لم يقبله كشيء طبيعي . وقد لاحظ هو الآخر اننا في كل مرة نستشار فيها جنسيا ، يعود الينا المعنى . يمكننا حينذاك ان نسمع من جديد . وهكذا فقد الح في طلب الجنس باعتباره سبيلا لاستعادة المعنى . »
سألت آنجيلا : « وماذا من امر هوراس جليني ؟ »
« كلا . انه لم يكن مهتما ببحث ايزموند عن المعنى . لقد اعجب بأيزموند ، ولكنه لم يفهمه . »
ظل سيميللي على عدم اقتناعه وقال : « انني وقد قرات كتابه « عن افتراع العذارى » فانني لم اجد شيئا يمكن فهمه » . قلت :
« انني لا اعتقد ان ايزموند كتب هذا الكتاب . »
« لم يكتبه ؟ اذن من كتبه ؟ »
« لا اعرف . ولكن اسلوبه ليس اسلوب ايزموند . »
هز كتفيه كما لو كان يقول انني استطيع ان اغرق في اي نوع من الخيالات يروق لي ، ولكن هذا ليس من شأنه . قلت :
« هل حدث ان رايت التاريخ المكتوب على الطبعة التي قراتها ؟ »
« بالطبع . كان ١٧٩٠ » .
اثارني هذا . كانت الطبعة التي رايتها في جالاواي قد طبعت في لايبزيج عام ١٨٣٠ .

» من الذي طبعها ، واين ؟ »

« لم يذكر اسم الطابع . ولكن قائمة الجامعة تقول ان الكتاب طبع في مطبعة خاصة في ادنبرة . »

« انت واثق من هذا ؟ »

« ليس من عادتي ان اخلط بين ما اقوله من حقائق . » تذكرت ان هذه كانت واحدة اخرى من لمزاته القارصة لي ، وهكذا فقد تجاهلت الموضوع . ولكن الادب والمجاملة اللذين ابديتهما وانا اصافحه منذ نصف ساعة مضت لم يكونا قد وهنا تماما . هكذا اتضح جزء آخر من اللغز وطرح سؤاله الجديد . وبدأ احد الشكوك التي كانت قد راودتني من قبل يظهر في صورة اقل عبثية . لانه اذا افترضنا ان كتاب «عن افتراع العذارى» كان مزيفا ومنحولا ، فمن يمكن ان يكون قد كتبه ؟ من الواضح انه شخص كان يهتم بأن يظهر ايزموند في صورة الافاق كاتب ادب الدعارة. من السهل ان نفترض ان الكاتب هو جيلبرت ستيوارت ، الذي كان على علاقة ودية مع هوراس جليني ، والذي كانت له مصلحة في ان يلطخ سمعة ايزموند بالوحل . ولكنه كان قد مات في عام ١٧٨٦ . وهذا يؤدي الى « مرشح » واحد لتأليف الكتاب : جليني نفسه . واذا كان كتاب « الافتراع » قد طبع في ادنبرة ، فان الاحتمال يصبح قويا الى اقصى حد .

كانت الساعة قد جاوزت الرابعة بعد الظهر حينما غادرنا ادنبرة اخيرا في سيارة استأجرناها وشرعنا في مسيرتنا الطويلة نحو الشمال — وهي مسافة تكاد تبلغ المسافة بين لندن وادنبرة نفسها . قطعنا السير في مدينة بيتلو شيري ، وغادرناها في ساعة مبكرة من الصباح . وفي الرابعة من بعد ظهر ذلك اليوم كنا نقطع المرحلة الاخيرة من رحلتنا ، وهي المسافة من بلدة دورنوش الى جاوسبي . كانت المروج البرية الواسعة ومناظر البحر المفاجئة شديدة الوقع ، ولكن الشيء الذي احتل افكاري حقا هو المجهود الخالص الرامي الى استعادة نفس هذه الرحلة في عام ١٧٧٠ ، في عربة متأرجحة ، فوق طرق كانت احسن قليلا من « المدقات » الترابية القذرة . من المحتمل ان اكثر قاطني جلوسبي لم يسافروا الى ابعد من دورنوسن او اينفرنيس . فلا عجب ان كان هوراس جليني موضع كل هذا الاعجاب بعد عودته من رحلاته الاوروبية . توقفا في القرية لكي نتصل بفرانكلين ميللر — المالك الجديد لمنزل جلوسبي — ثم اتجهنا الى الشمال الشرقي . يقع قصر جلوسبي فوق منحدرات جبل بين هورن ، مطلا على بحيرة لوش برورا . وبينما كنا نقطع هذه المرحلة القصيرة الاخيرة من الرحلة ، حاولت جاهدا ان استرخي ، وان اراها بعيني ايزموند ، ولكن لم تكن ثمة جدوى ، كان الامر كله بالغ الغرابة . سطعت ومضة من التعرف كالذكرى وانا انظر الى الميدان والمنزل الرمادي . ولكن كان من الممكن انني اخدع نفسي .

كان هناك عدد كبير من الدعامات الخشبية مرتفعة امام واجهة المبنى ، ومن الواضح ان المالك الجديد كان يصلح المنزل . كان الطريق الخاص المؤدي من الشارع

العام الى المبنى قد اعيد رصفه ، وبدت احواض الحديقة في حالة جيدة . كان من الممكن ان يكون فندقا غاليا .

كان فرانكلين ميللر رجلا ضخم الجسد ودودا بدا كما لو كان قد ولد لكي يكون مالكا من ملاك الارياف . وبدا مبتهجا حقا لـ « حصوله » علينا ضيوفا في منزله الجديد . قادنا الى المكتبة الضخمة ، حيث كانت مدفأة ضخمة ـ تعمل بكتل الخشب ـ مشتعلة بنار كبيرة . قبلنا كؤوس الويسكي ، وقابلنا مسز ميللر التي رجتنا ان نبقى عندها اطول مدة ممكنة . بعد ان تمشينا حول الحديقة وهبطنا الى جانب المنحدر الملحق بالقصر ، سألت ان كان بوسعنا ان نمضي ساعة قبل العشاء لنلقي نظرة على الطابق العلوي المغلق (السقيفة) حيث كان آلستير قد راى رزما من الاوراق القديمة . قال لنا مضيفنا ان نعامل المنزل كما لو كان مالكه لم يتغير ابدا ، وخرج لكي يرى ما كان عماله يفعلون .

قال آلستير : « انني اعرف اين يجب ان نبدأ . يجب ان ننظر الى كتاب العائلة المقدس . انه يضم قائمة بتواريخ ميلاد وموت كل من عاش من اسرة جليني في جلوسبي » .

كان الكتاب المقدس في المكتبة ، موضوعا فوق رف مرتفع ـ كان مجلدا فخما، ذا غلاف من الجلد اللامع ، يزيد ما لا يقل عن خمسين رطلا . كانت نسخة من « الكتاب المقدس العظيم » ـ طبعة جرانمر التي صدرت في ١٥٣٩ . وخطر لي انها يمكن ان تساوي مثلما دفع في منزل جلوسبي نفسه ،ولكنني لم احب ان اقول ذلك . كانت الصفحات الست في نهاية المجلد مغطاة بكتابات صفحة بعد اخرى في خط كالخربشة لا يقرا ، كتب بحبر ذوى اونه وبهت ، بدات باسم اسكندر جليني ، الذي مات في عام ١٥٧٩ (قبل ان يغادر شكسبير بلدة ستراتفورد اون آفون) والذي كان من الواضح انه نال مرتبة فارس من الملك هنري الثامن . كانت اسرة جليني قد رفعت الى مرتبة النبالة على يد جيمس الاول . وفي بعض الاحيان كانت تتلو الاسماء اسباب الموت : « حمى » ، « تسمم كحولي » ، « خصر مكسور » (أيا كان معنى ذلك) . كانت هناك سطور تعليقات عديدة بخط تعرفت فيه على خط هوراس جليني . كان اسمه متبوعا بتاريخين : ١٧٤٧ ، ١٧٩٦ ، ولكن لم يكن هناك ذكر لسبب الموت . مات والده في عام ١٧٧٨ ، فأصبح اخوه موراي هولورد جليني. وقتل موراي بسبب « السقوط من فوق ساري » ، (هل كان يقصد « صاري » المؤخرة في سفينة ؟) في عام ١٧٨١ ، مما ادى الى ان ورث اخوه الاصغر لقب الاسرة .

كان في هذا بعض العون على الاقل ، فقد عرفت ساعتها تواريخ ميلاد وموت هوراس جليني على وجه الدقة . ولكنني لم اعرف سبب موته . سألت آلستير ان كان يستطيع ان يتذكر الغرفة التي قيل له انها « غرفة القتل » .

« أوه ، اجل ، بالطبع . » قادني الى خارج المكتبة ، وصعدنا السلم الرئيسي، وعلى طول ممر بين بعض الحجرات . طرق الباب ، ثم فتحه . كان من الواضح

ان الحجرة الآن هيئت لتكون غرفة نوم الضيوف ، كانت تطل على المنحدر ، وكان احد العمال يصفر على « الصقالة » خارج النافذة .

قالت آنجيلا : « بالتاكيد لم تكن هذه هي الفرفة انتي اطلعني عليها جوردون. كانت الاخرى في الجناح الآخر . »

وبعد بعض التردد عثرنا على هذه الاخرى . كانت تطل على القسم الخلفي من المنزل ، وكانت النافذة تؤدي الى مسقط عميق يؤدي الى فناء صغير . كانت حجرة عارية باردة ، ولم يكن احد جدرانها يحمل اي شيء من الزخرفة او التجميل. كان حجر الجرانيت قد سجح حتى اصبح مسطحا ناعما . اشارت آنجيلا الى اثر طولي بني اللون جرى فوق ذلك السطح حتى بلغ الارض وقالت : « قال لي جوردون ان هذا الاثر كان لبعض الدماء ـ وان القتيل كان يرقدعلى السرير حينما اطلق عليه احدهم النار من النافذة . »

كان هذا ممكنا ، وقد بدا الاثر كما لو كان اثرا للدماء فعلا . ومـن جانب آخر ، بدا لي انه من الامور البعيدة الاحتمال ان ينام سيد المنزل في حجرة بهذا الشكل . وكان الاكثر احتمالا ان آثار الدم هي التي ادت الى خلق قصة عـن جريمة قتل .

ثلاثة منعطفات اخرى من الدرجات قادتنا الى السقيفة العلوية التي وجدناها مظلمة ومتربة حتى اضطر آلستير ان يهبط ثانية لكي يستعير مصباحا . جلست انا وآنجيلا فوق صندوق ادراج قديم ، بعد ان نفضت التراب بمنديلي . كنـا متعبين ، فقد كانت الرحلة طويلة وكنا بحاجة الى راحة طيبة تلك الليلة . وضعت ذراعي حول كتفيها ، فمالت براسها واسندته على كتفي . تركت خدي يستريح على شعرها واغمضت عيني . كان المكان بالغ الهدوء ، ولم يكن ثمة صوت سوى هسيس الرياح اذ تصطدم بحواف الجدران العليا بالخارج ، مصحوبة بسقسقة طائر بعيد . كان احساسي بدفئها ملاصقا لي احساسا ممتعا . وفجـأة ، ودون مقدمات ، تذكرت . او بالاحرى ، تذكر ايزموند . كانت رائحة التراب مألوفة ، كذلك كانت رائحة شعر آنجيلا . تحققت من الخطأ الذي لم اتبينه من قبل . فاننا حينما نرى اماكن جديدة بالنسبة لنا ، يجدها العقل غريبة ، فيبـذل « مجهودا » لكي يحيط بها من اجل ان يتواءم معها ويقبل بوجوده داخلها . وهذا المجهود هـو ما يدمر الالفة الفريزية للذاكرة . كنت شديد التلهف الى دخول ردح هذا المنزل ، لكي اتذكره ، حتى انني كنت اختلق انطباعاتي عنه اختلاقا . والآن ، اللحظة ، كففت عن النظر اليه باعتباري غريبا ، استرخيت وشعرت كما لو ان صورة قديمة قد طبعت نفسها بقوة فوق انطباعاته الجديدة عن المنزل ، ثم امتزجت معها . كنت اعرف هذا المكان ، كنت اعرف المنحدر والتلال ومنظر البحر البعيد تحت الوادي . وكنت اعرف ايضا ان آنجيلا كانت على صواب . لم تكن الحجرة التي رايناها منذ لحظات هي الحجرة التي قتل فيها هوراس جليني . ولكن آنجيلا كانت مخطئة في نقطة واحدة ، انه لم يطلق عليه الرصاص . لقد طعن بنصل حاد . شعرت بيقين عجيب من هذا .

عاد آلستير يجر وراءه حبلا طويلا من السلك الكهربائي وواحـدا من تلك الاقفاص المعدنيـة المزودة بمصباح في داخلها والتي يستخدمها مصلحـو آلات السيارات . وصلنا طرف السلك بنقطة توصيل كهربائية في الطابق الاسفل ، وعلقنا المصباح داخل قفصه فوق دعامة خشبية منخفضة في سقف السقيفة . ثم اخذنا في مسح المكان . لم يكن ثمة شيء واضح اكثر من ان هذا المكان لم يطأه انسان منذ سنوات . ولم يستطع آلستير ان يتذكر انه قد بحث فيه عن شيء حتى فـي طفولته . كان كل شيء غارقا تحت عدة بوصات من التراب مع نـوع من الزغـب المندوف ، وكان نصف السقيفة مغلقا بواسطة سلسلة متتالية من نسيج العنكبوت التي جللها التراب حتى صنعت ستارة كثيفة عازلة . (وكنت دائما اتعجب من كيفية محافظة العنكبوت على حياته في الامكنة المغلقة) . ولكن كان هناك الكثير ـ بوضوح ـ الذي لا بد من استقصاء حقيقته ، بما في ذلك كومة من الفلايين الكبيرة المحطمة. مع كل خطوة تحركناها كان التراب يغزو انوفنا . حطمت نسيج العنكبوت بمحراك مدفئة معدني قديم ، ونظرت الى القسم الثاني من السقيفة . كانت هناك كل انواع الصناديق والعلب الورقية واكوام من دفاتر الحسابات وحزم الاوراق . حاولت ان افك احدى تلك الحزم ، فبدات الاوراق تتهشم تماما كما لو كان الورق الذي صنعت منه قد جفف بالنار . وكانت حزم اخرى غارقـة في نوع من الطلاء الزيتي جعلهـا مستحيلـة القراءة .

بعد نصف ساعة من هذا البحث اصبحنا جميعا في غاية العطش ورحنـا نعطس مرة كل دقيقة . صعد الينا فرانكلين ميللر لكي يستقصي امرنا ، ونظر حوله لمدة دقيقة او اثنتين ثم انصرف وهو يقول : « الافضل ان تبحثوا انتم ، لا انا . » واخيرا قال آلستير : « اظن انني سأهبط الى الطابق الارضي لاشرب زجاجة من البيرة . هل يأتي احدكما ؟ » قالت آنجيلا انها ذاهبة معه ، ولكنني قررت ان ابقى هناك لفترة اخرى ، ولكن خمس دقائق كانت كافية . بدات افكر باشتياق في قدح من الجعة كبير وبارد في الحانة المحلية . كانت عيناي تدمعان ، وكان صبري ينفذ بسرعة ، حتى انني كنت كلمـا تحركت ثرت معي قدرا من الغبار والتراب لا ضرورة لمزيد منه . شعرت كما لو كنت بحاجة الى حمام جيد ، وكما لو كان شعري قـد امتلأ بعناكب صغيرة خرجت لتوها من بطن امها . وبعد ان جذبت درجا هائل الحجم من قلب صوان ، وكافحت من اجل ان اصل شريطا جلديا ربطت به احدى الحزم وتجمد حتى صار في صلابة الفولاذ ، تحركت الى الباب الواطىء الكي استنشق بعضا من الهواء النقي . جلست عند الباب ، اتثاءب ، وافكر في انه اذا كان ايزموند ينوي ان يساعدني فان الآن هي اللحظة المناسبة لتلك المساعدة . سار عنكبـوت فجأة على عنقي ، فوقفـت على قدمي مجفلا حتى انني ضربت راسي فـي احدى الدعامات الواطئة ،فجلست على الارض ، وراحت الاضواء تتراقص ملتمعة وخابية امام عيني . جلست في مكاني محدقا بانزعاج في العنكبوت الذي تعلق هاربا بخيط طويل متدل من فجوة صغيرة ثبت فيها شيء مثل توصيلة كهربائية قديمة علقت في السقف بمسمار كبير . تسلقت السلم هابطا ، وجسدي يحتك بالحاجز هابطا نحو

الارض وانا انظر بحسد الى رجل يصيد السمك من قارب في البحيرة القريبة .

مددت يدي الى اعلى لكي اقطع التوصيلة الكهربائية التي كانت تضيء السقيفة، حينما خطرت الفكرة فجاة على ذهني . اذا لم تكن هناك اضاءة في السقيفة ، فلماذا كانت هناك تلك التوصيلة الكهربائية التي تعلق بها خيط العنكبوت ؟ صعدت السلم ثانية وتناولت منفضة ، ونفضت نسيج العنكبوت الذي كان يغطي مساحة الورق المفرود . ونظرت نظرة اكثر تدقيقا ، فعرفت السبب الذي جعلني اخطىء فأظن الشيء الذي رايته توصيلة كهربائية . كانت مساحة الورق صندوقا كبيرا رسمت على ظهره رسوم دقيقة ، ويحتوي على عدد كبير من الصناديق الصغيرة التي ربط بعضها الى البعض بخيط واحد . كان على كل صندوق حروف كتبت فوق ظهره ، وعلى احد جوانب كل صندوق كانت هناك قائمة اخرى من الحروف الابجدية التسلسل ، وهناك كتابة امام كل منها . لم اكن اعرف ماهية تلك الصناديق وانا احملها الى اسفل ، كان حدسي يعمل مرة اخرى . كان التراب كثيفا عليها حتى عجزت عن قراءتها في هذا الضوء المعتم ، هبطت الى الطابق الاسفل ، ونفضت عنها التراب بعناية مستخدما منديلا ، واخذتها الى قرب النافذة . وقد كانت « رسما » - رسما توضيحيا للسقيفة نفسها . ولو انني فكرت فيها بعناية منذ رايتها ، او لو انني فكرت في السقيفة نفسها منذ القيت عليها نظرتي الاولى ، لكنت قد لاحظت ان الاصونة المختلفة والحزم الموجودة في السقيفة كانت موضوعة بطريقة مرتبة ومنظمة توحي بان شخصا ما قد وضع هذا النظام ، وايا كان الشخص الذي رتبها فانه قد صنع ايضا هذا الرسم كدليل لمن يريد البحث عن اي شيء فيه .

سمعت آلستير ينادي : « الن تهبط الان يا جيرارد ؟ سيعد العشاء بعد نصف ساعة . »

قلت : « من كان الشخص الذي اسمه ج. راليون ؟ »

« جورج راليون ؟ كان شيئا كالمساعد العام هنا في زمن جدي . وقد عاش حتى بلغ الواحدة والتسعين وهو يسكن منزل البوابة . لماذا ؟ »

اريته الجانب الاخر من الرسم . كان التوقيع الواضح يقول : « ج. راليون ». جريت باصبعي حتى توقفت عند حرف « ك » : « اوراق ، ل ، حتى ٩ . لورد جليني » كان هذا هوراس جليني . قلبت الورقة الى الزاوية المقابلة . كان « ك » موجودا في الركن القصي من السقيفة .

تبينت ان « ك» كان صوانا ضخما من الصفيح او الصاج ، وكان المقبض قد علاه الصدأ حتى اصبح فتحه عسيرا . فتحناه عنوة بالاستعانة بمحراك المدفأة. كان مزدحما مشوشا بكراسات الحسابات ، والخطابات والاوراق السائبة ، فاما ان احدا قد عبث به منذ عهد « ج . راليون » واما ان محتوياته قد وضعت دون محاولة لترتيبها بالداخل . فتحت خطابا . وكان يبدأ :« عزيزتي ماري » وبدا من المضمون ان الخطاب كان حول مشكلة عائلية عن بيع احد المنازل في جيلفورد . دفعت يدي

في الصوان ، وفتحت عددا آخر من الخطابات عشوائيا . كان احدها موجهـا الى ميس فيونا جوتري . ، وكان يبدأ : « عزيزتي ميس جوتري » وينتهي بعبـارة : « المخلص الذي يحترمك » . كان هذا مؤرخا في اغسطس عام ١٧٦٦ ، وموجها من جوتينجين ــ وهذا معناه انه ارسل قبل شهور قليلة من الاحداث التي وصفها في خطابه الى ايزموند .

حاولت انا وآلستير ان نحمل الصوان لكي نهبط به السلم ولكنه كان ثقيلا جدا . فقررنا تركه في مكانه ، وسرنا شاعرين بالانتصار فهبطنا الى حجرة الطعام لكي نعلن عن الاكتشاف ، فأثرنا من الانفعال ما كان مكافأة معقولـة ومؤقتة لـي. تركتهم بعد قليل وصعدت ثانية لكي افحص الصوان ، بينما كنت احتسي كأسا من الجعة المثلجة ، ثم ذهبت لكي استحم . وحينما عدت اليهم ، كانوا قد كوموا حزما من الاوراق والملفات على بساط المدفأة ، وكانوا ينظرون الى ما فيها . نظرت الى ما تم العثور عليه ، ولكنني لم اجد شيئا ذا اهمية .

تأخر العشاء نصف ساعة . فاكلنا كميات كبيرة من شواء الحجـل وطيـور الغابة وشربنا نبيذ بوجوليه ، الامر الذي جعلنا جميعا نشعر بالنعاس ، فذهبنا الى الصالون لكي نشرب القهوة ونشاهد الاشياء في التليفيزيون . في التاسعة والنصف، سألت ان كا نبوسعي ان استخدم التليفون ، وانني لم اكن قد اتصلت بديانا منذ تركنا لندن .

كان الخط التليفوني جيدا ، فكان بوسعي ان اسمعها كما لو كانت على بعد ميل واحد . اخبرتها بالاشياء ــ عن انني قد عثرت على شيء من اوراق جليني ، ولكن لا شيء يمكن ان يعد بشيء كثير . سألتها ان كان لديها اي اخبار .

« ليس الكثير . هناك خطاب من فتاة تريدك ان تذهب لكـي تعيش معها في ميامي ، وخطاب آخر من رجل يريدك ان تؤلف كتابا تحمل فيه على العقـول الالكترونية . وهناك خطاب قصير من رجل يدعى كورنر يقول انه يجب ان يراك حينما تذهب الى لندن في المرة القادمة . »

« كيف تتهجين هذا الاسم ؟ »

« ك ــ و ــ ر ــ ن ــ ر . »

صحت : « ماذا ؟ ما اسمه الاول ؟ »

« لا اتذكر ، هل ابحث عن الخطاب ؟ »

« اجل ، ارجوك . »

عادت بعد دقائق قليلة ، وقرات لي الخطاب . كان المرسل هو اوتو كورنر ، الرجل الذي قالت لي اسرة دانكان انه ابعد عن البلاد . كـان يعيش فـي ويست هامبستيد . قال انه قرأ خطابي عن ايزموند دونللي في الملحق الادبي للتايمز ، وانه يود ان يتحدث معي بشأنه ، وكتب رقم تليفون في النهاية .

حينما انهت ديانا المكالمة ، اندفعت الى حجرة الجلوس ، صائحا وانا ارقص ملوحا بالورقة التي تحمل عنوان كورنر . شعرت بأن هذه الخطوة ستكون انطلاقة

كبرى الى الامام ــ ليس لانني توقعت من كورنر ان يعرف شيئا عن دونللي لم اعرف انا به بعد ، وانما لانني شعرت بأن الآلهة تقف الى جانبنا . كاد سرور ميللر بهذه الانباء يعادل سرورنا ،كان قد شرع يقع فيشبكة « البحث عن ايزموند دونللي ». قال : « لماذا لا تتصل به الآن على الفور ؟ » ولم اكن بحاجة الى مزيد من الحث او التشجيع فبعد خمس دقائق ، كنت اسمع صوتا مثل صوت ممثل كوميدي يقلد استاذا المانيا عجوزا ، يقول :

« جميل جدا انـك تكلمت ، يا زورم . حندنـا (عندنا) الكثير الذي يجب ان نناقشه . »

قلت : « لقد رايت دانكمان وزوجته في لندن منذ يومين . وقد قالا لي انك عدت الى المانيا . »

« ماذا ! انهما يعرفان ان هذا غير صحيح ! يجب الا تثق بهما . . .»

استمر يتحدث طوال عشر دقائق عن دانكمان وزوجته ، مستخدما كلمات من الالمانية من حين الى حين . وانتهى الى ان نصحني بقوة الا اعود الى رؤيتهما مرة ثانية حاولت ان اكتشف السبب الذي يجعله يعاديهما الى هذا الحـد ، ولهذا قلت له انهما يبدوان كزوجين لا ضرر منهما . صاح يقول :

« ماذا ؟ لا ضرر منهما ؟ كيف ، ان هذا الرجل قاتل . »

« انت واثق ؟ »

« واثق تماما. انه قاتل . لقد تزوج فتاة ثرية في سويسرا ثم ساق جسدها في وعاء صنع الفراء . كان في هذا الوقت يملك مصنعا للفراء ــ واختفت بعـد زواجها منه بأسابيع قليلة . وقد قام طبيب بتحليل عينة من الفراء الذي انتجه في تلك الفترة وقال انه كان مصنوعا من عظام آدمية . ولكنهم لم يستطيعوا اثبات اي شيء . وانه جدير بان يسجن ثلاث سنوات بتهمة تعدد الزوجات ».

بدت لي القصة مثيرة الى درجة تجعلها غير قابلة للتصديق . (وفي الحقيقة، اكتشفت فيما بعد ان كورنر لم يسرد علي اكثر التفاصيل رعبا ــ وهو ان كلاوس مزق جسد زوجته السويسرية قطعا صغيرة بشفرة حلاقة ، واطعمها السمكـة البيرانها المتوحشة التي كان يربيها في منزله) . تحدثت مع كورنر لعدة دقائـق اخرى ، ووعدته بأن اتصل به في طريق عودتي الى ايرلندا . قال : « حسنا . ارجو ان تمضي في لندن عدة ايام . ان لدي الكثير الذي اود ان اقوله لك . »

لاح لي هذا محملا بالوعود الطيبة . عدت لكي اخبر آنجيلا بالتفاصيل الجديدة عن كلاوس دانكمان ، وانتهينا الى سرد حكاية زيارتنا بالتفصيل لمضيفنا ومضيفتنا، ولكننا حذفنا ما حدث بعد ذلك .

* * *

كنت بالغ التعب حتى انني ذهبت مبكرا الى الفراش . ولكنني استيقظت في السابعة من صباح اليوم التالي ، فأرتديت معطفا فوق سترتي ، وجلست على مقعد صغير واطىء في السقيفة ، ورحت احمل بعناية كل حزمة او ملف من الصوان ،

واضعا الاوراق السائبة في كومة مستقلة مرتبة . كان قد مضى علي نصف ساعة من البحث قبل ان التقي بأول اكتشاف منعش للامل : حزمة من الخطابات ربطت بشريط جميل ، وقد كتب العنوان على كل منها بخط بناتي مستدير : « السيد هوراس جليني . فرديناند ستراسه رقم ٩ (منزل فون هير بوليش) جوتينجين » كانت كاتبة تلك الخطابات هي فيونا جوثري ، وارسلتها الى هوراس جليني ، وبدات في فبراير عام ١٧٦٧ — بعد شهر من حادثة اقترابه من اغوائها . كانت الخطابات من فتاة واقعة في الحب ، والاكثر من هذا ، كانت خطابات من فتاة شعرت بانهما مرتبطة ومخطوبة . كانت الخطابات مليئة بما يدور في بيتها من اشاعات وهمسات، وعن شقيقته ماري ، وعن كلب كان قد اعطاه لها . وجدت قراءة تلك الخطابات مثيرة للشفقة ، لانها اعطت لكاتبتها مسحة من الحقيقة الواقعية — تلميذة تقع في الحب لاول مرة ، فتاة منحت لحبيبها شيئا من الحرية في التصرف معها لانهما لا تستطيع ان ترفض له اي طلب . وتظن انه يفكر فيها باستمرار بنفس الطريقة التي تفكر بها هي فيه . كانت هناك ملاحظة من ماري في احد الخطابات تقول : « ارجو ان تكون الفتيات عندك في مثل قبح الحمير » ويبدو ان هوراس قد اجاب عليها اجابة مطولة ، وراح يذكر ايزموند بحماس كبير ، لان فيونا تقول :« انا واثقة من ان صديقك ايزموند دونللي طالب متقدم و (ذكي) ولكنني (انا) لا استطيع حقا ان اعجب به دون ان اقابله ... انني افضل ان اسمع تفصيلات عن اعمالك انت . » فمن الواضح ان هوراس قد استهلك الكثير من الوقت في الثناء على ايزموند .

في عيد الميلاد التالي (١٧٦٧) يبدو انهما تشاجرا بسبب احدى الخادمات . « انني اتمنى لو استطيع ان افهم لماذا تحب ان تلمس مثل هذه المخلوقة الملوثة بالدهن » : الامر الذي يفسر دون شك السبب الذي جعل فيونا تحافظ على عذريتها ماما آخر . ولا بد انه كان عيد ميلاد مليئا بعوامل الاحباط بالنسبة لجليني بعد فشله في محاولة الاغواء المخططة التي قام بها في اوزنا بروك .

وضعت خطابات فيونا جانبا لكي اتمكن من دراستها فيما بعد دراسة اكثر دقة ، ومضيت في عملية افراغ الصوان . بالقرب من القاع ، بدت لي المحتويات اقل فوضى واكثر ترتيبا ، وقد كومت دفاتر الحسابات في ركن واحد . اخرجت كل هذه الدفاتر ، وحينما ازحت آخرها ، رايت صندوقا معدنيا اسود اللون مدفونا تحت حزم كثيرة من الاوراق . اخرجته بجهد ، ووجدت انه يبلغ حوالي ثماني عشرة بوصة طولا ، وان عمقه يبلغ حوالي تسع بوصات . لم يكن مغلقا . فتحته ، فوجدت نفسي انظر الى الصفحة الاولى من مخطوطة كتاب كتبت بخط اليد ، وتقول : « خطابات من فوق احد الجبال » تاليف « جورج سيمشسون ، د.د.» عثرت على الكراسة الصغيرة التي استخدمها لجمع مادتي عن دونللي . وكان الامر كما قدرت هو ان الطبعة المنشورة من كتاب « خطابات من فوق احد الجبال » كانت من تاليف ريجنالد سيمشسون . ولكن النشرة المكتوبة حول « جمعية العناء الشريرة » كانت من تأليف هنري مارتل وجورج سميثسون ،د.د. وكانت هذه النشرة قد صدرت

بعد عشر سنوات من صدور الرواية . ومع هذا فان جليني قد غير الاسم الاول للمؤلف . وتفسير ذلك عندي ان جليني كان قد كتب النشرة قبل كتابة الرواية ، وقد غير الاسم الموجود على الرواية لكي يتجنب تكرار ذلك الاسم الذي وضعه على النشرة .

تناولت حفنة من الاوراق بطريقة عشوائية والقيت عليها نظرة فاحصة .وعلى الفور تقريبا وقعت عيني على عبارة « جماعة العنقاء » . قرات النص . لم يكن هناك احتمال للشك . ففي المخطوطة الاصلية ــ وقد وضحت التصحيحات والتغييرات ان هذه المخطوطة كانت هي المخطوطة الاصلية حقا الرواية ــ كان جليني قد اشار الى « جماعة العنقاء » وليس الى « امر الثعبان » . ومن الواضح انه كان قد قرر ان يغير اسم الجماعة . اخرجت المخطوطة كلها من الصندوق . لم تكن الاوراق التي كتبت عليها موحدة الحجم ، ولكن تلك التي كانت في قاع الصندوق من حجم اصغر. لم رأيت انها لم تكن جزءا من المخطوطة ، وانها كانت مكتوبة بخط ايزموند دونللي . وقد بدات الصفحة الاولى كما يلي :

جليني العزيز

ارجوك ان تصدقني حينما أؤكد لك ، مقسما على كلمة الشرف الاكثر صدقا من اي كلمة ، انك مخطىء في خوفك على سلامتي . واستطيع ايضا ان أؤكد لك انك مخطىء تماما في تصورك عن طبيعة جمعيتنا . انها ليست « سرية » بالمعنى العادي لهذه الكلمة . هل يمكنك ان تقول ان الجمعية الملكية سرية ؟ ومع ذلك فانه اذا حدث ان تسلل شحاذ الى اجتماع للجمعية الملكية فانه سوف يعتقد انهم يتحدثون بلغة غريبة لكي يخفوا عن الغرباء اغراضهم الحقيقية .

* * *

لقد اكتشفت هنا شيئا كنت احلم به في يقظتي طوال الاسبوع الماضي او نحوه : دليلا حاسما على انضمام ايزموند الى جماعة العنقاء .

مرتجفا من النشوة ــ ومن برودة السقيفة الرطبة ، شققت طريقي عائدا الى حجرة نومي ، محتضنا صندوق الصفيح الاسود . استخدمت التليفون الموضوع بجانب الفراش ــ الذي ادخله مضيفنا بناء على فكرة صائبة ــ لكي اسأل المطبخ ان كان من الممكن ان يرسلوا الي افطارا خفيفا في حجرتي . لم يزعجني احد او يقطع علي وحدتي ، رغم انني سمعت آلستير يمر امام باب حجرتي في طريقه الى السقيفة . وفي خلال الساعة التالية عرفت عن ايزموند اكثر مما عرفته في خلال اسابيع البحث السابقة .

لن انقل هنا تلك الخطابات كاملة ، لاسباب المساحة الواضحة : فانها قد تحتل خمسين صفحة . كانت القصة التي جمعت اجزاءها من الخطابات كالتالي: كان ايزموند قد عرف بوجود جماعة العنقاء من مصدرين : روسو ورستيف دي لابريتون . وكان الاخير عضوا فيها ، مثلما اكتشف ايزموند فيما بعد . وكان ايزموند قد وصل بنفسه الي افكار قريبة من افكارهم مثلما راينا ــ ومثلما وضحت

تلك الخطابات توضيحا كاملا . عرف بوجود الجماعة ، ولكن لم تكن لديه فكرة عن كيفية الاتصال بها . وهكذا فقد اصدر كتاب « ملاحظات على فرنسا وسويسرا » ورسم على الغلاف صورة العنقاء ، واضاف الى الكتاب قصة مختصرة تحكي تاريخ الجماعة وعزاها الى الراهب اللوثري (الوهمي والذي لم يكن له وجود) . ونحن نعرف ما حدث بعد ذلك . فقد وصلته بالبريد صورة العنقاء الجميلة المرسومة . ومن كان اول شخص يصله بالجماعة بصورة فعلية ؟ من المضحك السخيف معا ان تكون هي اول فتاة ادخلته عالم مباهج الحب ، خادمة شقيقته ماري ، او مينو . كانت مينو قد استانفت حياتها المفعمة بالفلمة الجنسية في باريس ، واصبحت عشيقة احد اعضاء الجماعة الذي راى في عبادتها الخالصة من اي هوى لاعضاء الذكر التناسلية جوهر المؤمن الحق بافكار الجماعة .

كان جليني وايزموند صديقين حميمين . ولكن جليني يفتقر الى الميزة الاساسية اللازمة لعضو الجماعة : السعي الذي لا يكل وراء الجنس باعتباره تجربة تسمو على اي تجربة شخصية . ورشحه ايزموند لكي يكون عضوا ، وامضى جليني يومين في باريس بصحبة ايزموند وعبدالله مؤمن (الذي يظهر في رواية « خطابات من فوق احد الجبال » باسم عبدالله صباح ، وقد اختار جليني هذا الاسم بعد ان استعاره من الاستاذ الاعظم لجماعة الحشاشين) (١) . ولكن ما حدث في خلال هذين اليومين ليس واضحا ، فيما عدا ان ايزموند تعارك مع جليني فرحل جليني غاضبا . وبعد شهرين التقى بأيزموند مرة اخرى في لندن ، فتصالحا وسويا خلافهما ، وكان ذلك بمبادرة من جليني فيما هو واضح . وفي خلال هذه الزيارة ، حدث ان قابلا ماري وشارلوت انجستر ، ابنتي ايرل فلاكستيد ، الذي كان يقيم مع ابنة عم ايزموند : اليزابيث مونتاجو ، وعقدا اتفاقا فكاهيا يتزوجان بمقتضاه من الفتاتين على ان يقتسماهما فيما بينهما . وفي احد الايام طلب جليني من ايزموند ان يخبره

---

(١) الحشاشون ـ assassin اخذت الانجليزية وبعض اللغات الاوروبية هذا الاسم لجماعة الحشاشين التي اسسها الحسن الصباح في القرن الحادي عشر شمالي العراق وايران وحولوها الى كلمة تدل على القتل غيلة بطريقة دموية عنيفة (وخاصة قتل الخصوم السياسيين والفكريين) . وكان الحسن الصباح (المولود في خراسان) مؤيدا لعقائد الفاطميين المصريين القريبة من عقيدة الاسماعيلية ـ وهم فرع من الشيعة الامامية ـ واصبح قائدا لحركة الاحياء الشيعية في ايران والتي عبرت عن مصالح الامة الفارسية في مواجهة سيطرة دولة السلاجقة الاتراك في حلقة من حلقات الصراع التاريخي بين الامتين (التركية والفارسية) في العصر الاسلامي الوسيط . وقد نسجت حول شخصية الحسن الصباح وجماعته من الحشاشين اساطير كثيرة ، خاصة لسرية تنظيمهم واحتمائهم بقلعة « الموت » المنيعة ، ولتسللهم سرا في كل انحاء العالم الاسلامي واتباعهم اساليب دموية خفية في الاغتيال للتخلص من خصومهم ولعدائهم العنيف لصلاح الدين الايوبي الذي قوض دولة الفاطميين في مصر ، ولاتباعهم بعد موت الحسن الصباح (الاستاذ الاعظم وشيخ الجبل) سياسة انتهازية موالية حينا للصليبيين وحينا للتتار الوثنيين بهدف القضاء على اي دولة سنية غير فارسية (وغير شيعية بالضرورة) . (هـ . م)

بما يعرفه عن جماعة العنقاء . وفي لندن قابلا رستيف ايضا مرة اخرى ـ وكانت النتيجة مشاجرة اخرى ، او بالاحرى ، انفجارا غاضبا آخر من جـانب هوراس جليني . (وقد اكد كل ذلك تخميني السابق من انه كانت في هذه العلاقة ، من جانب هوراس جليني ، ميول شاذة جنسيا) . واستاجر جليني منزلا صغيرا في شارع جراب ليقوم فيه ببحوثه ، وكتب نشرة « حول جمعية العنقاء الشريرة » . ووصلت اخبار هذه النشرة الى ايزموند ، فاقنع جليني الا ينشرها . ووافق جليني، نكرس خريف عام ١٧٧٢ لاغواء ماري انجستر ، بينما القى ايزموند حصارا ناجحا حول شارلوت . ولكن وقعت في نوفمبر مشاجرة اخرى ، وعاد جليني الى اسكتلندا وكتب هناك رواية « خطابات من فوق احد الجبال » في الفترة بين ديسمبر وفبراير التالي . وكتب الى ايزموند لكي يقول له انه بينما يقيده وعده له بالا ينشر النشرة التي كتبها ، فانه شعر بأن هذا العمل الروائي الخيالي كان شيئا مختلفـا كـل الاختلاف . (وماذا كان هذا التصرف سوى محاولة لجذب انتباه ايزموند بـأي ثمن ؟) وكانت النتيجة هي الخطاب الطويل الذي وصل من ايزموند وهو الخطاب الذي وجدته في نهاية المخطوطة .

لقد كنا صديقين ـ انا وانت ـ سنين عديدة ـ ولا اقول شقيقين . كثيرة هي الزجاجات التي افرغناها معا ، وكثيرات هن الخادمات اللواتي حررناهن من ـ فضيلتهن بملاطفاتنا وارجحاتنا المتبادلة . فلماذا ،اذن ، تختار هذا الوقت بالذات لكـي تتهمني بانني اتعامل على الوجهين ؟ ما الذي حدث لتلك الاخوة التي اقسمنا عليها في الفندق في هايدلبرج ، حينما مزقت ذراع شخص سافل ، وضربت انت سافلا آخر على عينيه حتى اعميته ؟

تبدو هذه الذكريات عن الصداقة القديمة ، عن وجبات الطعام التي تناولاها معا والنساء اللواتي اشتركا في اغوائهن ، تبدو شيئا لا قيمة له وتصرفا لا جدوى منه من جانب ايزموند . كان هوراس جليني مجبولا من عنصر اكثر خشونة ، وكان هو يعرف ذلك . وكان ما يقوم به في تلك اللحظـة شيئا اقرب الى ابتزاز ايزموند، وكانا ـ كلاهما ـ يعرفان ذلك . كانت علاقتهما علاقة استاذ بتابعه . لقد التقيـا حينما كان المتفوق ـ ايزموند ـ قد اكتشف مباهج الجسد الانثوي ، فراح يعظ حواريه الجديد عن موضوع اغواء النسـاء بحرارة ثوري وحماسته . ولقد رأينا كيف استجاب جليني لهذه المواعظ ـ في قصته عن فيونا وماري . ومن قائمة الاسماء التي يذكرها ايزموند ، يمكننا ان نستخلص انهما اشتركا معا في عدد كبير مـن العشيقات في جوتينجين . ولكن ايزموند لم يكن مهتما بصورة اساسية بالجنس في حد ذاته . بالنسبة اليه كان الجنس مفتاحا لحل لغز معين ، وكان هـذا اللغز هو ما يثير اهتمامه . ولكن هوراس جليني ـ من ناحية تكوينه المزاجي ـ كـان يتشابه في كثير من الجوانب مع كازانوفا ، الذي كان قد قابله ذات مرة فـي اوترخت . كان يحب طيبات الحياة ، وقد احب من بينها النساء . ولم يستطع ان نفهم لماذا لا يستطيع ايزموند ـ استاذه في فن الاغواء ـ ان يعيش في لندن عاصمة انجلترا فيشترك في نادي نيران الجحيم الذي كان السير فرانسيس داشوود قد

ترك رئاسته . بالنسبة لجليني ، كانت لنـدن هذه ـ مدينة شيريـدان وويلكيز وداشوود ـ هي اكثر مكان في العالم سحرا وجاذبية : صراع الديوك وسباق الخيل ومباريات الملاكمة بالقبضات العارية (رياضة كانت جديدة تماما) وليالي درووري لين ، وصحبة النساء الجميلات . فما الذي يريده ايزموند اكثر من هذا ؟ لمـاذا اصبح مفسدا اجمال اللعبة الى هذا الحد ؟ وقد كشف اغواؤهما المشترك للشقيقتين انجستر عن ان زمالتهما كانت قوية كعهدهما ابدا . فمن كان هذا العربي الـذي لا يقاوم والذي يتحدث الفرنسية بطلاقة كاملة والذي لا يبدو ان من الممكن ابعاده عن ايزموند ؟ وحينما اعترف ايزموند اخيرا بان الرجل ينتمي الى جماعة العنقاء ،بهت جليني . كان ايزموند ما يفتأ يحدثه عن هذه الرابطة الاخوية التـي تربط اعضاء الجماعة ،فقد سحرته منذ حدثه عنها روسو. ولكن جليني لم يصدق ابدا بوجودها. وها هو ايزموند . الان يصبح عضوا فيها ! لقد فسر « ذلك » كل شيء . ان ايزموند لم يعد مطاردا حرا للنسـاء لانه وقع بين ايدي جمعية سرية يديرها بعض الاجانب ، كان هذا العربي العملاق ذو الندبة الواضحة نموذجا لاعضائها . كان رد فعـل جليني مزيجا من الخوف والاشتياق والغيرة ـ مع غلبة هذه العاطفة الاخيرة . فراح يتحدث بصراحة في كل مكان زاره في لندن عن جماعة العنقاء ـ ولا بـد ان جونسون التقط في احد هذه الاماكن ما كان يقال عن ايزموند همسا وفي الشائعات ـ فكتب نشرته . ولو ان ايزموند كان اقل اخلاصا لصديقه لكان قد عاد الى ايرلندا وقطع علاقته به . ولكنه بدلا من هذا حاول ان يهدىء ثائرته . وربما كان الاصدق ان نقول انه حاول ان يفهم جليني ما طرأ عليه من تغيرات منذ ايام وجودهما معا في جوتينجين .

« كنت اؤمن دائما بالراي القائل بأن هذا العالم في قرارته عالم سحري ، واننا اذا لم نكن سحرة فان الخطأ يقع على عاتقنا نحن . ان ديدرو يجعل دالامبير يقول : لماذا اكون على ما انا عليه ؟ لان هذا امر حتمي ولا مفر منه ... ولقد سألت نفسي دائما : لماذا اكون على ما انا عليه ؟ لان هذا يبدو لي في صورة اكثر الاشياء تحكمية واطلاقا في العالم . » انني قد اكون اي شيء او في اي مكان . قـد لا يكون شكلي اكثر ثباتا من قبضة دخان تتصاعد من نار مشتعلة . في صباح ساكن الهواء ، قد تبدو قبضة الدخان ساكنة ثابتة مثل عمود من المرمر ، ولكننا نعرف ان اقل هبة هواء يمكن ان تغير شكلها وان تبددها في الفضاء دون نهاية . لقد جلست ذات صباح على احد الجسور ورحت ارقب شلال المياه الذي يسقط بالقرب من مونت بلانك ، وتملكتني فجاة فكرة ان الناس تحاصرهم قوى يعجزون عن فهمها ، ومع ذلك فانهم يتوهمون انهم باقون بقاء الصخور في العصور التي عاش فيها الناس كصيادين ومحاربين لم يكن لديهم من الوقت ما يكفي للتوقف والركود ، لقد ادركوا طبيعتهم الخاصة ، ولم يظنوا قبضة الدخان عمودا من المرمر . وفي هذا الجانب يمكن ان نقول انهم فهموا العالـم بشكل افضل من فهم مستر ديـدرو او مستر فولتيرله . ولكن الابله وحده هو من يحب ان يعود الى الحياة التي عاشها المتوحشون الرعاة ، وبالنسبة لنفسي ، فانني لست بالصياد ولا بالمحارب . ولكنني طالما لاحظت

انني حينما يفرق مهري المنطلق في بيته الذي كان ينتظره ، سواء كان ذلك البيت بين فخذي سيدة ذات لقب رفيع او خادمةفي اصطبل ، فانني كنت ارى لحظتها ان العالم ثري دون حاجة الى برهان ، وانه دافيء ولانهائي . تسقط الغمامة التي تعميني عن عيني ، وينزاح الثقل الذي يكبل حواسي ، فأرى في لحظة واحدة وعلى التو ان الانسان قد ترك ما كفله له ميلاده من حقوق نهبا للسارقين والناهبين . ولكن اذا كانت هذه الرؤية السحرية هي حقي بحكم المولد ، فلماذا ينبغي علي ان اتقبلها في شكل شذرات متفرقة غير موصولة ، مثل كلب يختطف مزقا من اللحم يلقيها اليه على الارض سيده ؟ انها ملكي، الن امسكها واقبض عليها باليمين ؟

هذا ما آمنت به دائما ، وانا اعرف الان ما يكفي من اللاهوت لكي اعرف ان حق المولد هذا هو ما فقده البشر بسبب خطيئة آدم . ولكن كيف لنا ان نأمل في العثور على ما فقدناه الا بالبحث المنهجي المنظم ؟ لقد آمنت دائما بانه لا بد ان يكون ثمة سبيل لاستعادة تلك القوة الضائعة . ولقد اكتشفت الان ان هناك رجالا كرسوا حياتهم للبحث عن هذا السبيل،وانه يمكنهم ان يعلموني شيئا من اساليبهم . فهل يمكنك حقا أن تصدق انمثل هؤلاء الرجال يمكن ان يكونوا اشرارا ، وان هدفهم هو ان يستولوا على روحي الخالدة ؟ وما الذي يمكن ان يعنيه هذا حتى ولو كان صحيحا ما تقوله عنهم؟لانني، ولا انت ، اصدق ان الروح يمكن ان تسلم رهينة او سبية ، الا اذا اسرتها البلادة والفلظة وكثرة الاهتمام بما لا اهمية له .

كلا ، انني اسعى وراء شيء اكثر اهمية بكثير من بكارات الفتيات اللواتي لم يمسهن بشر قبلي .

ولكن ما الذي كانت جماعة العنقاء تفعله بالتحديد ؟ يعبر ايزموند عن هدفها الاساسي في جملة واحدة :« ليس هدفنا هو تلويث الاحاسيس الدينية ،او الانحدار بها عن طريق التلذذ الحسي ، وانما هو الصعود بالتلذذ الحسي الى مستوى الاحاسيس الدينية » . ولكن كيف كان من المفروض ان يتحقق ذلك ؟ يتعمد ايزموند ان يكون غامضا في هذا الصدد . كان لديه السبب الذي يدفعه الى عدم الوثوق في جليني . ولكن كان من الواضح انه حينماجاء الى جلوسبي ــ في ابريل عام ١٧٧٣ ــ اخبر جليني بالتفصيل اكثر بكثير مما كان على استعداد لان يسجله كتابة، وكتب جليني بدوره بعضا مماأخبره بهايزموند ، بنية ان يستخدمه كمادة في كتابه الروائي الذي ازمع كتابته . واظن انه من المستحيل ان نشك في ان جليني كان ينتوي دائما ان ينشر الكتاب . وانا شخصيا مترددفي امر ادانته . ان الكتاب عمل جدير بالاعجاب ،رغم كل ما يمتليء به من سخافات عابثة . وقد يكون منحق المرء ان يقول انهيكون ما اوكله هوراس جلينيمنمهام الى الاجيالالقادمة . فهل يمكن ان يوجه اللوم الى كاتب لانه لم يدمر احسن اعماله بيده ؟

من خلال مذكرات جليني ــ التي سوف الخصها اكثر مما اقتطفها كاملة هنا ــ يبدو واضحا ان جماعة العنقاء تشترك في الكثير مع جماعة « الصلب الوردي » او الماسونيين الاحرار . كان هناك استاذ اعظم ،كان اشبه بالبابا ، تنتخبه لجنة

تعرف بـ« لجنة المشرفين » ، واسمهم بالانجليزية The dominoes ربما يدل على انه جاء من انهم كانوا يرتدون عباءات ذات اقنعة تغطي رؤوسهم ، من النوع الذي يرتديه الرجال في الحفلات التنكرية . وكان لكل بلدمشرف واحد . في فرنسا كان المشرف هو الكاتبشوديرول دي‌لاكلو ، مؤلف رواية « العلاقات الغرامية الخطيرة » وقد اصبح ايزموند فيما بعد هو المشرف في ايرلندا .

والشي الواضح تماما ، من مذكرات جليني ومن كتابه « خطابات من فوق احد الجبال » هو انه كان هناك دائما نوع من الخلاف الاساسي في الراي داخل الجماعة حول نقطة جوهرية من نقاط القانون الاساسي . كانت الجماعة تؤمن بان الانسان ينظر الى معنى العالم باعتباره « لغزا سحريا » بصورةاكثر دواما من خلال الفعل الجنسي مما يحدث من خلال الدين او الفن . (والكلمة الهامة هنا هي كلمة «الدوام» . ان احدا لم يفكر ابدا ان ما تحققه التجليات الصوفية من انواع النشوة يمكن ان تبلغ اعماقا اعظم من اي اعماق يمكن ان يبلغها الانسان عن طريق الجنس . ولكن الانسان من ناحية اخرى ، يستطيع ان يقتربمن اسرار الجنس كل يوم) .

وقد لاح لي ان كل‌اعضاء الجماعة وافقوا على ان مجرد الاتصالات الجنسيةغير الشرعية ، دون سيطرة ، ستؤدي الى الضجر والملل . ولكن كان هناك اختلافكبير في الراي حول العلاج المفترض لذلك .كان التقليد الذي‌اتبعته الجماعة ـ منذ اربعة قرون ـ هو انه لا بد ان ينظر الى النساء باعتبارهن اوعية تحتوي السر الملغز الغامض . وقد دفع اباء ورهبان جنوبي روسيا بهذه الفكرة الى اكمل‌تطور لها في القسم الاخير من القرن السادس عشر . ومن جانب اخر ، فان الهولديانيين ،وهم جماعة نشأت بين قبائل الالمان (استمد اسمهم من اسم ربة الزواج التيوتونية)، كانوا اقرب الى اولئك « الرهبان » الاوائل لذين ارتكبوا جرائم الاغتصاب كلما امكنهم ذلك ، فقد آمنوا بأن الجنس يصبح اكثر اشباعا ووصولا الى السر الغامض كلما كان عنيفا ومفاجئا . وفي القرن الثامن عشر ، كان الانضمام الى جماعة الهولديانيين ، يعني ان العضو يرمي الى ولوج اكثر عدد ممكن من الاعضاء الانثوية، والافضل ان تكون لعذراوات . وكان هوراس جليني هولديانيا دون ان يعرف ذلك ، وكذلك كان ايزموند في ايامه الاولى . وكان لاكلو هولديانيا ، وكذلك كان الاستاذ الاعظم ، عبدالله يحيى ، وخلفه هندريك فان جريس ، اما الرجل الذي كان مسؤولا عن انضمام ايزموند ، عبدالله مؤمن ، فقد كان ينتمي الى تقاليد آباء الكنيسة الروسية ورهبانها الهيجمونيين Hegumenos)

وكان الهيجمونيون الاوائل (الذين اخذوا اسمهم من قائدهم الاول (الاب الراهب المطرود من الدير ، والذي كان عضوا راهبا بين جماعة من رهبان الابراج) قد اختاروا فتاة صغيرة جميلة كنوع من الكاهنة الاولى ، واختاروا اثنتي عشرة فتاة اخرى بوصفهن وصيفات لها . وكانت هؤلاء الاخيرات كاهنات ايضا . وعبدت النسوة بوصفهن كائنات مقدسة . ولكن الاعضاء الذكور في

الجماعـة كانوا يتمتعون بقدر معيـن من الحريـة مع هذه الكائنات المقدسة ،وهي الحريـة التي كان من الممكـن حتى ان تصل الى مرحلة الجماع الجنسي الكامـل . ومن اجل الوصول الى هذه المرحلـة ، كان على الذكـر ان يصوم ثلاثة ايام من كل اسبوع طوال عدة شهور قبل ان يتم الاتصال، ثم يمـر بسلسلة من المراحل المحددة بدقـة يقترب فيها من السر بالتدريج . فاذا استطاع ان يرقد عاريا على درجـات « المعبد » الحجرية في ليلة شتائية ـ من الفسق حتى الشروق ـ فانه كان يسمح له بان يقوم بدور الخادم لثلاث من الكاهنات لمدة ساعـة كل يوم ، فيحمل اليهـن الطعام وينظف حجراتهن . وكان يسمح له بان يأكل بقايا الطعام . وبعد مزيـد من الاختبارات ، تتضمن غرس شظايـا من الخشب تحت اظافره ، ولسع نفسـه بالنـار عند الاجزاء اللينة من ذراعه، فانه كان يسمح له بان يصبح «خادما خاصا » لثلاث كاهنات اخريات ، فيغسل ثيابهن ، ويخيطها ويغسل لهن شعورهن . كانت افرازات اجسادهن تعتبر اشياء مقدسة ، وكانت وظيفة هذا الخادم الخاص ان يأخذ تلـك الافرازات الى مكان قصي من الغابة فيدفنها هناك حتى لا يستطيع اي ذكر اخر مـن القبيلة ان يعثر عليها . ولكنه ـ وحده ـ كان يسمح له بان يلوث نفسـه ببرازهن ، ثم يحمم جسده ببولهن . وهذه ميزة كان يحسده عليهـا كل ذكور القبيلة الاخرين. وكان مزج السائل المنوي للعباد بافرازات « المقدسات » ينظر اليه باعتباره المرحلـة الاولـى من مراحل الاتحاد بالكائن المقدس . فاذا استطاع ان يعبر بالمزيد من المهام المتزايدة الصعوبة والالم ، فانه كان ينال الاذن بممارسة المزيـد من الامتيازات ،حتى قد يصبح واحدا من الرجال الثمانيـة الذيـن يقومون بدور « الخدم الخصوصيين » للكاهنة الاولى المقدسة نفسها . وفي هذه الحالة فانه قـد يكون الشخص الوحيد الذي يختار بالقرعة من بين الثمانيـة لكي يشترك معها في طقوس الاحتفالات التـي تقام ليلة اكتمال القمر بعـد الحصاد ، ثم يجامعهـا مرتديا جلد عجل . كان عضو الكاهنـة الاولى وعضو عابدها الذي شاركهـا في اقامة الشعائر يجففان بقطعـة مقدسة من نسيج التيل بعد الاحتفال ، ثم تمز ق قطعة النسيج وتقسم الى ثمانيـة اقسام ويعطى كل واحد من الخدم الثمانية قطعة منها ،يعلقها كل منهم علـى راس عضوه طوال ما بقي لهم من زمن يقضونه في وظيفتهم السامية .

واظـن انه من الممكـن ان نرى ان الفكرة الاساسية لدى الهيجومينيين ،كانت هي محاولة بناء حالة من الشبق والتوتر الجنسي مرتبطة بالوله الديني ، وان كـل مرحلة صعبة او مؤلمة كانت مرسومة بحيث تمنع الطامح في الوصول من ان يصبح باي شكل مسترخيـا او غير مبال بمهمته . فانه اذا فقد حالة اتعاظه في اي وقت في حضرة الكاهنات ، فانه يجلـد ويعـاد الى القبيلة محقرا مهانا . وكان معنى هـذا انه اصبح يعتمـد على خياله الى حد كبير . ويجب ايضا ان نلاحظ ان وضعـه الحقيقي كان اشبه بوضع خادمة احدى السيدات ، فكان يعامل باعتباره امراة ،حتى يشعـر بالمهانة ، وحتى تصبح ميوله الجنسيـة قوية ومشمرة . وتقدم الفكرة كلهـا على انه لا ينبغي ابدا ان يعامل الجنس كشيء « فوق المستوى » او كشيء عادي،او ان ينظر اليـه كشيء من المسلمات . كل شيء مرتبط بشعائر الطقوس اصبـح

مقدسا مخيفا ، ومثيرا جنسيا ايضا . واصبح عضو الكاهنة هدفا مقدسا نهائيا، وينظر كل ذكور القبيلة بحسد الى الخدم الثمانية لانهم يحملون على رؤوس اعضائهم قطعة النسيج المبللة بافرازها الجنسي .

وقد فضل ايزموند تعاليم الهيجومينيين على تعاليم الهوديانيين . وقسم كبير من الخطاب الطويل الذي كتبه الى جليني مكرس للمناقشة ضد النوع من الاغواء الذي كان ايزموند يدعو له من قبل. ويظل يردد ان هذا النوع ليس له تأثير دائم، انه يؤدي الى الاشباع .

والقصة التالية تعد واحدة من اكثر قصص العلاقة بين ايزموند وجليني اهمية ـ ومن اسوئها تسجيلا . وقد امكنني ان اجمع اجزاءها من عدة مصادر ، بما في ذلك بعض خطابات ايزموند ـ تلك التي وجدت في الصندوق في السقيفة ـ وخطابات ويوميات كتبها هوراس جليني ،وخطابات اخرى كتبتها ماري وموري انجستر . وهذه كلها سوف تنقل بنصها في المجلد التالي . اما القصة التي يمكن استخلاصها منها فهي كالتالي :

حينما تم الصلح بين ايزموند وهوراس جليني في لندن في شهر اكتوبر عام ١٧٧٢ ، كان ايزموند يقيم في منزل ابنة عمه صوفيا في سانت جيمس . كانت صوفيا الان تسمى صوفيا بلاك وود بعد ان تزوجت السير ادموند بلاك وود، وهو مالك ثري لاحد مصانع الجعة ،كان والده احد من عضدوا الموسيقار هاندي . وكانت لادي ماري وشارلوت انجستر تقيمان مع اليزابيت مونتاجو ، صاحبة الجورب الازرق ، التي كانت تلقنهما علم الفلك والتنجيم . وافتتن ايزموند بشارلوت اللذيذة البريئة ، التي كانت عند ذاك في التاسعة عشرة والنصف من عمرها . اما جليني فقد اسرته لادي ماري ،الذكية الجميلة والاكثر تمالكا لنفسها من اختها ، رغم انها كانت تصغرها بعام كامل . (وهذا الاختلاف يعبر بدقة نموذجية عن الاختلاف بين شخصيتي الرجلين ، ان ايزموند الماهر المسيطر ، قد فضل الحلاوة والبراءة ، وجليني ،غير الواثق بنفسه تماما، دوخته الاكثر ذكاء وثقافة بين الاثنتين) .

ويبدو انه من المحتمل ان جليني ما كان يمكن ان يرمي الى مثل هذا الهدف البعيد لولا تشجيع ايزموند ، فقد كان يشعر براحة اكبر وهو يغوي من هم دونه في الوضع الاجتماعي . اما ما كان مصدر التأثير على ايزموند ، فهو ان اكثر الرجال نباهة كانوا يخجلون من ابنتي انجستر لما اشتهر عنهما من ذكاء وثروة كبيرة . كانت جماعة الرياضيين تعقد مراهنات سخيفة عليهما ، وكانوا يشعرون بصعوبة منال الفتاتين الراجحتي العقل والمركز الاجتماعي ، اما المحترمون من الشباب ـ الذين من المحتمل انهم كانوا يبدون في صورة قريبة من شخصية « دارسي » التي رسمتها جين اوستين او مستر بنجلي ـ فانهم كانوا يغمرون الفتاتين بكلمات الثناء والمجاملة وكانوا يحاولون فتح المناقشات الثقافية معهما . اما استجابة ايزموند فكانت اكثر بساطة . لقد فكر فيهما معا باعتبارهما فتاتين لذيذتين ، وقال لجليني ان الرجل جدير بان يقضي ليلة مشهودة بينهما معا .

وكان جليني يعرف انه حينمـا يقول ايزموند شيئا من هذا القبيل، فانه لا يكون يعبر عـن مجرد امنياته التي لا سبيل لتحقيقها . ولو كان هناك اي رجل في لندن قادر على اغواء ابنتي انجستر ،فان هذا الرجل هو ايزموند . كان يتمتـع بالمؤهلات المثاليـة لاغواء الفتيات المثقفات المدربات على التعامل الاجتماعي : العقل الجيد . فقد كان هووليتشنبرج ابرز وافضل طلبة الرياضيات بين جيلهمـا فـي جوتينجين . وكانت ابنتا انجستر تعرفان ليتشنبرج بالفعل — فقد حدث ان قدم اليهمـا عـن طريق شخص لا يقل مرتبة عن الملك نفسـه ، فـي هامبتون كورن ، وفحصت الفتاتان منظار الملك العظيم هناك تحت اشراف ليتشنبرج . ومن الواضح ان ايزموند لم يكن يجد صعوبة في ان يلتقي كثيرا بابنتي انجستر ،طالما انهما كانتا تقيمان عند اليزابيت ابنة عمهصوفيا . وكان منظار ايزموند الخاص — الذي قـام بصنعه مصنع شوارمز في ليدن — قويا قوة غير عادية ، فاقامه في حجرة السفينة في منزل صوفيـا بلاكوود ،وثبت رسومه التوضيحية وخرائطه بالدبابيس فـي الحائط ، ثم دعـا اليزابيت مونتاجـو وضيفتيها الساحرتين لدراسة النجوم معـه ومع ليتشنبرج ، وكانت اليزابيت متلهفة الى هذا العمل . وكان من حسن تصرف ايزموند ان اعد وجبة صغيرة في « مرقبه » — من دجاج الحجل وطيـور الغابـة (نقار الخشب) والسمان ، والخنزير الايرلندي، وبعض الطيبات الرقيقةالاخرى. طرحت السيدات اسئلـة عديدة ، وحدقن في المنظار لمدة تزيد على الساعـة .ثم انتقلت المحادثة الى الفلسفة ، وراح ايزمونـد وليتشبرج يتناقشان في ليبنـز وفولتير وهيوم ، وفي المقالـة الافتتاحيـة للالماني الكبير ايمانويل كانط التي يقول فيهـا ان الحقيقـة غير قابلة للمعرفة ، وان الحواس هي التي تملي شكـل معرفتنا لكـل الظواهر . (كـان كتاب « النقد » الذي تطورت فيه هذه الاراء لم يصدر بعد، اذ لم يصدره كانط الا بعـد ذلك بتسع سنوات) . تأثرت اليزابيت مونتاجو تأثرا عميقا ، وقالـتانهـا لم تستمع ابدا الى مثل تلـك المناقشة العميقة الشاملة المقلقة. كلا ، ولا حتى من بيرك وجاريك ، ولا حتى من جونسون نفسـه . لقد كانت شيئـا ثقيـلا على الراس ، تلـك الفلسفة النقدية الالمانية . ولكـن التأثير المطلوب كان قد تحقق . وقالت اليزابيت مونتاجو فيمـا بعد ان ايزمونـد كان واحدا من اكثـر « العازبين » الشبان نباهـة في لندن . واقتنع ايزمونـد بالفعل بانه قد تـرك انطباعا طيبا عند شارلوت . اخذ يدها للحظـة متظاهرا بانه يساعدها على الهبـوط في ركـن مظلم من السلم ، فسمحت لـه بان يستبقي يدها في يده لمدة ثوان اكثر من اللازم .

ولم يكن هوراس جليني حاضرا في تلك المناسبة . ونحـن نعرف السبب بالتحديد ،لان ايزموند يفسره في واحد من الخطابات الموجودة في مخطوطة «خطابات من فوق احد الجبال » . كان ايزموند يعرف ان جليني لن يستطيع ان يترك تأثيرا فوريا على السيدتين ، لانه على شيء من الخجل (ولكن ما كان ايزموند يعنيه بوضوح هو ان جليني ما كان يمكـن انيلاحظه احد وسط جماعـة تضم ليتسنبـرج واليزابيت مونتاجو وهو نفسـه). كان عليه ان يحسن اعداد « مدخله » . واكتشف

ايزموند ما كانت ماري انجستر تقراه ، وامضى جليني اربعا وعشرين ساعة في تمحص الكتاب ووضع ملاحظات ذكية . خرج ايزموند للركوب في الحديقة مع الشقيقتين بعد يومين من ليلة المنظار ، وحكى لهما عن شخصية صديقه جليني الرقيق الخجول النبيل . قال لماري ان جليني قد نشىء بأسلوب ديني متزمت، وان معرفته بالفلسفة الالمانية تدمر عقيدته ، ثم اخترع حكاية مؤثرة بشكل خاص عن جليني في كاتدرائية تشارتر ،وهو يسأل والدموع في عينيه : « هل كل هذا المجال مجرد نصب تذكاري لقدرة الانسان على ان يخدع نفسه ؟ » . وهكذا فانه حينما اخذ جليني لزيارة اليزابيت مونتاجو بعد ذلك بيومين ، لم تكن هناك حاجة لتشجيع ماري لكي تهتم به . فقد انتهزت اول فرصة لكي تأخذه الى ركن هادىء ،حيث تستطيع ان تسأله باخلاص عن شكوكه . وكانت المقابله اكثر نجاحا مما كان يتوقعه اي منهما . فقد وافقت على ان تخرج للركوب مع جليني في الحديقة في اليوم التالي ، وانفقت الليلة في حفظ الحجج التي اوردها بتلر وتيللوتسون للبرهنة على وجود اثر صناعة الله في الطبيعة . وفي مقابل هذا ، قام جليني ببعض العمل التأثيري لصالح ايزموند ، باشارات غامضة عن احزان سرية وحب مفقود . ولا شك في انهما كانا يكونان فريقا قوي التأثير .

وتم اختيار ايزموند لكي يشكل مكانا مثاليا بتكليفه بتمضية قدر كبير من الوقت مع شارلوت . كانت اليزابيت هي ابنة عمه ، وكانت الفتاتان قد اصبحتا صديقتين لصوفيا بلاك وود . ولم يكن بمقدور احد ان يظن انه من غير الطبيعي اذا سارت شارلوت من ماي فير حتى سانت جيمس لكي تزور صوفيا وتناقشها في الثوب الذي ينبغي ان ترتديه في حفلة الخريف التي تقيمها لادي ساندويتش. فاذا لم تكن صوفيا في البيت ، فلماذا لا تمضي ساعة او نحوها في مناقشة الفلك والميتافيزيقا مع ابن عم صوفيا ؟.

وعندما وصل شهر اكتوبر الى منتصفه ، كانت شارلوت تعترف لماري بانها ستكون ميالة الى القبول لو ان ايزموند تقدم لخطبتها . ولمحت ماري بذلك الى جليني الذي اخبر ايزموند .ودهش حينما لم ير ان صديقه يغمره سرور من نوع خاص لسماعه هذه الانباء . ولكن ايزموند كان يرى الامور بوضوح صاف الى درجة كافية لكي يرى ان الموقف كان يتطور بسرعة اكثر من اللازم ، وانه بدا يبدو موقفا خطيرا . فاذا كانت صوفيا واليزابيت وماري قد عقدن عزمهن على القيام بخطبة ، فانه قد يجد نفسه مرتبطا بخطوبة قبل نهاية الموسم . كان الوقت قد حان للقيام بتراجع مؤقت .

عند هذه النقطة قرر هوراس جليني ان يزيد من وضوح قصته عن « الحب المفقود » وان يضيف اليها تفصيلات ضرورية فأسر الى ماري ان ايزموند مرتبط بابنة كاهن سويسري ، وان والد ايزموند قد اعترض على فكرة ارتباط ولده بابنة قسيس كالفيني وانه هدد بحرمانه من الميراث . وان ايزموند ، مثلما قال جيبون :« تنهد كما يتنهد العاشق ، واطاع كما يجدر بالابن ان يطيع » ،وان العاشقين قد انفصلا منذ ما يقرب من العام ، وان الفتاة قد كتبت الى ايزموند تقول له انها قد خطبت

الى تاجر نبيذ من جنيف ،ولكن ايزموند قد بلغه اخيرا ان هذا غير صحيح، وانها ما تزال دون زواج وانها لم تخطب ، وانها ربما كانت تنتظر ايزموند.

استبد الغضب بايزموند حينما اخبره جليني بما فعله . لم تكن لديه رغبة في ان يثير غيرة شارلوت ولا ان يشعرها بالتعاسة ، وانما اراد فقط ان يختفي لمدة طويلة حتى تيأس منه الخاطبات . اما الان فقد اعتقد الجميع انه اراد ان يعود الى سويسرا لكي يلقي نظرة اخرى جديدة علىحبه الضائع . ولم يكن من صالحه ان ينكر وجود مثل هذا الحب ، فان احدا ما كان ليصدقه .

وبينما كان راكبا مع شارلوت في ماريليبون فيلدز سألته ان يظل في لندن حتى يستطيع ان يصحبها الى حفلة لادي ساندويتش . وعرف ايزموند انهذا التصرف يمكن ان يكون قاتلا ، فشرح لها استحالة ذلك ،وعادت شارلوت الى البيت باكية . وفي اليوم التالي ذهبت ماري انجستر لزيارة صوفيا ، واشتركت الاثنتان في الالحاح عليه للبقاء . وقالت صوفيا انه من السخف وقلة العقل ان يبرح لندن في قمة الموسم ،وان عمله في ايرلندا يمكن ان ينتظر . وحاول ايزموند ان يقلل من الضغط الموجه اليه بالقول بانه سوف يعود الى لندن حالما ينتهي من اعماله ، ولكن لم تكن في هذا اية فائدة ،فقد كانت شارلوت مقتنعة بانه اذا غادر لندن الان ، فانه لن يعود اليهاثانية ابدا .

جاءتالى المنزل في عصر اليوم التالي وكانت صوفيا بالخارج ـ وحاولتاقناعه بالبقاء . واعتذر لها ايزموند بلباقة قائلا انه لا بد ان يرحل للقيام ببعض الاعمال العائلية المضجرة المتعلقة بالمزرعة . سألته بصراحة عن طبيعة هذا العمل ، ولماذا لا يستطيع ان ينتظر، ثم لجأت الى البكاء ،ووجد ايزموند نفسه يلاطفها ويهدئها ويربت عليها . كان في الرابعة والعشرين وكان كثير الشكوك . وكانت هي فائقة الجمال . وقد كتب يقول فيخطاب الى لاكلو بعدذلك بعدة سنوات :

لقد كنت اؤمن دائما بالراي القائل بان اكثرالفتيات فضيلة وبراءة ، هن اولئك اللواتي دربتهن طبيعتهن افضل تدريب على فن الاغواء ، فاذا وقعن فيالحب، فان مقاومتهن تكاد تكون مستحيلة . والمرة الوحيدة التي وقعت انا فيها فريسة للاغواء ، حدثت على يد عذراء من هذا النوع . وقد حدث ان صديقا غبيا جعلها تصدق انني انوي ان اسرع الى الزواج من امراة اخرى كنت قد برهنت لها على جدارتي بحبها . وجاءت ذات يوم ـ كنت فيه وحيدا فيالمنزل، لكي تقنعني. وحتى تلك اللحظة لم اكن قد فعلت معها اكثر من تقبيلها . وحاولت في البداية جاهدا وبأمانة ان اقنعها ، قلت لها ان صديقي كان ابله ، وانني لم اكن انوي ان اذهب الى سويسرا . فسألتني عن السبب الذي يجعلني — في هذه الحالة ـ مصرا على الرحيل والذي يمنعني من البقاء عدة اسابيع اخرى . ثمراحت تبكي فاخذتها بين ذراعي . حينما قبلتها كفت عن البكاء ، ثم بدات تقبلني بشغف وحرارة حتىانني بدات اتساءل عما اذا كانت فاضلة حقا بالشكل الذي كنت اظنها عليه . دلنيذوقي على ان الوقت قد حان للتوقف عن تبادل القبلات ،

ولكـن حينمـا حاولت ان اهدئها ، اغلقت فمي بالقبلات وضمتني بشكل اقوى .ثم قالت انها تشعـر بانها على وشك الاغماء ، ثم جلست على اريكة ، قلت انني سأذهب للبحث عن بعض الماء ، ولكنهـا رجتني ان ابقى وان اجلس الى جانبها . والان ، هل يمكـن ان تعتقـد انه من غير المعقول ـ في ظل تلـك الظروف ـ الا افترض انهـا لم تكـن بريئة ـ او انهـا لم تكـن تتعمد التأثير الذي احدثته بالفعل على العضـو الذي اعبدهـا بـه ؟ دلني منطقي على انني اذا جابهتهـا بمـا اكتشفته عن نواياها، فربمـا صدمت وتخلت عـن تواضعهـا ولجأت الى التظاهر الكذاب . ولذلك ، فانني بعـد ان ركعت الى جوارهـا ووضعت راسي على صدرهـا ، دسست يـدي تحت صدر ثوبهـا المفتوح وحررت احد نهديهـا من حمالته المشدودة . وحينمـا لم تحتج، ادركت انها سمحت لي بذلك لانهـا احست انها بهذا الشكل تكسبني وتأخذني من الفتاة الوهميـة التي تنتظرني في جنيف . وثار فضولي لاكتشاف المدى الـذي يمكـن ان يصل اليه بهـا هذا التفكير . تحولت بشفتي الى قدميها ، لم تكن ترتدي جوربا وكانت ساقاها ناعمتين لينتين . وحينمـا بلـغ راسي ركبتيهـا ، دست اصابعها في راسي ، فظننت ان هذا كان يهدف منعي من القيام باي تقدم اخر ، ولذلك فقد تقدمت فعـلا ولكن بتصميم اشد . ولكنهـا لم تبذل ايـة محاولـة لايقافي ، حتى حينمـا رفعت ذيول ثيابها الداخلية الى اعلى ، حتى وسطهـا وكشفت عن تل صفير ناهـد (. . .) قالت الان « لا ، لا » وحركت ردفيهـا الى جانـب من الاريكـة ،ولكنها ـ فيما عدا هذا ـ لم تبذل ايـة محاولة جادة لمنعـي (. . .) ورقدت بعد ذلك في مكانها ،وقد احتضنتني بقوة ،عارفـة انها ليس لهـا الان ان تخشى اي هجران ، وربمـا كـان من المعقول ان تنتظرني اتقدم لخطبتها . شعرت بانهـا كسبت انتصارها بسهولة بالغـة . ولذلك فانني بعـد ان استعـدت قواي الحيوية ، ذهبت الى الباب فاغلقته بالمفتاح والقيت مزيدا من كتل الخشب في النار، ثم عدت اليها ـ كانت واقفـة تنظر في منظار فلكي كان منصوبا على حامل منخفض ـ وشرعت احل اشرطة ثوبها . احتجت ولكنني تجاهلتها ، لانني شعرت بانها اذا كانت قـد عزمت على ان تصبح زوجتي ، فان عليهـا ان تبدأ في اداء واجباتها علـى الفور . ولم تكـن الاحتجاجات مقصودة بشكل جدي ،لانهـا سمحت لي بان اخلع عنهـا كـل ثيابهـا قطعـة قطعة .بعـد ذلك جعلتهـا ترقد امام نار المدفأة ،ورحت ابذل جهودي مع نهديها بارادة قوية . . .

وبعد ان سمحت لها بارتداء ملابسها ، هبطنـا الى الطابق السفلي ودققنـا الجرس طلبـا للشاي ، وامضينا نصف ساعـة نتحدث عن الزواج . وبعد ذلك ، ولما كنـا ما نزال وحيدين ، قلت لهـا ان تأتي معي الى حجرتـي لكـي نبذل محاولة اخرى واحدة ،فجاءت معي على غير رغبة منها . . . .

وهكذا نعرف كيف تحقق ما كان يبدو من الظاهر مستحيلا ، وسلمت لادي شارلوت انجستر عذريتهـا لرجل كان مصمما على ان يرفضها . ونادرا ما تدخل خطابات ايزمونـد الى لاكلو الى مثل تلـك التفاصيل الجسدية . فقد كـان كل من الرجليـن مهتما اكثر بمناقشة الخصائص النفسية للنساء . ففـي سـن الرابعـة

والعشرين ، لم يكن ايزموند يملك الخبرة الكافية لكي يدرك ان شارلوت انجستر كانت تتميز ببعض خصائص الشخصية الماسوشية الواضحة ، لقد ارادت ان يمتلكها الرجل القادر على ان يأمرها ان ترقد على الارض وان تفتح ساقيها. اصبحت عشيقة ايزموند ، وراحت تتابعه في كل مكان بنفس الطريقة التي تابعت بها لادي كارولين لامب فيما بعد اللورد بايرون . ومما يشير ايضا ـ بنفس القدر من الاهمية ـ الى مزاجها الاستسلامي انها بعد ان اصبحت عشيقته كفت عن حديث الزواج . فمرة اخرى ، اثارت نزعتها الماسوشية في داخلها وضعها الشاذ غير السوي .

ولا بد ان يلخص ما حدث بعد ذلك باختصار . ربما كانت بعض الاشاعات قد وصلت الى اذني ايرل اوف فلاكستيد عن ابنته مع ايزموند . فقد اخبرها ذات يوم بانه قد اختار لها زوجا . وهو بارون اسكتلندي محترم يمضي جل ايامه في الصيد في احراشه الشمالية . فقالت انها تريد ان تتزوج ايزموند ، ولكن اباها اجابها بان عليها ان تنسى كل شيء من هذا القبيل . أن ايزموند لم يكن شيئا مذكورا ، اذ هو ابن احد ملاكي الاراضي الايرلنديين لا يملك ما يكفي من المال لاعالة بيت محترم في لندن . وكانت هناك مواقف مشهودة كثيرة ، وتعددت نوبات الغضب والبكاء . فأخذت الفتاة واعيدت الى بيت الاسرة في ويستون على نهر ترينت ، حيث سقطت مريضة لعدة اسابيع . وكتبت ماري انجستر الى صوفيا، تطلب منها ان تنصح ايزموند بالعودة الى ايرلندا ، لان اباها كان مصمما على ابعاد شارلوت عن لندن طالما كان ايزموند موجودا فيها . ورحل ايزموند . ومن الغريب تماما ان ماري اصبحت معادية لشقيقتها بعد تلك الازمة . ربما كانت حانقة للسهولة التي اسرت بها هذه الفتاة الرقيقة الحلوة الطباع شخصا مثل ايزموند ، الذي كان ملائما اكثر لماري نفسها .

فماذا كانت الفضيحة التي عرفت عن لادي ماري والتي اخبرتني بأمرها الانستان دونللي ؟ كانت الفضيحة هي ان ماري قد فضلت ايزموند على هوراس جليني الذي تزوجته في اغسطس عام ١٧٧٣ . وكانت هذه غلطة جليني الى حد كبير . فبعد ان اسكن زوجته في الجناح الغربي من قصر جلوسبي ، ودعا شارلوت لكي تأتي للاقامة عندهما ، لم يتأخر عن دعوة ايزموند . ولبى ايزموند الدعوة على الفور ، واستأنف علاقاته بشارلوت فور وصوله . امضت الفتاة كل لياليها في حجرته ، لكي تعود الى حجرتها عند الفجر .

وقد وصلنا وصف الحادثة في خطاب كتبه ايزموند الى لاكلو ، حيث ينتقد ايزموند قصة وردت في كتاب بريفو « ذكريات ومغامرات رجل ذي حيثية » يصف فيها كيف دفعت سيدة فاضلة خادمتها للنوم مع حبيبها حتى تستطيع ان تحافظ على طهرها . ويقول ايزموند ان هذا كلام سخيف ومستحيل الا اذا كان الحبيب سكران .

لقد حدث منذ بضعة سنوات ان كنت مع احد الاصدقاء ، وكنا نشرب البورت

امام نار المدفاة ، بعد وقت طويل من انصراف زوجته وشقيقتها ـ كل الى غرفتها ـ للنوم . ودفعنا الحديث الى مناقشة اختلاف بين مزاج كل من المراتين ، فقال انه كان من الممكن ان يكون اكثر سعادة او انه تزوج شقيقة زوجته . وناقشنا كيف ينعكس مزاج كل منهما في طريقة ممارستها للجنس ، وسرعان ما اكتشفنا ان الشقيقتين تتشابهان في شيء واحد . وهو انهما اذا كانتا نائمتين ، فانهما تسمحان لرجليهما بمواقعتهما دون ان تستيقظ احداهما يقظة كاملة . وادى بنا هذا الى فكرة اننا قد نجرب ان نكتشف ما قد يحدث لو انه اتيح لي ان اذهب للنوم مع زوجته ، وان يذهب هو للنوم مع شقيقتها التي هي عشيقتي . بدت لنا الفكرة مسلية ، فجربناها ...... ونجحت ...

ولكن ما لم يذكره ايزموند في ذلك الخطاب ، هو انه نتيجة لتلك الليلة التي قضاها مع ماري ، شرعت هي تعامله بصراحة كما لو كان زوجا ثانيا لها ـ والامر الذي كان فيه مهانة لشارلوت . وبعد ان قضيا هذه الليلة معا ، لم تعد ماري تشعر بحاجة الى اخفاء مشاعرها ازاء ايزموند . كانت مفتونة به منذ البداية ، منذ ذلك اللقاء الاول الذي شرح فيه مع ليتشنبرج فلسفة كانط النقدية . اما علاقتها بزوجها فكانت مختلفة اختلافا كاملا . كانت مغرمة به ولكنها لم تستطع ان تعجب به . وكانت تدرك ان عقله ـ على صورته التي عرفتها ـ كان باكمله تقريبا من صنع ايزموند ـ الى درجة اقل ـ من صنع ليتشنبرج . وحينما عاد ايزموند الى لندن ـ وكان في ذلك الوقت قد اشترى المنزل الطويل الضيق في فليت ستريت قريبا من منزل الدكتور جونسون ـ تبعته ماري ، واقامت عند صوفيا بلاك وود . وسرعان ما انتشرت اشاعة تقول ان ايزموند نام مع شارلوت وماري في فراش واحد . وليس هناك دليل يثبت هذا ، رغم انه من الاكثر احتمالا ان ايزموند ظل عشيقا للمراتين معا . ونحن نعرف ان ايزموند كتب الى ايرل اوف فلاكستيد في ٢٣ نوفمبر عام ١٧٧٣ ، طالبا يد ابنته بشكل رسمي ، وانه في ٢٨ من نفس الشهر ، تسلم ردا باردا مختصرا يقول فيه الايرل ان شارلوت كانت مخطوبة بالفعل « لسيد نبيل من نبلاء كنت » . ونحن لا نعرف اي نوع من الضغوط استخدمه الايرل ضد ابنته التي كانت ما تزال اقل من سن الرشد . وقد قالت شارلوت فيما بعد لماري انه هددها بأن يحلق شعر راسها ثم يرسلها الى دير بلجيكي . وبعد يومين من عيد الميلاد التالي ، تزوجت شارلوت بهدوء من السير راسل فريزر ، لورد اوف سيفين اوكس . وهو نبيل يشير اليه دالبول بقوله انه « معتوه » . ويقال ان الايرل قد قال لواند توماس جريفي ، كاتب اليوميات المشهور : « انها الان قد خرجت من يدي ، فلا يعنيني ما تفعله بنفسها » . اما القصة التي يحكيها جريفي عن مبارزة حدثت بين ايزموند وبين والد شارلوت فتبدو واحدة من تلك الاختراعات الخيالية التي لا يمكن اقتفاء اثرها لاكتشاف مصدرها . واذا كان فريزر « المعتوه » قد عرف مقدما بقصة افتتان زوجته بايزموند وتعلقها به ، فانه يكون جديرا بالايفار من بعد . ذلك ان ايزموند وجليني كانا زائرين كثيري التردد على « بايدز هاوس » في سيفين اوكس خلال الاعوام التي تلت عام ١٧٨٠ . لقد

ذهبت شارلوت الى فريزر بدوطة كبيرة ، ويقال ان فريزر كانت له عشيقة فرنسية في دوفر . وعلى ذلك فان الامر يبدو كما لو كان صورة نموذجية من تلك الاتفاقات المتحضرة التي تميز بها القرن الثامن عشر . وقد وصفت صوفيا بلاك وود صديقتها شارلوت بعد عام من زواجها قائلة انها « تزدهر وفي غاية السعادة » .

* * *

وربما كانت قصة مورين انجستر، اصغر الشقيقات الثلاث ،هي اكثر القصص الثلاث اهمية وامتاعا ، ولكن سوء الحظ ، انها اسواها تسجيلا وحفظا . ويقتطف بوزويل من هوراس والبول قوله انها لا بد ان تكون تجربة مبهجة ان ينال المرء حب مثل اولئك الشقيقات الجميلات الثلاث ، وانها تجربة لا بد ان يحاول كل رجل ان يمر بمثلها في خلال حياته . كانت مورين ــ حينما تزوجت ماري من هوراس جليني ــ في الثالثة عشرة من عمرها فحسبب ، ورفض والدها ان يسمح لها بالذهاب الى لندن لكي تقيم عند اليزابيت مونتاجو ،بعد ان عرف ــ دون شك ــ بما حدث لابنتيه الاخرين هناك . ولكن طالما ان ماري قد تزوجت ، فقد كان من المستحيل ان تمنع مورين من الذهاب الى جلوسبي والبقاء هناك . ومن الغريب تماما ، انالايرل كان يقدر هوراس جليني تقديرا عظيما ،وفي عام ١٧٨١ ، بعد ان ورث جليني اللقب من اخيه ، وصفه الايرل بانه « اكثر الرجال عطفا وبهجة في انجلترا » . وهذا جانب من جوانب جليني لا بد انتذكره . ولما كان صديقا ملازما لايزموند ، فانه عندما كان يقف بالقرب منه ، كان يظهر في صورة غير مناسبة . ولكن اذا لم تأسره انفيرة ، او اذا لم يحاول ان يقلد ايزموند او ان يتعمد التفوق عليه ، فانه يبدو كما لو كان رجلا جذابا مثيراللاعجاب، اصبح بالتدريج نموذجا من نماذجالارستقراطيين الرياضيين . (وهناك جانب اخر من طبيعته،يتمثل في اهتمامه بالحكايات الشعبية الاسكتلندية . وكان اقتناعه بأن ملحمة « او سيان » كانت عملا مزيفا هو الذي دفعه الى اكتشاف قصص المرتفعات الشمالية الشعبية الاصلية ، التي قام بتجميعها ،في شكل اقرب الى شكل مجموعة لونروت كاليفالا ، وحولها الى بناء قصصي واحد تحت عنوان« ذخائر الشمال » في عام ١٧٩٣) .

وفي الخطابات التي وجدتها في نهاية مخطوطة جليني ، لم اعثر الا على اشارة واحدة لما حدث بين ايزموند ومورين انجستر . ففي الخطاب الثاني ، يكتبايزموند قائلا : « تؤمن قبيلة جرمانية معينة تعيش في المناطق الشرقية العليا من الدانوب بأن بعض العذارى لهن قدسية خاصة ، وانه يجب النظر اليهن باعتبارهن الحافظات المقدسات لاسرار الخليقة . . ويمكن معرفة مثل تلك النسوة من خلال ما يبدو في عيونهن من قدرة دائمة على الحلم وابتعاث الاحلام في الاخرين ، مع رقة في التعبير المصحوبة بالرشاقة الطبيعية الجديرة بربة من الربات . وحينما يلتقي الرجال بمثل تلك النساء ، فانهم يصبحون غير مطالبين الا باداء واجب واحد : ان يعبدوهن . وبعبادتهن ، اعني تاكيد جلال الربة في قدسيتها الابدية » . وعلى

هامش هذا الخطاب الى جوار تـلك السطور ، هناك سطـر بخط هوراس جليني يقول فيه : « بهذا ، فاز بذكاء ، بمورين انج ».

وكانت هذه ، حتى تلـك اللحظة ، هي كل معلومـاتي عن مورين انجستر . وفي وقت متأخر من ذلك اليوم ، قمت انا وانجيلا والستير بفحص كل ما وجدنـاه في الصوان الذي اخذناه من السقيفة . ولكننا لم نعثر على المزيد الذي يمكن ان يؤدي الى هدفنا . وسوف اكتب في مكـان اخـر عن الروايـة التي كتبها ايزموند فـي مرحلة باكرة ـ في سن التاسعـة عشرة ـ تحت عنوان « الارديس وايونيتا » ـ حينما كان في جوتينجين، وعن قصيدته الطويلة « في ذكرى تشارلس تشيرشيل » التي كتبت في نفس الوقت تقريبا . وقد عثرت على الرواية والقصيدة معا في المكتبة الكبيرة في قصر جلوسبي ،ولا شك انهما وصلا الى يدي هوراس جليني الابن تنفيذا لوصية ايزموند . والقصيدة لا يمكن ان تكون خالية من اي قيمة . كـان تشارلس تشيرشيل واحدا من افضل الشعراء المعروفين في عصره . كان قسيسـا ، ساخرا في اسلوبه ، مصارعـا (فقد كان ذا جسد هائل القوة) وكان عضوا في نادي نيران الجحيم ، ومات في سن الثالثة والثلاثين نتيجة حمى اصابته عدواهـا حينما كان يزور ويكليز في فرنسا . وقابله ايزموند ، واعجب به بوضوح ، وفي مخطوطة رواية « خطابات من فوق احد الجبال » يذكر تشيرشيل (كذا) باعتباره « واحدا من اسوا اعضاء جماعة العنقاء شهرة . فاذا كان هذا صحيحا ـ وهو محتمل تمامـا كمـا نعرف خلال كل المعلومـات المنقولة عنه ـ فان هـــذا يثير الاهتمام باحتمـال ان تشيرشيل كان اول من اخبر ايزموند بأمر الجماعة .

بلغت استثارتي بسبب اكتشافي لذلك المزيد من المواد حدا جعلني اكتب خطابا طويلا الى فليشر من قصر جلوسبي ـ الخص له فيه اكتشافاتي حتى تلك اللحظة ـ بما في ذلك بعض المعلومات عن جماعة العنقاء ـ مقترحا انه من الافضل ان اكتب هذا الكتاب (الذي تقرأه الان) كمقدمة مستقلة لمذكرات ايزموند . كانت ما تزال هناك بعض الاسئلة دون جواب : كيف مات هوراس جليني ؟ ما الـذي حـدث لمـوريـن انجستر ؟ وقبل كل شيء ، ما الذي حدث لايزموند في سنواته الاخيرة ؟ ولكن كان من الممكـن ان تترك هذه الاسئلة جانبا لتكون موضوعا لابحاث اخرى .

وقبل مغادرة قصر جلوسبي ـ بعد يومين من كتابة هذا الخطاب ـ اكتشفت اجوبة جزئية لاثنين من تلك الاسئلة .كنا قد قررنا ان نرحل في الساعة العاشرة صباحا تقريبا ، لكي نحاول الوصول الى ادنبرة في وقت متأخر من الليـل . تناولنا طعام الافطار مبكرين . وبينمـا كانت آنجيلا تحزم اخر ما سوف نأخذه معنا فـي الدقائق الاخيرة ، درت انا دورة حول المكتبة . كان الكثير من الكتب قد افسدته الرطوبة احيانا ، وكان احدهم قد صنع كومة من تلك الكتب التالفة في احد اركان الحجرة ، ربما بنية ان يرسلها لكي يعاد تغليفها في مكان ما . كنت اعرف ان هـذه الغرفة لا بد وانها تبدو بنفس الصورة التي كانت عليها حينما اشترك ايزمونـد وهوراس جليني في الشراب في اواخر كل ليلة هنا ـ ثم قررا ان يتبادلا الفراش.

حاولت عدة مرات ان اضع عقلي في وضع او حالة سلبية ،لكي احاول ان « اتلقى » ايزموند (كما يتلقى جهاز الاستقبال رسالة لاسلكية) ولكن المنزل كان يعج بالحركة واصبحت عاجزا عن التركيز . وفجأة تماما ، وصلت الرسالة . اصبحت المكتبة مألوفة لي بطريقة غير مألوفة . وهذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكنني ان اصف بها احساسي . ان احاسيسنا تجاه الاماكن تصنعها غالبا ذكرياتنا وما يمكن ان تبعثه لدينا تلك الذكريات من تداعيات داخلية . ولكن ذكريات ايزموند عن تلك المكتبة كانت مختلفة كل الاختلاف عن ذكرياتي . وهكذا ، اصبحت المكتبة ـ بمعنى من المعاني ـ مكانا مختلفا . ووجدت نفسي انظر الى رف مرتفع في احد الاركان قريبا من النافذة . عبرت الحجرة الى هذا الرف. كان « ايزموند » قد كاد يتلاشى الان بالفعل . كان الرف خاليا ، والخشب المشغول من خلفه كان مكحوتا وقد بللته الرطوبة ولزوجة الطلاء الجديد . وخطر لي انه لو كانت هناك كتب فوق هذا الرف قبل طلائه ، لكانت الان موجودة بين الاكوام المتراكمة في ركن الحجرة . ذهبت الى تلك الاكوام ورتبتها على شكل صف طويل على الارض ، وقد قلبت كعوبها الى اعلى . ولم يبد لي اي عنوان من عناوينها ذا اهمية خاصة : كتب صلوات ، وكتب رحلات ، قصائد كاوبر ، بعض كتب سكوت . بل كانت هناك نسخة من طبعة توشفيتز لاحد كتب هنري جيمس . رحت افتحها ، واحدا بعد الاخر ، عشوائيا ، ملقيا نظرات سريعة الى صفحات العناوين الداخلية الاولى . التقطت نسخة من كتاب « تقرير عن جزر ساندويتش » كانت قد افسدت بشدة بسبب الرطوبة ، والصفحات تعجنت من البلل . وحينما نظرت الى صفحة العنوان الداخلية الاولى ، عرفت انني وجدت ما كنت ابحث عنه .كان الكتاب بقلم مورين انجستر. وهو من نشر موراي، ناشر اللورد بأيرون ، في لندن عام ١٨١٢ ، اي في العام الذي بلغت فيه مورين عامها الثاني والاربعين . كان الكتاب مهدى الى « ذكرى هوراس ، لورد جليني » . وتحت هذا الاهداء ، كتب احدهم :« طعن في عينه اليمنى بيد احد القتلة المجهولين في ٢٨ يوليو عام ١٧٩٦ » . كانت الكلمات قد تبللت الى درجة سيئة وامتزج الحبر بالياف الورق متشعبا منتشرا حتى اصبحت قراءتها عملا على شيء من الصعوبة .

وهكذا ، فقبل ان نغادر قصر جلوسبي في ذلك الصباح ، كنت قد عرفت شيئين اخرين عن عائلة جليني : ان هوراس قد طعن ولم يطلق عليه الرصاص . وان مورين انجستر قد سافرت الى الشرق في ايامها الاخيرة ، وزارت اليابان واستراليا وجزر ساندويتش . وقد تأكدت فيما بعد من ان الكلمات التي كتبت تحت الاهداء ، كان كاتبها هو ابن جليني .

كنت مسرورا من نفسي الى درجة كبيرة . لم تكن الزيارة قد اثمرت بالدرجة التي كنت ارجوها . ولكن كانت كل ثمارها ثمينة وذات قيمة كبيرة . كان الستير وانجيلا سعيدين ايضا . لم يكونا قد عثرا على بقية مذكرات دونللي . ولكنهما كانا قد عثرا على نسخة من الكتاب المقدس تساوي عشرين الفا من الجنيهات .

زودتني معرفتي بان جليني كان قد طعن بمادة للتأمل ، وخاصة بالنظر الى

ما اضافه ايزموند على خطابه الاول بعد التوقيع عليه :« انني ارجوك ان تدمر ،او على الاقل ان تخفي هذا الكتاب عن الانظار ، ليس فقط باسم صداقتنا ، ولكن من اجل سلامتك انت وسلامتي » . فهل كان ايزموند يواجه اي خطر تهدده به الجماعة ؟ هل يمكن ان يكون موت جليني نتيجة لتجاهله تحذير ايزموند ؟ كانت هناك سمة واحدة غريبة – على الاقل – في جريمة القتل : انها حدثت في حجرة صغيرة بالطابق الثاني . فاذا كان جليني قد طعن وهو في الفراش وقتل هنا، فلماذا لم يكن نائما في احدى حجرات النوم الكبيرة المطلة على البحيرة والمنحدر ؟ وجدت نفسي اتمنى لو كان بوسعي ان اتصل بايزموند لكي اسأله . ولكن لم احظ باي قدر من التركيز يعطيني المفتاح الذي كنت بحاجة اليه .

عدنا الى شقة الستير في لندن في الساعة الثانية من عصر يوم الجمعة . كان يوما مشمسا . وفي الحقيقة كان اكثر حرارةمن ان يسمح بالراحة . وجدت نفسي اتمنى لو كنت قد اتيت معي بملابس الصيف . كنت أفكر في ايزموند الذي كان جسده يذوب ويتلاشى في قلب مقبرة العائلة منذ اكثر من مائة عام – فاتمنى لو استطيع بشكل ما ان اشاركه رقدته .

كان الستير مشغولا بعمل ما في المدينة . فتناولت انا وانجيلا غداء متأخرا. من المستحيل ان تقوم بين شخصين علاقة حميمة على حين فجاة وبشكل عنيف ، دون ان يستمرا في التفكير احدهما في الاخر – بمعنى من المعاني – بوصفهما عاشقين . ولكن الدفء الذي شرع ينمو بيننا لم يكن من ذلك النوع الذي ينمو بين الرجل وبين زوجته . وجدت نفسي اخبرها بتلك التجارب الغريبة التي «اصبح» في اثنائها ايزموند، وكيف ادت بي آخر تلك التجارب الى العثور على كتاب مورين انجستر . توقعت منها ان تجد في الامر ما يبعث على الاهتمام ، او ان تنظر اليه باعتباره شيئا مسليا ، ولكنني لم اتوقع منها ان تجده امرا قابلا للتصديق بشكل كامل . فقد كنت على كل حال ، اغرق نفسي بشيء من العمق في ايزموند ، وربما الى درجة اكثر من اللازم. ولكن رد فعلها ادهشني .ارتبكت وبدا عليها الانزعاج . قلت :

« لا شيء يستحق القلق .انما نظرت الى الامر كشيء يثير الاهتمام ».

وجدتني احتج بوجهة النظر العقلانية التي توقعت منها ان تأخذ بها . ولكنها قالت ان آلستير قد تحدث معها عن شعوره بالغربة في قصر جلوسبي ، وانه تساءل عما اذا كانت حجرته مسكونة ».

بعد الغداء بنصف ساعة ، وبينما كنت افحص مخطوطة رواية جليني ،قالت :

« هل تظن انه يحاول ان يقول لك شيئا ؟»

« من ؟ »

« ايزموند . »

حاولت ان اوضح لها انني لا اشعر – او انه ليس لدي احساس – بحضور ايزموند . وانما انا ارى الاشياء – ببساطة – بعينين هو كما لو كنت انا ايزموند.

والمرء لا يحاول ان يخبر نفسه بشيء ما »

قالت :« اظـن اننا يجب ان نتصل بهذا الدكتور كورنر ».

كنت قد انتويت ذلك ، ولكني كنت اريـد ان اؤجل ذلـك الاتصال لمدة اربـع وعشريـن ساعـة اخرى . كنت اريـد ان امضي امسية هادئة في فحص الاوراق المختلفة التي جئنا بهـا معنـا من جلوسبي. قالت انجيلا :

« اسمح لي بأن اتصل به ».

« حسنا . اذا كنت تريدين ذلك » .

وبعد عشر دقائق ، قالت:

« لقد دعوته لشرب كأس معنا في الساعة السادسة » .

وفي حوالي الخامسة والنصف،دق جرس التليفون ، فرفعت آنجيلا السماعة. وضعت يدهـا على السماعـة وقالت :

« انهـا آنا دانكلمان .. »

هززت راسي بقوة لكي اؤكـد لها اننـي لا اريـد محادثتها ، فقالت لها آنجيلا اننـي بالخارج وانني لن اعـود الى وقت متأخـر . ذهبت الى الحمام بينمـا كانتا تتحادثان ، وتحممت. وحينمـا عدت بعـد عشر دقائق كانت آنجيلا ما تزال تتحدث، ولكنهـا انهت المكالمـة بينمـا كنت ابدل ملابسي في حجرة النوم .

« تلك المراة مرعبة تمامـا .اتمنى لو انني لم أعطها هذا الرقم ».

« مـاذا كانت تريـد ؟ »

« لا بد انهـا تملـك حاسة سادسة . لقدقالت انها قد سمعت الان تـوا ان كورنـر موجود في لندن وانهـا ارادت ان تنصحك الا تراه. ثم راحت تسرد علي قصصا طويلة متشابكـة عن مقدار ما يملكه من شر وقدرة على الايذاء » .

« ماذا قالت من افعالـه ؟» .

« اوه .. مشاجرات عما كـان يعنيه رايخ وما الى ذلك . ولكنها قالت انـه يذيع عنهمـا اشاعات كاذبة ،وانهـا تنوي ان تقاضيه بتهمة القذف . اما كل مـا كانت تقصده فهـو انهـا تريدك ان تتجنب كورنر . فاذا حدث ان قابلته ، فلاتصدق كلمـة واحدة مما يقول » .

كنت جالسـا على الفراش ، اعقد رباط رقبتي . اقتربت مني انجيلا وغرست اصابعهـا في شعري المبتل .انتابتني دهشة بسيطة ، ولكنني افترضت ان هـذه المكالمة قد صدمتهـا بشكل مـا وانهـا تريـد شيئا من التدليل . احطت خصرهـا بذراعي وضغطت عليها قليلا . اخذت يدي بكلتا يديهـا وضغطت بهمـا على نهديها. نهضت واقفا، وانحنيت عليهـا ومنحتهـا قبلة لكي اطمئنها ، فوجدت نفسي اضمها بقوة حتى التصقت بي ، واصبح جسدانا كتلة واحدة مندمجة . وبعد ان تبادلنـا القبلات للحظة . قالت بصوت متوتـر :

« انه شيء مرعب . ولكني اريدك ان تمارس الجنس معي ».

« لا يكـاد يكون هنـاك وقت » .

ولكن كان باستطاعتها ان تشعـر بي وانا اتصلب في التصاقي بها ... كانت اكثر من مستعدة لممارسة الحب . وحينئذ ، فجاة ، انفلتت من بين ذراعي وابتعدت عني . قلت :

« ماذا حدث ؟ »

انفجرت باكيـة وقالت :

« انني اكره نفسي . »

« لمـاذا ؟ »

« انها هذه المراة الكريهـة العفنة . اعتقـد انهـا تستخدم التنويم المغناطيسي . فحينمـا كانت تتحد ثمعـي ... »

لم تستطع الاستمرار في الكلام. احتضنتهـا مرة اخرى ، ولكن دون رغبة في هذه المرة . قلت لها مؤكدا انه من الصعب القول انه من المخجل ان يكـون المـرء قابـلا للتاثر بالايحاء . وبعـد قليل من الاسئلة اكتشفت ان السيدة دانكلمان قـد تحدثت عن الاحتفـالات الجنسية الجماعية . قالت انجيلا :

« اعرف هذا ، ولكنها مسألة تبدو كريهة جدا . لقد اردت ان اغتصبك » .

« لا تسمحي لي بأن اطفىء شعلتك الملتهبة » .

ولكننا نعرف معا ان نوبة الحمى قد انتهت . ولكي اؤكد ذلك ،ارقدتها علـى الفراش ، وقبلتهـا برقة ، ثم ربت على نهديهـا وفخذيهـا بيدي . استرخت مثل طفلـة صغيرة . كان بوسعنـا ان نمارس الجنس في تلك اللحظة ، ولكنه كـان سيصبح جنسا رقيقا هادئا مثل ما يمارسه زوجـان طيبان ، كمـا لو كان امتدادا لقبلاتنـا ، ولن يكـون حمى مسعورة متأججة . وبعد عشر دقائق، حينمـا كـان جرس الباب يدق ، كنت اشرب كأسا من المارتيني اشتدت حاجتي اليه ، وكانت انجيـلا تتحمم في الحمام .

* * *

كان كورنر رجلا غريب الهيئة : طويلا ، محدودب الكتفين ، راسـه يكاد يكون اصلع . وقد ذكرني على الفور بقائد الفرقة الموسيقية فورتو انجلر . لاح لي صدغه ضعيفـا ، ولم ينم الوجه ـ بشكل ما ـ عن عزيمة قوية . ومع ذلك فقد كان الاثـر العام الذي يخلفه هذا الشكل الغريب هو الاحساس بذكاء داخلي وقاد غير مالوف . كـان صوته مرتفع النبرة الى حد مـا ، ولكنه كـان رقيقا ، يكاد يكـون ذا تأثيـر مغناطيسي منـوم بعد ان يتكلم عدة دقائق. كانت اللكنـة الالمانيـة قوية ،وبدت بذلته الرماديـة غاليـة الثمـن، ولكنهـا ظلت تلبس منذ وقت طويل حتى علتهـا لمعـة خفيفـة .

رفض ان يشرب كأسا : « انني لا اشرب سوى القليل من عصير الفاكهة » ثـم جلس على حافة مقعد كبير عميق ذي مسندين وقد وضع يديه البارزتي العظام بين ركبتيه ، عاملا على ان يبدء في وقت واحـد بمظهر فيه كثير من الاسترخاء وعـدم

الراحة معا . حينما دخلت انجيلا ، قفز واقفا على قدميه ، وانحنى مقبلا يدها بدماثة وتهذيب طبيعيين ،وفي رشاقة بدت تعبيرا عن شخصيته الداخلية . اقترحت انجيلا ان يجلس على الاريكة . وفي هذه المرة ، قذف بنفسه الى الخلف في احد ركني الاريكة بتلقائية مبالغ فيها ثم وضع ساقا على ساق ، كاشفا عن جوربه المصنوع من الحرير ذي الخط الابيض الناصع الطولي . ثم بدا يتكلم :

« حسنا ، يا عزيزي مستر سورم ، هذا حقا شرف عظيم لي . انني اعرف كتبك معرفة جيدة بالطبع . (وقد اتضح لي فيما بعد ان هذا صحيح ، فقد كان يقتبس منها اقتباسات طويلة في حديثه بطريقته الالمانية التعليمية) واسمح لي ان اقول منذ اللحظة الاولى انني اتمنى ان تجد في بعض آرائي ما يثير اهتمامك ، مثلما اجد انا في آرائك . . . »

كان بوسعي ان ارى ان آنجيلا كانت تكاد تموت من تلهفها الى ان تسأله عن اسرة دانكمان ، ولكن كان من الصعب ان نوقف مجرى الحديث الدائر عن الافكار والآراء بالاضافة الى ان المرء كان جديرا بأن يشعر بتفاهة مثل هذا الموضوع بالمقارنة الى مناقشة افكار هولدرلين وياسبرز »،

لن احاول هنا ان انقل تقريرا كاملا عن محادثته . فقد مضى في حديثه ، باستمرار وثبات تقريبا ، حتى غادرنا عند منتصف الليل . وبدا حديثه من النزعة الرومانتيكية الالمانية والميتافيزيقا الفلسفية عند فلاسفة الالمان ، حتى وصل الى افكار رايخ وتطويره هو لتلك الافكار . ولا يمكنني هنا سوى ان اقدم صورة سريعة لافكاره المحورية الرئيسية .

كان دانكمان وزوجته قد لخصا لنا وضع ويلهلم رايخ . ولكن كورنر وصفه بشكل اكثر اكتمالا : المراحل الثلاث ، بدءا من عمله بوصفه احد اتباع المدرسة الفرويدية ، ثم انفصاله وابتعاده عن فرويد الى « تحليل الشخصية » — التي قد يعتبرها اكثر علماء النفس مساهمته العظمى في هذا العلم — واخيرا ، مرحلته « النزقة » او المتهوسة ، حينما اعتبر نفسه « عالما طبيعيا » ، وحينما اعتقد انه قد اكتشف نوعا غامضا من الطاقة يدعى « الاورجون » يمكن ان يركز بطرق مختلفة . ولكن ما ادهشني كان ما اثبته كورنر من ان رايخ كانت له نظريات مادية النزعة — بقدر ما من المادية — حول الامراض العصابية (وقد كان رايخ عضوا في الحزب الشيوعي حتى فصل منه بسبب آرائه المعارضة لآراء الحزب حول اسباب الفاشية).

وقد بدأت افهم كورنر بصورة افضل حينما تحدث عن فكرة رايخ حول « درع الشخصية » . كيف ينمي الناس انواعا مختلفة من القشور الصلبة حول شخصياتهم لكي يغطوا انواع قصورهم ونقاط ضعفهم والثغرات التي يخشون منها على امنهم الداخلي ، وكيف يمكن لتلك القشور في الوقت المناسب ان تتحول الى درع سابقة — مثل الحلة الفولاذية التي كان فرسان القرون الوسطى يرتدونها في الحرب — تخنق الشخص في داخلها . ومن الواضح ان كورنر قد آمن بهذه الفكرة ايمانا مطلقا واستقرت في اعماقه . ولاح لي ان هدفه قد اصبح هو الا تكون لشخصيته

اي دروع على الاطلاق ، وبدا لي كما لو كان في حالة سيولة كاملة دون حماية ــ او تحصين ــ من اي نوع . وسرد علينا بصراحة كيف عالجه رايخ من اصابته بتصلب العضلات كانت تسبب له آلام تقلصات الياف العضلات المضنية . وكان هذا التصلب راجعا بشكل اساسي الى الحرج الذي يمكن ان يشعر به رجل شديد الحساسية ــ مثلما تبدأ كتابة تلميذ تتصاب وتتشنج يده حينما يطل المدرس الى كراسته من فوق كتفه اثناء الكتابة .

وبعد كل ذلك كان من الصعب ان افهم كيف حقق كورنر تحوله الى نظريته عن الوعي الباطن ــ رغم انه هو نفسه قد اعترف بانه لا يرى اي ترابط بين الفكرتين . وفكرته ــ اساسا ــ تتلخص في ان الحضارة والعقل المنطقي ، قد دفعا الانسان الى حالة اصطناعية زائفة . وقد نظر الى قدرة الانسان على التفكير باعتبارها نوعا من السقوط من حالة النعيم المبارك ، شكلا من اشكال الخطيئة الاصلية . وقد اطلق على الوعي اسم : « ضوء النهار الصناعي » ، وقارنه بالضوء الكهربائي الذي اعانى الانسان على ان يرى في الظلمة ، ولكن الضوء الذي كان من نتيجته ان عزل الانسان بحدة عن الليل الممتد خارج نافذته . قال ان الحيوانات بشكل ما تتطابق مع الطبيعة، اما الانسان فقد وقع في شرك حجرة وعيه ذات الضوء الكهربائي .

ويظهر هذا بشكل خاص في المجال الجنسي ؛ لان الجنس ينتمي بشكل اساسي الى ذلك « الليل » الممتد خارج النوافذ . الحيوانات تنزلق الى الجنس مثل تمساح ينزلق من ضفة النهر الرملية الى المياه (هذه صورة كورنر) ، اما الانسان فلا بد ان يقفز الى المياه من فوق منصة مرتفعة . انه يصل الى هناك لا خلاف ، ولكن ان لم يكن غواصا ماهرا ، فان تأثير القفزة والغوص المفاجيء يمكن ان يدمره . قال انه من الحق ان الجنس يعتمد على الانفصال القائم بين الذكر والانثى ، مثلما يعتمد مولد الكهرباء على التنافر بين قطبي المغناطيس . ولكننا بالغنا في هذا الانفصال حتى اصبح « قفلا » آخر اضافيا وضع على باب السجن . وتكاثرت انواع الاحباط والخيبة ، اصبحنا معزولين غرباء عن المجتمع واحدنا عن الآخر ، بالاضافة الى اغترابنا عن الطبيعة . وتتبدى مظاهر المرض في تزايد نسبة الجريمة ، وفي الطبيعة البربرية المفشية التي تبدو بها بعض الجرائم ــ وقد اشار هنا الى بعض الجرائم المذكورة في كتبي .

الاجابة ، او الحل طبقا لما يقوله كورنر بسيطة بساطة جميلة . ان الجنس ينبغي ان « يطهر » حتى تصبح العلاقة الجنسية بين البشر طبيعية مثلما هي بين الحيوانات. فاذا ما تمكنا من ازاحة الحاجز الجنسي الهائل بين الناس ، عادت الرابطة القوية القديمة بين الوعي والوعي الباطن الى سابق عهدها ، وسوف يستفيد الانسان من حضارته ــ التي لن تعود وحشا مثل وحش فرانكشتين كما هي الآن ــ بالاضافة الى استفادته من بساطة الحيوان الصحيح التكوين . ان « سفر التكوين . مصيب في قوله ان « الخطيئة » جاءت من وعي الانسان او شعوره بالخجل الجنسي . يجب ان يختفي « كل » خجل من اي نوع .

عاد آلستير الى البيت حينما كان كورنر يشرح آراء رايخ ، وافتتن به آلستير حتى انه نسي ان يصب لنفسه ما يشربه . وبعد ساعة ، اقترحت ان نخرج جميعا لكي نتناول طعام العشاء ، ولكي نمضي في « المناقشة » (التـي كانت تكاد تكون محاضرة تقريبا ، رغم انها كانت تلقى بأكثر الاشكال العادية وغير الرسمية سحرا وجاذبية) . طلبنا عصير نبيذ تشابليس الفرنسي مع الطعام ، وشرب كورنر كأسين بعد ان اضاف اليهما الماء . ثم سرنا حول الميدان مدة من الزمن ـ فقد قال كورنر انه يحتاج دائما الى الحركة الجسدية اذا كان عقله يعمل بصورة جيدة ـ ثم عدنا الى الشقة . كانت لدي تحفظات معينة ازاء افكار كورنر ، ولكن كان بوسعي ان ارى ان صاحبي الآخرين سوف ينظران اليها كشيء من المماحكة . ودون اي تردد ، وصفت آنجيلا ما كانت تجده من كوابح جنسية في طفولتها ، وقال لنا آلستير كيف انه لم يتخلص ابدا من الاحساس بالخجل والعار حينما نظر اليه شخص ما من فوق حاجز المرحاض في المدرسة فضبطه وهو يمارس العادة السرية . رايت آنجيلا وهي تجفل ازاء هذا الاعتراف ، واعتقد انها لم تتخيل ابدا ان الصبية يمكن ان يكونوا على هذه الدرجة من الحيوية الجنسية. ولشدة دهشتي ، مضت آنجيلا لكي تصف ما حدث لنا حينما زرنا اسرة دانكمان لآخر مرة . وظننت في البداية انها لم تكن تريد الا ان تخبره بان انا دانكمان اصرت على ان تعري نفسها ، ولكنها بعد ان احمر وجههـا ورمقتني بنظرة سريعة ، انتقلت الى الحديث عما حدث في السيارة . وكان هذا هو دور آلستير في الجفول ، ان لم يكن في الظهور بمظهر المصدوم . وانتهت بقولها : « كيف يمكنك ان تفسر ذلك ؟ »

لاح الاهتمام والاستغراق في الموضوع على كورنر . وظل يومىء براسه ببطء .

« انهما ماكران » ماكران جدا . لقد كان علي ان اطردهما من مجموعتنا لان ما اراداه حقا كان هو ان ينظما جمعية للاحتفالات الجنسية الداعرة . (حينما قـالت آنجيلا : « هذا هو ما قالاه عنك . » اومأ براسه في حركة اكثر وقارا) اتفهمون ؟ انهما ليسا من البشر المتحضرين . انهما ينتميان الى مرحلة من مراحل تطور المجتمع اكثر بدائية ـ مرحلة التابو (المحرمات) والتضحية بالبشر كالقرابين . سأحكي لكم ما ادى الى انفصالنا النهائي . كان علي ان اذهب الى المانيا للقيام ببعض الاعمـال القانونية . كنت اعرف ان رايخ كان يثق فيهما ، ولذلك فقد تركت لهما مسؤوليـة الاشراف على مجموعتنا . وجاءت انا ذات يوم الى الاجتماع حاملة رمزا ضخما لعضو التناسل الذكري مصنوعا من الخشب ـ يمكن ان تطلقوا عليه صفة الشيء الخرافي . وزعمت ان هذا الرمز الخشبي الضخم كانت تستخدمه قبيلة افريقية في احتفـالات افتراع العذارى الاسيرات قبل تقديمهن ضحايا وقرابين للآلهة . وانتم تعرفون ان واحدا من اهم مبادئنا هو ان تمريناتنا على خلق الالفـة بين البشر تقـوم علـى التوقف قبل الاتصال الجنسي الكامل . وليس هذا لاننا نعتبره شيئا سيئا ، وانما لانه يخفف التوتر بسرعة كبيرة ، والتوتر ينبغي ان يتصاعد حتى يمكن ان يستخدم في تحويل اتجاه العقل . (فكرت في الهولديانيين واحتفالاتهم مع العذارى المقدسات) .

ولم يحاول هذان الاثنان ـ دانكمان وزوجته هذان ـ ان يعارضا هذه الفكرة بطريقة مباشرة ، ولكنهمـا اصرا على ان تمريناتنا على خلق الالفة ينبغي ان تتصاعد حتى تصل الى ان يمارس شخص مثل الكاهن الجنس مع احـدى النساء باستخدام رمز خرافي لعضو الذكورة التناسلي ، ثم يقذف لبنا دافئا داخلها في لحظة بلوغهـا ذروة النشوة . وقد استمتعوا جميعا بهذه العملية بالطبع ، واصبحت الفتيـات يصرخن من التهيج حينما تبلغ المراة ذروة نشوتها . وكان كلاوس دانكمان بالطبع هو « الكاهن » في كل مرة . وكان دائما يصر على ان يرتدي ملابسه كاملة ، فكان يرتدي حلة كاملة قاتمة اللون ، ولكنه يخرج عضوه بارزا من فتحة بنطاله بعد ان يطليه ببعض الالوان الزاهية مثل الثعبان . (وكان رايخ يقول ان دانكمان وزوجته يعانيان من كل انواع الانتكاس الجنسي التي وصفها فرويد) . ولحسن الحظ عدت انا بعد بداية هذه العمليات بوقت قصير . وطـالب دانكمان وزوجتـه بتصويت ديموقراطي بين الاعضاء لتوضيح من يريد الاستمرار في هذا « التمرين » . (هنا احمر وجه كورنر ، وبرزت عروق جبهته) . قلت لهما انه لن يكون هناك تصويت . فان هذا كان مناقضا لافكاري ، فاذا لم يوافقا عليها كان بوسعهما ان يذهبا لتكوين مجموعتهما الخاصة . وعرضت آنا ان استقيل تماما لكي اكون مجموعتي الخاصة في مكان آخر . ولكن لم يكن هناك من يريد ذلك بالطبع ـ فقد كنت اكتسبت شخصية الاب ووضعه بالنسبة للمجموعة . ولم يكن هناك من يظن انها فكرة طيبة سوى دانكمان وزوجته . فكان علي ان اطردهما . وبعد ذلك حاولا ان يكونا مجموعاتهما الخاصة ، دون نجاح . ولكنكم ترون (هنا رفع اصبعه الى السماء مثل نبي ينذر بنيران الجحيم او يستنزل صواعق السماء) انهما لا يملكان اي اسس فكرية . باختصار انهما لا عقل لهما » ثم اشار باصبعه نحوي : « وهذا هو سبب لهفتهما الى اكتساب تأييدك . فان افكارك تستطيع ان تكسب لهما المؤيدين والانصار . انك يمكـن ان تكون عشيقا للسيدة دانكمان ... »

قلت : « معاذ الله ! »

« ولكنك قد تكون . انها تعرف كيف تسيطر على الرجال ، مثلما رايت . حينما كانت عضوا في جماعتنا ، كانت دائما ترتدي اجمل الملابس الداخلية ، كما لو كانت فتاة صغيرة مترعة بالحياة فوارة الرغبات بدلا من ان تكون المراة النصف ذات الاربعين عاما . وانا اعرف انها وجدت عشاقا عديدين ... »

سألت آنجيلا : « هل تظن انها تملك نوعا من القدرات المغناطيسية اذن ؟ »

« كلا ! بالطبع لا . ان ما قلته لي الآن توا هو ببساطة برهان على ما كنت اشرحه لك . ان الهوة الجنسية التي تفصل بين البشر ليست هوة طبيعية . ولكن حتى اكثر الناس صحة نفسية مليئون بانواع الكبت . انك فتاة طهرية متزمتة الى حد ما . وانني لعلى استعداد للقول بأنك لم يكن لك سوى عشيق واحد ؟ (اومات براسها) . وهكذا هو الامر . ان هذه المراة لا تتحدث فقط بصراحة عن الجنس وعن الاحتياج الى التخلص من كل انواع الكبت ، وانما هي تظهر بنفسها وتتعرى

لكي تثبت بجسدها ما تقول وما تعني . وهكذا يختل التوازن القائم بين عقلك وبين طاقاتك الجنسية . وتنفجر الطاقات مثل الحمم المتفجرة من بركان ، فتظنين انت انها سحرتك ، بينما انت التي تقومين بكل شيء . »

ابتسم بسعادة عندما اكتملت فكرته وتلاقت خطوطه بهذا الشكل الواضح . قالت آنجيلا :

« فماذا حدث حينما اتصلت بالتليفون هذا المساء . . . »

« لقد حدث التأثير مرة اخرى ؟ فقد تذكرت ما حدث في المرة الاولى ! » فجأة ادرك ما قالته ، صاح بها : « هل اتصلت بك ؟ لماذا ؟ »

اخبرته آنجيلا بالسبب فهز راسه وقال :

« آه ، الشيطانان الماكران . هل قلت لك انه كان قاتلا ؟ لقد كان جديرا بأن يعدم في اي بلد باستثناء سويسرا « السويسريون متسامحون جدا . »

حينما دقت الساعة معلنة منتصف الليل ، نظر الى ساعته ثم قفز واقفا على قدميه مثل احد رجال سلاح الفرسان يهب لصيحة « انتباه » . قال :

« يجب ان اترككم . ان الغد يوم صعب بالنسبة لي . »

نظر الينا مفكرا ، ثم قال : « لا بد ان اكون صريحا معكم . ان مجموعتي تربطها علاقة قوية شديدة الانسجام لاننا عملنا معا لسنوات عديدة ، ولذلك فان الاعضاء الجدد يبقون طويلا في مرحلة الاعداد كمرشحين للعضوية . ولكني اشعر في حالتكم ان الاسراع له ما يبرره . ولقد قررت بالفعل ان ادعو صديقي جيرار لحضور اجتماع جماعة الالفة . فاذا راق لكما انتما الاثنين ان تأتيا معه . . . »

لو ان هذه الدعوة وصلتهما منذ ست ساعات فحسب لرفضاها على التو دون تردد ، ولكنهما الآن كانا واقعين تحت تأثيره حتى انهما وافقا مع ابداء كثير من الامتنان المتحمس . سألته عن الموعد فقال :

« غدا بعد الظهر . الديكم سيارة ؟ »

اومأ آلستير براسه .

« حسنا . . سوف ارسل شخصا ما المجيء بكم في منتصف نهار الغد . وسوف تتبينون السبب الذي يجعلني عاجزا عن اعطائكم العنوان . »

خبط بكعبيه وهو ينحني انحناءة خفيفة ، ثم رحل . توقعت ان يسرع آلستير وآنجيلا الى فراشيهما — وكنت مستعدا للنوم . ولكنني نسيت انهما يصغراني بخمسة عشر عاما على الاقل . شرعا في مناقشة ما قاله لهما ، وظلا يطالباني بابداء رايي . كنت مرهقا لدرجة تمنعني من الحديث عن تحفظاتي . ثم سألته آنجيلا عما اذا كان قد صدم بما روته عما حدث في سيارة الاجرة . احجم اولا عن الكلام ، ثم برز لمواجهة الحقيقة . قال :

« لم تكن صدمة على وجه التحديد . انما كانت اقرب الى الغيرة . اعتقد انني افكر فيك كما لو كنت احد افراد العائلة . »

سألته : « وكيف ستفكر في الغيرة او اننا اتبعنا جميعا افكار اوتو ؟ » (وكنا

جميعا نتنادى بأسمائنا الاولى .)

« لا اعرف . الحيوانات ايضا تغار . أليس كذلك ؟ »

« ليست هذه حالة واحدة . انها ليست نفس الغيرة . لقد قال اوتو اننا لا نحاول العودة الى حالة الحيوان ، انما نحاول ان نمزج بين طبيعية الحيوان وذكاء الانسان وذهنه . »

كان بوسعي ان ارى كيف يمكن لها ان تكون تلميذة جديرة بالاعجاب ، فقد طوعت لنفسها كل الاجابات المطلوبة على كل الاسئلة المتوقعة .

قال مسالما لكي يتجنب المناقشة : « اعتقد انك على صواب . »

« بالطبع انا على صواب . انني احب جيرار (طرفت عيناي من الدهشة) وانا احبك انت ايضا . وانت تروق لجيرار وجيرار يروق لك . فلماذا لا يعامل احدنا الآخر كما لو كنا ننتمي لنفس العائلة ؟ »

شعرت بأن منطقها كان قد بدأ يشوبه نوع من الاضطراب ، ولكنني تمسكت بصمتي . واخيرا ، تثاءبت واشعرتهما بأنني اريد ان انام . كانت الاريكة (التي تتحول الى سرير للنوم) موجودة في حجرة الجلوس . وعندما ابديت رغبتي في النوم اقترحت انهما يجب ان يتركاني ، وان يذهبا لمتابعة المناقشة في حجرته . فتحت الاريكة واعددتها للنوم ، وبدلت ثيابي فارتديت البيجاما ، فغرقت في النوم بعد دقائق . استيقظت بعد وقت لا اعرف مقداره حينما صفق الباب بخفة ، وعلى ضوء النور القادم من النافذة ، رايت جسدا لم استطع ان اتبين ان كان جسد آلستير ام جسد آنجيلا ـ متجها الى الحمام . ثم خرج الجسد مرة اخرى ، فعاد الى حجرة النوم . عدت فغرقت في نومي . ايقظني ضوء الشمس في حوالي الخامسة صباحا . فتحت عيني ، فتملكني شيء من الدهشة حينما رايت راس آنجيلا الى جواري على الوسادة . وحينما رفعت راسي ، تزايدت دهشتي عندما وجدت ان آلستير كان ينام الى جانبها من الناحية الاخرى . ذهبت الى الحمام ، ثم رقدت في فراش آنجيلا الخالي ، فنمت لمدة اربع ساعات اخرى . انني لا اعارض « الالفة » ، ولكن لكي « انام » افضل ان اكون في سرير مستقل خاص بي .

دق جرس التليفون خمس مرات في ذلك الصباح . ولكننا افترضنا جميعا انها انا دانكمان فتركناه يدق دون رد . وفي المرة السادسة ، اجابها آلستير ، فكانت آنا دانكمان بالفعل . قال الستير انني وانجيلا بالخارج واننا سنبقى خارج المنزل طول النهار ، ثم قطع المكالمة قبل نشوء المزيد من التعقيدات .

قبل ربع ساعة من منتصف النهار ، دق جرس الباب . ولما فتح احدنا ، وجدنا وراء الباب شابا قوي البنية ، راسه مثل طلقة الرصاص . دعوناه للدخول ، فجلس على الاريكة بادي الخجل . رفض شرب الشاي او القهوة . وقال انه شرب شايه وقهوته قبل ان يأتي بقليل . سألناه عما ينبغي ان نأخذه معنا لقضاء عطلة نهاية الاسبوع ، هز راسه بغموض وقال :

« ايه . . . لا شيء . »

كان اسمه كريس رامزي ، وكان بعيدا عن ان يشبه تصوري عن تلامذة كورنر، كانت تبدو عليه سمة من سمات البراءة تجعله محببا الى النفس الى حد بعيد ، ولكن كان من الصعب ان نقول انه صاحب افكار او من نوع الرجال المفكرين . تحدث عن المصارعة ، والانزلاق على الماء والقفز بالمظلة من الطائرات . القينا قليلا من الملابس في حقيبة واحدة ، وخرجنا من المنزل مع كريس . كان يقود سيارة رياضية صغيرة ، فاقترح ان اركب انا معه ، على ان يتبعنا صديقاي في سيارة آنجيلا من طراز كورتينا . مضينا بالسيارتين حتى بلغنا طريق ادجار رود ، ثم عبرناه في مواجهة حانة « بارنيت وبوترز » . عبرنا ضاحية ويلوين جاردن سيتي ، ثم استدرنا الى الطريق الرئيسي . بعد نحو ميل وصلنا الى حائط طويل من القرميد الاحمر ، تبدو وراءه بعض الاشجار . استدرنا بين نصبين على ناصيتي طريق جانبي مصنوعين من الاسمنت فدخلنا الطريق الصغير المليء بالحفر الصغيرة . كان المنزل كبيرا الى درجة واضحة ولكنه كان يحمل علامة تقول انه من بناء وكالة «ريجينسي» للتشييد . وكانت جدران الحديقة المغطاة بالنباتات المتسلقة وأحواض الزهور — بشكل عام — في حالة احسن من حالة المنزل .

كان عصر ذلك اليوم معتدلاطيب الجو ، تفوح في هوائه رائحة الحشائش المقطوعة ، وقد سمعت اصوات المياه في مجرى صغير يجري وراء المنزل . اخبرني كريس بان المنزل كان مملوكا لاحدى جماعات جيورديف ، ثم اخذته جماعة كورنر منهم . ولما كان سكان القرية المجاورة قد اعتادوا على الضرائب التي تصدر من تلامذة جيورديف ، فان فضولهم ازاء الجماعة الجديدة كان محدودا . وكان هذا صحيحا كما تبينت بالفعل ، وان كانت هذه الجماعة جديرة بان تقدم مادة جيدة لتحقيق لاذع في مجلة « نيوز اوف ذي وورليد »، ثم ثبت لي ما كنت افكر فيه على الفور . فطالما كان كورنر ما زال مختفيا ، او انه لم يكن قد وصل ، فقد رحت اتمشى حول المنزل ، عبرالحشائش المبتلة (فقد امطرت السماء مطرا خفيفا حينما كنا نعبر ضاحية ويلومين) . بالقرب من الجانب الخلفي للمنزل ، وتحت ظلال الاشجار ، كان هناك جسدان عاريان يتدحرجان ملتصقين على الحشائش . جلسا ، وابتسما لي ، ثم استمرا في دحرجتهما . كان احد الجسدين لفتاة ممتلئة — وان كانت جميلة . في نحو السادسة عشرة من عمرها ؟ وكان الجسد الثاني لرجل نحيل مفتول في منتصف العمر . قلت : « معذرة » وانا اشرع في الابتعاد . صاحت الفتاة : « تعال وانضم الينا »

« انضم اليكما في ماذا ؟ »

« انها دورة الالفة مع الطبيعة . الحشائش المبتلة تعطيك احساسا لذيذا . »

وضحت لها انني جئت الى هذا المكان لاول مرة . سألتني :

« أانت خجول ؟ »

« كلا . » كان سؤالها نوعا من التحدي .

« اذن تعال . »

لاح على الرجل انه مرحب بانضمامي قدر ترحيب الفتاة ، ولو كنت في مكانه لرفضت تطفل طرف ثالث . خلعت كل ملابسي ولم يكن في هذا اي حرج ، لان من عادتي ان اسير في منزلي عاريا لمدة من الوقت بعد ان استيقظ من النوم ـ ثم ذهبت اليهما لكي اجلس بجوارهما ، قال الرجل :

« اجلس ، جرب ما نفعله . »

جلست ثم تمددت على الحشائش وتدحرجت ، شاعرا بشيء من الغباء . ولكنه كان على صواب ؟ فقد غمرني احساس لذيذ من ملامسة الحشائش المبتلة للجلد العاري . بعد ان تدحرجت حتى شعرت بقشعريرة البرد ، ذهبت فرقدت في الشمس التي سرعان ما جننتني . كان الرجل لحظتها يرقد على ظهره ،وكانت الفتاة تجذب بيدها حزما من الحشائش وتدلك بها جسده ، تلاطفه بها .بعد دقائق قليلة من تلك الملاطفة ، رقدت على ظهرها ، وقد باعدت ما بين فخذيها ، ففعل معها نفس الشيء ، وهو يجذب حزما كبيرة من الحشائش ، ونتف التربة المبتلة ما زالت عالقة بجذورها ، وظل يدلك نهديها وبطنها برقة متناهية بما يجذبه . قال لي :

« تعال وساعدني . »

فضلت ان اجلس عاقدا ركبتي امام صدري لكي اداري اهتمامي المتزايد بالفتاة ، التي كانت ساقاها المفتوحتان يثيران استجابات بافلوفية . ولكن بعد ان اختفت هذه الاستجابات بمجهود خاص من جانبي قمت فذهبت اليهما وجذبت قبضة من الحشائش ـ وكانا قد تحركا بعد ان جردا البقعة التي كانا يرقدان فيها ـ فحاولت ان ادلكها مثلما كان يفعل الرجل . وسرعان ما تخليت عن هذه العملية وتبعت ما املته علي غريزتي ، فرحت اقرب اطراف الحشائش المبتلة من جسدها حتى لمست نهديها ، ثم هبطت بها اكثر لكي تلاطف النهدين برقة . نجحت في تجربتي الجديدة ، فسرعان ما شهقت شهقة المستمتع ، وحركت ردفيها حركة شهوة واضحة . قالت للرجل :

« ان له لمسة رائعة . »

استخدمت الحشائش بالطريقة التي كان يمكن ان استخدم بها لساني لو كنت احاول ان استثير شهوتها . وحينما وصلت الى السرة ، زادت من تباعد فخذيها .

عند هذا ، التفت الرجل الى الناحية الاخرى وقال :

« اظن انني ساذهب لاستحم في مجرى الماء » .

سار مسرعا وقد اولانا ظهره . قلت :

« اخشى الا يكون على وشك الموت لهفة الى خطايا الجسد » .

فانفجرت في كركرة من الضحكات الطويلة ، قطعتها شهقة حينما لمستها بقبضة باردة جديدة من الحشائش ، قالت حالمة :

« اتمنى لو كنا في حجرة نوم » .

« لم اكن اظن ان مثل هذه الاشياء مسموح بها لكم . »

« ليست مسموحا بها ، وبصراحة . ولكنا لا نستمتع جميعا بسيطرتك على نفسك . »

تحركت على مرفقيها وهي تتنهد ، ثم دفنت راسها بين فخذي . كان دفء فمها من حولي لذيذا ، ولكني كنت متوترا خشية ان ياتي احد الينا . كنا مكشوفين تماما دون غطاء او حجاب ، والمنزل على احد الجوانب ـ مكشوفين لاي شخص يمكن ان يطل من احدى النوافذ ـ وللرجل الذي يمكن ان يعود من مجرى الماء في اي لحظة . وضعت يدي بين شعرها ثم ابعدتها برقة وقلت لها : « فيما بعد . ليس الآن » .

قالت : « اهذا وعد ؟ »

قلت اجل ، فتراجعت الى الحشائش لترقد من جديد . وسمعت سيارة تتوقف عند الجانب الآخر من المنزل . وكان الرجل قد لاح عائدا من المجرى . قلت:

« اظن ان علي ان اذهب لكي ارى الدكتور كورنر » .

وبينما كنت ارتدي ملابسي ثانية ، لاحظت ان فقداني للسيطرة على نفسي قد خفف من درجة التوتر الذي شعرت به من قبل . رقدت الفتاة في مكانها تحت الشمس ، وقد اغمضت عينيها ، وبدت ابتسامة على شفتيها المنفرجتين ، ولاح عليها كما لو كانت تبلغ ذروة نشوة بطيئة الاشتعال .

لم يكن الدكتور كورنر هو من وصل بالسيارة ، وانما كن اربعة نسوة يرتدين النظارات ، يشبهن مدرسات في مدرسة لتعليم عمال العقول الالكترونية ، ومعهن رجل نحيف يضع على عينيه نظارة رفيعة . ولكنني وجدت الدكتور كورنر داخل المنزل ، في الهواء الواسع الخالي الذي بدا لي كأنه مليء بالتماثيل الصغيرة المهشمة لقاذفات البراعم والزهور،والربات الاغريقيات حاملات عناقيد العنب.لاح الانشغال على كورنر وهو يلقي توجيهاته عن الاماكن التي يجب ان توضع فيها التماثيل ، ولكنه حينما رآني ، جاء الي وعلى وجهه ابتسامة دافئة ، وصافحني بحرارة ، ثم رفع يده طالبا الصمت . جاء الآخرون والتفوا حولنا ، فقدمني اليهم كورنر واصفا اياي بالمؤلف المعروف والفيلسوف . بدا عليهم جميعا انهم تأثروا بتقديمه لي . وشعرت بالحرج في داخلي يتزايد ويشتد ، كانوا ينظرون الي كما او كانوا يتوقعون مني ان ارتفع ببطء فوق الارض لكي اطفو في الهواء . اخذني كورنر من ذراعي وقال :

« احد اعضاء جماعتنا سمسار للعاديات القديمة ، وقد اهدانا تلك التماثيل . ان بعضها ليس على قيمة فنية كبيرة ، ولكننا سوف نخصصها كرموز لشخصيات بعض الاعضاء » .

« رموز ؟ »

« لكي يجعلوها موضوعا لتأملاتهم » ومن الواضح انه شعر ان جملته كانت واضحة وضوحا كافيا لانه اضاف يقول : « اسمح لي بان اطلعك على بقية المنزل » .

كان المنزل كبيرا اشبه بمعسكر مهيأ لنزول العشرات ، من النوع الذي لا يمكن

الا المليونير ان يجعله مريحا للساكنين . كان كورنر وتلامذته يحاولون انجازه بأنفسهم . ومن المؤكد ان عددا قليلا من الحجرات كان مؤثثا تأثيثا مريحا للغاية ، مما يشير الى ان بعض التلامذة على الاقل يستطيعون ان يدفعوا ثمن هدايا من الاثاث الجيد .

اطلعني كورنر على حجرة نوم تضيئها اشعة الشمس وقال :

« هنا ستنام انت . الا — بالطبع — اذا كنت تفضل ان تنضم الى جماعة خلق الالفة بالطابق الاسفل » .

« هل ينامون معا ؟ »

« اجل ، ولكن مع روح خيرة كاملة بالطبع . ليس صعبا عليهم ان يكبحوا جماح رغباتهم . انهم يعرفون انهم يربحون عمقا جديدا لذواتهم بهذا العمل . »

استمر يتحدث بطريقته التي تشبه اسلوب القاء المحاضرات ، وهو يلتقط حزمة من الاسلاك الكهربائية كان احد عمال الكهرباء قد تركها على مقعد تحت النافذة .

« انظر الي ، ان السبب الذي يجعل الجنس مخيبا للآمال بالنسبة لمعظم الناس بهذا الشكل ، هو انهم يشبهون سلكا رفيعا حتى لا يمكن ان يحمل اي تيار . هل ستوافق على ان النشوة الجنسية تشبه تيارا كهربائيا . فاذا كنت صحيح الجسم ثم كبت رغباتك لمدة طويلة فان التيار سيصبح ذا شحنة عالية . وهذا هو كل هدفنا — ان نتحول الى سلك سميك ثقيل ، مثل هذا . » ولوح تحت انفي بالسلك السميك الثقيل النحاسي . ثم مضى يقول : « فاذا استطاع السلك ان يحمل التيار ، فاننا لن نشكو من نقص التيار نفسه . اظنك جديرا بالموافقة على هذا ؟ »

قلت انني اوافق ، كنت اعرف ان التنظيم الذاتي الكثيف يزيد من قدرة المرء على بلوغ النشوة والاستمتاع بها . ولكن قبل ان اتمكن من طرح بعض التحفظات ، وضع كورنر يده على ذراعي .

« والآن ، اريد ان اتحدث اليك . سوف تدرك ان لي هدفا من الاتيان بك الى هنا . تعال فاجلس . » من الواضح انه كان يشعر بجدية حديثه . جلسنا في ضوء الشمس على الاريكة تحت النافذة .

قال :

« ليس الامر ببساطة هو انني اريدك عضوا في جماعتنا — فهذا واضح دون حاجة الى سؤالك . انك مؤهل تماما لهذه العضوية . انني احب ان تكون نائبي في القيادة ، خلفي ، والرجل الثاني من بعدي في الوقت المناسب » .

رفع يده لكي يمنعني من مقاطعته ، واستمر يقول :

« ليس عليك ان تتخذ قرارك الآن ، بل ولا حتى في الاسبوع التالي او الشهر التالي . انما اريدك ان ترى كيف تعمل ، انظر ان كان بوسعنا ان نساعدك ، او اذا كان بوسعك ان تساعدنا . اسمع انك تملك ما يكفي من التناسق والانسجام .

ان اكثر من حولي تلاميذ جيدون ، ولكنني حتى الآن لا ادري المميزات التي يحتاج اليها القائد . لقد اراد دانكمان وزوجته ان يكونا قائدين ــ ولكنهما كانا جديرين ــ ببساطة ــ بأن يحولا مجموعتنا الى بيت للدعارة ، حريم خاص لكل منهمـــا . ان عملا مثل هذا يحتاج الى تكريس خالص للنفس ، يحتاج الى الروح العلمية . وانت تملك هذه القدرة وتلك الروح . »

اطلقت بعض الاصوات الدالة على الاعتذار ، ثم قلت انني بحاجة الى بعض الوقت للتفكير واتخاذ القرار . ولكن في اعماقي ، كنت اعرف ان هذا ليس مــن الامور التي يمكن ان اناقشها . انني وحيد منفرد ، ليس ببساطة بحكــم ميولــي، ولكن بحكم طبيعتي . انني لم ارد ان اختلط بكل هؤلاء الناس .

ربت على كتفي وقال : « بالطبع . خذ من الوقت ما تشاء . ولكن هنــاك شيء واحد من الافضل ان اقوله لك بصراحة . فقد حاولنا حتى الآن ان نحافظ على ابتعاد نشاطاتنا عــن الانظار ، لانها من الممكن ان يساء فهمها . ولكن لقد آن اوان الخروج واظهار انفسنا بوضوح ، لكي تكتسب الانصار ، ولكي نعلن اهدافنا على العالم . لان هدفنا هو ان نثبت ان الحضارة ان تستقر ابدا حتى يفكر كل انسان بالطريقة التي نفكر بها . »

كان قد اصبح جادا كل الجدية ، ولم اكن انا خاليا من كل تعاطف معــه ، ولكنني رحت فجأة افكر في الصورة التي رسمتها انا دانكمان عن الغرباء الــذين يتبادلون جلد عميرة في السيارات العامة ، فوجدت انه من الضروري ان اطــل قليلا من النافذة حتى اتمكن من السيطرة على تعبير وجهي . وبينما كنا نهبط الى الطابق الاسفل ، قلت :

« اظن ان هذه فكرة عظيمة . لقد امتلأ آلستير وانجيلا بالحماس الى حــد الانفجار في الليلة الماضية . لقد اكتسبت امس نصيرين متحمسين . »

« هذا شيء جيد . ولكننا لن نقنع حتى اتمكن من ان اقــول نفس الشيء عنــك . »

وحينما اقتربنا من الجماعة الذين كانوا ما يزالون مشغولين بترتيب التماثيل، قبض على ذراعي وقال « مؤقتا » احتفظ بسرية ما قلته لك بشكل كامل . »

* * *

في الساعة الثانية ، اعلن ان الغداء قد اعد . في حجرة الطعام ، التي تطل على الحديقة الكبيرة الخضراء ، كانت وجبة بسيطة قد وضعت على الموائد الخشبية البسيطة الخشنة ــ كان هناك صحنان كبيران عميقان مملوؤان بالحساء ، وصحون صغيرة فيها اكوام من مكعبات الجبن ، وكعك من طحين القمح وكعك آخر مزود بالسكر . قدمني كورنر الى رجل شاب ذي لحية كبيرة اسمه بول ، بدا لي انــه مساعده . كان بول يضع نظارات ذات اطار صنع من قرن حيوان ، لكنته شماليــة واضحة ، واسلوب في التعامل بالغ الجدية .

قــال :

« اننا نحاول ان ناكل وجبات خفيفة ، والا واجه الجسم مشاكل كثيرة في

هضم الطعام ، فيفسد النظام ولا يؤدي الى اية فائدة . اما هذه الوجبة فهي وجبة كبيرة الى حد بعيد . اما مجموعتنا الاخرى ـ وهي مجموعة من تعدوا الاربعين ـ فتأكل اقل من هذا بكثير . »

فهمت ان كورنر يحافظ على الفاصل بين المجموعتين ، وان لكل من المجموعتين موعدا خاصا لاجتماعها كل اسبوعين . قال بول :

« لا بد ان نكون عمليين في هذا الصدد . نظريا ، ليس هناك بالطبع حد يفرضه السن . ولكن تجربتنا دلت على ان المتقدمين في السن يهتمون بالجنس اكثر من اهتمام الشبان . فاذا سمحنا لما هو اكثر من اللازم منهم بالانضمام الينا لتركنا الشبان . ان الكثير من الفتيات الصغيرات لا يبدو عليهن الانزعاج من الرجال الاكبر عمرا ، ولكن ليس كثيرا ان يختار الاولاد الاقل عمرا نساء يزيد عمرهن على الاربعين . من الطبيعي ان المجموعتين تستطيعان الاختلاط فيما بينهما ، ولكن هذا يحدث في حدود معينة ، وبدعوات خاصة . »

وكان واضحا ان هذا يفسر حضور عدد من الرجال والنساء يزيدون على الاربعين ، بل على الخمسين .

كان عدد الحاضرين في البهو يبلغ الستين تقريبا ، مع اغلبية قليلة من النساء. وبدت لي المجموعة عينة عادلة من الناس . لاحظت ان هناك ما يشبه الزي الشائع بين نساء المجموعة ، تغلب عليه الثياب ذات الاكمام الطويلة والنظارات ذات الاطر الثقيلة الى حد ما ، الامر الذي يعطيهن مظهر الدارسات المجدات . لم يكن هناك مراهقون يقل عمرهم عن العشرين ، وكانت الفتاة التي رأيتها في الحديقة تبدو واحدة من اصغر الحاضرين . لاحظت ان نسبة كبيرة من الرجال يبدون ذوي بنية قوية ، او يرتدون صدارات صوفية مغلقة مرتفعة الاعناق عريضة الصدر لكي تعطي انطباعا بضخامة حجم من يرتديها . ولم يكن سوى عدد قليل جدا من الحاضرين هو من يبدو وسيم الطلعة بشكل ملفت . ولكنني لم ار شخصا واحدا يمكن ان يقال عنه انه غير جذاب من الوهلة الاولى . وبشكل عام ، كان للنساء مظهر الذكاء وارتفاع المستوى الذهني بشكل يزيد عما يتمتع به الرجال . لقد رأيت عددا قليلا جدا ـ بينهم ـ من الرجال ، يمكن ان يقال انهم من النوع العصبي في النشاط الذهني الزائد . وبسبب ما بدا عليهم من سمات تدل على انهم مجموعة « متوسطة » ، مثل عينة عادلة ، احسست بانهم ربما جاؤوا نتيجة اختيار دقيق باكثر مما يظهر لمن يراهم للمرة الاولى .

لاح عليهم انهم يعرف احدهم الآخر معرفة جيدة جدا ، كان هناك قدر كبير من الضحك ، ومن التجاذب والمعاكسات ، من المصافحات والقبلات بين المعارف والاصدقاء ، ومن قيام بعضهم بتقديم صحاف الطعام واطباق الحساء للآخرين . احسست بالتأثير القوي لهذا الجو الودي ، رغم انني شعرت بأن من وراء هذا الجو يكمن توتر من نوع ما ، يوشك ان يكون افتقارا الى التلقائية والتصرف بطريقة مستريحة .

ذهب بول لكي يتحدث الى شخص ما . قال صوت في مقابلي : « اهلا » ،

فوجدت نفسي اطل نحو العينين البنيتين للفتاة التي قابلتها وسط حشائش الحديقة الخضراء المبتلة . كان الزحام يحيط بنا معا ، وبينما رفعت وجهها وادارته نحوي مبتسمة لي . امتدت يدها من ورائها وقرصت عضوي قرصة ودية . قالت :

« اسمي تيسا » ثم اشارت الي لكي احني راسي نحوها . همست :

« لا اريد تناول الغداء . فلنذهب الى الفراش . »

« انني جوعان » .

« يا مفسد اللعبة ! »

« الى جانب انهم قد يلاحظون انصرافنا معا . انني اتلقى تدريبا خاصا . »

عاد بول ، ورمق الفتاة بنظرة مقطبة تدل على عدم موافقته .. احسست انهم يعتبرونها ذات تأثير مفسد وغير صحي .

اكلت خبزي وقطعة الجبن وشربت حسائي . ثم خرجنا من نوافذ الشرفة الفرنسية ومنها الى الحديقة الكبيرة . كانت مجموعة من الناس تقف على شكل دائرة ، وبدا انهم يؤدون نوعا ما من التمرينات . وضع كل منهم يده على كتف الشخص الذي يجاوره ، ثم تحركوا الى الامام حتى تلاصقوا ، ثم انحنى كل منهم الى الامام بحركة واحدة حتى اصبحوا كالعقدة على هيئة البداية في لعبة «الرجبي» ذات الخمسة عشر لاعبا . قال بول :

« هذه جماعة من جماعات الالفة في مرحلة التسخين . انهم يحاولون التخلص من ضغوط الحياة المدنية — يلمس احدهم الآخر ، يقومون ببعض الاشياء معا ، يحاولون التخلص من الاحساس بالانفصال والعزلة » .

كان رجل شاب يرتدي صدارا ذا عنق مرتفع يلقي بالتعليمات للجماعة ، ويتحرك من حين الى حين وسطهم ويصفع بعضهم برقة على الكتفين او على الظهر . وبينما كنت واقفا في مكاني ، اتجه الى امرأة في نحو الاربعين ، وفعل شيئا ما بنهديها — من الواضح انه كان يعدل من وضع مشد صدرها من فوق صدارها الصوفي — وانتهى بان صفع ردفيها صفعة حادة كما لو كانت بقرة تقاد الى الحقل . قال بول :

« ها انت ترى ، انهم يحبون ان تلقى عليهم الاوامر . انها تساعدهم على التخلص من الاحساس بالمسؤولية — مرض الحضارة العصابي . والفرض هو جعلهم يشعرون مثل شعور الاطفال الابرياء مرة اخرى . »

لاحظت ان كل المشتركين في هذه الجماعة من « جماعات الالفة » كانوا يرتدون ملابس ثقيلة الى حد ما ، بالنسبة لحرارة الجو . وفسر لي بول ذلك بانه جزء من عملية التدريب ، فبينما يشرعون في التخلص من احساسهم بالقهر،يمكنهم ان يرتدوا ملابس اخف ثقلا . وقال في النهاية : « سوف ترى ما اعنيه بعينيك في المساء » .

ذكرت له الفكرة الاساسية التي ساورتني : وهو انه طالما يأتي الجنس للبشر بشكل طبيعي الى هذا الحد ، فان كل الاهداف الشديدة التعقل لجماعة مثل هذه — لا بد ان تتجه نحو تبادل الاستثارة الجنسية في النهاية ، ورغما عن الجميع .

اومأ براسه موافقا ، وقال :

« في مجموعة بهذا الحجم ، لا بد ان يحدث هذا في حدود معينة بالطبع.. ونحن نحاول ان نتخذ الاحتياطات اللازمة . ولكنك سوف تدهش اذا عرفت مقدار قلة حدوثها . ليست هنا محرمات ، ولا كوابت او موضوعات للكبت ، وهذا يؤدي الى فرق كبير . »

عدنا فدخلنا المنزل . سألته عما كان يعنيه بكلمة « احتياطات » فقال : «سوف اطلعك عليها . » .

صعدنا الى حجرة في الطابق الاول . كنت قد عرفت انها حجرة نوم جماعية للنساء . دخلها بول دون ان يطرق الباب . كان هناك ست من النساء يرقدن على الاسرة ، او جالسات يعدن ترتيب زينتهن ، وكانت احداهن جالسة بسروالها الداخلي ومشد صدرها وهي تخلع جوربها . ابتسمت لنا ، ولم يبد عليهن الاهتمام. اتجه بول الى سرير فوقه حقيبة مفتوحة ، فقلب محتوياتها على السرير . نثر المحتويات وبعثرها على سطح الفراش ــ ثوب قصير رمادي من الصوف ، مشدات، زوج من الملابس الداخلية ، بعض ادوات التجميل ــ ثم القى نظرة على حقيبة غسيل قرمزية اللون . لم يبد على احداهن انها نظرت نحوه او انتبهت الى ما يفعله . قال :

« انني ابحث عن موانع للحمل . انها افضل طريقة لتأكيد ان شخصا ما ينوي ان يكسر القواعد المتبعة » .

التقط حقيبة المراة التي كانت ما تزال ترتدي ملابسها . قالت :

« أوه . بحق السماء لا تبعثر كل شيء . دعني اطلعك على ما فيها . »

اخرجت الثياب من الحقيبة قطعة وراء اخرى ، وفردت كل قطعة ونفضتها . اشار بول الى سروال طويل فرنسي وردي اللون وقال :

« ليس هذا جميلا جدا . »

« اعرف هذا . ولكنني غادرت المنزل في عجلة والقيت في الحقيبة باول شيء رايته امامي . »

وفي خارج الفرفة قال موضحا :

« لدينا نقاط تفتيش كل عطلة من عطلات نهاية الاسبوع ، لكي نرى ان كانوا قد جاءوا معهم بموانع الحمل ام لا . وبالطبع ، ليست لدينا وسيلة نعرف بها ان كانت النساء قد تناولن « قرصا » قبل مجيئهن ام لا . »

« الا يفسد هذا من تأثيرها بشكل ما ؟ »

« اوه ، لا . ان اوتو يتحدث اليهم ضد « اقراص منع الحمل » على اي حال، لاسباب صحيـة » .

« وماذا عن الرجال ؟ »

« النساء تفتشهم . من المسموح لكل واحد ان يفتش اي شخص اخر ، اننا نحاول ان نكـون اسرة واحـدة » .

« لماذا اعترضت على السروال الوردي لتلك الفتاة ؟»

« فتحات الساقين واسعة . ليست هناك قاعدة بشأنه بالطبع ، ولكن اذا كان في نية الناس ان يمارسوا الجنس ، فان هذا النوع من السراويل هو النوع المثالي ـ فاذا اضيئت الانوار فجاة ، بدت الفتاة في كامل ملابسها » .

« اذن فان من المفترض ان تظل النساء مرتديات سراويلهن الداخلية ؟ » هكذا سألت وانا افكر في تيسا وهي راقدة على حشائش الحديقة الخضراء المبتلة .

لاح انه قد صدم تقريبا . صاح : « اوه ، لا . ان هذا جدير بان يبعدك تماما عن الهدف الاساسي لمجموعتنا ـ الالفة . ولكن اذا شرعن في تلقي الملاطفات من احد الرجال ، فان عليهن ان ينزلن سراويلهن ، على الاقل حتى الافخاذ » واستمر يتحدث باخلاص شديد : « لا يبدو عليك انك تفهم . اننا لا نحاول ان نجند الناس او ان ننظمهم في كتائب صارمة النظام كالجنود . ولكنك تعرفت بنفسك انه كلما زادت العقبات كلما زاد ما تثيره من اهتمام . ولهذا فاننا نحاول ان « نصف » لنساء مجموعتنا ان يرتدين السراويل الحريرية ذات فتحات السيقان الضيقة المحكمة الى حد كبير ، وبذلك فاذا حدث ان رغبت الفتاة في ممارسة الجنس فان عليها ان تخلعه تماما . اننا لا نحب السراويل المصنوعة من النايلون او السراويل الفرنسية الواسعة لانها يمكن ان تجذب جانبا بسهولة كبيرة . وبعض هذه الاشياء لا تشكل اية حماية على الاطلاق .

سمع صوت جرس نحاسي صادر من البهو . سألته :« ماذا يحدث الان ؟ »

« لدينا محاضرات حتى الساعة الخامسة ، وانا نفسي ينبغي ان القي محاضرة ، ولذلك سيكون علي ان اتركك . ان حضور المحاضرات اجباري بالمناسبة. واي شخص « يزوغ » من المحاضرات لا يكون جادا حقا . ونحن لا نقول ذلك للقادمين الجدد ، لان هذا يساعدنا على التخلص ممن يأتون لدوافع لا تتفق مع اهدافنا . »

نصحني بأن اتجول بين قاعات المحاضرات المختلفة ، وان القي الاسئلة اذا رغبت في هذا .

عملت بنصيحته ،انقسم « الطلبة » الى اربع مجموعات . تحدث كورنر الى المجموعة الاولى ، وبول الى المجموعة الثانية ، وكريس لمجموعة ثالثة ، وتحدثت للمجموعة الرابعة امراة جذابة ، وان كانت تبدو عليها مسحة طفيفة تجعلها اشبه بمدرسات المدارس الثانوية ، تدعى جوينيث . كنت سعيدا بأن ارى الستير وانجيلا يجلسان بلهفة في الصف الاول من مجموعة كورنر ، التي كانت تجلس في الحديقة . جلست في الصف الاخير من تلك المجموعة لمدة عشرين دقيقة او نحوها ، وسمعته يشرح الاسباب التي تجعله ماديا . قال :

« يعتقد المثاليون ان اشياء مثل الحياة والفكر والافكار يمكن ان توجد « بمعزل عن » المادة ، بمعنى من المعاني » . وكانت حججه ضد هذا الراي كاسحة، ومقنعة تماما بالنسبة لي . ولكنها لم تبلغ هدفها ، بقدر ما يتعلق الامر بما اهتم انا به . انني اوافق على انه لا يمكن ان تنفصل العقول والعمليات

العقلية عن المادة . ولكنني ما زلت اعتقد ان الحياة ـ بشكل ما ـ قد دخلت المادة من « خارجها » ، وليست فيضا منبثقا عن المادة ، مثلما تنبثق النار عن الفحم .

احسست بان كورنر لن يرحب بتوجيه اية اسئلة ، ولذلك فقد انتقلت الى المجموعة التالية ، التي كانت تحاضرها السيدة المدعوة جوينيث . كانت تقدم ملخصا متحمسا ـ وان كنت قد رأيته مشوشا ـ لافكار رايخ . ولاح لي حديثها عن « السائل الحيوي » الذي يتراكم بين الفخذين لحظة الاستثارة الجنسية ، لاح لي قريبا الى درجة خطيرة من الطاقة العضوية التي قال بها رايخ . تساءلت في داخلي عما يمكن ان يحس به كورنرازاءهذا . حاولت جوينيث بنشاط ان تجرني الى المناقشة ،التي سرعان ما دبت فيها الحياة .بدت لي مجموعتها مفعمة بالذكاء والفهم ، واكثر استقلالا عقليا مما توقعت ـ فقد رفضوا الاتفاق معها حول عدد كبير من النقاط . بذلت بعض المحاولات لشرح نظرياتي الخاصةعن اصل الدافع الجنسي ، ونظريتي حول الاستجابة الرمزية ، ولكن كان بوسعي ان ارى كيف نظروا الى هذه الافكار باستغراب كامل ، وانها ـ كما قالت احدى السيدات : « مجردة بشكل لا ضرورة له». اصبحت المناقشة ساخنة حتى لقد دهشنا جميعا حينما زحف اعضاء المجموعات الاخرى الينا في الحديقة وقالوا ان وقت الشاي قد ازف .

ولكننا في الحقيقة لم نشرب شايا ـ وهو الذي يمقته كورنر ـ وانما شراب السانكا ، وهي قهوة منقاة من الكافايين . اكلنا ايضا معجنات مسكرة دهنت بطبقة خفيفة من الزبد . هجمت عليّ جوينيث وقالت لي انها اقتنعت بافكاري. وراقت لي هي جدا . كانت في نحو الاربعين من عمرها ، ذات مزاج دموي حار، واسنان كبيرة بيضاء اضفت على ابتسامتها لطفا وجاذبية ، وكانت تميل الى المبالغة في صورة المدرسة المجسدة التي لاحت لي انها الصورة التي وصفتها « قيادة » المجموعة لنسائها ، بثوبها الاسود الطويل الاكمام ، وعقدها ذي الوريقات الذهبية والصليب في وسطها . ادركت انها عضو في المجلس البلدي الذي يتبعه مسكنها ، وانها تشغل وظيفة حسنة في مكتب للعلاقات العامة . كانت تتمتع بطريقة حماسية مشوشة قليلا في مناقشة الافكار ذات الجاذبية الخاصة او السحر بالنسبة لها . ولكنني لم استطع ان اتخيل كيفية انضمامها الى مجوعة كورنر .

بعد شرب الشاي ، ذهبنا جميعا الى الحجرة الرئيسية . لم يكن فيها سوى اثاث قليل، ولكنها كانت مزودة بابسطة جيدة ، بدت كما لو كانت قد كلفت المجموعة ثمنا يساوي ثمن كل الاثاث الموجود في المنزل . (قالت جوينيث ان هذه الابسطة كانت « هبات » قدمها الاعضاء الاكبر سنا ، وقد انتابتني شكوك حول ان بعض الاعضاء الكبار السن قد اشتروا عضويتهم في المجموعة بالهدايا الغالية التي تزيد كثيرا ـ وبالاضافة ـ الى الرسوم المقررة) .

ورغم ان البرد كان يتزايد بالخارج ، فان هذه الغرفة كانت دافئة بسبب مدفاة الخشب الذي كان يحترق في نارها الكبيرة .

انقسم الناس في الحجرة الى جماعات الفة صغيرة ، ورحت انتقل من مجموعة الى اخرى ، مراقبا نشاطاتهم باهتمام . وسرعان ما اتضح لي ان القسم الاول من النهار لم يكن سوى مقدمة مبدئية مثل افتتاحية الاوبرا الموسيقية. اما هذا القسم الاخر فكان هو القسم الجدي والهام . تشابكوا في حلقات ضيقة ، متلاصقين بشدة احدهم الى الاخر ، ويجري كل منهم بيديه على اجساد الاخرين، بادئين من الكاحلين ، متجهين الى الرؤوس . انقسمت جماعات كثيرة الى ازواج ، وكرروا عمليات الضغط والتدليك . لم تكن هناك تصرفات جنسية بشكل خاص في هذه العملية ، ولاحظت ان الايدي لم تتلبث الا قليلا عند المناطق الحساسة ، ولكنها بدت اكثر اهتماما بالرؤوس والاذرع . جذبتني فتاة نحيلة طويلة الى داخل احدى المجموعات حينما كنت واقفا اراقبها ، وبدات تربتعلي، ضاغطة بكلتا يديها على بطني او صدري ، ثم تباعد بينهما وتضغط بقوة اكثر. بعد ذلك فعلت معها نفس الشيء ، وانا واقف وراءها ، ضاغطا بيدي الاثنتين بقوة على بطنها ، ثم مدلكا جسدها حتى ابلغ الردفين . كررت هذه العملية على نهديها وعلى الفخذين . ثم ـ طبقا لتعليماتها ـ بدات اربت على ظاهر الساقين ، بادئا من الخصر ، جاريا بيدي فوق ثوبها ، هابطا الى القدمين . لاحظت انها كانت ترتدي حزاما ارفع الجوربين مع الجورب نفسه . وبعد ذلك بدات تلاطف كتفي وذراعي وراسي ، جارية باصابعها في شعري ، وعلىصدغي، فاتحة فمي لكي تدس طرف اصبعها داخله ، ثم تدس اصبعها الصغير (بنصرها) في اذني . كانت ما تفعله هو ملاطفتي كما لو كنا عاشقين ، ولكن لما كنا قد بقينا بكامل ملابسنا ، فقد كانللعملية خاصية غريبة من الاستثارة ، وقدرة غريبة على ابراز ما هو محرم وممنوع . ولو اننا كنا مفردين ، وقد خلعنا بعض ملابسنا ، لانتهت العملية بالجماع في خلال دقائق . ولكن هذا التدليك الطويل المدى في حجرة يشاركك فيها خمسون او نحوهم من الناس ، ادت الى خلق مجموعة جديدة من الاستجابات ، محطمة كل العادات القديمة .

لاحظت ان بعض الازواج الاخرين قد جاؤوا باوان مليئة بالماء وراحوا يتبادلون غسل الوجوه والشعر ، قاموا بذلك بالقرب من نوافذ الشرفة المفتوحة ، حيث لم تكن هناك ابسطة . كثيرا ما اخترق الازواج وتبادلوا الشركاء . وبعد عشردقائق من ملاطفة الفتاة النحيلة الطويلة،حصلت على امراة ثقيلة البنيان متوسطة العمر. شعرت في البداية ان التغيير لم يكن مفيدا . ولكن بعد خمس دقائق من الملاطفة لاحظت اننا حققنا الالفة المطلوبة ، ووصلنا الى ان يعرف احدنا الاخر وان يروق احدنا للاخر . بعد ذلك حصلت على نيسا التي ابتسمت وهمست ليبطريقة فيها قدر من التفكه :« اخشى ان لا بد ان يكون هذا ذروة مضادة ، هو مقابلة للذروة « anticlimax » ». كانتعلى صواب الى درجة ما . لم يخفبنطالي

عنهـا اي سر . كمـا لـم يخف ثوبها عني اي سر . ولكن الاحساس بنعومتها تحت الثوب كان مثيرا . اختلقت شيئا كالفكاهـة من هذا الموقف ، فدست يدها تحت صداري الصوفي وقرصت ثديي بقوة . وحينمـا دلكتها ودفعت ثوبهـا بين فخذيها قالت : « ارجـو الا يفحصني الان احد . انني مبتلة » . سألتها :

« أهذا من المحرمـات ؟»

« بالطبع . ولكن ماذا يمكنني ان افعل ؟ اذا لمسني الناس مجرد لمسةهنا ،بلغت ذروة نشوتي على الفور . لقد بلغتها مرتين الان».

بعد بضع دقائق قالت : « انني جائعة الى درجة لعينة . عنـدي كثيـر مـن الشيكولاتة في حجرتي ،اذا كنت تريد بعضها» .

« اهذا مسموح به ؟»

« ليس بشكل حقيقي . ولكن كل هذه الالفـة تثير نهمي الى الطعام .»

في الساعة السابعـة والنصف ارتفع صوت الجرس النحاسي فقالت نيسا :

« الحمد لله على ذلك » .

اتجهنا جميعا في حركة واحدة كالتيار الى حجرة الطعام . كنت بحاجة الى طعام ، وكانت كل هذه الاستثارة تجعلني اشعـر كمـا لو كنت قد سرت عشريـن ميـلا . كان العشاء اقل قليـلا في شحه من الوجبة السابقة : صحاف ضخمـة من لحم البقر والخنزير البارد ، وصحاف عميقة صغيرة من حساء الطماطـم ، وخضروات ساخنة . ولدهشتي ، لاحظت انه كان ثمة مشرب للخمور ايضا ،وقالت لي جرينويث ــ التي تولت امر رعايتي ــ بان في وسعي ان احصل على بيرة اوعلى نبيذ . قالت انه ليست هنـاك مشروبات ثقيلة قوية ، ولكـن قليـلا من الكحـول يساعـد اكثر الناس على الاسترخاء والاستمتاع بوجبتهم . لاحظت باهتمـام ان « الالفـة » استمرت في قاعـة الطعام . فقد انتهز الرجال والنساء المتمازحـون الفرصـة لكي يلاطف احدهم الاخر ،بل وان يتبادلوا القبلات . كان هناك قدر معين من القبلات في المرحلة السابقة ، واغلبهـا كان على الاذرع والاعناق ، اما الان فقد رايت انهم يحيون بعضهم البعض غالبـا بالتقبيل على الفم . ورغم ان الالسنة لعبت دورا في بعض هذه القبلات ، فان احدا لا يستطيع ان يصفها بالشهوانية ، بمعنى دلالتهـا على الرغبة في الذهاب الى الفراش .

« اكلت بشكل جيد ، وانعشتني كأس من البيرة انعاشا كبيرا . وبعد تناول الطعام ، شققت طريقي الى المرحاض ، ولكنه كان مشغولا . فشققت طريقي الـى الطابق العلوي الى مكـان تذكرت انني رايته ــ وهو مكان ملحق بغرف النوم تذكرت انني رايت على بابيه قبعة رجل وحقيبة يد نسائية ، مع سهم تحتهما يشير الـى نهاية الدهليز . سرت في الاتجاه المشار اليه ، فوصلت الى مرحاض من الواضح انه كان قد بني حديثا ، مع عدد من الابواب للاماكن الخاصـة مثـل مرحاض عمومي . ولكـن لم تكـن هناك اشارة على الباب تدل على ما اذا كـان المرحاض للرجال ام للسيدات . وبينمـا كنت واقفا هناك ، سمعت صوت خطوات تأتي من

اخر الدهليز . وتنفست الصعداء حينما رايت ان تيسا كانت هي القادمة .

« انا مسرور لرؤيتك . ايهما للرجال ؟ »

« اوه ، ايهما اردت ، فليس لدينا اثنان . انها الالفة ، اترى؟ هل ستأتي؟»

« اعتقد هذا »

يجب علي ان اعترف بانني احسست بالخجل ، ولكن كان بوسعي ان ارى عدم منطقية هذا الاحساس . ذهبت الى المحل الاخير بين المحلات الصغيرة المتجاورة ، ولشدة دهشتي اكتشفت ان الجدار الذي كان يفصله عن المحل المجاور كان مصنوعا من الزجاج . ذهبت تيسا الى المحل المجاور وابتسمت لي . ثم – ودون اي احساس بنفسها – جذبت ثوبها الى اعلى ، ثم جذبت سروالها الداخلي الى ركبتيها ، وجلست .

قلت :

« يا الهي الرحيم . هذا اكثر قليلا مما ينبغي . اليس كذلك ؟»

« ظننت هذا حينما جئت لاول مرة. ولكنك سرعان ما تتعود عليها ».

« ولكنني لا احب ان اتخفف من هوائي الفاسد حيث يمكن ان يسمعني احد ».

« لماذا تهتم بذلك ؟ الدكتور كورنر يقول انه صوت طبيعي من اصوات الجسم ، مثل صوتك وانت تتكلم ».

شعرت بالبلاهة وانا واقف في مكاني ، فانزلت بنطالي وجلست . لم اشعر من قبل ابدا بعدم الراحة التي شعرت بها في تلك اللحظة . ثم سمعت صوت مزيد من الاصوات بالخارج ، ثم دخلت امرأتان اخريان . اتجهتا الى المكانين في الطرف الاخر ، وكشفتا عن مؤخرتيهما ، وجلستا – وكان الزجاج نقيا بصورة غير عادية . لم تلتفتا الينا اقل التفاتة ، وانما استمرتا في الحديث عما قاله كورنر عصر ذلك اليوم . اراحني صوتهما ، فانفجر الينبوع المحبوس في داخلي. ولما راقبت تيسا وهي تنظف نفسها بالورق فكرت في اننا جميعا مخلوقات مليئة بالكوابت والرغبات المكبوتة او المحبطة باكثر مما نعرف عن انفسنا ، وانه من المحتمل ان يكون كورنر على صواب مرة اخرى . ولكنني صممت على ان استخدم مرحاض الطابق الارضي في المستقبل ، لان له جدرانا عادية .

هبطت الى الطابق السفلي مع تيسا .

حينما عدت ثانية الى القاعة الرئيسية ، وجدت معظم الطلبة جالسين على الارض فوق وسائد متناثرة . وحينما دخلت ، اشار كورنر الذي كان واقفا الى جدار المدفاة . ذهبت اليه .ضرب على المائدة باحدى الزجاجات طالبا الصمت، ثم قال :

« والان اريد ان اقدمكم جميعا الى الروائي والفيلسوف البارز جيرارد سورم، الذي وصف بانه اكثر كاتب بريطاني اثارة للاهتمام منذ الدوس هكسلي ود . هـ لورنس . (واعتقد انه اخترع تلك المقارنة من وحي اللحظة) . ان اراء مستر سورم حول الجنس تختلف عن آرائنا في نواح متعددة ، وانا الان اريد ان

اطلب منه ان يلقي بضع كلمات عن ارائه تلك . ويجب على ان اقول انني لم انبئه قبلا بانني ساطلب منه هذا ،وهكذا فأن كلمته سوف تكون مرتجلة تماما ».

لم يكن لدي ما يكفي من الوقت لكي ادهش فيه او لكي تتوتر اعصابي . وقفت ولخصت بسرعة نظريتي عن الدافع الجنسي، وطبيعته العمدية ، والطريقة التي يصور بها الدافع الجنسي نظريتي الظاهراتية (الفينومينولوجية) على كل تفاعل الانسان مع العالم . وحينما شعرت بانني اوشك ان اتوه بهم في دهاليز هوسرل ((١) ، تحدثت عن احساسي بالدافع الجنسي باعتباره « مفتاحا لحاملي مفاتيح الوجود » وعن العلاقة بين الجنس والتجربة الصوفية . انتهيت بمحاولة شرح النقطة الاكثر جوهرية عندي : وهي ان الجنس يمنحنا لمحة خاطفة من تركيز العقل يمكن ان تجعلنا اشبه بالالهة لو استطعنا ان نبتعثها اراديا في مجالات اخرى وان نسيطر عليها . ذكرت فكرتي عن ان الكائنات البشرية تشبه ساعات الاجداد التي كانت تديرها القوافز المضغوطة ، وان الجسد اثقل من ان يحركه القافز الضئيل الذي تمثله قوة الارادة . ولا يحدث الا في الجنس ان نتمكن من تنمية قافز يتمتع بالقوة الكافية لتحريك ساعة الاجداد الثقيلة . وانتهيت بقولي ان اهتمامي الرئيسي كان يتركز في التساؤل عن كيفية تعلم ادارة وتقوية قوافز الارادة .

كانت المناقشة التي تلت كلمتي ممتعة ومثيرة للاهتمام ؛ ولكنها لم تصل الحد الاقصى من ذلك . فقد اعترض الكثيرون على اساس انه من الخطورة الشديدة السماح بمثل تلك الاهمية الكبيرة للارادة . كانوا يحتجون بوجهة نظر تشبه نظرة لورنس وكورنر . واستطعت ان ارى ان تلك كانت النقطة التي اختلفت فيها معهم جميعا ،انني لم انزع ثقتي عن الارادة ولا الذهن .

كان يوما طويلا ، وكنت اشعر بالتعب . كانت الساعة الان قد قاربت التاسعة ـ وكان الوقت قد مر بسرعة شديدة . وكنت قد بدات اشعر بالرغبة في النوم . كان الامر كله بالغ الامتاع مليئا بالوعود الكثيرة ، وشعرت بان كورنر كان في طريقه الى شيء هام دون شك ، ولكن كان الامر يتطلب قدرا كبيرا من التفكير لتوضيح موقفي من المسالة كلها . واملت ان ينجلي المساء عن شيء

---

(١) ادموند هوسرل ـ ١٨٩٥ ـ ١٩٣٨ فيلسوف الماني ، ولد في مورافيا من اسرة يهودية ، ويعد مكتشف المنهج الظاهراتي في الفلسفة الحديثة لوصف وتعريف المعنى الحقيقي لمادة الوعي في كتابه « ابحاث في المنطق » في عام ١٩٠٠ ـ ١٩٠١ ،حيث طبق المنهج اساسا على المعاني الشكلية للمنطق والرياضيات ، وحيث يحاول اثبات ان فكرة « عمدية الوعي » هي القانون الشامل لعملية الادراك (اي وجود علاقة ضرورية بين كل عمل من اعمال الوعي وبين موضوع له معنى محدد) وقد اصبح لافكار هوسرل ومنهجه الوصفي ولنظرياته عن العمدية والحدس تاثير كبير على الفلسفة المعاصرة (هايدجر وسارتر وميرلو بونتي) وعلى علم النفس ، وعلم الاجتماع الحديث (ماكس فيبر) هـ . م .

اكثر اجتماعيــة بشكل نقي ، وانني اتمنى لو اندس في الفراش . وقد كان هــذا على بعد كبير من الموقع الذي بدأ منه،حيث كان ايزموند وهوراس جليني .

شكرني كورنر وقال انــه يأمل ان يتمكنوا من رؤيتي كثيرا . ثم قدمالمجموعة الى الستير وانجيلا ، اللذيــن كان عليهمــا ان يقفا ، وقد بدا عليهمــا الحرج . صفق الجميع بأدب ، ثم شرعــوا في الوقوف والتحرك للخروج مــن الحجــرة . سألت كورنر :« ثم ماذا بعد ؟»

« آه ، الان يبدأ القسم الاكثر اهمية . سنمر الان بمرحلــة اخرى مــــن مراحل الالفــة » .

لم اسعــد بذلك سعادة كاملــة . كانت المرحلــة السابقة ممتعة ولكنها متعبة، فانـنــي لم اشعــر برغبةفي ان اثير توتر ملكاتي مرة اخرى . اشار الي فتبعتهالى خارج الحجرة ، متسائلا بيني وبيــن نفسي ان كـــان سيمتعض اذا اقترحت الا اشترك في تلــك المرحلــة . بدات اتحدث ، ثم غيرت رايي . وبدلا من هذا،سألته:

« اود لو اسألك ذات مرة عن ايزمونــد دونللي » .

نظر الي وابتســم .

قال : « اظــن ان بوسعي ان اخبرك ببعض الاشياء الهامة . ولكن يمكننا ان نناقش ذلــك فيمــا بعد . فان لدينــا الان اشياء اخرى يجب ان نقوم بها »،

تبعته ، بشيء من الاجهاد ، على السلم . استدرنا الى اليمين ، وظننت اننا ذاهبان الى مهجع الفتيات المخصص لنومهن . ولكنه فتح بابا عاليا لباب حجــرة النوم ، ودخل .تبعته. كانتالحجرة صغيرة .ربما كانت مخزنا ، ولكنها كانت الان خاليــة باستثناء بعض المقاعد الصغيرة المرتفعة . كان لاحد الجدران نافذة واسعة. ولدهشتي ، رايت جوينيث واقفة امامها ،تعيد ترتيب شعرها وتحدق نحونا .

«هذه مرآة عاكسة ذات اتجاهين ، بالطبع » .

كانت هذه اول مرآة من نوعها اراها في حياتي . سألته :

« االنت واثق من انها لا تستطيع ان ترانا ؟»

«ليس الا اذا فعلت هذا » مد يده وادار ذراعا صغيرة. وعلى الفور،اصبحت النافذة مرآة كان بوسعي ان ارى وجهي على سطحها . قال :

« تستطيع هي الان ان ترانا .لقد قلبت اتجاه الانعكاس في المرآة » .

ادار الذراع مرة اخرى ، فابتسمت جوينيث لنــا ،ولوحت بيدهــا عبــر النافذة . لوحت ردا عليهــا ، ناسيــا انها لم تعد تستطيع ان ترانا .

« ما الفرض منهــا ؟ »

« للملاحظة . سوف ترى ان النســاء يبدلن ملابسهن الان » .

كان هذا صحيحا. ففي المهجع المزدحم ، كانت النساء يخلعن ثيابهن ،وقمصانهن الداخلية ، والاحزمة رافعة الجوارب . اما جوينيث ، فانها دون وعي بما تفعلــه قد مدت يدها الى ظهرها وفكت زرا في ثوبها ، ثم جذبت الزمام. خلعت الثـوب بعنايــة ثم فردته على الفراش . كانت ترتدي قميصا داخليــا ناعمــا اسود اللــون

ذا حافة حريرية مشغولة بدت مغرية جدا وجذابة . بدا عليهـا انهـا نسيتنا . خلعت حمالة القميص عن كتفها ، ثم تركته يسقط حول قدميها . من الواضح انها لم تكـن تفضل اللون الاسود وحده لملابسها الداخلية . كانت ترتدي حمالة صدر بيضاء ، وحزامـا اسود اللون يرفع الجوربين وسروالا داخليا ابيض من النايلون الناعم . من الواضح انها كانت مستثناة من القاعدة التي توجب على النساء ارتداء سراويل داخليـة لا يمكـن ان تمط الى درجـة كبيرة . اما اكثر النساء اللواتي كان بوسعي رؤيتهن فقد التزمن بهذه القاعدة .لم تكن احداهن ترتدي السراويـل الصغيرة الحجم . كانت اكثريتهن ترتدين تلـك الاشياء الوردية او الزرقاء التي تغطي كل المعدة ، والمزودة بشريط مطاطي عند الوسط ، رغم ان تجربتي الخاصـة مع ذلك النوع اثبتت لي ان المطاط عند فتحة الساق يمكن ان يخضع للمط بدرجة كبيرة ، فاذا مـا جذب الى اسفل بوصةواحدة او اثنتين ، لم يعـد يمثل اي مشكلة.

انضم الينا عدد اخر قليل من الرجال بينمـا نحـــن واقفان امام المـرآة . ورايت انهـن جميعـا كن يرتدين الان تنانير قصيرة جدا رماديـة من الصوف من النوع الذي كنت قد لاحظت وجوده في كل الحقائب التي فحصها بول امامي . كنت قد لاحظت ان اكثر الرجال اصبحوا يرتدون الان زيا مماثلا يتكون من بنطـال رمـادي من الصوف وقميصا رياضيا ابيض اللون .ذهبنا نحـو عنبر نوم الرجـال في الطابق التالي . حصلت على اجابة السؤال الذي كنت على وشك ان اطرحـه حينمـا فتح باب مجاور لباب العنبر فرايت عدة نساء واقفات هناك ومن الواضح انهـن كـن يراقبن الرجال اثناء خلعهم لملابسهم من خلال مرآة اخرى ذات اتجاهين. نادى كورنـر بحـدة :

« هيا ياسيدات . لا فرجة اكثر من هذا . لقد آن وقت تغيير الملابس » .

اسرعن كلهـن الى الخروج ، ولاحظت ان تيسا كانت بينهن . وبينمـا كنـا ندخل العنبر ، رايت انها تسللت عائدة الى حجرة المراقبة .

قال كورنر :« تعال . لقـد آن وقت استبدال ملابسنا » .

في عنبر نوم الرجال ، بدا اكثر الرجال عراة تقريبا ، وكان الشخص الواقف بالقرب من المرآة عاريا تماما بالفعل . سألت كورنر :

« ما الهدف من هذه المرايا بالتحديد ؟»

« اكثر الناس يتسمون بصفات الرغبة في الاستعراض ، حتى اكثرهـم ثباتا ورزانـة . واكثر الناس كذلك يحملون صفات « توم البصاص » . وهنـا يمكنهم اشباع هذه الرغبات دون احساس بالاثم . لا تكـاد تكون هناك اية رغبـة جنسية لابد من اخفائها هنا في هذا المكان . اننا نحاول ان ندفعها جميعا الى السطح المكشوف ، ان نجعلها صريحـة مباشرة وتحت الانظار المتطلعة . والان ، اظـن ان هذا البنطال الذي ترتديه سيكون مناسبا . انك لا تحتاج الا الى قميص » .

استدعى بول ، الذي كان يرتدي ملابسه كاملة لكي يعثر لي على قميص . وبعد بضع دقائق ، عاد بول حاملا قميصـا رياضيا دون « ياقة » من القطن . لاحظت

انه كان طويــلا بشكل غير عادي ، فأدخلته في فتحة بنطالي . لاحظت ان اكثــر الرجال كانوا يرتدون سراويل داخلية ـ من النوع الصغير الذي تجد اعلاناته فــي مجلات الصحة والقوة ، وكانوا يرتدون احذية « التنس » البيضاء . كان الكثيرون منهم يستحمون في الحمام المجاور . صفق كورنر بيديه وصاح قائلا :

« هيا ياسادة . آن وقت ارتداء الملابس . ليست هناك سيدات في الحجــرة المجــاورة الان » .

تذكرت ـ مجفلا ـ ان تيســا كانت هناك ، وانني كنت اخلع ملابسي على بعد اقدام قليلة من المرآة . تمنيت ان تكون قد استمتعت بالمنظــر . او ربمــا كانت تراقب الرجال الاخريــن .

في الحجرة الرئيسية ، كانت شاشة ضخمة قد وضعت امام المدفاة ، التي كانت منخفضة الارتفاع . رايت انجيــلا وقد بدت حلوة جدا في تنورتهــا القصيرة الرمادية . ولاحظت انها كانت ترتدي جوربا مثل نساء اخريات كثيرات . وكــان من الواضح ان ارتداء الجوارب اجباري . اقتربت مني وامسكت يدي. قلت:

« بم تشعــرين ؟»

« انني بحالة طيبة . ولكنه امر يؤدي قليلا الى الصدمة اذ تفقد الكثير من الكوابت في عطلــة نهايــة اسبوع واحدة . ولكنهــا تجربة رائعة . لا استطيع ان اقول لك كم انا ممتنة لمقابلة كورنر ».

« ترى ، ماذا سيحدث الان؟»

« الا تعرف ؟ مزيد من الالفة . كانت الفتاة التي تنام على السرير المجــاور لي تصفها الان . هذه هي اللحظة الكبيرة . ارجو ان احصل عليك . لا استطيــع ان احتمل واحدا من الرجال الاخرين ،فانا اكره الذكور ذوي الشعر الكثيف » .

« ولكــن مــاذا ..؟ »

قبل ان اتمكــن من استكمال سؤالي ، صاح كريس قائلا :

« هل نحــن هنا جميعــا ؟»

قالت اصوات عديدة : « أجل » .

« حسنــا . كونوا الدائرة . بول ، هل ستأخذ النور ؟ »

تساءلت عن المكان الذي سيأخذ بول النور اليه . وبينمــا كنا نتحرك لكــي نشكل الدائرة ، والايدي فوق الاكتاف ، اخذت الاضواء تخفت تدريجيــا . رتب الرجال انفسهم في سرعــة لكي يصبح كل رجل تاليا لامراة ، ولكن لمــا كان عــدد النساء يزيد قليــلا عن عدد الرجال ، فقد كان من اللازم ان تصاحب بعض النسوة نســاء اخريات . ثم اطبق ظلام كامل . سألت انجيلا :

« مــاذا نفعل الان ؟»

ولكن صوتا غريبا اجابنــي :

« اننا نتحرك الان جميعا نحــو المركز ، نختلط ببعضنا ، ثم نختار اول مــن نصادفه من الجنس الاخر » .

بدانا نتحرك الى الامام ،حلت لحظات قليلة من الفوضى . عجبت كيف اميز الرجال مـن النسـاء، وانتهيت الى ان لمس الصدر هو الوسيلة . (واكتشفت فيما بعـد ان هذه كانت هي الوسيلـة المعتادة). عثرت على فتاة فامسكت يدها بقوة.
صاح صوت بول :
« الكل مستعد ؟»
تعالت صيحات متضاربة : « اجل ، لا » .

ولكن الاضواء راحت تسطع بالتدريج . اكتشفت انني كنت امسك يد فتـاة ضئيلة الحجم ، شقراء الشعر كنت قد لاحظتها من قبل . لم تكن جميلة جـدا، ولاحت لي عيناها مصابتيـن بقصر النظر ، ولكـن وجهها كان جذابا ساحرا مفعمـا بالحيويـة . سألتهـا :
« ثم مـاذا ، الان »؟
« يمكننا اما ان نشترك مع الازواج الاخرين ، او ان نبقى منفردين . ايهمـا تفضـل ؟»
فلنبق منفردين الان ».
« وهو كذلك » .

نظرت الى جارتي الملاصقة لي ــ الفتاة النحيلة الطويلـة التي كنت معهـا في لحظـة سابقـة من النهار ــ فجفلت حينمـا رايت انها كانت توشك ان تخطو لكي تتخلص من سروالهـا الداخلي الذي كـان ساقطا عند قدميها . وكان الرجل الذي يقابلهـا يفعل نفس الشيء، وهو رجل وسيم الى درجـة ملحوظة ، عصبي ، يكـاد يبلـغ منتصف عقده الرابع ، بينمـا احمر وجهه . ناولته سروالها واخذت سرواله، واخذ كل منهما يرتدي سروال الاخر وهما متواجهان .
« ما الفرض من كل هذا »؟
« هذه هي بداية الالفة . يمكننا ان نتبادل الملابس دون تقيد باي حدود. وهذا هـو القسم الذي رسم من اجل المولعين جنسيـا باشياء معينة ، فيما اظن. هل تعني السراويل الداخليـة شيئا بالنسبة لـك »؟
« ان لهـا دلالة جنسيـة محددة ».
« في هذه الحالة، يحسـن ان نتبادل سراويلنا » .

ودون ان يبدو عليها اي حرج ، خلعت بسرعة سروالا ورديـا من النـوع الطويل ، ثم ناولته لي . استغرقت انا وقتا اطول فـي خلع بنطـالي ثم في خلع سروالي الداخلي .
قالت : « وماذا عن قميصك ؟»
« هل تتبادلون القمصان ايضا »؟
« اذا راق لك ذلك ».

كان ملتقى ساقي سروالها مبتلا ، وولد احتكاكه بما بين فخذي ومضة من التهيج الجنسي قضت على اخر آثار التعب . ومن الواضح ان مثل هـذا الاحتكاك

انمـا هـو اساسا احتكـاك بيـن الاعضاء التناسلية الذكرية والانثويـة يتم بحركة واحدة . وبـدات ادرك ما عناه كورنر بتعبير « النشوة الجنسية المعلقـة » . كان ما فعله هـو ان ملأ حجرة بالرجال والنساء ، وجعلهم يعيشون لحظة احتكـــاك جنسي ــ فعلي او رمزي ــ احدهم بالاخر ، حيث يكون المثير الجنسي في اقصى حالات فوته ، ولكن الانضباط الجماعي يضع كل شيء تحت المراقبة . وقف كورنر الى جوار المدفأة ، يرقبنـا بعينيـن طيبتيـن سعيدتيـن ووجدت نفسي اتساءل عمـا يشعـر به الان او مـا يفكـر فيه .

اعطيت زميلتي ــ وكان اسمها نورمـا ــ قميصي الرياضي ، واخذت منهـا قميصهـا القصير الذي كـان بنفس الطول تقريبا . لاحظت حينمـا خلعت ثوبها ان حمالة صدرهـا كانت من النوع ذي الفتحة الهابطـة التي تكـاد تسمح للثـدي بالخـروج منهـا .

ارتديت بنطالي ثانيـة ، واحكمت خطاف حزامه . قلت :

« لا اعرف لماذا تهتم بان ترتدي هذه الملابس ثانية . هذه القمصان القصيرة طويلة بمـا يكفي للاحتفاظ بمظهر حسـن » .

« اعرف ذلك . ولكن الدكتور كورنر يظـن ان عملية خلعه الفعلية لبنطالـــه تدمر الكوابت لدى الذكر . اما لدى الفتيات فان العمليـة تتم بخلع سراويلهـــا الداخليـة » .

ادركت ما كانت ترمي اليه . بدا لي ان بعض الاخرين يريدون ان يتبادلـوا الملابس . ومـا ان انتهى الرجل الوسيم المجاور لنـا مـن ارتداء بنطاله حتـــى اقتربت فتاة اخرى . ورايت انه ــ في هذه المرة ــ لم يتبادل الملابس مع الفتاة ، ولكـن مع زميلهـا الذي كان ــ او المفترض انه كان ــ يرتدي بالفعل سروالهـــا وقميصها الداخلي .

قالت نورما : « هـذا القسم من العملية يضجرني . دعنا نبتعد عنهما » .

تحركنا حتى اصبحنا عند طرف الجماعة . قالت :

« هل ابدأ انا معك ، ام تبدأ انت معي ؟ »

قلت :« من الافضل انتبدئيانت معي . انني لا اثق في كيفية قيامي بالعمل» .

« هل تفضل ان تقف ام ترقد ؟ »

« سيان ، لا يهـم» .

رايت ان بعض الازواج كانوا يأخذون مناضد مطوية ، من كومة كانت في الركن، ثم يقيمونهـا في المساحات الخالية . كانت المناضد مصنوعة من الالمونيوم ، وبـدا ان طولهـا يبلـغ ستة اقدام . كان الرجل او المراة يرقد على المنضدة ، كمـا لـو كـان يوشك ان يتلقى علاجا قوامه التدليك، ثم تبدأ « الالفـة » بنفس الصورة السابقة . اثبتت نورمـا انها اكثر خبرة من كـل شريكاتي السابقـات : او ربما كنت انـا اكثر استثارة . وقفت امامي، وجرت بيديها على صدري ، ومعدتـــي وفخذي حتى هبطت الى القدمين . وحينما وقفت ، حلت حزام بنطالي ، وللحظة

تساءلت انا ان كانت ستمضي الى ابعد مما ينبغي . ولكنها لم تفعل اكثر من ان مدت يدها الى الداخل ودستها الى اسفل حتى لمست ساقي ، وهي تقرصني برقة او تربت بلطف حتى بلغت ركبتي . جعلتني اجلس ، ووقفت ورائي ،وجرت بيديها في شعري ، وداخل قميصي ــ او بالاحرى ثوبي النسائي ــ وفوق صدغي، وداخل شفتي . مددت يدي الى زمام البنطال لكي اغلقه ، ولكنها جذبت يدي بعيدا وقالت)

« امزيد من الكوابت ؟»

« آسف » .

انحنت الى الامام ،ومدت يدها الى الداخل ، ووصلت الى فخذي فربتتهما ، وتركت يدها تتجول بحرية . كنت قد تخليت عن كل محاولاتي لكبت ردود فعلي الطبيعية ، مدت يدها فدستها في خصر بنطالي ، وتركت اطراف اصابعها تجري برقة صاعدة هابطة فوق معدتي ، ثم الى اسفل اكثر . سيطرت على صوتي لكي اسالها :

« اهذا مسموح به ؟ »

« اوه ، اجل . الامر الان كله متروك لنا . هل اتوقف ؟»

« اظن انه يكون من الافضل لو توقفت » .

انفجرت قهقهات ضاحكة الى جوارنا . كانت امراتان ورجل يضحكون على الرجل الذي استبد به الخجل واحمر وجهه . وبدا اخرون يضحكون بينما وجهه يزداد احمرارا . ولكن كورنر ، الذي كان يقف الى جوار المدفاة بدت عليه الصرامة وهز راسه ببطء . استدار الرجل واسرع خارجا من الحجرة . قالت نورما :

« مسكين مستر ماككان . انه لا يستطيع ان يسيطر على نفسه ابدا . اخشى ان تكون النساء يتبادلنه لكي يجعلنه يفقد سيطرته على نفسه »،

كان الامر الغريب هو انني لم اعد اشعر باي ارهاق . كان تيار متوهج غريب قد بدأ يجتاحني من الداخل .

قاطعتنا مجموعة من ستة اشخاص : اربع نساء ورجلان ، ارادوا ان يتبادلوا الملابس مرة اخرى . بدا الامتعاض على نورما ، ولكنها خلعت سروالها الداخلي على مضض ، وتسلمت بدلا منه سروالا نسائيا صغير الحجم اسود اللون . اما انا فاخذت السروال الفرنسي الطويل الذي عرفته عصر ذلك اليوم . استبدلت الثوب النسائي القصير باخر اطول منه ، كانت ترتديه فتاة شاحبة عميقة النظرات. وحينما انتهت عملية الاستبدال قالت نورما :

« هيا . لقد حل دوري » .

وحينئذ ، اعتصرتني صدمة حينما تبينت انني كنت ايزموند خلال الدقائق الخمس السابقة ، وان هذا هو ما يفسر السبب فيما شعرت من ارتباك ازاء تلك الثياب الغريبة الشكل بالنسبة « لي » . كان الامر كما او ان ايزموند

قد برز طافيا من قلب اعماق ما في وعيي انا لكي يكتشف لنفسه ما يجري . وحالما اصبحت واعيا بوجوده ، تزايد تأثير النظرة المزدوجة ، حتى انني للحظة شعرت بانني موشك على الغثيان ، واختفى التهيج الجنسي .

كنا قد عثرنا على مكان هادئ عند حافة الجماعة المتزاحمة . كانت جوينيث - التي لم تعد تحمل اقل سمة من سمات المدرسة الثانوية ، منحنية الى الخلف مستندة الى الجدار ، وقد اغمضت عينيها وارتسم على وجهها تعبير يكاد يكون مزيجا من النشوة المتألمة . وكان رجل راكعا امامها ، وصدغه مستند الى فخذها . حينما ادار راسه عرفت انه الستير . قال له ايزموند : « تحياتي ، ايها الصديق » . وبدا الستير كمن جفل فجأة . هبطت جوينيث فجأة الى الارض ، فاصبحت نصف جالسة نصف راقدة ، وقد اغمضت عينيها ، وانفرجت ركبتاها . حينئذ غمز لي الستير بعينه وقال :

« لا بد ان تجربها . انها رائعة » .

كان التعبير الشهواني الماكر الذي علا وجهه - اشبه بوجه اله الرعاة الروماني فون - جديدا علي ، ولكنه لم يكن جديدا على ايزموند . تحققت انه كان سليلا مباشرا لهوراس جليني .

لم يعد تأثير الرؤية المزدوجة سيئا ولا مضادا للسرور ، كما لو كنت انا وايزموند قد عقدنا صفقة نحتل بمقتضاها جسدا واحدا دون مماحكة ولا نزاع . كان الاحساس الان اكثر وضوحا مما كان من قبل في اي مرة ، ولم اعد قادرا على الاعتقاد بانه لعبة غريبة يقوم بها وعيي الباطن في الخفاء .

وضعت ذراعي حول نورمان من الخلف ، وداعبت نهديها ، ثم بحركة سريعة من اليدين ، حررتهما من قيد المشد الذي يمسكهما ، القت بنفسها برقة لتستند علي ، فشعرت بخشونة ثوبها على لحمي العاري . احنت رأسها حتى استند الى كتفي ، ورفعت وجهها ، فانحنيت عليها ولمست شفتيها . وحينما فعلت ذلك مدت يدها وراء ظهرها وامسكتني بقوة . قالت : « انك تزداد تهيجا اكثر من اللازم » .

مضيت اربت عليها ، مستمتعا باستجاباتها ، كانت مثل قطة قوست ظهرها حتى لمستني وهزت في اطمئنان . تبينت ، في جزع مفاجئ ، انها قد بلغت « النشوة المعلقة » ، ثم تبينت بعد لحظة ، ان ايزموند هو الذي عرف ذلك ، وليس انا . لقد كان اكثر خبرة مني بشكل لا نهائي في مثل تلك الامور .

فجأة قالت نورما : « انظر ، هناك منضدة خالية . فلنذهب اليها . لا يمكنني الوقوف اكثر من هذا » .

وفي الحقيقة ، لقد بدت ركبتاها وكأنهما تصطكان . ساعدتها حتى تسلقت منضدة بالقرب من المدفاة ، حيث كان يقف كورنر ، ناظرا بارتياح ومحبة الى الحجرة ، يومئ براسه من حين الى حين ويبتسم . ربت على كتفي . سقطت يد كورنر .

قال لـه ايزمونـد :

« تحياتي ايهـا الداكن البشرة »

سقطت يد كورنر ، وشحب وجهه شحوبا شديدا . انحنى الى الامام وحدق في وجهي .

« أكنت تعرف هذا من البداية ؟ »

« انني لست ابله ، ايها المشرف . » كذلك قال ايزموند . فقال كورنر بهدوء ؟

« اذن فقد كنت تلهو بي . »

لم يكن هذا سؤالا . فأضاف قائلا ! « ولكن ، لماذا ؟ »

اثارني تعبيره المفعم بالوقار الحزين . اردت ان اشرح له الحقيقة ، ولكنهـا كانت ستبدو امرا يدعو الى السخرية . ثم لاح على كورنر انه يتماسك . لوى شفتيه ، وابتسم ابتسامة مريرة ، وهز كتفيه . ثم خرج من الباب وترك الحجرة ومضى . قلت :

« ماذا تعني بحق الشيطان ؟ »

كنت اسأل ايزموند . ولكنه تجاهلني .

كانت نورما راقدة على المنضدة ، وتبدو كالنائمة . ذهبت اليهـا ، وخلعت حذاءها . بدا قدماها الصغيران ابيضين جدا . انحنيت وقبلت باطن قدمها ، ثم اخذت اطراف اصابعها في فمي . جفلت وتنهدت . حركت رأسي الى اعلى وقبلت فخذيها ، وفي نفس الوقت دسست يدي في وسط سروالها . في هـذه المرة ، شهقت ولم تبذل اية محاولة لكي توقف عمليات اكتشافي . وعلى الرغم من وجود الناس حولنا ، فقد كان من الصعب مقاومة الاغراء بالصعود فوقها .

درت ببصري حول الحجرة ، فرايت انني وايزموند ، كنا من بين آخر من ظلوا على اقدامهم . ادركت الآن لماذا كان البساط سميكا الى هذا الحد . كانت الاجساد الممددة راقدة في كل مكان . استطعت ان ارى آنجيلا راقدة على ظهرها ، وساقاها مفتوحتان ، دون سروال داخلي ، وبدا انها غارقة في النوم . كان بول راقدا الى جوارها ، واحدى يديه على فخذها ، وقد اغمض عينيه هو الآخر . اما جوينيث ــ التي بدت غير قابلة للتعب ــ فكانت عارية في تلك اللحظة ، راقدة على البساط ، ورجل يرضع نهديها ، وآخر يربت على ساقيها وبطنها ، بينما راحت اردافها ترتفع وتنخفض برقة . كانت اجساد اخرى متداخلة في اشكال وتكوينات لا معنى لها ، فبدت كما لو كانت صورة تخيلها رسام صور داعرة لحظة احساس ساخر متهكم .

كانت نورما تمسك يدي بشدة ، لكي تمنعها من الهرب ، وراحت تحرك فخذيها صاعدة هابطة ويدي ممسوكة بينهما . حينما نظرت اليها ، سطعت في ذهني ذكرى قديمة . حاولت ان اثبتها ، ولكنها راوغتني . بذلت مجهودا آخر ، وانا احدق بقوة في لحم فخذيها الذهبي المنحني . خطر لي ان ايزموند نادرا ما مارس الجنس مع نساء لوحتهن اشعـة الشمس . ورغـم ان عصره لم يكن يتميز الا بالقليـل من الاحتشام ، كما هو عصرنا ، فان الثياب كانت تعتبر جزءا رئيسيا من انسانية الرجال

والنساء ، وكان التعرض العاري لاشعة الشمس يمكن ان يعتبر نوعا من الحذلقة القريبة والخروج على المالوف . ولذلك فان اتخاذ عشيقات ايزموند كانت دائما بيضاء ناعمة .

حينذاك ، وبشكل فشلت في فهمه ، لم اعد انا وايزموند رجلين يحتلان جسدا واحدا ، وانما تطابقنا فجاة واصبحنا رجلا واحدا . ان تفسير هذا لا بد ان يكون اكثر اهمية من وصف مجرد الاحداث الجسدية التي وقعت خلال الساعات القليلة التالية ، ولكنني لا استطيع هذا التفسير . ان اللغة لم تصنع لكي تعبر عن احوال الروح الانسانية البالغة الشفافية والدقة . لا يمكنني اذن ان اقول سوى التالي : يكاد يكون من المستحيل – ابتداء – ان تنسى الكائنات الانسانية نفسها ، ولا ان تفلت من انشغالها الفلاب والمسيطر بنفسها ، ولا من ان تتحقق من ان ثمة عالما يقع خارجها . لقد ادرك بليك ان كل طائر يقطع الطريق الهوائي هو : « عالم هائل من البهجة ، قريب من حواسنا الخمس » . ولكنني في تلك اللحظة وفي ذلك المكان ، كنت فجاة وبسرعة الومض الخاطف ، قد اصبحت داخل وعي شخص آخر ، كائن انساني كانت حياته وتجربته مختلفة من كل جوانبها عن حياتي وتجربتي . وقد جاءني هذا الوضع باحساس هائل من البهجة والحرية ، كان اشبه بالخروج من منجم فحم منهار . وكان الشيء الذي اختفى فجاة . اختفاء كاملا – هو ذلك الخوف الاساسي الذي يتسلل الى عقول كل الاذكياء والمثقفين من الناس في لحظة ما من لحظات حياتهم : الخوف من ان الواحد منهم هو حقا الشخص الوحيد في الكون ، وان الحياة فكاهة محكمة ، عرض سينمائي يقدمه رب تملكه الضجر يعرف انه وحيد تعاطى – او اعطى انفسه – عقارا ينسى به وحدته . ذلك انه في تلك اللحظة، كان هناك وعي ايزموند ، حقيقي ومكتمل بصورة لا تقبل الشك او الانكار مثل وعيي انا ، ممتزج بوعي ومتداخل فيه .

وفي ومضة خاطفة ادركت معنى الجنس . انه سعي دائب الى تداخل الوعي وامتزاجه ، رمزه هو تداخل الاجساد . ففي كل مرة يروي فيها رجل او امراة عطشه – او عطشها – في مياه شخصية اخرى غريبة – فأنهما يلقيان نظرة بارقة على ضخامة حريتهما الشاسعة .

كانت ذاكرة ايزموند اكثر من قوة ذاكرتي بكثير . فبسبب القدرات التي استطاع ان يطورها في نفسه ، كان يستطيع ان يستعيد المراحل الماضية من حياته في صورة من الحيوية لا يمكن تصديقها . وقد عرفت الآن ان هذا هو السبب الذي دفعه الى اختياري . لقد كنت اعرف دائما ان الحياة الانسانية شبيهة بالحلم لان اكثر الكائنات الانسانية تعيش بشكل سلبي . ان وعيهم لا يزيد الا قليلا عن كونه انعكاسا لبيئتهم . وعند حدوث النشوة الجنسية ، تشتد قوة تيار عقولهم فجاة الى حد الاصطخاب ، فيدركون للحظة – مؤقتا – انهم لم يعودوا مصباحا كهربائيا لا تتجاوز قوته الاربعين « واط » ، وانما مائتين وخمسين ، خمسمائة ، الفا ... ثم ينخفض التيار ، فيعودون ثانية الى مستوى الاربعين « واط » دونما احتجاج ، انهم مثل البلهاء الفارغي العقول الذين لا يستطيعون تذكر شيء ما لاكثر من ثوان

قليلة . ان الكائنات البشرية كائنات متوسطة القدرة والذكاء حتى ليكاد يكون من الصعب القول بأنهم يملكون عقولا بأي معنى حقيقي . في ومضة خاطفة ادركت الحقيقة الواضحة العابثة : لا شيء يستحق ان تمتلكه الا عمق الوعي . هذه هي الحقيقة التي نلمحها لحظة النشوة الجنسية . فاذا ادركتها الكائنات الانسانية ـ او ان عقولهم لم تكن بهذا العجز عن فهم حتى ابسط الاشياء ـ لكانوا جديرين بأن يهجروا كل مطمح آخر من اجل تحقيق هذا الهدف . ما الذي يهم حقا في اين تكون ، وماذا تفعل ، وكم تملك ، اذا كان عقلك محدودا ضعيفا قاصرا ؟ تماما مثلما لا تعني اكثر الاشياء جمالا اي معنى بالنسبة لرجل يعاني من الحمى . ومن الجانب الآخر ، ولان ايزموند قد ادرك هذا ، وراح يطارد السر ويسعى وراءه ، فأنه قد حل المشكلة التي شغلت بروست طوال الاثني عشر مجلدا من روايته « البحث عن الزمن الضائع » ، مشكلة الكيفية التي نفتح بها المخازن الهائلة غير التالفة التي تمثلها ذاكرتنا . انني اذا حاولت ان اتذكر طفولتي ، فان ذكرياتي سوف تكون نسخة معتمة بالكربون عن الشيء الحقيقي الاصلي . ومع ذلك فان حادثة ما ، مثل كعكة بروست المغموسة في الشاي ، تستطيع للحظة مؤقتة ان تبعث الى الحياة زمنا بعيدا بصورة تماثل في حيويتها تذكري لحادثة وقعت بالامس . فلماذا تكون الذاكرة بهذا الضعف ؟ لان الوعي قانع بأن يجري بقوة اربعين « واط » . بينما كل ما في الكون من طاقة وقوة قريبة منه وفي متناول يده .

في هذه اللحظة ، تذكرت فجأة حادثة كان من الممكن ان تعلمني ما عرفه ايزموند . فمنذ سنوات قليلة ، ارسلت الي تلميذة صغيرة خطابا عن احد كتبي . شعرت من الخطاب بذكائها ، فقابلتها في كورك ـ حيث كانت تدرس في مدرسة داخلية . كانت فتاة تسبب الدوار ـ واحدة من تلك المنتجات الجميلة ، المعافاة الواثقة بنفسها والتي ينتجها بيت ثري مزود باصطبلات الخيول والحدائق الواسعة كالمروج . وقد سحرتني ـ لا لانها كانت تؤثر اي تأثير على عواطفي التي كانت متعلقة كل التعلق بديانا ـ وانما لان الكمال يسحر دائما ، سواء تبدى في صورة منظر جواد سباق فاره ، او سيمفونية قوية . وكان من الواضح انني سحرتها ايضا ؛ لانها اعلنت عن انها تنوي ان تتزوجني ، رغم انها كانت كاثوليكية وكانت تعرف انني متزوج . وقد توقعت ان تستخدم اسرتها نفوذها للحصول على اذن من البابا بذلك .

وفي اثناء العطلة السنوية ، ارسلتها اسرتها الى دبلين لكي تقيم مع عمة لها ، فأصبحت قادرا على ان اجد فرصا لرؤيتها مرة واحدة كل اسبوع تقريبا . كانت المسألة كلها بريئة كل البراءة ، من الناحية الجسدية . فانها وهي في السادسة عشرة ، كانت عذراء رومانتيكية . كانت مفتتنة بي ، ولكنها تخاف من الجنس . وذات يوم ، وقبل الموعد المحدد لعودتها الى المدرسة بوقت قصير ، بدا عليها بوضوح انها قررت ان الوقت قد حان للسماح للعلاقة بان تتقدم الى الامام خطوة واحدة . كان عصر يوم ممطر من ايام اغسطس ، وكنت قد اوقفت السيارة في غابة ما على حافة مزرعة كبيرة . وبعد عشر دقائق او نحوها من بداية جلوسنا متعانقين في مقعد السيارة الخلفي ، تبينت انها قد قررت ان تسمح لي بأكبر قدر ممكن من

الحريات دون ان تسلم عذريتها تسليما فعليا ، ولكن هذا التحديد نفسه ـ الذي حددته لنفسها ـ غرس الخوف في قلبها . سمحت لي بان احل رباط حمالة صدرها ، وان اخلع سروالها الداخلي ، ثم فجأة بدات تبدي خشيتها من ان يتطلع احدهم من زجاج السيارة ـ الذي كان مجللا بالبخار الى درجة تمنع الرؤية تماما . متوجعا من الاحباط والشعور بالخيبة ، احكمت اغلاق ابواب السيارة لكي اطمئنها. ثم شرعت اعمل لكي انسيها احساسها بالاثم بسبب تهيجها الجسدي . واستغرق هذا وقتا طويلا ـ وقتا طويلا جدا . وخطر لي انها قد شعرت بانها اصبحت كالعاهرة دون سروالها الداخلي ـ وهكذا فقد البستها السروال مرة ثانية . وجعلها هذا تشعر بالاطمئنان الكافي لكي تسمح لي بالرقاد فوقها ، وقد ارتفع ذيل ثوبها حول وسطها ، ولكن حينما حاولت ان اتحرك لكي اتخذ وضعا يمكن للاحتكاك فيه ان يشبع استثارتي كما يشبع استثارتها ، ثار خوفها مرة اخرى ، وكان علي ان اعود فابدأ من البداية . كنت قد وجدتها لذيذة لدرجة انني كنت على استعداد لان ابدا من جديد مائة مرة ، لقد اثارت في شهية الرجل الجائع ، ولاح لي وجودي في هذا الموقف ، الاطف اجمل فتاة قبلتها في حياتي ، لاح لي اكثر شبها بحلم يقظة جنسي منه بالحقيقة . ولم تكن عملية ممارسة الجنس النهائية امرا هاما ، فقد كان امتصاص انوثتها كافيا لارواء عطشي . وبعد ساعة ، حينما تحققت من انها قد بلغت حالة من التهيج ازاحت كل العقبات ، تعمدت ان احافظ على وعدي ، فتركت نتائج استثارتي المتراكمة لكي تنفجر دون ضرر . وكان هذا كافيا لجعلها تسحب كل اوامر التحريم السابقة .

ولكن بينما كنت اقود السيارة عائدا الى البيت ، بعد ان انزلتها في طريق العودة عند « كوليج جرين » ، كنت اعرف ان وعيي لم يعد مستقرا عند مستواه القديم من الاجهاد . كانت الساعتان اللتان قضيتهما في تركيز مكثف قد غرستا في « اعادة » التكثيف العميق ، عادة رفض السماح لطاقاتي بأن تغرق ثانية لكي تختفي في منبعها من الوعي الباطن . وبينما كنت اسير بالسيارة ببطء في الظلام ، كنت اعرف ان عقلي قد بلغ مستوى جديدا من القوة ، كانت ضربات قلب حيويتي اكثر عمقا وقوة ، وكانت ذاكرتي تعمل بشكل احسن من المعتاد ، وكانت قدرتي على الحدس قد تعمق ... ولم يستطع طريق العودة الطويل ان يقلل من هذه الكثافة العميقة ، ووصلت المنزل عند الفجر ، شاعرا بنفس الانتعاش الذي احسست به حينما بدات رحلتي للذهاب من دبلين .

ومع هذا فقد سمحت لنفسي بالانتكاس ثانية الى المستوى القديم . لقد ضاع اكتشافي هدرا : معرفة ان ساعتين من المجهود المركز يمكن ان تعمق العقل وان تكثفه حتى يقترب من رؤية المتصوفين . ولكنني الآن ، في هذه الحجرة ، وانا محاصر بالرجال والنساء الممددين على الارض ، اعدت اكتشاف هذه الرؤية الداخلية التي ابصرتها ذات مرة . لم تكن هذه الحجرة مألوفة لي . ان التعود على شيء (او الإلفة ، بمعنى مختلف عن معنى تدريبات كورنر) وظيفة او نتيجة من نتائج اجهاد الوعي ، اما بالنسبة لعقل مكتمل اليقظة ، فان كل شيء يبدو جديدا وطازجا .

كنت متحررا من التهيج الجنسي . وكان احساسي الرئيسي ازاء هؤلاء الناس هو الاحتقار المتسلي . وحينما كانت نورما تتحرك حركة متشنجة محتكة بيدي ، شعرت بأنها وقعت في قبضة فعل منعكس لا سيطرة لها عليه . وفي نفس الوقت ، طرا لي بقوة عظيمة انني املك زمام رغبتي الجنسية بشكل كامل . وسواء اجتذبتني هؤلاء النسوة ام لا ، فسوف يكون بوسعي ان اقوم بوظيفتي الذكرية بصورة تامة . كانت هذه فكرة مثيرة للاهتمام ، رغم انها لم تكن جذابة بشكل خاص . كان الاكثر اثارة للاهتمام بكثير ان استعيد ذكرى تنغيم صوت الدكتور جونسون والكيفية التي مط بها شفته السفلى في تعبير عدواني واضح حينما قال : « سيدي ... » ، او ان اتذكر الالتواءة الماكرة الخبيثة التي جعلت الركن الايسر من فم فولتير يتشنج قبل ان يطلق واحدة من تعليقاته اللاذعة الذكية ، او صوت شيللي المرتفع المتوتر وهو يقرأ لي قصيدته « ادونيس » بصوت مرتفع النبرة . ولكن كان لايزموند هدف اراد ان يصل اليه ، وطالما انه كان معلمي الخاص ، فقد كنت على استعداد للانتظار . في هذه اللحظة ، اراد ان يظهر لي ان الرغبة الجنسية بشكل كامل مرجعها الى الخيال — او الى « العمد » كما يحق لي ان اقول ، ان اتجاهي ازاء نورما يمكن ان يتغير تبعا لارادتي الخاصة . كان بوسعي ان اراها في صورة فتاة غبية شبقة لا تستطيع ان تفكر في شيء ابعد من اللذة التي تحسها بين فخذيها ، او في صورة تجسيد لربة الارض ، فاذا اخترت ان انظر اليها على هذا النحو ، فسوف يكون علي ان اسدي لها الاحترام والتوقير اللازمين ، مثل كاهن يقف امام المذبح . وتبعا لهذا ، فقد خلعت سروالها ، ثم خلعت سروالي ، وصعدت فوقها . فتحت عينيها دهشة لحظة واحدة ، ثم شهقت بحدة حينما ولجتها ... ولما كان هذا عملا من اعمال طقوس العبادة ، وليس من الاعمال التي تدل على الرغبة ، فقد ركزت على اعطائها اقصى قدر ممكن من المتعة ، موائما بين حركتي الى الامام وبين حركاتها .

ورغم الفاصل القائم بيني وبين ما افعله ، فقد كنت اشعر كما لو انني امارس الجنس للمرة الاولى في حياتي . واكثرنا يعرف ان الجنس يكون احيانا افضل منه في احيان اخرى . ومن الممكن ان يولد ولوج فتاة صدمة كهربائية تماثل الصدمة التي تحدث اذا وضعت اصبعك داخل توصيلة كهربائية بالصدفة ، او يمكن ان تبدو هذه العملية كئيبة وعادية ، عملا جسديا لا يختلف عن اي عمل غيره . وهذا يرجع الى القدرة الانسانية على الدخول في حلة من البلادة اشبه بحالة المنوم مغناطيسيا ، حالة من تقبل كل شيء على علاته . ولم اكن اتقبل نورما على علاتها فقط ، كأمر بديهي من المسلمات ، بل كنت مدركا لانها في نفس الوقت تشبه كل فتاة اخرى في العالم . شعرت كما لو كنت نسرا يحوم ثابتا في الهواء دون حركة ، محدقا الى اسفل نحو فجوة هائلة بين الجبال .

كانت الطاقة التي ولدها عملنا تؤثر على الآخرين في الحجرة : شعروا بها كما لو كانت مهيجا غامضا : « عطرا خاصا تحمله الريح » كما قال بليك . كان بعضهم يراقبوننا . وراح آخرون يقلدونني متجاهلين قواعد كورنر التي وضعها ضد الجماع

الفعلي . شعرت بيد تجري برقة على ظهري ، وعلى ردفي ، ثم بين ساقي . كانت تيسا ، منحنية فوقي وعلى وجهها تعبير حالم بشكل غريب ومناقض لما كانت تفعله . تذكرت من كانت تذكرني بها ، انها مينوبوير ، اولى عشيقات ايزموند ، لم اكن قد عرفت اسم اسرتها من قبل ، ولكنني تذكرته الآن . زدت من سرعتي ، وانا اشعر بتصاعد استثارة نورما ، ثم بينما كان بطنها ينحني الى اعلى وتضغط بقوة على بطني، تظاهرت بأنني بلغت ذروة نشوتي ، شاعرا في نفس الوقت بأصابع تيسا وهي تخمشني وتقبض على لحمي . استرخت نورما ببطء ، فسحبت نفسي . قال شخص ما :

« يا الهي » . وكانت جوينيث ، التي كانت تقف الى جوارنا من الجانب الآخر محدقة باعجاب في العضو الذي بدا - حتى لعيني - منتفخا بشكل غير عادي . اما آلستير ، الذي كان لتوه قد نهض من فوق فتاة ظننتها للوهلة الاولى آنجيلا فقد صاح مدهوشا :

« غير معقول ! »

امسكت تيسا بمرفقي وقالت :

« والآن ، انا » .

دفعتها جوينيث جانبا ، ممسكة بي حتى لا انهض تماما وقالت بتصميم :

« كلا : انا . »

لم يكن هناك اي فرق بينهما بالنسبة لي . كان ايزموند - لاسباب تتعلق به ... مصمما على ان يتمم المظاهرة حتى يبلغ بها نهايتها . ورغم ان ذاكرته كانت واضحة لي ، فان وعيي لم يستطع ان يدرك الغاية القصوى من نواياه . لم اعرف سوى انه قد انتوى ان يستخدم جسدي لكي يشبع اكبر عدد ممكن من النساء اللواتي قد يخترن ان يطلبن منه خدماته . وهكذا ، فحينما استندت جوينيث بظهرها الى الجدار ، ضاغطة اداة المتعة ... مددت يدي من ورائها ، وارشدته الى المدخل الضيق ... لم يكن الوضع مريحا بشكل كامل ، لانني كنت اطول منها . كانت هناك مائدة قريبة خلفي ، تحركت الى الوراء وارحت نفسي على ركنها ، جاذبا المراة معي . آنت وهي تنضغط الى اسفل ، ثم رفعت نفسها وهبطت مرة ثانية بسرعة . جذبتها حتى التصقت بي ، ممسكا بها بقوة امامي ، وقد شعرت بشكل ما بأنها قد اصبحت مثل اداة موسيقية مألوفة لي . كان في نيتها ان تبقى في مكانها لاطول وقت ممكن . فقد كادت قدرتها على التماسك الجنسي دون حدود تقريبا ، وقد تجاوب الموقف الحالي مع نزعة الاستعراض الكامنة في غلمتها . ولكن ايزموند كانت له خطط اخرى . كان متمرسا في استخدام مبدأ رد الفعل المنعكس الشرطي. دفعات حساسة رقيقة قليلة دمرت سيطرتها ، ثم جاءت دفقة لا يسعني ان اصفها الا بأنها نوع من الكهرباء الجنسية جعلت نقاط اتصالها الحساسة - نقاط الحلمتين وفتحة الشرج المتمددة - تتوهج بقدر من اللذة لا يمكن احتماله حتى اقتربت من الالم . اطلقت صيحة الم ، وهي تتلوى وتتقبض ، وكان علي ان امنعها من السقوط من امامي . وبينما امسكت بها ملتصقة بي ، خفت حدة التقلصات ، وتحولت الإنات

الى تنهيدة عميقة . ابعدتها برقة عن حجري ، وامسكت بها بينما كانت تهوي ببطء على البساط .. قفز راس الآله الذي لا يكل الى اعلى مثل « عفريت العلبة » ، وجفلت حينما سمعت انفجارة التصفيق . جالسا وقد اوليت ظهري الى بقية الحجرة ، لم اكن واعيا بجمهور النظارة الذي تجمع للفرجة . كان بول وآنجيلا يقودان التصفيق ويصيحان . قال بول : « انك استاذ » ، فتبينت مصدوما انه كان يعرف عن جماعة العنقاء اكثر مما كنت اعتقد . كبحت جماح التعليق غير المتواضع الذي كان ايزموند قد شرع يطلقه . اندفعت آنجيلا تجاهي ، ولكن تيسي كانت قد وصلت قبلها وهي تقول :

« كلا . انها انا . » ثم دفعتني الى الوراء على المنضدة ، وهي تحاول ان تصعد فوقي . اعنتها على ذلك — طالما انها كانت اصغر حجما حتى من جوينيث . ورفعتها قليلا قبل ان اتركها تسقط فوقي . انحط راسها فوق كتفي ، واطلقت تنهيدة طويلة ، ثم بدات تتحرك ببطء ، كما لو كانت متعبة ، وهي تطلق صيحات خفيضة . مثل حيوان ضئيل الحجم يتلقى الضربات . دسست احدى يدي تحت قميصها الرياضي وقرصت حلمتها ، تقلصت برقة ، واندفع لسانها الصغير في فمي وراح يدفعني من داخل فمي . وبينما كنت ادفعها برفق بعيدا عني ، صاح رجل بلكنة اسكتلندية وصوت مرتفع : « ان الرجل فلتة عجيبة لا تتكرر . »

كانت آنجيلا هي صاحبة الدور التالي ، جذبتني حتى ارقدتني على البساط ، امام المدفاة ، والقت بنفسها الى اسفل وقد ثنت ركبتيها. ومعها ، اكتشفت اكتشافا جديدا . كانت العملية مثيرة مثلما كانت بعد زيارتنا لاسرة دانكمان . من الواضح انها كانت تتمتع بشيء ما ، او انه كانت هناك صفة خاصة في تركيبة كل منا الجسدية النفسية ، جعلت كلا منا قادرا الى درجة عجيبة على اعطاء صاحبه الحد الاقصى من المتعة . وهذا عنصر نادرا ما لاحظه الكتاب الذين كتبوا عن الجنس ، الذين يبدو انهم يشعرون بان الاختلاف بين عملية جماع وبين عملية اخرى انما هو بشكل كامل مسألة تتعلق بالمعاني التي يختار الشخص ان يسقطها عليها . كانت العملية مبهجة مع آنجيلا حتى انني شعرت بما يغريني ان اهدىء من سيطرتي على نفسي وان اكف عن حبس رغبتي في المشاركة ، على الاقل بدافع من التهذيب . كانت خمس دقائق كافية لاسترداد طاقتي . ولكن هذا لم يكن جزءا من العرض الذي يرمي اليه ايزموند ، فقد لاح انه مصمم على الاستمرار في العرض ، لاسباب خاصة به . بدات اشعر كما لو كنت محرك سيارة قوية وصل الى درجة الاداء الكامل . لم يكن ثمة اجهاد او نصب ، وبدا جسدي كما لو كان يندفع بسرعة ثمانين ميلا في الساعة ، واكتسبت حركات اردافي حركة موزونة الى درجة غريبة ، كما لو كانت بندولا مضبوط الايقاع . زدت من سرعتي لكي اصل بآنجيلا الى ذروة نشوتها ، وانا اجذبها لكي اضغطها على جسدي حتى خبت حدة عنفها ، ثم انتقلت الى المراة التي كانت تنتظر بالفعل الى جانبي من الناحية الاخرى . شيء ما كان يحدث لي ، اشبه باحساس بالانفصال عن جسدي ، وكان عقلي قد انفصل عن الجسد وطار في الهواء محدقا فوقنا . انني حينما افكر متذكرا حياتي الجنسية العادية ، فانها تبدو لي

ضائعة لا نظام فيها . ففي كل مرة يلج فيها رجل فتاة ، يستيقظ اله في داخله : اله لا ترضيه الحياة الجافةولا الوجود الشبيه بوجود الخنفساء الذي نعيشه ، يعرف ان الانسان قد صنع لكي يغزو آفاقا شاسعة ، غزوات لا نهائية ومن اجل ان يحقق نقاء ساميا وجليلا للارادة . وحينما يصطدم اللحم باللحم الغريب ، يقع عقله في قبضة نوع حاد من وضوح الهدف يرفض ان يتسامح مع تشوش الجسد وثقله . يصبح مثل الضابط القائد العظيم : انه يستطيع ان يجعل من هذا الركام من الاخلاط المشوشة التي ندعوها الجسد ، شيئا متناسقا صلبا مثل فصيلة جيدة التدريب منسجمة الافعال . ثم تعبر ذروة النشوة الى ما وراء الوعي ، ويغيب الضابط في طيات النسيان ، ويعود التشوش المضطرب من جديد .

لم يكن ايزموند يقوم بهذا متفكها او بهدف التسلية . فعلى المستوى الاول ، كانت هذه مظاهرة او استعراضا . بدون كلمات كان يقول لنا ان الهدف الحقيقي الذي سعى وراءه كازانوفا ودون جوان وفرانك هاريس وزملاؤهم ، هو ان يجعلوا من عمليات الاغواء التي قاموا بها واحات من « القصد » في صحراء من الفوضى وعدم النظام ، لقد حلقوا عاليا لثانية واحدة كالنسور ، ثم انحطوا هابطين ثانية الى المستنقع . كان ايزموند يقول لي ان الهدف هو ان « ابقى في الهواء » . ماذا يمكن ان نقول عن قائد ساق قطعان الغزاة الى خارج بلاده ، ثم تراجع من المنطقة التي احتلها وسمح لهم بأن يعودوا على الفور ؟ ليس هذا سوى ما حدث للبشر ، وقد بالغوا في تسليمهم بهذا كما يسلمون بالبديهيات حتى ان الغزاة عادوا مباشرة في اعقاب المؤخرة المتراجعة ، دون محاولة للتعزية او للمساومة . وقد اراد ايزموند ان يظهر ان الكثافة الجنسية تهيىء لنا بصيرة داخلية في مثل حيوية الرؤية الصوفية ، واسهل في تحقيقها بكثير ، ولكنها ــ لكي تكون مؤثرة ، فلا بد ان يتم تنظيمها بحرص وانفعال مساو لحرص من يمارس اليوجا او التنسك والصوم الطويل ...

بعد المراة الخامسة ، لم يعد الجنس يهمني او يمتعني ، كنت مبهورا بالحقيقة التي كانت تحدق في وجهي طوال حياتي . ففي كل مرة نشعر فيها بسعادة عميقة ، فاننا نعرف انه ليس هناك سوى خير واحد : قوة الارادة ، وانه ليس ثمة سوى شر وحيد : ان نتنكر للارادة . فلو ان الحياة طيبة خيرة مثلما نعرفها في لحظات ابتهاجنا ، لكان من الواجب ان ننظر الى كل العقبات كما لو كانت من حصى الطريق ، ولكان المفروض الا يكون الانسان قابلا للهزيمة . وحينما كنت انظر حولي في الحجرة الى هؤلاء الربات العاريات ، نبع في داخلي فرح عميق .. هؤلاء كن الامهات ، والدات جنسنا ، اللواتي استعبدهن الرجال دائما وحقروهن . لقد عبدتهن مثل كائنات الهية مقدسة . ان ما بين افخاذهن هو مدخل الرجل الى عالم الاحلام ، والى العظمة ، والى الهدف الاول الذي يكمن وراء المادة . لم ار اي فرق بين الواحدة منهن والاخرى ، بين الصغيرة والجميلة وبين متوسطة العمر المجعدة . الرغبة في خدمتهن جميعا كانت رغبة غير شخصية ومتحررة من الشهوة . وقفت واخذت يد فتاة نحيلة عصبية الشكل كانت تنتظر ، ومضينا معا الى ركن الحجرة . وقف جزء من كياني خلف مذبح مكلل بقطيفة حمراء شيد في مذبح مبني من الحجر الرملي

المنحوت . وارتديت قناعا على شكل راس طائر عظيم . ووقفت اربعون امراة عارية في صف واحد امام المذبح ، اجسادهن تلمع بالزيت ، وكل منهن تمسك في يدها قارورة ممتلئة بسائل فوار متوهج الخضرة ادركت انا طبيعته وكنهه على حين فجأة.

* * *

استيقظت حينما لامست اشعة الشمس وجهي ، يجتاحني احساس مدهش بالسعادة . كانت عضلاتي تؤلمني ، ولكن جسدي ينبض بطاقة مكبوتة . نظرت الى الفتاة الراقدة الى جواري - فتاة لم اكن اعرف اسمها . وشعرت بدفقة من الاشفاق تجتاحني . ومن الغريب تماما انها كانت عذراء ، وكانت قد قبلتني زوجا لها . ولكنني كنت زوج ديانا ووالد موبسي . انني لم اذكر ديانا كثيرا في خلال سردي لهذه القصة ، ولكنني كنت اطلبها بالتليفون كل يوم ، وكنت افكر فيها وقتما تكون لدي الفرصة للاسترخاء والتفكير . انني عاشق للبيت - بعكس ايزموند ، وقد اردت في تلك اللحظة ان اعود اليه .

انزلقت خارجا من الفراش برقة ، واتخذت طريقي عائدا الى حجرتي واخذت من حقيبتي ثوبا فضفاضا من القطن ومنشفة من فوق المشجب ، وهبطت الى الطابق الاسفل . كان الصباح لذيذا ، مفعما بروائح حشائش ابريل . اتخذت طريقي الى المجرى المائي الذي كان يجري على الجانب البعيد من صف من شجيرات الفوشيا عند حافة الحديقة الكبيرة . هرع ارنب مدهوش الى الحشائش الطويلة يختفي فيها دون اسراع . كان مجرى الماء ضحلا ، ولكن عمقه كان يبلغ خصر الرجل بالقرب من المنتصف . كان شديد البرودة حتى كان علي ان اخرج قدمي من الماء بعد لحظات قليلة ، لكي اترك الالم يخفت بالتدريج . ثم هبطت بجسدي في الماء بالتدريج ، وغسلت بالماء جسدي بأسفنجة جئت بها معي . بقيت في الماء حتى بدات اشعر بالبرودة ، ثم فردت المنشفة فوق الحشائش التي بلطها الندى وتمددت تحت اشعة الشمس . وبعد عشر دقائق كان جسدي قد جف .

كنت اعرف ان علي ان اغادر هذا المكان قبل ان يستيقظ الاخرون .. ولو انني بقيت ، لنشأت ارتباطات شخصية مع عدد كثير جدا من الناس . فكل امراة مارست معها الجنس كانت جديرة بان تشعر بأن من حقها ان تاخذ معها جزءا من حياتي . واعتراضي الوحيد على هذا هو انهن كن كثيرات جدا . وكنت جديرا بأن استمتع بالارتباط مع كل واحدة منهن والدخول معهن في علاقات شخصية ، ولكن لم تكن لي سوى حياة واحدة .

عدت الى المنزل فأيقظت آنجيلا وقلت لها انني اريد ان ارحل . كانت نائمة في حجرتها فتثاءبت ، وابتسمت وفتحت ذراعيها . قبلتها وهززت راسي وقلت :

« ليس الآن . »

« لا بد انك متعب . »

هبطت بيدها ودستها تحت ثوبي الواسع .

« يا الهي الرحيم ! » وولج لسانها فمي . طوحت بالاغطية من على الفراش ،

وصعدت فوقها . كانت ما تزال ناعسة . وكانت العملية دافئة وممتعة ، ولكنها لم تكن متفجرة . حاولت ان انسحب قبل بلوغ ذروة نشوتي ، ولكنها هزت راسها وامسكت بي بقوة . بعد ذلك ، غطيتها ثانية .

« أيمكنني ان آخذ سيارتك ؟ »

« بالطبع . ولكن ليس عليك ان ترحل . »

اخذت مفتاح سيارتها من حقيبتها واخذت مفتاح باب الشقة . قلت :

« اعتذري لكورنر ، وقولي له ان بوسعه ان يجدني في الشقة اليوم ، في اي وقت ، وسوف يفهم . »

بعد عشر دقائق كنت اقود السيارة باتجاه لندن ، وقد تملكتني سعادة مفاجئة غامرة ، وعقلي يشع بالافكار والرؤى .

كانت مسألة ايزموند هي ما شغلتي اكثر من اي شيء آخر بالطبع . كانت دراساتي في علم النفس والظواهر الخفية ذات الطابع السحري (والتي كتبت تاريخا لها) قد اقنعتني بأنه من الممكن ان توجد شخصيتان في جسد واحد . ان الحالة الغريبة التي تمثلها « وجوه حواء الثلاثة » هي حالة كلاسيكية (نموذجية وتقليدية) في علم النفس لم يحاول احد ان يفسرها : ربة البيت المتزوجة الهادئة الحسنة السلوك التي تتحول فجاة الى محبة لاهية لفن العشق . واكثر ملامح هذه الحالة غرابة وهي الحالة التي صورها كل من تيجبين Ingpen وكليكي Clochleg (*) هو انه بينما كانت ربة البيت المتزوجة جاهلة تماما بما حدث حينما استولت على جسدها الفتاة العاهرة ، فان العاهرة ، كانت مطلعة على كل نشاطات « الآنا ـ الاخرى » التي تشاركها نفس الجسد . وقد اخبرتني ديانا بحالة شهدتها بنفسها في صباها الاول : فقد ذهب احد اعمامها لكي يتسلق الجبال في سويسرا ، وذات يوم بدات شقيقة زوجته ـ التي كانت ديانا تقيم معها ـ تتحدث بصوته ، مستخدمة نفس امتدادات لهجته ونغمة صوته ورغم ان صوتها بالطبع ظل صوتا انثويا (. واستمر هذا لمدة ثلاثة ايام ، حتى عثر على جسد عمتها في اخدود عميق بين الجبال ، ثم توقفت عن الكلام بصوته .

اننا لا نملك اي تفسير لمثل هذه الاشياء ، وقد لا يهم كثيرا ان اصبح لدينا اي تفسير ، فمن المحتمل ان يكون تفسيرا خاطئا . ان كل ما همني ـ بمعنى ما ـ هو ان ايزموند لم يكن ميتا . كانت هذه هي الحقيقة الوحيدة اللافتة للنظر والهامة.

كانت هناك مشاكل اخرى . ماذا كان ذلك الذي قاله ايزموند فانتج ذلك التاثير العنيف على كورنر ؟ وما الذي عرفه كورنر عن ايزموند ، وكيف تأتى له ان يكتشفه ؟

ولكن هذا لم يكن سوى جزء صغير مما شغل عقلي بينما كنت اقود السيارة

(*) « وجوه حواء الثلاثة » ، تاليف كورديت هـ. تيجبين ، هيرفي م. كليكي . لندن ، سيكر وداربورج ، ١٩٥٧ . وكان « الوجه الثالث » هو حواء ذات الانسجام الداخلي ، بعد علاجها .

عائدا الى لندن . اما الشيء المهم حقا فهو ما تعلمته في الليلة السابقة . لقد اكتشف ايزموند طريقة ما يمنع بها نفسه من بلوغ ذروة نشوته ، فيجعلها متوهجة طوال ساعات . وكان معنى هذا انه قد خطا خطوة ابعد من اي انسان شعر بالتهيج قبله . وكان ما سحرني فكرة جوانب الوعي والارادة التي تفتحت امامي . كنت قد شعرت بارادتي اكثر قوة بالفعل ، وشعرت بأن وعيي اصبح اكثر اتساعا وعمقا . لقد شعرت بنفسي — طوال حياتي — بأنني واقع بشكل ما في قبضة قوى تقع خارج ذاتي ، وانها بشكل ما ، تحركني بطريقة من طرق التوجيه البعيد . فاذا كنت متعبا ، وشعر عقلي بالبلادة ، فانني افقد همتي بسهولة ، فاصبح اداة سيئة لتلك القوى . ومن ناحية اخرى ، اذا حافظت على ايماني . وسقت نفسي سوقا شديدا ، وحافظت على مستوى عال من التفاؤل عن طريق الارادة الخالصة والخيال ، فانني اشعر بأنني استخدم لخدمته غرضا يتجاوز اغراضي الخاصة ، وابدو كما لو كنت احظى بقوى جديدة تفوق قوتي . هناك — لحظتها — يكون احساسي بالحتمية والارتياح ، واشعر بدهشة عميقة ، مثل عصفور يجد نفسه فجأة طائرا بسرعة طائرة نفاثة .

في قصيدة « فيفاين في السوق » يقول براونينج ان الانسان يشبه السباح اذ يطفو على ظهره فوق سطح بحر هادىء . انه لا يستطيع ان يطير مثل الفراشة ، فاذا حاول ان يرفع كتفيه الى اعلى مما ينبغي فوق سطح الماء ، غرق باقي جسده . فاذا هبط براسه تحت المياه غرق . ويقول براونينج ان هذا هو وضع الفنان ، راسه فقط هو الذي يستطيع ان يبرز من بحر الحياة ، وان يكتشف الحرية في عالم من الخيال ، اما ما بقي منه فهو محكوم عليه بأن يظل في المياه ، خاضعا لقانون الاجسام الطافية . وانني — باعتباري وجوديا ارتقائيا — لم اقبل ابدا هذه النظرة الرواقية الباردة . انني متيقن من ان قوى الخيال والنشوة تلك ، التي طورها ونماها الرومانتيكيون ، كانت فاتحة مرحلة جديدة من التطور الانساني . وفي قصيدة « فيفاين » ، وهي عن « دون جوان » يقبل براونينج فكرة ان الانسان ليس ثابتا مطردا مستقر التكوين ، وان رغباته الجنسية تمنحه لمحات بارقة من حقيقة مراوغة من نوع ما ، تختفي فتغادره مذهولا مرتبكا مأخوذ اللب . وكان ما ظننته دائما هو انه ليست هناك ضرورة لان يكون الامر على هذا النحو . اننا نمتلك قوى نادرا ما نحس وجودها في اثناء دوران الحياة اليومية الكئيبة ، قادرة على ان تجعل الروح تمور مثل عاصفة ، او تفرق في هدوء ساكن الهواء متلهفة الى النشوة المستحيلة . ومن اجل ان نكتشف تلك القوى ، يجب علينا ان ندفع انفسنا الى آفاق جديدة . ان الرجل الذي يتمسك بالعادة اليومية لا يستطيع ان يحصل على اية لمحة مزعجة من لمحات اكتشاف الذات . ولكن عملية ارتياد عالم الجسد لا تقدم اية امكانية لكشوف جديدة . علينا ان نتدرب — وان نجيد استخدام — تلك الحيلة القريبة التي تؤدي الى اتاحة الفرصة للجسد لكي يظل ساكنا او هامدا ، بينما يندفع العقل لكي يكتشف الادغال وسلاسل الجبال الداخلية .

وفي وضوح كامل ، استطاع ايزموند بمعونة الجنس ان يخطو خطوة هائلة

في هذا الاتجاه . فلا عجب انـه كان قادرا على ان ينتفـع بجسدي وعقلـي وان يستخدمهما . فقد كرس كل منا حياته للوصول الى نفس المثل الاعلى . وعبر قرنين من الزمان ، التقى عقلانا كما تلتقي يدان امتدتا للمصافحة ، فتماسكا وتعانقا . هناك جوانب عديدة استطعت انا فيها ان اتقدم الى ابعد مما كان في مقدور ايزموند ان يتقدم فيها ، لانني حصلت على فرصة معرفة ثمار قرن ونصف قرن اخرين من تطور الثقافة الاوروبية . ولكن ارادته استطاعت ان تبلغ الى ابعد واعمق مما بلغته ارادتي . فما الذي يمكن ان يكون مستحيلا بالنسبة لعقلينا الممتزجين ؟

* * *

وصلت الى الشقة بعد الساعة العاشرة بقليل . كنت جائعا الى درجة فظيعة . وجدت قطعة جيدة من فخذ خنزير في الثلاجة فطهوت ست شرائح منها مع ثلاث بيضات . شعرت بتحسن بعد ان اكلتها مع الخبز الجاف والمربى وعصير التفـاح والقهوة . واستمر الاحساس بالسعادة والادراك العميق الممتد الآفاق . خطر لي ان مشكلة الوعي الانساني الاساسية هي انه يتركز على الحاضر معظم الوقت . وفي لحظات الاسترخاء وحدها ــ لحظات الاجازات ــ نستطيع ان نحقق حالة هي في نفس الوقت « يقظة كاملة » ولكنها « غير متركزة » . وهذه حيلة ، ان نقهر العادة القديمة ، عادة السماح للوعي بأن يسترخي حينما لا يكون متركزا . ها هنا انا ، مفعم بالاحساس بقدرة غريبة ، وعقلي يقظ يقظة تامة ، ومع ذلك فانه غير متركز على شيء . بالتحديد . وكانت النتيجة هي ان يملاني كل ما انظر اليه تقريبـا او ما افكر فيه بالاستثارة والرؤى الداخلية الدقيقة الى درجة لا يمكن القبض عليها او امساكها .

كان لدى آلستير ــ على رف الكتب ــ طبعة جميلة من قصائد تشاترتون (١)، ولم اكن قد قرات ما نحله له رولاي من قصائد ، ومع ذلك فحينما نظرت اليهـا ، انتابني احساس بالمعرفة ، بالالفة . اخذت كتاب القصائد من على الرف ونظرت الى تاريخ حياة تشاترتون : ١٧٥٢ ــ ١٧٧٠ . كان اصغر من ايزموند بأربع سنوات ،

---

(١) توماس تشاترتون ١٧٥٢ ــ ١٧٧٠ ــ اشهر الشعراء الانجليز في عصر « الاحياء القوطي » . تمتعت كتاباته في الشعر وفي الدراما الشعرية بقيم فنية كبيرة اصبح لها تاثير عظيم على الشعر الانجليزي والاوروبي من بعده في العصر الرومانسي اذ انه يعد من اوائل الرومانتيكيين ، ومن بناة موسيقى الشعر الانجليزي والاوروبي ومن رواد الشعر العاطفي والوجداني . بعد وفاته كتب عنه كل الشعراء الانجليز العظام بتقدير كبير : كولريدج ، وردزويرث ، شيللي ، كيتس ، كراب ، بايرون ، سكوت . وقد تاثر به كيتس تاثرا كبيرا ، وكتب عنه الفريد دي فيني (الفرنسي) مسرحية باسمه اصبحت اساسا لاوبرا الفها الايطالي ليونكافاللو واعتبره الرومانتيكيون الفرنسيون رائدا لهم . كل هذا رغم انه بدأ حياته بتقديم بعض اشعاره باعتبارها من تاليف قسيس شاعر من القرون الـوسطى اسماه « توماس راولي » ، فلما هاجمه النقاد والناشرون واتهموه بالتزييف (رغم اعترافهم بجمـال الشعر) رد عليهم بقصيدته المريرة : « بالامتياز من اجل الخير » ثم تناول سم الارسينيـك في ليلـة ٢٤ اغسطس ١٧٧٠ . (هـ.م) .

ومن الواضح انه كان في لندن طوال الشهور الاربعة الاخيرة من حياته ـ قبل ان يتناول جرعة من سم الارسنيك . كان في وسع ايزموند ان يقابلـه . جلست على المقعد القريب من النافذة ، والكتاب مفتوح على ركبتي ، وافرغت عقلي .على التو كنت انا ايزموند : ظهر مثل صديق قديم وراء عيني ، ناظرا الى الكتـاب . عرفت اجابة سؤالي . انه لم يقابل تشاترتون ابدا ـ فقد كان في جوتينجين حينما كان تشـاترتون في لندن ؟ ولكن كان قد تحدث مع والبول عن تشاترتون في عيد الميلاد السابق . وكان والبول غاضبا بعنف لان الصبي كان قد ارسل اليه بعضا من شعره نسبها الى شخص يدعى جون آبوت ، وخدع والبول بالقصائد حتى اعلن الشاعر جراي انها قصائد منحولة ومنسوبة خطأ الى جـون آبوت . وكتب والبـول الى تشاترتون ، واشار له برقة الى ان من واجبه ان يستخدم مواهبه من اجل اغراض احسن ، فجاءه جواب وصف بانه « مقالة مسيئة للادب وبذيئة » . وحينمـا سرد والبول على ايزموند هذه القصة اغفل ان يذكر ان جراي قد اكتشف عماية النحل ، ونسب الفضل في الاكتشاف الى نفسه .

دق جرس التليفون ، فافترضت انه لا بد ان يكون المتحدث هـو كورنـر او آنجيلا . ولكن حينمـا سأل الصوت الالماني الثقيل قائـلا : « هـل المستر سورم موجود ؟ » علمت انني اخطأت بالاستجابة للرنين . قلت : « انه هو المتحـدث » بخشونة مفتعلة .

« آه ، شكرا لله . انا « آناليزا دانكمان » . كنت احاول الاتصال بك طوال عطلة نهاية الاسبوع . كيف حالك ؟ »

تبادلنا المجاملات المؤدبة للحظة ، ثم قالت :

« اسمع . من المهم جدا ان اراك . هل يمكنك ان تأتي الى هنا ؟ »

« انني متأسف للغاية ، فان هذا مستحيل . فانا راحل الى ايرلندا . عصر هذا اليوم ... »

بينما كنت اتكلم معها ، شعرت بوخزة غريبة بين افخاذي ، وعادتني فجـأة بوضوح عظيم صورة فخذيها المفتوحين واعضائها التناسلية تحت الحرير الـوردي اللون . خطر لي ان ايزموند جدير بأن يفهم هذا ، ولكن كان شيئا بالغ الصعوبة ان احاول تصفية عقلي وتركيزه وهي تتحدث . فجأة انقطع الخط وانقطعت المكالمة . افترضت ان عطلا فنيا قطع الاتصال ، فوضعت السماعة . وخطر لي ان هـذه اللحظة ربما كانت هي اللحظة المناسبة لكي اتصل بديانا في ماي كوللان ـ حتى اذا اتصلت انا دانكمان مرة ثانية وجدت الخط مشغولا . اتصلت بعاملة الخط ، وبعد بضع دقائق كنت اتحدث مع موبسي ، التي قالت لي ان « مامي » فـي بيت تدفئة الزهور ، في الحديقة . بعد دقائق قليلة جاءت ديانا الى التليفون ، وقالت انهـا كانت تحاول الاتصال بي منذ امس ، فقد استطاع فليشر ان يحصل على عرض من شركة سينمائية لانتاج فيلم عن المادة المتجمعة لدية عن دونللي ، وانه يريد اجابـة فورية . كان المبلغ المعروض كبيرا جدا بالطبـع ، ولكن فليشر اقترح ان يأخـذ

خمسين بالمائة ، وهي نسبة بدت لي مبالغا بها جدا . تحدثنا لمدة تقرب من العشرين دقيقة ، وقلت لها انني ارجو ان اعود في غضون يومين ، وقلت لها الا تفعل شيئا بخصوص البرقية التي ارسلها فليشر . وحينئذ دق جرس الباب . قلت لها « الى اللقاء » بسرعة ، وذهبت لكي انظر من النافذة . كانت آنا دانكمان تقف عند عتبة الباب الخارجي .

شعرت بما يغريني الا اجيب ، ولكن بدا لي هذا نوعا من الجبن ، الى جانب ان من المحتمل ان تكون قد سمعت صوتي وانا اتحدث بالتليفون ـ فقد كنت فتحت النافذة ـ . ذهبت وفتحت لها .

ابتسمت لي بطريقة آسرة مليئة بالود .

« آه ، يا عزيزي جيرارد . جميل ان اراك مرة ثانية . »

امسكت بكلتا يدي ، والصقت نفسها بي في انفعال للحظة . وجدت نفسي اتساءل ان كانت ترتدي السروال المخرم ، وشعرت بوخزة بين فخذي .

الامر المدهش هو انها كانت امراة كنت جديرا بشكل طبيعي ان اراها منفرة على الفور وبشكل مباشر . لم تكن سيئة المظهر وكان جسدها جميلا ـ وان كانت تميل الى البدانة ـ ولكنني كنت اشعر انها ذات مظهر رجولي بشكل اساسي . وبشكل مناقض للطبيعة ، لاح ان هذا يزيد من جاذبيتها عن طريق اذابة الحاجز الطبيعي الذي يفصل بين الذكر والانثى ، ويقيم بدلا منه نوعا من الصراحة الرفاقية . وكان علي ان اعترف بانها كانت تتمتع بجاذبية الشيطان وحسنه الظاهري .

كانت من الحكمة لدرجة انها لم تشر الى محاولاتها للاتصال بي ، الامر الذي كان من الممكن ان يتضمن نوعا من التانيب او اللوم . كانت مفعمة بالدفء ؛ فقد كنا ـ في نظرها ـ صديقين قديمين عادا الى الالتقاء ، وقد ابهجهما ان يرى احدهما الآخر .

سألتني عن صديقيّ الشابين اين هما . فقلت لها انهما سيبقيان بالخارج طوال النهار . ظننت انني اكتشفت على وجهها شبح ابتسامة تهنىء بها نفسها . قالت :

« يا للخسارة . لقد اردت ان اقابل هذا الشاب . انه يبدو ذكيا واسع الافق . »

فكت ازرار معطفها . فأعنتها على خلعه . كانت ترتدي ثوبا من نسيج بني ناعم ، فجعله نهداها الكبيران مشدودا الى الخارج . وكان الثوب بالغ القصر .

جلست على الاريكة . بطريقة اقرب الى الاحتشام ، وقد ضمت ركبتيها ووجهتهما الى الخارج ، ولكن قصر ثوبها جعلها تعري ساقيها حتى طرفي جوربها بشكل حتمي ، كما تعرت منطقة من الفخذين . عرضت عليها قدحا من القهوة . قالت :

« كلا اشكرك . انما اريد ان اتحدث معك عن اشياء كثيرة . ولنبدأ بمسألة هامة . انك باقامتك في ايرلندا تحتاج الى مساعد ادبي « اليس كذلك ؟ »

قلت بحذر شديد ان هذا محتمل ، ولكن لا بد ان اعترف بأنني كنت قد بدات اتساءل ان لم يكن كورنر يبالغ بشأن دانكمان وزوجته . كانت تشع بالدفء وبحيوية عطوف . قالت :

« حسنا . ان لـدي الشخص المناسب تماما . هنـاك فتاة شابـة تدعى كلارافيبيج ، وهي سويسرية . حينما اخبرتها بانني قابلتك ، لم يكن بوسعها ان تصدق ذلك الا بصعوبة . انها تملك كل كتبك ، وملفا كبيرا يضم كل ما كتب عنك في الصحافة . »

ابتسمت بثقة مطمئنة ، ثم استطردت تقول :

« هذا بالطبع نوع من الافتتان الذي يحدث للفتيات الصغيرات — فانها قد اتمت تعليمها في الكلية منذ وقت قصير جدا . وقالت انهـا كتبت لك مرتيـن ، ولكنها لم تحصل على اي جواب . » ، (ومن الممكن ان يكون هذا صحيحا ، فانني لا اجيب على الخطابات الا اذا لم يكن علي ان اكتب شيئا آخر .) « وهذه الفتاة لديها الكثير من وقت الفراغ — فان والدها يرسل اليها مبلغا جيدا كل شهر ، وهي تقوم بدراسة ما في جامعة لندن . وحالما اخبرتها عن عملك في موضوع دونللي ، عرضت ان تقوم بعمل مراسلتك الادبية في لندن . وهي لا تريد شيئا في مقابـل هذا . انها لا تريد الا ان تعمل معك . . . »

وجدت في الامر ما يتملق غروري . فانه لا يوجد كاتب اصبح متخما بالملذات، غير مبال بها لدرجة الا يستمع باعجاب النساء به . ووجدت نفسي اسيرا لسحر موضوعية السيدة دانكمان وعدم تحيزها . فمن الواضح انها لم تكن من النـوع الغيور . قالت :

« طيب . لقد قلت لكلارا اننا قد نذهب لكي نراها اليوم في اي وقت . انها تقيم في نوتينج هيل جيت ، وبهذا فانها قريبة من هنا . لدي صورة لها . »

فتحت حقيبة يدها ، واخرجت حافظة اوراق صغيرة . وقفت لكي آخذهـا منها ، ووقفت هي ايضا وبدات تبحث في الحافظة . كانت تضع نوعا خافت الرائحة وان كان ممتعا من العطر ، وقد زادت نعومة نسيج ثوبها من استدارات نهديهـا وردفيها . قالت :

« آه ، ها هي . »

تحركت لتقترب مني ، وضغط اعلى فخذيها بخفة على فخذي . شعرت بوخزة من الرغبة كادت تجعلني اقفز . كانت الصورة التي اطلعتني عليها لفتاة في ثياب الانزلاق على الجليد ، واقفة على قمة المنزلق الجليدي المرتفع . بدت الفتـاة جميلة ونحيفة ، ولكن كان من الصعب التأكد من ذلك بسبب ثيابها الثقيلة .

ولكن ما ادهشني كان المتعةالتي كنت استمدها منالانحناء على انا دانكمان . كانت ملتصقة بي التصاقا خفيفا ، تقلب صور الحافظة الممتلئة بها ، وبدا لـي ان الدفء المنطلق من خلال ثوبها يتصل مباشرة بعضوي الجنسي . لاح لي انها تحمل صورا عديدة لكلارافيبيج . اطلعتني على صورة قريبة لوجهها فرايت فتاة على شيء

قليل من الذكورة ذات صدغين مرتفعين ــ جميلة ــ وشعرها الاسود منسدل على كتفيها . ذكرتني بشكل غامض بمظهر انا دانكمان نفسها .

واذ وقفت في مكاني خلفها ، ناظرا من فوق كتفها ، اربكني عنف رغبتي . ان استجاباتنا الجنسية من التعقيد بحيث انه من الصعب ان نقول بثقة لماذا يتمتع شخص معين بجاذبية خاصة علينا ، وفي هذه الحالة لم اكن مستعدا للتسليم بالقاء كل المسؤولية على وعيي الباطن . نظرت دون وعي الى صورة الفتاة ، محاولا ان اتذكر شيئا ما . وفجأة قالت انا دانكمان .

« اتشعر بدفء ؟ »

ودون ان تعي بذاتها ، مدت يدها وراء ظهرها فدستها بين اعلى فخذها وبين فخذي . تركت يدها في ذلك المكان لحظة قصيرة ، مفتوحة ... حينذاك فعلت ما كنت افكر في فعله منذ ان دخلت الشقة اذ مددت يدي الى ذيل ثوبها ، ودسستها فوق طرف جوربها . قالت :

« هذا جميل . اننا صديقان . ليس هناك سبب يمنعنا من ان يعامل احدنا الآخر بصراحة . انني اكبر جدا من ان اكون عشيقتك ، بالطبع ، ولا يريد احدنا ذلك . ولكن ما يزال هناك قدر كبير من التجاذب الطبيعي ، تجاذب الانثى والذكر ــ فيما بيننا . ويمكننا ان نكون صريحين فيما يتعلق بهذا . »

كانت هذه هي الزاوية الصحيحة النظر الى المسألة ، فأن فكرة حمل انا دانكمان الى الفراش كانت جديرة بان تزعجني . ولكنها لم تتوقع شيئا من ذلك . قالت :

« سوف تجد ان كلارا اقرب جدا لان تكون النوع الذي يروق لك . انها فتاة حلوة . يمكننا ان نذهب لكي نراها . »

فكرت في ان هذه قد تكون فكرة طيبة . كنت قد بدات اشعر بنفس الاشتهاء غير الصحي الذي شعرت به في سيارة الاجرة مع آنجيلا ، ذلك النوع من الشعور الذي من المحتمل ان يحس به الشخص الميال الى الاستعراض ... ومن الناحية الاخرى ، دلني الحذر على انه قد يكون من الافضل ان اطرد هذه الفكرة من ذهني . قلت :

« اجل . لماذا لا نذهب الى هناك الان ؟ »

« طيب ، جميل . ولكنني احب ان اقول لك شيئا عن خططنا ... »

اخذت يدي بشكل طبيعي تماما ، وقادتني الى الاريكة . من حقيبة يدها اخرجت عددا من الاوراق المكتوبة بالآلة الكاتبة . قالت :

« هذا الكلام بالمانية . هل تقرا الالمانية ؟ اذن سوف اقوم بالترجمة . »

كانت جالسة في الوضع المألوف ، مستندة بظهرها الى المسند ، وفخذاها مكشوفان فوق ذيل ثوبها المشدود الى ما فوق اطراف جوربها . كان فخذاها يلمسانني ، وشعرت بشيء مثل صدمة كهربائية واهنة تجري منهما مباشرة الى ما بين فخذي .

حينذاك ، وعلى حين فجأة تماما ، كان ايزموند في مكاني ، وتغير كل شيء .

شعرت كما لو كنت قد خطوت فجاة خارجا من جسدي ، وانني انظر الى نفسي من جزء آخر من الحجرة . عبرت موجة الحمى وابتعدت . وفي نفس الوقت ، فهمت ، دون ان اشعر ببذل اي جهد عقلي محدد . كانت آنا دانكمان تملك نوعا من الطاقة ، نوعا غريبا بدائيا من الطاقة التي تملكها كل النساء بشكل غريزي . ولكن هذه الطاقة - لدى معظم النساء - تكمن تحت الطبقات التي تكونها « الشخصية » ، تكونها « الكوابت » . وقد تعلمت انا دانكمان ان تحرر هذه الطاقة وان توجهها . لن يكون تعبيرا دقيقا ان نتحدث عن هذا الانجاز من جانبها باعتباره شكلا من اشكال السحر ، وان كانت الطاقات الفعلية التي تملكها الساحرات تتمتع بنفس الطبيعة . وقد رايت في ومضة خاطفة ان هذا هو السبب الذي يجعل من التقليدي ان يكون « يوم سبت الساحرات » حيث يجتمعن بالشيطان ، يوما مليئا بالاعمال الشهوانية، مع خلع ملابسهن كلها ، والمسافدة مع ذكران الماعز ، وما الى ذلك ، فالساحرة تلقي عن نفسها كل انواع الكبت وتتعلم كيف تركز كل طاقتها الجنسية الطبيعية .

لقد فهم ايزموند انا دانكمان ، فانه كان قد عرف الكثيرات من نوعها ، واكثرهن كن اكثر موهبة منها . وجدت نفسي انظر الى داخل عقل انا دانكمان ، فأشعر بافتتان مخيف . لم تكن مثل زوجها منحرفة جنسيا . فالانحراف ينبع بسبب عقبة سيكولوجية غائرة في نفس الانسان . وكان كلاوس متسمرا عند فكرة « المحرم » والممنوع. وكانت فكرة ان اي شيء يمكن ان يكون محرما او ممنوعا كافية لكي تجعله ينتصب . انه مثل دي صاد ، اراد ان يكون شريرا ، وان يمضي حياته في البحث عن اشياء جديدة مدهشة يفعلها . وقد تلاءمت نزعة انا دانكمان الجنسية الفياضة مع نزعته تلك واشبعتها اشباعا كاملا. فان غريزة الامومة لديها كانت قد تشوهت وتحولت الى نوع من النهم الشره. رايت بوضوح انها كانت مزدوجة الرغبة الجنسية، وان كلارا فيبيج كانت عشيقتها . فان موقفها من الجنس كان موقفا ذكريا بشكل غريب : كانت تحب ان يأخذها كل رجل في العالم ، وان تملك هي كل امرأة جميلة . وكانت تتمتع بفضول لا يشبع ، كانت تريد ان تكون « في » داخل وفوق كل شيء . وقد رايت ان هذا هو دافعها الى البحث عني والاندفاع نحوي . فقد كان بوسعي ان اضيف جوا من الكفاءة الثقافية على « مجموعتها » فتجتذب بذلك الاتباع والتلاميذ . وكانت خطتها هي انه لا بد لي من ان آخذها هي وكلارا فيبيج قبل ان ينقضي النهار ، ثم تكون مهمة كلارا هي ان تحافظ علي وان تشدد قبضتها ، من خلال ما تشيعه حولها من جو التابعة المفتونة .

لا ادعي انه كان بوسعي ان اقرأ ما بداخل عقل انا دانكمان . فقد كان كل هذا - بمعنى من المعاني - نوعا من التأمل : ولكنه كان تأملا قائما على اساس من تجربة ايزموند الهائلة . وقد بدا لي كل هذا واضحا شديد الوضوح . ثم ادركت الآن ، انه - ايضا - قد بدا مثيرا للعاطفة الى حد ما . كانت تمتلك الكثير جدا من الطاقة ، وفرصة محدودة جدا لاستخدامها . فلماذا لا تقبض على اية فرصة تلوح لها ؟ كان هذا امرا مفهوما .

لم تكن واعية بانها قد « فقدتني » ، فقد جاء « استبصاري » الداخلي لها سريعا كالوميض ، بينما كانت لا تزال تقلب الصفحات . امسكت بالاوراق مفتوحة باحدى يديها ، وراحت يدها الاخرى تتحرك فيما بيننا ، لكي تزيد من قوة الاحتكاك. وفي تلك النقطة بدأ ايزموند يسلي نفسه . كان ما فعله ببساطة هو ان يضغط على قواي الجنسية ، وان يوجهها ضدها . وفي الحقيقة ، لم يكن هذا غريبا علي غربة كاملة ، فانني كنت افعل هذا دائما دون وعي ، في لحظة الاتصال بفتاة كانت قد اجتذبتني . ان امراة - اذا رغبت في اجتذاب رجل ما - فانها قد ترمش بجفنيها او تتاود لكي تبرز مفاتنها ، ولكنها اذا كانت رزينة محتشمة فانها ستحافظ على هدوء السطح الخارجي ، ثم تستخدم السحر الداخلي القادر على الاتصال المباشر غير الظاهري الذي كانت انا دانكمان تستخدمه الان . اما الذكر فانه نادرا ما يستعرض مراكز جاذبيته بشكل صريح . ان اسلوبه من البداية يعتمد على الظهور بمظهر غير المبالي ولا المهتم . وعلى ذلك فانني - بمعنى ما - كنت متفوقا على آنا دانكمان في هذا الصدد . ولكنني ما كنت استطيع ان اعرف هذا دون المعونة التي اسدتها الي خبرة ايزموند .

شعرت بالاثم بسبب هذا الموقف ، فانني لم ارد حقا ان اجتذبها . ولكن علي ان اعترف بانه كان في سلوكي هذا نوع من « العدالة الشعرية » ، العقاب الذي ينزل بالآثمين في المأساة التقليدية . كان الموقف قد تحول الى مباراة ، مبارزة بسيوف خشبية .

بدات تترجم الكلام المكتوب بالالمانية ، وحينئذ ارتعشت اليد الممسكة بالاوراق ، كانت تقاوم . كانت قد اعتادت ان تكون هي الساحرة لا « المسحورة » ، وفي هذا الوضع الجديد ازعجها الاحساس الجديد المصاحب له واخافها . قلت بادب : « استمري » ، وزدت من التيار الضاغط . بدات تقرأ :

« ان القواعد التي تتبعها جماعة تعاونية من تلامذة رايخ . . . » ثم توقفت ، وقالت :

« يجب ان نعثر على اسم آخر لهم » .

قلت : « اجل ، يجب ان نفكر في اسم آخر . . . » فاستعادت ثقتها وعادت تقرأ .

كنت قد لاحظت ان لثوبها زماما من الخلف ، وان الزمام يغلق عند قمته بزر ضخم . وقد ادركت في تلك اللحظة اهميته . كان فخذها سلاحا عدوانيا ، فخا للذكور اشبه بفخ العناكب للذباب ، ولكن نهديها كانا جزءا من انوثتها ، الجزء الاموي منها . اشرت الى جملة في الورقة تقول : « ماذا يعني هذا ؟ » فلمست عظمة ساعدي قمة نهدها . جفلت جفلة ضئيلة وابتعدت . وضعت يدي بقوة على النهد وامسكته، للحظة فقدت السيطرة على نفسها وحاولت ان تبعد يدي بعنف دون حساب مثل فتاة صغيرة . ثم استعادت سيطرتها على نفسها مرة اخرى ، وقالت بصوت ثابت بدرجة ملحوظة .

« انها اقتباس من رايخ . . . » وشرعت تترجم الجملة كاملة . مددت يدي

وراء ظهرها ، وفي حرص حللت الزر الضخم ، كبتت هي رغبتها في ايقافي ، لقد كانت هي ــ على كل حال ــ التي تحدثت عن « ضرورة ان يعامل احدنا الآخر بصراحة . » جذبت الزمام الى اسفل ، فرايت ان ظهرها كان عاريا ، باستثناء شريط حمالة الصدر . حللت رباط حزام صغير عند خصرها ، وجذبت الزمام الى اسفل حتى اقصى مجراه ، تحت الطرف العلوي لسروالها الداخلي . قالت :

« انك شتتت انتباهي ! » ، « انك شتتت انتباهي . »

حاولت ان تضغط بظهرها على مسند الاريكة ، ولكن محاولتها كانت متأخرة جدا ، فقد كنت نجحت في فك مشبك حمالة الصدر . ضغطت بظهرها على مسند الاريكة بقوة ، وفقدت سيطرتها على نفسها تماما للمرة الاولى ، اصبحت فجأة غير واثقة من نفسها ، وهي تشعر بما يغريها على قتالي . دون ان انظر الى وجهها ، امسكت بكتفي ثوبها ، وجذبتها الى الامام . ابتعد الثوب عن كتفيها اللذين كانا ابيضين مستديرين مثل كتفي تمثال . كانت جديرة بان تبدو في هيئة ممتازة وهي ترتدي ثوبا دون اكتاف في بهو حفلة راقصة في عصر الامبراطورية الثانية . كان نهداها كبيرين ، وما زالا بحالة جيدة . ادهشني بياضهما ، واحمرار الحلمتين المناقض لذلك البياض . وضعت كلا من احدى يدي على احد النهدين وشعرت بالدفء يتسلل طافيا في داخلها . كان هناك شيء يدعو الى الاعجاب بالطريقة التي حاولت بها ان تستعيد سيطرتها على نفسها ، ونجحت في ذلك جزئيا . كنت اعرف ما كان يحدث لها ، من الطريقة التي انفرجت بها ساقاها . كانت تشعر بنفس الوخز المحموم الذي شعرت انا به من قبل . مدت يدها ووضعتها فوق بنطالي . . فقلت : « قفي . » . ترددت ثم فعلت كما امرتها . سقط الثوب على الارض ، ووقفت في مكانها بسروالها الداخلي الوردي ، وحزام الجوربين فوقه ، مع الجوربين . جذبتها حتى التصقت بي . . . ارقدتها على الاريكة ، وخلعت كل ملابسي . . .

جفلنا كلانا عند سماع صوت جرس التليفون . . .

قال صوت رجل : « مستر سورم ؟ »

« يتحدث . »

« انك لا تعرفني . اسمي نيجيل سانت ليجير . ترى ، هل يمكنني ان اجيء لكي اراك ؟ »

« انت الــ « نيجيل سانت ليجير » ؟ »

اطلق ضحكة تدل على الحرج وقال :

« اعتقد ان بوسعك ان تقول هذا . هل يمكنني ان آتي لكي اتحدث معك عن موت هوراس جليني ؟ »

« طيب ، نعم ، بالطبع . متى ؟ »

« انني قريب منك جدا هذه اللحظة . ايمكنني ان اجيء اليك الان ؟ »

« بالطبع . هل تعرف العنوان ؟

« اوه ، اجل . ساكون معك بعد دقائق قليلة . »

حينما التفت ورائي ، كانت آنا دانكمان تشبك حمالة صدرها بالفعل . . . ثم

قـالت :

« اعتقد انك تظنني بالفة الغباء ؟ »

« كلا . » ولكنني لم اعرف ما اقوله عدا هذا .

كان بوسعـي ان اشعر بها وهـي توشك ان تغضب . امسكت بمعطفهـا .

قـالت :

« لماذا لم تخبرني ؟ »

قلت اول شيء خطر على ذهني .

« ربما لم يكن هذا مسموحا لي به . »

حدقت في وجهي ، وقد ثار اهتمامها فجـاة . وللحظة طويلة ظلت عيناهـا تحدقان في عيني . قالت :

« اظنني افهم . »

وكان هذا اكثر مما بوسعي ان اقول .

تحركت متجهة الى الباب .

قالت بأسلوبها الدافىء الودي المخادع :

« حسنا ، اننا نظل صديقين . »

كانت قد عادت الى سيطرتها على نفسها مرة اخرى . وقفت في مكانها ، معطفها مفتوح ، ويدها ممدودة ، وساقاها منفرجتان ثابتتان على الارض . ولكن الموقف بدا سخيفا ولا معنى له . نظرت الى النهدين البارزين ، وخفضت بصري الى الفخذين ، كانت امراة تتظاهر بأنها رجل .

حينئذ ، احمر وجهها فجاة . لم اكن قد تبينت ان نظرتي واضحة كل هـذا الوضوح ، انزلت يدها ، واستدارت دون كلمة ، وجذبت الباب بعنف ففتحته . لم ابذل اية محاولة لمتابعتها . فانني ، اولا ، كنت مسرورا لرؤيتها ترحل . وثانيا ، شعرت فجاة بالاسف . فربما كانت مباراة ايزموند لعبة ممتعة ، ولكنها غادرتهـا مكشوفة ومعرضة للاختراق من اي نقطة . ماذا عساها تستطيع ان تفعله الآن ؟ اتحاول ان تنمي جانبها الانثوي ؟ هذا امر لن يؤدي فقط الى الاحباط او حاولته . طرا لي فجاة ان هناك فارقا واحدا اساسيا بيني وبين ايزموند . لقد كان ينتمي الى القرن الثامن عشر ، قبل عصر « الحساسية » . لم تكن هزيمة آنـا دانكمان بالنسبة اليه سوى شيء مضحك ، والاكثر من هذا ، لا اهمية لها .

ذهبت الى النافذة حينما سمعت السيارة تتوقف بالخارج ، تعرفت على نيجيل سانت ليجير قبل ان يخطو خارجا منها الى الرصيف . لم اكن قد رايته ابدا في المسلسلة التليفيزيونية التي جعلته معروفا لعدد كبير جدا من الناس . ولكن كان لدي كتاب عن قضاياه وحالاته ، مزود بعدد كبير جدا من الصور . كان اصغر حجما مما توقعت ، ولكن مشيته كانت تتسم بنوع من التدفع القوي الى الامام دلت على شيء ما في شخصيته .

قابلته عند الباب . سالني : « مستر سورم ؟ »

صافحني ولكن ابتسامته بدت لي باردة قاسية . تقدمته الى داخل الشقة . كان رجلا وسيما ، قوي البنية ، في اوائل عقده السادس . وكان بوسعي ان اتخيل ان نظرته المحدقة النافذة الباردة قد اخافت عددا كبيرا من المساجين في قفص الاتهام .

قلت : « من اخبرك بأنني هنا ؟ »

نظر الي بحدة ، كما او كان يشعر بما يغريه لان يقول : « انا الذي القي الاسئلة » ثم قال :

« الدكتور كورنر ، بالطبع . »

اخرج علبة سيجار من جيبه ، وقدمها الي . هززت راسي . اقترب مني وانا واقف بالقرب من النافذة وحدق في وجهي . قال :

« انني لم اقرا اي كتاب لك من قبل ، ولكن سوف احرص على ان افعل ذلك الآن . »

لم اقل شيئا . اتجه الى منضدة لعب الشطرنج عند النافذة ، ودون وعي ، حرك احد بيادق الشطرنج . قال :

« هل تلعب الدومينو ، يا مستر سورم ؟ »

لم اقل شيئا . كنت احاول ان احتفظ بنقاء عقلي . وقف سانت ليجير ينظر الي ، مثبتا اياي بأفضل ما يملكه من نظرات الاتهام .

قال ايزموند :

« تحياتي ، ايها المشرف . » (١)

جفل سانت ليجير ، وبان عليه الانزعاج . ولكنه استرد سيطرته بالذهاب الى الاريكة والجلوس عليها . قال :

« أفهم من هذا انك تعرف الكثير يا مستر سورم . ولكنك لا تنتمي الى منزلنا. والاستاذ الاعظم لم يسمع بك من قبل ابدا . »

كنت اعرف ان من الافضل لي ان اترك هذا الموضوع لايزموند ، فلم يكن هناك وقت اضيق في محاولة الاعتماد على نفسي . قال ايزموند :

« اذن فلا بد ان عليك ان تسمع عني . اليس كذلك ؟ »

أشعل سانت ليجير سيجارة .

« هذا هو الواضح ، ان كان كل ما اسمعه صحيحا . » حاول ان يسترخي ، ثم استطرد يقول :

« اسمح لي بأن اوضح موقفي . انني لا انكر حقك في الانتماء الينا . ان مؤهلاتك عظيمة بشكل مبين واضح . وبهذه المناسبة ، أين تعيش ؟ »

« في ايرلندا . »

« آه . »

---

(١) الكلمة الانجليزية هي : domino . ومن الواضح ان سانت ليجير كان يلعب بالكلمات بسؤاله السابق ، اشارة لما قاله سورم في الحفل الجنسي للدكتور كورنر . هـ.م.

ظننت انه قد بدا عليه الانشراح والتفاؤل . قال :
« طبعا . لم يكن هناك اي شيء في ايرلندا منذ سبعين عاما . ربما كان علينا ان نفعل هناك شيئا ما . »
حدق في طرف سيجارة ، كان لدي احساس بأنه ليس واثقا من الكيفية التي يعالج بها هذا الموقف . ثم نظر الي . قال :
« كيف استطعت ان تكتشف الامر ، يا مستر سورم ؟ »
لم يقدم ايزموند الي اي معونة . فقررت ان اقول الحقيقة .
« لقد طلب مني ناشر اميركي ان اكتب عن ايزموند دونللي . وطوال الشهور القليلة الماضية كنت احاول ان اكتشف مذكراته واوراقه . »
« ولم تكن تعلم شيئا قبل هذا ؟ »
« كلا . »
« ارى ذلك . » .
بدا عليه الارتياح . دق جرس الباب ، فتحرك كل منا لدى سماعه . قال :
« هل تتوقع مجيء شخص ما ؟ »
« كلا . »
« جميل . اذن اظنني اعرف من يكون . هل تسمح ؟ »
ولكن كانت آنجيلا هي القادمة . قالت :
« لقد اوصلني كريس ، وقد اشتبك في مناقشة عنيفة مرعبة مع اوتو ... »
دخلت الى الحجرة ، ورات سانت ليجير الذي وقف بأدب لكي يحييها . تعرفت عليه على الفور وبان عليها ذلك . قدمت احدهما الى الآخر ، فتصافحا ، واظهر هو قدرا من التهذيب اكبر بكثير مما كان قد ابدا . حتى الآن . قال لها :
« انت عضو في جماعة الدكتور كورنر . شيء ساخر ! اعتقد انك انت التي قدمت المستر سورم اليه ؟ »
سألته : « هل تعرف بأمرهم ؟ »
« أوه ، اجل انا اعرف بأمرهم . »
نظرت الي آنجيلا ، ترجو الحصول على بعض المعلومات لكي تفهم الموقف . قلت :
« ان السير نيجيل هو المشرف على المنزل الانجليزي لجماعة العنقاء . »
شحب وجه سانت ليجير . للحظة ظننت انه على وشك ان يفقد سيطرته على نفسه . قالت آنجيلا :
« أهو يمزح ؟ »
بدا على سانت نيجير انه فقد شهيته للكلام تماما . قال :
« من المؤكد ان لديه احساسا فكاهيا سيىء التقدير والحظ . »
قالت آنجيلا :
« يظن كورنر انك من جماعة العنقاء . ماذا قلت له ؟ »
قطع سانت ليجير كلامها وتدخل ايقول :

« اذا سمحتما لي . اظن ان هذا موضوع من الواجب الا نتحدث فيه . انه قد يكون خطيرا . »

قالت آنجيلا : « خطير ؟ »

حدق فيها سانت ليجير لعدة ثوان ، ثم وقف واتجه الى النافذة . تولد لدي انطباع بانه شعر براحة اكبر وهو واقف على قدميه . اطل من النافذة ثم قال :

« لقد سألتني عن اغتيال اللورد جليني . وهذا موضوع لا اعرف عنه الكثير ، ولكن بوسعي ان اقول لك شيئا واحدا . ان جليني لم يكن هو الضحية المقصودة . كان المقصود هو ايزموند دونللي . »

حينما قال هذا ، عصف بي احساس عابر بالدوار ، كما لو كان قد احترق شيء ما داخل عقلي . وليس بوسعي ان افسر ما حدث ، انما كان صوت سانت ليجير وهو يقول : « ايزموند دونللي » هو ما فعل بي هذا . لقد قلت انني كثيرا ما شعرت خلال الاسبوع السابق كما لو كنت انا وايزموند نحتل عقلا واحدا . ولكننا كنا كالقريبين ، ولم تكن ذاكرته في متناولي . ولكن حدث في تلك اللحظة شيء ما جعل كل تلك الذكريات واضحة ومعروفة ، مثلما ينضبط مجهر فجأة لكي يكبر الكائنات الدقيقة تحت عدساته ، كما لو كان عقلي وعقل ايزموند قد ارتبطا فجأة بمشبك فولاذي اذا بهما معا . كنت قد عرفت ان هذا من الممكن ان يحدث منذ نحو اسبوع ، ولكن التكييف النهائي بين العقل والواقع كان ما يزال مطلوبا . اما الان فلم يعد هناك المزيد من الاسئلة ، فقد امتزجت ذاكرة ايزموند بذاكرتي . وفي تلك اللحظة ، حينما سألت آنجيلا سانت ليجير عن كيفية معرفته بهذا ، وجدت نفسي اقول :

« يمكنني ان اخبرك بذلك . »

قال سانت ليجير : « ليس من المحتمل ان تستطيع معرفة هذا . »

قلت : « كان خطأ جليني الاكبر هو انه حدد الاسماء . ففي النسخة الاصلية من كتابه « خطابات من فوق احد الجبال » حدد اسماء عبدالله يحيى والاستاذ الاعظم ، وذكر ان هندريك فان جريس كان هو المشرف على هولندا . واقنعه ايزموند بأن يغير الاسماء في النسخة المطبوعة ، ولكنها ظلت تسبب تمردا وانفجارا داخل الحركة . واراد فان جريس ان يتم اغتيال ايزموند . ورفض يحيى ذلك . وفي عام ١٧٩١ سمم فان جريس يحيى وقتله . ومنذ ذلك الحين عرف ايزموند انه لا بد مقتول في اي وقت . وقد استيقظ ذات صباح في باريس ، فوجد خنجرا مغروسا في وسادته . وكانت هذه احدى حيلهم المفضلة ـ لكي يحطموا معنويات الرجل بالخوف قبل ان يقتلوه . وقد استخدم الحشاشون الاصليون ـ الاسماعيلية . هذه الخدعة على سبيل التهديد . وقد اجبروا صلاح الدين مرة على رفع حصار كان قد ضربه على قلعة الاستاذ الاعظم بأن غرسوا خنجرا في وسادته . وادرك ايزموند هذا التحذير ، فذهب الى روسيا ، ثم الى اليونان . وحينما عاد ، اكتشف ان جليني قد ارتكب حماقته النهائية : كان قد نشر نشرته التي يهاجم فيها الجماعة ، ويحدد اسم فان جريس بوصفه الاستاذ الاعظم الجديد . وكانت هذه هي القشة

الاخيرة التي تقصم ظهر الجمل في عرف فان جريسن وكان لديه قاتل فرنسي محترف كان قد تدرب في تركيا ـ وهو رجل يدعى جاك كريفا ـ فأرسله لمطاردة ايزموند . وكان كريفا هو الذي قتل هوراس جليني ـ في فراش ايزموند . »

« ولكن ما الذي كان يفعله هوراس في فراش ايزموند ؟ »

« كان قد سرد على ايزموند قصة سخيفة عن رؤيته لشبح في حجرته هو . ووافق ايزموند على ان ينام في الحجرة لمدة اسبوع ـ فقد كان لا يؤمن بالاشباح . ولم يكن جليني بالطبع يصدق انه يعرض نفسه لخطر حقيقي ـ فقد كانت الحجرة على ارتفاع سبعين قدما ، وكان يوصد الباب من الداخل . ولم يكن يعرف ان كريفا معروف بأسم الذبابة . »

كان سانت ليجير ينظر الي مدهوشا . قال :

« قد يكون كل هذا صحيحا ، ولكنني اشك في ذلك . لا احد يعرف التفاصيل . فقد اصبحت هذه التفاصيل بعضا من اكثر اسرار الجماعة بعدا عن متناول الناس واشدها حماية . ومن المحتمل الا يكون هناك في العالم الآن من يعرفها سوى شخص واحد . »

انتظرت منه آنجيلا ان يستمر في الحديث ، ثم لما رأته يصمت ، سألت :

« ومن هو ذلك الشخص ؟ »

قلت : « الاستاذ الاعظم الحالي . »

قالت : « اذن « فانها » ما زالت موجودة ؟ » ونظرت الى سانت ليجير ، واضافت :

« ولم يكن يمزح ؟ »

صرف سانت ليجير نظره عنها ، وادار راسه بغضب وهو يقول :

« يا سيدتي الشابة العزيزة ، نصيحتي لك هي ان تلقي اقل قدر ممكن من الاسئلة . انني آسف جدا لعودتك في الوقت الذي عدت فيه ، وانني لاكثر اسفا لان مستر سورم لم يكن كتوما الى هذه الدرجة . »

كنت قد بدأت اشعر بالغضب من سانت ليجير ، كان اسلوبه المليء بالتفاخر قد بدأ يضغط على اعصابي . كنت الآن قد ادركت الكثير وفهمت عنه الكثير . كان يتمتع بالاحتياج الرئيسي الذي يحتاجه مشرف في الجماعة : خضوعه للجنس كهاجس متسلط . وكان هذا ماثلا في سلوكه واسلوبه في التعامل مع آنجيلا ، كانت بالنسبة له وسادة فراش مناسبة ، وكان بالفعل يتخيلها راقدة تحته وعيناها مغمضتان . كان رجلا جذابا ، جنسيا وشخصيا . وكان بعيدا جدا عن البلاهة . ولكنه كان ممثلا . وقد ظهر هذا في الطريقة التي سار بها عبر الحجرة قبل اعلانه عن اغتيال هوراس جليني . وكنت انا امثل تهديدا جديا له ، وهذا يفسر السبب الذي جعل اسلوبه معي حادا الى هذه الدرجة ، شعرت بخيبة امل لان اول اتصال لي بالجماعة يتم عن طريق رجل مثله .

سمعت سيارة تتباطأ بالخارج . قال سانت ليجير :

« والآن ، اظن ان علي ان اترككما . »

ذهبت فوقفت الى جواره . كانت سيارة اجرة من مطار لندن . وكان هو قد شرع يتحرك نحو الباب .

قلت:

« لا اظن ان رحيلك يغير شيئا . فطالما انك كنت تتوقع حضوره ، يمكننا نحن ايضا ان نراه . »

قال بهدوء : « هل تسمحان لي ؟ » ثم استدار الى آنجيلا وقال : « ارجو ان نلتقي ثانية . »

تقدمت فتجاوزته ، وذهبت الى الباب . جاء خلفي وهو يقول بغضب : « حقا يا مستر سورم ، ان هذا ... »

كان رجل قد خرج من سيارة الاجرة وراح يتطلع الى ارقام المنازل . كان بالغ الضخامة ، وجهه بني اللون مليىء بالندب . التقت عيناه بعيني ، ثم راى سانت ليجير الى جواري فابتسم . فجاة قال سانت ليجير بلهجة متسلطة :

« سوف اكون ممتنا اذا انتظرتماني هنا لحظة واحدة . » ثم تجاوزني وهبط الدرج . لم اجد نفعا في محاولة الامساك به اكثر من هذا ؛ فدخلت المنزل مرة اخرى . كانت آنجيلا تقف وراء النافذة . قالت :

« ماذا يحدث الآن بحق الجحيم ؟ من هو هذا الرجل ؟ »

« اعتقد ان له علاقة بجماعة العنقاء . ولا اعرف شيئا اكثر من هذا . »

من وراء الستائر ، راقبت سانت ليجير وهو يتحدث الى الرجل الاسمر . قلت :

« انه منزعج من وجودك هنا . »

« اتحب ان انصرف ؟ »

« قد يكون هذا هو ابسط الحلول . »

اقترب الرجلان في تلك اللحظة من المنزل . خرجت انا لاستقبالهما . قلت :

« السيدة الشابة سوف تخرج الآن ، اذا كنتما تريدان الدخول . »

حدق فيّ الرجل الضخم بطريقة مبهمة . ظننت انه يوشك ان يتجاهلني . وحينئذ قال سانت ليجير :

« هذا هو المستر سورم . مستر السيد نوري . »

وهنا مد الرجل يده ليصافحني وقال كيف حالك . تبينت ان صمته كان نوعا من الحرص الشرقي على الشكليات . قال نوري :

« لا اظن ان هناك حاجة الى ازعاج صديقتك . ان مستر سانت ليجير لديه سيارة . ويمكنه ان يأخذنا الى بيتي . »

« ان هذا ليسعدني » كذلك قال سانت ليجير في عصبية ظاهرة . لم يكن هذا يوم سعده .

قلت : « هل تسمح لي بلحظة ؟ »

عدت فدخلت المنزل واخبرت آنجيلا بأنني ذاهب معهما . ثم سالتها عما اذا كانت سمعت في حياتها عن رجل يدعى السيد نوري . بدت كما لو كانت قد جفلت،

وقالت ! « باطبع »
« من هو ؟ »
« انه مليونير من نوع ما . البترول فيما اظن . ان اسمه يذكر دائما مع اسماء اوناسيس وبول جيتي . لا بد انك رايته . »
قلت لها ان عالم الشؤون المالية العليا هو ابعد شيء عن اهتماماتي . قالت :
« انظر اليه . انه شخص من النوع الذي يملك سلطة حقيقية . »
خرجت ثانية واغلقت الباب خلفي . تحركت سيارة « ديملر » رمادية يقودها سائق خاص فاقتربت من المنزل . فتح السائق الباب لنا . وبينما كنا نجلس ، قال نوري بطريقة تنم عن عدم موافقته : « بعيد جدا عن اللياقة . »
احمر وجه سانت ليجير وقال : « انني استخدمها دائما . »
رايت ظل آنجيلا من وراء الستائر الشفافة بينما كنا نبتعد . من المحتمل انها كانت تتساءل ان كانت جماعة العنقاء ما تزال تحتفظ بفرقة من القتلة المحترفين .
لم يتكلم احدهما حتى استدرنا متجهين الى بارك لين . ثم قال سانت ليجير !
« كان عطفا منك ان تقطع كل هذه المسافة لكي تأتي . »
اعتبر نوري ان هذه كانت مجاملة ، فقبلها بهزة من راسه . ثم قال :
« ربما كان الامر كما تقول ، هاما . »
لم يكن فيما قاله اساءة او غلظة ، ولكن وجه سانت ليجير احمر ثانية .
كان احساسي بحضور ايزموند قد اختفى . كانت تلك الاحداث شيئا غير مألوف لدرجة لا بد معها ان تدفعني الى التوتر ، وهذا التوتر هو ما جعل شخصيتي انا هي الغالبة بشدة . استرحيت بالتفكير في أنا دانكمان . لقد كانت تجربة مرضية دون شك ، وكانت تجربة ما كنت استطيع خوضها بنجاح دون ايزموند . كانت شخصيته تتمتع بنوع من الثقة ، بدافع لا يفتأ يدفعه الى الامام ، وجدته انا دافعا مساعدا على التحرر الحقيقي .
كنا قد توقفنا امام منزل في شارع بروك . قال نوري : « لقد وصلنا » ثم نظر الى سانت ليجير وقال : « شكرا لك على توصيلنا الى هنا . » . كان ما يرمي اليه واضحا . قال سانت ليجير :
« هذا يسعدني ... » ثم فتح الباب لنا .
وقفت على الرصيف ، ارمش بعيني تحت ضوء الشمس الساطع ، ناظرا الى ثياب الصيف المرحة التي ترتديها النسوة في ميدان جروزفينور ، شاعرا بأن ما يحدث الآن ، غير مناسب بشكل ما مع هذا الانطلاق الحيوي الفياض .
انفتح الباب الامامي قبل ان نصل اليه . بشكل ما كنت اتوقع خادما شرقيا وراء الباب . ولكن الرجل الذي رايته كان رئيس خدم انجليزيا عاديا ، انسحب وراء مصراع الباب لكي يسمح لنا بالدخول . وبدا ان نوري اصبح اكثر راحة وانطلاقا بعد اختفاء سانت ليجير . قال :
« انني لا اعيش هنا ، ولكنني احتفظ بهذا المكان للاقامة فيه اذا قضيت عطلة نهاية الاسبوع في لندن « انه مناسب لي . »

ثم ضغط على زر جرس .

كان منزلا نموذجيا للرجل الثري ، بما بدا عليه من راحة وتأثيث فاخر . ولم يشر الى انتماء صاحبه الى الشرق سوى سياج الدرجات الداخلية ، فقد كان مصنوعا من الحديد المشغول بشكل دقيق ، ربما كان قد اتى به من « حريم » احد السلاطين .

صعدنا الدرجات الى الطابق العلوي ، وعبرنا حجرة للجلوس مزودة بآلة بيانو من النوع الكبير وبعض لوحات لماتيس (1) على الجدار . ودخلنا مكتبة . اشار الي لكي اجلس على مقعد كبير عميق ذي مسندين .

« ايمكنني ان اقدم لك كأسا ؟ ام ربما تفضل الشاي او القهوة ؟ انني لا اشرب سوى القهوة . »

نظرت في تلك اللحظة الى نوري عن قرب اكثر . وبدا لي انني اتعرف عليه . ربما كنت قد رأيت بعض الصور له . كان طوله يزيد على ستة اقدام ، ووجهه وملامحه اقرب الى وجه وملامح جندي محترف . كان يرتدي بذلة رمادية ، سترتها ذات صفين من الازرار . وكان شعره قصيرا ــ وقد تعمد هو ذلك ــ وبدأ الشيب يغزوه . وكانت في وجهه بعض الندوب ، ولكنه كان وسيما بتلك الجاذبية الباردة التي يتميز بها طائر من الجوارح . كانت حركاته اقتصادية ؛ مختصرة كما لو كان يحس بالرشاقة اذا تشبه بالنساء .

جلس في مواجهتي وعرض علي سيجارة رفضتها . اخرج سيجارة روسية سوداء ذات طرف ذهبي ونقر بها على علبة السجائر . قال :

« لقد جئت من باريس لكي اراك يا مستر سورم . لانه اذا كان نصف ما اخبرني به سانت ليجير صحيحا ، يكون لدينا الكثير الذي يمكن ان يقول احدنا الآخر . اذن فانت تعرف من انا ؟ »

« اجل . انك الاستاذ الاعظم الحالي . »

« لقد خمنت ذلك . بالطبع . »

« لقد كان هذا استنتاجا عادلا . انك لست مشرفا ، والا لما كان سانت ليجير قد اصبح عصبيا من وجودك بهذا الشكل . »

ضحك فابدى اسنانا بيضاء في حالة ممتازة . قال :

---

(1) هنري اميل بينوا ماتيس ١٨٦٩ ــ ١٩٥٤ يعتبر اهم الرسامين الفرنسيين في القرن العشرين. بدأ حياته بالتدريب لدى الفنان ادولف برجير ثم في استوديو الفنان جوستاف مورو ، ولكنه بدأ حياته الابداعية عندما اكتشف التاثريين العظام (وخاصة بيسارو) واصبح واحدا من رواد حركة فن الطليعة ، مثل جورج روو واندريه ديران وموريس دي فلامنيك الذين اطلقوا على انفسهم اسم « الوحوش البرية » عام ١٩٠٥ . ظل ماتيس ينتج طوال حياته المديدة على مراحل تتنوع فقط في حيز التاثرية ومن حيث الموضوعات دون تنويع كثير في الاسلوب . جذبته الحياة المراكشية في نيس على البحر الابيض ، ولكن موضوعات تناغم الالوان ثم الشخصية الانسانية كانت اهم مجالاته (هـ.م)

« ان هذا الرجل ابله . لا ينبغي له ان يكون مشرفا . »

« اذن ، فلماذا يحتل هذا المنصب ؟ انك تملك سلطة ابعاده . »

« لم يعد هذا ممكنا ، فياللخسارة . ان منظمتنا قد اصبحت اكثر ديموقراطية مما كانت عليه ايام ايزموند دونللي . »

دخل رئيس الخدم ، وهو يدفع « عربة تقديم » صغيرة امامه ، ثم خرج على الفور . وبينما كان نوري يصب القهوة ، قال :

« لا ينبغي لنا ان نضيع الوقت يا مستر سورم . فان لدينا الكثير الذي ينبغي ان نقوله ، وعلي انا ان اعود الى باريس هذه الليلة . هناك الكثير مما يحيرني بشأنك . انك تبدو كما لو كنت تعرف قدرا كبيرا من المعلومات . وهذا يعني اما ان شخصا ما لم يكن كتوما كما ينبغي ، واما انك حصلت على بعض الوثائق التي لم نكن نعرف بوجودها . »

لم اقل شيئا ، فمضى يقول :

« كان من الممكن - حتى الآن - ان تكون اي انسان بالنسبة لي . ولكنني اعرف الان انك اشبه بالعبقري ، او بالطفل المعجزة . لقد اخبرني صديقنا كورنر انك انهيت عملا استمر عامين بصبر وداب بما يشبه ضربة خط عبقرية مستحيلة . وانا ازعم انه لم يكن يبالغ ! »

لم اقل شيئا ايضا ، فاستمر هو يتكلم !

« انني افهم من صمتك انه لم يكن يبالغ . »

وضع قدح القهوة التركية الصغير امامي ، وهو يقول :

« من انت ؟ من اين جئت ؟ وكيف عرفت كل ما تعرفه ؟ »

« اسمي جيرارد سورم ، وانا كاتب . اما عن كيف اعرف كل ما اعرفه ، فالاجابة هي انني لا اعرف شيئا . »

قدم الي نوري صحنا مليئا بحلوى صغيرة مستديرة ، وكانت فيها نكهة القرفة ، وراق لي طعمها .

قـال :

« هذا قول غريب . اتعجب ان كان يزعجك ان اتحقق من صحته ؟ »

لم افهم ما عناه بقوله هذا ، ولكنني قلت ان هذا لا يزعجني ، بالطبع . مد يده وضغط على زر جرس آخر . لم يتحدث احدنا طول الدقائق القليلة التالية . كان الجلوس في صمت يولد لدي احساسا مريحا ، كانت هناك سمة في شخصية نوري تجعل هذا الوضع طبيعيا الى حد كبير . فتح الباب بهدوء شديد ، ودخل الحجرة رجل . كان علي ان انظر اليه بتدقيق شديد لكي اتبين انه رجل . كان شعره ذو اللونين مجعدا وطويلا ، والوجه يبدو كما لو ان شخصا ما قد امتص من جسده كل قطرة من الدم ، لكي تنهار العروق وتجف . كانت عيناه شاحبتي اللون حتى بدتا ولا لون لهما . ورغم انه كان يرتدي ثوبا عربيا - عباءة صفراء قذرة - فانه كان غربيا دون مظنة للشك . لم يولد نوري اي اهتمام . جلس الرجل على مقعد صغير واطىء يكاد يكون بيننا نحن الاثنين . رايت اصابع قدميه طويلة بارزة

العظام ، مثل شيء خارج من قلب فيلم من افلام الرعب ، وكانت اظافرها صفراء ملتوية مليئة بالنقاط البيضاء .

قال نوري : « هذا هو بوريس كاهن . »

تجاهلنا الرجل ، وهو يحدق في الفضاء . قال نوري :

« لقد كان يكسب رزقه بالعمل في الملاهي كقارىء لافكار الناس . ثم تطورت قدراته الى درجة اخافته هو نفسه ، فاصبح مدمنا على الهيروين . وقد عثرت عليه ذات ليلة يزحف عند مدخل المنزل وعنقه مكسور ـ وكان قد سقط من نافـذة في الطابق الثاني . وهو الآن يسافر معي حينما يكون لدي عمل هام . انه بلا عقل على الاطلاق ، ولكنه يعرف الحقيقة حينما يتكلم الناس ، ايكذبون ام يصدقون . »

اخذ سيجارة اخرى من العلبة ، ثم قال :

« هل اخبرك سانت ليجير انني الاستاذ الاعظم ؟ »

« كـلا . »

« انني لم اظن هذا . ولكنني اردت ان اتأكد . »

كنت انظر الى « بوريس » بفضول شديد . كان يرمق شطائر القرفة فـي صحني بلهفة . قلت :

« كيف يفعل حينما يكذب احدهم ؟ »

« قد يكون من السهل ان اطلعك على نموذج عملي . »

اشار بيده الى النافذة وفرقع باصابعه . اسرع بوريس فعبر الحجرة وانحنى مرتين على الاقل مثـل كلب مذعور ، ثم انـدس فاختفى وراء ستـارة ثقيلـة من القطيفة . ضغط نوري على زر ثالث على المائدة . بعد حوالي ثلاثين ثانية ، سمعت صوت خطوات رقيقة تزحف على البساط في الحجرة المجاورة . فتح باب، واندفعت فتاة تجري الى داخل الحجرة . وقفت عند الباب ، ورمقتني بنظرة غريبة مليئة بالشك ، ثم اندفعت تجري نحو نوري وطوحت ذراعيها فأحاطت عنقه وهي تصدر اصواتا غريبة كالصياح ولا معنى لها سوى الترحيب بمقدمه . كانت ترتدي سروالا عربيا طويلا وصدارا صغيرا من نفس الطراز ، ولكنهما كانا من الشفافية بحيث كان الافضل ان تكون عارية . يمكنني ان اقول انها كانت في نحو السادسة عشرة من عمرها ، ولكن جسدها كان ناميا نموا معقولا ، وشعرها طويل داكن اللون . كانت تقبل نوري وتعود الى تقبيله ، مثل طفلة صغيرة ترحب بعمها الذي تحبه . ابتسم في صفاء وتركها تستمر في تقبيله الحظة ، ثم قال لي :

« هذه هي كريستي ، طفلة جماعتنا المدللة . »

اجاسها على ركبته وقال : « وكيف حال طفلتنا ؟ » واندست يده داخـل سروالها الشفاف . فتحت ساقيها طائعـة ، فتسللت يده بينهمـا ولمست ملتقى فخذيها . قال :

« هل كانت طيبة ؟ »

اومأت الفتاة براسها بحماس ، ووجهها خال من اي تعبير مثل دمية . خطر

لي ان نوري يفضل من لا عقل لهم من الناس . سالها :

« هل كان لها اي عشاق منذ كنت هنا آخر مرة ؟ »

ارتسم على وجهها تعبير ينم عن الفضيلة ، وهزت راسها بتأكيد . من وراء الستار جاء صوت غريب ، « شاك ، شاك ، شاك » كما لو كان حيوانا يسعل . اندفعت الفتاة نحو الستار ، وجذبته جانبا ، وجذبت بوريس من شعره فأخرجته ، صرخت : « كذاب » .

رقد مستسلما على الارض ، وخده ملتصق بالبساط ، وردفاه مرفوعان في الهواء ــ وحينما رجعت بقدمها المغطى بحذائها الرقيق الى الوراء وركلته في ضلوعه لم يتحرك . اندفعت عائدة الى نوري والقت ذراعيها حول عنقه ، وقالت :

« الطفلة ليست كذابة . هو الكذاب » .

لاطف نوري ظهرها بحنان ، وسالها : « كم كانوا ؟ »

« لا احد . » عاد تعبير الفضيلة الكاملة مرة ثانية وهي تهز راسها . عاد الصوت المبحوح مرة اخرى يتعالى من حلق بوريس . كانت على وشك ان تقفز لكي تندفع اليه مرة اخرى ، ولكن نوري امسك بها من معصمها ، وكرر سؤاله : « كم كانوا ؟ » .

تجهمت ومطت شفتها استياء . قالت :

« ثلاثة . »

سمعت الصوت المبحوح المتقطع ثانية . صرخت في بوريس :

« سوف اقتلك . »

قال نوري باستياء :

« طفلتنا بها شيء من الغلمة الشبقة السيئة ، اليس كذلك ؟ »

قالت الفتاة ، وهي تبدو في صورة احدى بنات طائفة المهتزين المتزمتة، الذين يرعبهم ذكر الخطيئة : « لا . ليست كذلك . »

« طفلتنا تستحق الضرب بالحزام . اليس كذلك ؟ »

« كلا . » كانت تتوسل : « انه كذاب . »

« كم كانوا ؟ »

نظرت الى بوريس بحقد وهي تقول : « سبعة . »

لم يصدر عنه اي صوت . قال نوري :

« سبعة رجال ، ام سبع مرات ؟ »

« رجال . »

« سبع ضربات بالحزام ، اذن . »

وقفت ، وجذبت سروالها الى اسفل حتى ركبتيها ، ثم رقدت على بطنها فوق ركبتيه . وجذب هو من تحت المقعد شريطا من الجلد ، ورفعه في الهواء ، وهوى على الردف المستدير الوردي بضربة قوية . صرخت دون حرارة . اصبحت صرخاتها اعلى واكثر تعبيرا مع توالي الضربات الست التالية . وعند الضربة السابعة قفزت

من فوق ركبتيه . هز راسه وقال :
« واحدة اخرى . »
انحنت امامه ، فهوى عليها نوري بضربة واحدة قوية . ثم قال :
« الآن ، اجري . »
حينما اختفت ، قال نوري :
« والآن يا مستر سورم ، اتقول انك لا تعرف شيئا عن جماعة العنقاء ؟ »
« انني لم اقل ذلك . انما قلت انني اعرف اقل بكثير مما تعتقد . »
« انني لا افهم كيف يمكن ان يكون هذا صحيحا . »
نظر حوله الى بوريس . ونظرت انا ايضا الى بوريس ، الذي كان يجلس الآن على البساط ، محتضنا ركبتيه . كانت الحيرة تبدو على بوريس .
كان نوري ينظر الى بوريس . قال : « ماذا يعني يا بوريس ؟ »
نظر اليه بوريس دون تعبير بعينيه الشاحبتين ، كما لو كان يحاول ان يتجنب السؤال بأن يتظاهر بعدم الفهم . ولكن حينما ظلت نظرة نوري الجامدة مثبتة عليه ، قال بصوت متلعثم فيه فأفأة :
« انه .. انـ ... انه يو .. يو . يعني انـه ، أكـ ، أكـ ، اكثر من شخص و .. وا .. واحد . »
قال نوري : « اهذا ما تعنيه يا مستر سورم ؟ »
قلت : « اخشى الا يؤدي الشرح الى اي نتيجة . انك قد تشك في عقلي . »
نظر الي بوريس ، وقال في صوت مثل فحيح سوط يهوى :
« ماذا يعني ؟ »
جفل بوريس ، وقال في صوت ضعيف خارج من الحلق :
« انه شخص ما ، يدعى ايزموند . »
زحفت عينا نوري الي وراحتا تتفحصان ، كان بوسعي ان ارى ان وجهه يستطيع ان يكون معبرا عن التهديد العنيف . قال :
« الست انت جيرارد سورم ؟ »
« اجل . »
« من هو ايزموند ؟ »
« انك تعرف . ايزموند دونللي . »
حدق في بقوة بالغة ، كما لو كان يتساءل ان كان قد فهم ما قلته على الوجه الصحيح . ثم ، لدهشتي ، انسحب الدم من وجهه ، وشحب لونه ، واصبحت نظرته ثابتة لا حركة فيها . قال :
« هذا مستحيل . »
ولكن صوته كان قد اصبح عريضا مشروخا .
حينئذ ، راح ايزموند ينظر اليه بعيني ، محدقا في عينيه بقسوة . تغير وجه نوري . لكم كنت احب ان انظر من مرآة لحظتها لكي ارى ما كان يراه . وايا ما كان

ذلك الذي رآه ، فقد رايت انه اقنعه . تطلب منــه الامر بضع ثوان لكــي يستعيد السيطرة على نفســه . كانت شفتاه قد شحبتا حتى ابيض لونهما ، وبرزت الندوب الحمراء على وجهه الرمادي .

قــال :

« اذن فقد كنت على حق . لقد عرفت كيف تعود .

لم يفعل ايزموند الا ان اومأ براسه (براسي) . كان بوريس ينظر الى نوري نظرة خائفة ، مثل حيوان لا يعرف ماذا حل بسيده . وقف نوري وعبر الحجرة الى صوان جانبي . التقط قنينة الخمر وراحت يده تهتز وهو يصبها فــي كأس المزج الكبيرة ، ثم ابتلع كل ما صبه دفعة واحدة . وايا كان نوع ما شربه – كانت خمرا صافية مثل العرق – فقد جعلت عينيه تغيمان مثل المياه العكرة ، وحبست انفاسه للحظة . مسح العرق عن وجهه ، ثم جاء فجلس ثانية ، وجعل يرمي ايزموند بنظرات خائفة كما لو كان يأمل ان يكون الامر كله خطأ من الاخطاء . قال :

« سامحني . انك لا تتوقع مني ان اقبل هذا الامر بسهولة . »

اسند ظهره الى مسند المقعد منحنيا الى الوراء واغمض عينيه . واذ كنت احدق من خلال عيني ايزموند وجدت نفسي متحيرا مما ابداه من اقتناع سريع . انتظر ايزموند . كانت هذه هي لحظة انتصاره . اعتدل نوري في جلسته واشار الى بوريس قائلا : « اخرج » فأسرع بوريس خارجا من الباب . قال نوري :

« ماذا تريدني ان افعل ؟ ان استقيل من الاستاذية ؟ »

« كلا . لا استطيع ان اكون استاذا اذا اردت .. فان لــدى مستر سورم اشياء اخرى ينبغي عليه ان يقوم بها . ولكن لا بد ان تكون هناك عودة الى اتفــاقية عام ١٨٣٠ . »

ذهب نوري الى الصوان الجانبي مرة اخرى ، وصب لنفسه كأسا اخرى دون اعتذار . قال :

« لا ارى كيف يمكن ذلك . سيعني هذا ان نحنث في قسمنا . »

« هذا هو الطريق الوحيد . صدقني . »

كان ايزموند قد اصبح صبورا يحاول ان يغرس الثقة في صدر نوري . قال :

« اصغ الي يا السيد ، انني لا الومك . لقد كنت استاذا ممتازا . ولكن هناك اشياء هامة تحدث . وحتى هذا الابله كورنر « ليس سوى نذير – او بشير – بالمستقبل . هناك بشر من نوع جديد في طور النشوء الآن . ان العقل الانساني يكاد الان يبلغ الآفاق والطاقات التي لم استطع انا الا ان المحها من بعيد . وفــي جوانب عديدة ، يعرف سورم هذا اكثر جدا مما اعرف انا . وان عليكم ان تكونوا مستعدين لان تلعبوا دورا هاما .. وانتم لن تستطيعوا القيام بهذا الدور وانتــم جمعية سرية . »

قال نوري : « المشرفون الآخرون لن يوافقوا بأي حال . »

« لن يكون امامهم خيار . هذا الرجل سورم يعرف كل شيء عنا . وسوف ينشر كل ما يعرفه . وسوف يكون عليك انت ان تحميه . »

اعتدل نوري في جلسته مرة ثانية . كان على وشك ان يستعيد سيطرته الكاملة على نفسه ، ولكنني ظننت انه قد كبر في العمر عشرة اعوام دفعة واحدة . قال ايزموند بعطف :

« اسمع يا سيد ، اسمح لي بأن اشرح لك . حينما انضممت الى الجماعة ، منذ مائتي عام ، كانت جمعية من الفاسقين الفجار . وكانت فكرتهم الاساسية هي انه لا بد ان تملك اقلية ممتازة صفيرة الحرية الجنسية الكاملة . وكانت هذه فكرة جيدة حتى ذلك الحين ، وقد قبلتها انا . ورحت افعل كل ما فعله الآخرون ــ فرحت اتجول متفنيا بالسحر والشعر والنشوة الصوفية التي تنزل كلما غرست ذكري في عضو امراة غريبة . وامتلكت طاقة داخلية ، وتطورت تلك الطاقة حتى لم يعد في وسع اي امراة ان تقاومني لاكثر من يوم او بعض يوم . وانت تعرف بعض ما قمت به . لقد اقنعت فتيات مذعورات في مدارس الاديرة الداخلية بان يسلمن عذريتهن في خلال امسية واحدة . وقد نمت مع ثلاث ملكات ، وثماني اميرات . وقد امتلكت نساء بعد ان عرفتهن بعشر دقائق فقط ــ نساء مكبوتات تخيلن بعد ذلك انني سحرتهن . وفي سن الخامسة والثلاثين ، صار من المحتمل انني عشت تجربة جنسية اكثر اكتمالا من اي تجربة مماثلة عاشها اي رجل قبلي . ثم بدات انا انمو واشب عن طوق هذه التجربة . تعبت من الاستمرار في ان اكون مجرد اداة في يد قوة لم افهمها . حينما شعرت بأنني شبيه برب من الارباب في لحظة التحقق الجليل ، طرحت على نفسي ذلك السؤال : هل هذا هو ايزموند دونللي الحقيقي ؟ ام انه الافاق من النوع الجديد الذي يستخدم ذكاءه واخلاصه لكي يوقع بالنسوة الماهرات ؟ لقد رايت ، ذات يوم في موسكو ، سائق عربة يضرب حصانه ، وقبل ان اضربه حتى اطرت اسنانه من فكه ؛ كنت قد شعرت بنوع من الغثيان بسبب « صاديته » الطافحة . وفي وقت متأخر من نفس هذا اليوم ، اخذت صغرى بنات القيصر الى منزل صيفي صغير في مروج حدائق القصر ، واقنعتها بان تدعني استولي على عذريتها . وبينما كنت آخذها ، استولت علي فجأة رؤية رايت فيها وجه سائق العربة ، فعرفت انني كنت افعل الشيء نفسه : استمد المتعة من خلال « فرض ارادتي » على مخلوق اضعف ، فأستمتع بالاحساس بالقوة . وتبينت لحظتها انني كنت اقوم بعمل نفس الشيء طوال عشرين عاما ، مكررا نفس الفعل الذي كما لو كنت اسعى الى ان اؤكد لنفسي انني لست الابله المضجر الذي يشبه بقية النبلاء ــ اصحاب الدم الازرق ــ الشبان . وفجأة شعرت بنفسي بائسا مجللا بالعار . واتخذ انقلابي النفسي هذا شكل الاحساس بالاسف على الفتاة ، وهكذا فقد اندفعت حتى الى التفكير في ان اسألها ان تهرب معي ، ولكنني اكتشفت في اللحظة المناسبة ان هذا لن يكون سوى طريق مسدود آخر . هذه هي نهاية اكثر الافاقين شهرة ، انهم يحاولون ان يجعلوا انفسهم يشعرون بالسمو الاخلاقي بأن يعاملوا الفتاة كما لو كانت انسانة بدلا من معاملتها كمدينة تحت الحصار . ولكن هذا السلوك لا يزيد اخلاقية في الحقيقة عن القاء قطعة نقد معدنية في صندوق شحاذ لكي ترضي ضميرك وتهدئه . لم يكن الحل هو ان استبدل نوعا من الغباء

بنوع آخر ، بل كان هو ان احاول ان افهم طبيعة الامل السرابي المخادع الذي ظللت اطارده تحت اذيال ثياب النساء .

« وحينما عدت الى ايرلندا ، رايت فتاة كنت قد عرفتها منذ سنوات طويلة ، فتاة كنت قد اغويتها منذ خمسة عشر عاما . ودفعت رؤيتها الى ذاكرتي بصورة ذلك الصيف في الحظيرة خلف منزلنا . وقفت في الحظيرة وتذكرت كل شيء . وحينذاك عرفت الخطأ الذي وقع منذ البداية واستمر بعد هذا على الدوام . فحينا امتلكت في البداية مينو ودلفين ، توقعت لنفسي مستقبلا من القدرة اللانهائية على الامتلاك . توقعت ان تعاملني الحياة مثل طفل مدلل مفضل . ولقد عاملتني الحياة بهذا الشكل بالتأكيد . ولكنني سمحت لنفسي بان اصبح سلبيا اكثر من اللازم . لقد قبلت الحصول على المتعة ، ولكنني فشلت في ان ابذل في سبيلها اي مجهود . في اول مرة ولجت فيها مينو ، شعرت بانني مثل اله من الآلهة القديمة . ولكن مئة انتصار آخر ، وولوج مئة امرأة اخرى لم تفعل شيئا لكي تفتدي هذا الموعود بالالوهية . على العكس ، لقد دمرت انتصاراتي وعدي القديم ، لانها لم تكن انتصارات حقيقية ، وانما اصبحت عادة تمارس مثل بقية العادات الباردة . »

كف عن الكلام . وكان لصوته ــ الذي لا يسعني ان اقول انه صوتي ، لانه كان يبدو مختلفا حتى بالنسبة لاذني انا ــ التأثير الذي اراده بالضبط على نوري . ولا بد ايضا ان نتذكر ان ايزموند كان يستخدم دماغي انا ولغتي وتداعيات ذاكرتي ، ولما كانت هذه الادوات ــ ادواتي ــ تستطيع ان تعبر عن افكاره بدقة اكبر من لغته هو الخاصة فان الكلمات كانت تنطلق من لسانه بسرعة فائقة حتى لكان من الصعب احيانا ان يتابعه من يسمعه . وكان مجهود التركيز قد هدأ نوري ، وجعله يستعيد سيطرته على نفسه . قال ايزموند :

« هل تتابع سلسلة تفكيري ؟ »

« ليس ما تقوله غريبا بالنسبة لي : كثيرا ما تخطر لي افكار مشابهة ، ولكنني لا استطيع ان اعثر على اي حل . »

« الحل اقرب مما تظن . ويكاد مستر سورم ان يكون قد عثر عليه بنفسه . لقد كانت لي ميزة طبيعية واحدة عظيمة ــ فقد فكرت في نفسي دائما باعتباري الطفل المفضل . وهذا شيء مهم ــ التفاؤل ، الدافع المحرك الى الامام . وكانت لدى الجراة الكافية التي تدفعني الى التساؤل عما اذا كانت حالات التشبه بالرب تمثل حقيقة وجودي الداخلي ام لا تمثله . وحينما قررت ان الاجابة على ذلك السؤال هي « اجل » ، لم يبق امامي ــ ببساطة ــ سوى سؤال احد : لماذا اذن يعود العقل فيغرق في حالة من البلادة الكئيبة حينما تنتهي لحظة ذروة النشوة الجنسية ؟ »

« بالتأكيد لاننا لا نستطيع ان نصمد لمثل كل هذه الكثافة ، ليس لدينا ما يبقيها لنا ، وليس لنا ما يحفظها في ايدينا . ان اناء ماء لا بد ان يفرغ سريعا اذا ترك على النار . »

« كلا . هذا تفكير مختلط مشوش . ان نشوة الذروة الجنسية ليست نتيجة

انطلاق الطاقة المحبوسة ، وانما نتيجة الرؤية التي تصاحبها . يمكنك ان تحصل على الذروة الجنسية دون الرؤية ، اذا كان عقلك متعبا . او يمكنك ان تحصل على الرؤية دون الذروة الجنسية ، اذا كان العقل مشبعا بالشعر او الموسيقى . هل يمكن ان تصبح متعبا اكثر من رجل اعمى لانك ترى الأشياء التي لا يراها ؟ كلا ، العكس هو الصحيح ، لان الرجل الاعمى اكثر قربا من احتمال الضجر ، والضجر يؤدي الى التعب . والمسالة هنا هي مسالة الرؤية ، وسرعان ما اكتشفنا اننا نفقد الرؤية لاننا نكف عن محاولة رؤيتها . اننا نسترخي ، ننصرف عنها ونوليها ظهورنا ، مثل رجل يتثاءب ويغمض عينيه . »

« لقد عرفت في حياتي رجالا مقدسين ، رجالا ساروا فوق الجبال وعبر الصحاري يبحثون عن نفس الرؤية ، الادراك الدائم للعلم باعتباره لغزا غامضا . ولقد عرفت الآن لماذا تسلط عليهم عشق الخلاء المكشوف . لقد طور الانسان قدرته على التركيز على الاشياء الصغيرة ، مثل صانع ساعات سويسري . ومثل صانع الساعات ، اصبح قصير النظر ، وتزايد قصر نظره حتى لم يعد بامكانه ان يحدق في المسافات البعيدة . وكان الرجال المقدسون يحاولون تصحيح نظرهم بالبحث عن مساحات الخلاء المفتوح . وانني لارى الآن لماذا كان سعيهم اضاعة للوقت والجهد ، لقد كانوا يحاولون ان يستبدلوا ملكة بملكة اخرى ، ويبحثون عن الجبال بنفس الطريقة المتعثرة المتكررة التي كنت ابحث بها عن النساء .

« هل تفهمني ؟ اصبحت واعيا مكتمل الوعي بامكانية الحصول على رؤية اكثر اتساعا. اعترفت بأن هذا لا بد ان يعتمد على تطور ملكات اخرى وقدرات جديدة للارادة . في البداية ، فعلت اوضح شيء يمكن ان افكر فيه . ففي اللحظة التي تفيض فيها قوة الذروة الجنسية فتفرق عقلي ، كنت احاول ان امسك بها فلا ادعها تفلت ، وارفض ان اسمح لها بالهبوط ثانية الى المستوى العادي . وسرعان ما اكتشفت انني كنت احاول ان اطور قدرة كبيرة على التركيز . من الحق انني لا استطيع ان اتمسك بكثافة لحظة الذروة الجنسية او ان امسك بها . ولكن حالما يتحول عقلي الى الخارج ، مثل نسر صغير يحدق في السماء من عشه المرتفع فيحاول ان يقذف بنفسه الى الهواء ، فقد كان بوسعي ان اركز على توسيع نطاق رؤياي . ان مشكلة الانسان الرئيسية هي انه جبان خائر العزم . ففي كل مرة يفقد فيها احساسه بوجود هدف امامه ، يقف ساكنا ، ثم يتراجع . ويجعله الضجر يسير دون هدف من دوائر مغلقة ، فيضيع معظم حياته في هذه الحالة . ان سعيه وراء الحب يمنحه اتصالا واحتكاكا مؤقتا بالينابيع الخفية للقصد او الهدف ، وقد كان هذا هو اعمق تعبير لوجود جماعتنا . ولكن احتياجنا الحقيقي بوضوح ، هو ان نحول تلك الينابيع الصغيرة الى منابع كبيرة لا يمكن ابدا ان تجف . لا بد ان يصبح الضجر مستحيلا . انه المعادل الوجداني لفقدانك الطريق في الصحراء . ولكن حالما يمكن ابتكار البوصلة التي تحدد الاتجاه ، فان هذا لن يكون مشكلة بعد . ولقد رايت ان مهمتي هي ان اركز حتى استطعت ان اطور هذه البوصلة ، وهي المعرفة الواضحة لهدفي . لقد رأيت ان الضجر هو عدو شبيه الرب ، وان كل قواي ينبغي ان توجه

نحو القضاء على هذا العدو . »

قال نوري : « ولقد انجزت هذا . لقد نجحت . »

« أجل . وسوف تنجح انت ايضا ، الآن ، وقد رايت انه ليس بالهدف المستحيل . وسوف ينجح سورم . وحينما ينجح اثنا عشر رجلا ، سوف تتبعهم بقية الجنس البشري . ان ينابيع القصد او الهدف ليست مدفونة الى عمق كبير تحت الارض . وحتى هذه الفتاة الصغيرة التي كانت هنا تملك القدرة اللازمة اذا عرفت فقط كيف توجهها . انها حيلة عقلية ، مثلها مثل القفز من الارض لامتطاء حصان يجري . »

كانت الصورة التي وضعتها في عقل ايزموند هي صورة رجل يستفيد من موجة قوية لكي تحمل لوحه الطفلي فوق الماء ، ولكنه لم يستطع ان يفهم الصورة . كان ايزموند يفتقر الى التصورات والمفاهيم اللازمة للتعبير عما يريده تعبيرا كاملا ، فكرة « الارتقاء » من مستوى للوجود الى مستوى آخر ، ومعرفة ان الشخصية الانسانية سلسلة من المستويات . ولكنني كنت املك تلك التصورات والمفاهيم .

قال نوري : « هل لي ان اطرح بعض الاسئلة ؟ اين انت الآن ؟ هل هناك عالم آخر — بالمعنى الحرفي لكلمة العالم — وراء او تحت هذا العالم الذي نحياه ؟ »

ضحك ايزموند . قال :

« ان ما تدعوه « هذا العالم » هو ما يمكنك ان تراه من خلال شق صغير في الباب المغلق . وهذا يماثل ان تسمى هذه الغرفة التي نجلس فيها الآن عالما بأكمله. بوسع مستر سورم ان يشرح لك هذا بشكل افضل مني . انه يتحدث عن حياة — العوالم . اما فيما يتعلق بأين انا الآن ، فليس بوسعي ان اوضح هذا بسهولة . فحينما استطعت ان اطور قوة ارادتي ، بدات افهم اشياء لا بد ان تكون واضحة من تلقاء نفسها كالبديهيات . فحينما يتملكك التعب ، تصبح الروح مقيدة بشدة بين اضلاع الجسد . وكلما زدت صحة وحيوية ، كلما زدت احساسا بأنك تسيطر على جسدك من مسافة بعيدة ، مثلما يسيطر مدرب الصقور على صقره الطائر في الفضاء . وعند نقطة معينة من الدائرة العقلية ، يصبح من الممكن ان نحقق درجة من السيطرة على هذا الجسد لا يمكنك حتى ان تتخيلها . وحينما يحدث هذا ، تصبح كل الاشياء الغريبة ممكنة الوقوع — فانني استطيع ، على سبيل المثال — ان اعرض ما تدعوه انت بجسدي الوهمي من على مسافة عظيمة . »

« وكان هذا هو ما حدث حينما ظهرت في اجتماع برلين عام ١٨٣٠ ؟ »

« بالضبط . ولكن لا تبالغ في تقدير اهمية تلك القدرة ، انها ليست سوى منتج ثانوي . ان ما يهم حقا هو درجة السيطرة الجديدة على الجسد . لان هذه القدرة اذا ما تحققت مرة ، يكاد يكون من المستحيل ان تموت بعد ذلك . »

قال نوري : « ولكنك مت . »

مثلما ترى . »

« ولكن جسدك مات في عام ١٨٣٢ . ولقد دفنت في « سرداب مدفن الاسرة في ايرلاندا » .

لم يقل ايزموند شيئا ، كانت ذاكرته مغلقة مطبقة نائية حتى بالنسبة الي انا . قال بعد لحظة :

« لا تدعنا نضيع وقتنا على ما لا اهمية له . ولنصرح فقط بأن مستر سورم قد كان اداة ثمينة لا تقدر ، وانك ينبغي ان تعامله بنفس الثقة التي تعاملني بها . وسوف يكون قادرا في مقابل هذا ، على ان يقدم لك الكثير من المعونة . ان مستر سورم ، مثلي انا ، ليس مهتما بالجنس بصورة اساسية . انه رجل كالمتطهرين . ولكنني اظنه قد اكتشف بعض الامكانيات ذات الاهمية في جماعة كورنر . وتستطيع انت ان تطلعه على اشياء اكثر اهمية بكثير ، انني اعتمد عليك . »

« وماذا عنك انت ؟ هل سترحل الآن ؟ »

« كلا . ولكنني حقا لا استطيع ان اظل افرض نفسي على مستر سورم . ان لديه عمله الخاص الذي ينبغي عليه ان يقوم به . »

قلت بصوت مرتفع ــ لصالح نوري : « انني ارحب بمقدمك وقتما تحب ذلك . »

« اشكرك . انك مضياف حقا . »

قال نوري : « ما الذي تريد مني ان افعله على الفور ؟ »

« لا شيء . ركز على تعلم حيلة القفز فوق صهوة الجواد المسرع . وتذكر شيئا واحدا . التشاؤم ثقل من الرصاص يحيط بالقدم . الهزيمة دائما نتيجة اختيار ذاتي . يستطيع مستر سورم ان يشرح تلك الاشياء بشكل افضل مني ــ ان له نسقه الخاص في الفلسفة الذي يقوم على افكار رجل يدعى هوسرل . والآن يا عزيزي السيد . سوف اغادرك . وانني سأكون ايضا في غاية الامتنان لك لو انك مددت حمايتك لكي تشمل لورد جليني الحالي ، ابن ابن ابن ابن ابن ابن صديقي هوراس . انه يملك عددا كبيرا من نفس العناصر التي كان هوراس يمتلكها وبذلك فانك تستطيع بمعنى ما ان تعتبره تجسيدا جديدا لجده الاكبر ولتلك العناصر . لا تقل شيئا عما حدث لذلك الابله سانت ليجير . انه ليس جديرا بالثقة . »

بعد ذلك اختفى ، واصبحت انا ونوري وحيدين . لم يكن نوري واثقا من انك حتى قلت : « لقد رحل . »

وقف وقال : « حسنا ، يا مستر سورم . اظننا نستحق كأسا . ويسكي ؟ »

« كأسا صغيرة . مع الشكر . »

وبينما كان يصب الكأسين ، سألت : « كيف عرفت ان ايزموند كان ينوي ان يعود مرة اخرى ؟ »

« هناك قصة تقول يا مستر سورم بأنه لم يمت ابدا ، وان الجسد الذي دفن في سرداب مدفن الاسرة كان جسد شحاذ عجوز . ولقد قال هو نفسه شيئا يقرب من هذا في يومياته الموجودة الآن في منزلي على جزيرة هيندورابي . وسوف تكون انت واسرتك ضيوفا مكرمين هناك اذا شئت ان تأتي لكي تفحص تلك اليوميات . وهذه اليوميات تتوقف بعد عام ١٨٠٠ ، الامر الذي حيرني دائما . ولكنني افهم ما حدث الآن . »

« هناك شيء واحد احب ان اسألك عنه . هل اقلع عن الجنس بعد ما حقق من استبصار وادراك ؟ »

« اظنني استطيع ان اجيبك على هذا السؤال . انك تعرف انه قد اختار صغرى الشقيقات انجستر لكي تكون شيئا مثل الكائن المقدس ، وقد اصبحت فيما بعد كاهنة في قيادة الجماعة في القسطنطينية ؟ يمكنك ان تقرأ عن هذا في اليوميات . وانا اعتقد انه قد اختارها لانه قال عنها انها تمتعت بنوع سري خاص من النعم الالهية جعلها اكثر نقاء في انوثتها من اي امرأة عرفها من قبل . وعاملتها الجماعة باعتبارها كائنا مقدسا ، بعد ان اصبح ايزموند استاذا اعظم في عام ١٨١٠، وبعد ذلك احتلت ابنتها ثم حفيدتها مكانها . ومما يصدقه كل العارفين ان ايزموند كان والد ابنتها الحقيقي . »

« من الذي كتب الكتب المنسوبة الى ايزموند : « افتراع العذارى » وما الى ذلك ؟ »

« لقد كتب جليني نفسه هذا الكتاب ، في وقت اراد فيه ان يزعزع ثقة ايزموند بالجماعة . ولكن كانت هناك تزييفات اخرى كثيرة بعد هذا . فان ايزموند باعتباره استاذا اعظم كان جديرا بان ينحل اعمالا مزيفة مثلما نحل كتاب عصر اليزابيث الصغار اعمالهم لشيكسبير ، وخاصة المسرحية منها . »

« ماذا كان السبب المباشر لموت ايزموند ؟ »

قال : « هذا شيء يحيرني : فالقضية التي يوردها كاتب ترجمته ، عصمت الاصطخري ، تقول بانه اصيب بنزيف دموي في الدماغ بعد احتفال ضاجع فيه خمس عشرة امرأة . وهذا بالطبع محتمل ، فباعتباره استاذا اعظم ، كان من مهامه احيانا ان يشترك في مثل تلك الاحتفالات . ومع هذا فانني لم اكن قادرا ابدا على ان اقبل هذه القصة قبولا كاملا . وانا الان اقل ثقة منها مما كنت من قبل . »

« هل هذه الترجمة مكتوبة بالانجليزية ؟ »

« انها بالعربية لسوء الحظ . ولكن يمكنني ان آمر بترجمتها لك . »

* * *

نظرت الى ساعتي فدهشت حينما وجدتها قد تجاوزت السادسة . خطر لي ان آنجيلا ستكون الآن منزعجة علي . ولذلك فقد سألت ان كان يمكنني ان اطلبها بالتليفون . وكنت على حق ، فقد كانت آنجيلا وآلستير يتناقشان في تلك اللحظة حول ان كان عليهما ان يتصلا بالشرطة ام لا ، فان تلميحات سانت ليجير المعتمة حول اغتيال جليني ازعجتهما . وبينما كنت ما ازال اتحدث في التليفون ، تسلل الى جانبي رئيس الخدم الصامت وقال :

« اعذرني يا سيدي ، ولكن مستر نوري اقترح انك قد تحب ان تدعو صديقيك لتناول العشاء هنا . »

بلغتهما الاقتراح ، فقبلاه على الفور .

حينما عدت الى المكتبة ، كان نوري يرتدي عباءة فضفاضة مزخرفة بشكل جميل ، وقد وقفت خلف مقعده ، اربع فتيات في ملابس شفافة . قال :

« آه ، مستر سورم ، ارجو ان يكون صديقاك قد قبلا الدعوة ؟ ما زال امامنا ساعة اخرى حتى يحين موعد العشاء . هل حدث ابدا ان جربت ما يتمتع به حمام الامراء من قدرة على بعث الراحة في الجسد والاسترخاء في الاوصال ؟ لقد اخترعه استاذ اعظم تركي في القرن السابع عشر . وهؤلاء السيدات الصغيرات قد تعلمن فن الكمال . انني اقترح ان نستحم الان على طريقة الامراء ، قبل العشاء ، وربما امكنك في اثناء ذلك ان تروي لي كيف حدث ان سمعت بايزموند دونللي . »

* * *

كانت هذه هي المقدمة التي ادت الى واحدة من امتع الامسيات التي قضيتها في حياتي ، ولكن ليس هذا هو مكان وصفها بالتفصيل . ان تاريخ جماعة العنقاء موضوع يبلغ من التعقد والثراء حدا يجعلني اشعر بأنه ليس من العدل ان اتحدث عنه هنا . وحينما يكتمل اعداد اوراق دونللي للنشر ، سوف ارجو ان اقوم بهذا العمل بنفسي . وقد سرد علينا نوري ايضا جانبا من تاريخه هو ، وانتهى بأن استعرض امامنا بعضا من تلك القدرات الهائلة التي ادت الى تعيين استاذ اعظم . (وقد حدث هذا بعد صراع مشهود مع لودفيج بينديج ، المشرف الالماني الذي كان ايضا نازيا سابقا . وقد ادار بينديج « المعسكر الجنسي » المشهور ، الذي انكر المؤرخون الالمان المعاصرون وجوده .)

لجانا الى سررنا ، منهكين الى اقصى حد ، في ساعات الصباح الباكرة . وحينما استيقظنا ، كان نوري قد رحل الى باريس . وفي وقت متأخر من نفس اليوم طرت عائدا الى شانون حيث قابلتني ديانا . وحينما عدنا الى البيت ، وجدنا برقية من نوري يسالنا فيها ان كان بوسعنا ان نلحق به في منزله في هيندورابي في عطلة الاسبوع التالية . اقلتنا طائرته الخاصة من شانون . وفي الشهور الاربعة التالية منذ ذلك الحين ، تمتعنا باشعة الشمس ، وكتبت انا هذا التقرير عن بحثي عن ايزموند .

اما ابحاثي في محفوظات السيد نوري — التي ساعدني فيها منظم مكتبته الممتاز الدكتور فائق خصة فقد اجابت على معظم ما تبقى من اسئلة حول ايزموند وحول تاريخ الجماعة في اواخر القرن الثامن عشر واوائل القرن التاسع عشر . وسوف تنشر هذه النتائج في موعدها الملائم . اما آنجيلا التي تعمل هنا هي الاخرى، فقد جمعت المواد الاساسية المطلوبة لتاليف ترجمة حياة ايزموند ، هذه الترجمة التي من المحتمل ان نتعاون في كتابتها .

وقد كانت المشكلة الرئيسية التي واجهتني في عملية الكتابة عن « بحثي » هي مقدار ما استطيع ان استخدمه من الصراحة في بعض المواقف او الاحداث . ولقد قبلت اقتراح هوارد فليشر بان اكتب كل شيء كما حدث ، ثم اترك له مهمة تقرير كمية التغييرات ونوع ما قد يكون ضروريا منها (*) . وعلي ايضا ان اعترف

(*) حينما كان هذا الكتاب في مرحلة تجارب الطبعة ، سمعت ان بقايا كولونيل دونللي قد عثر عليها في منزل مزرعته الذي احترق عن آخره ، ولم يكن ثمة اي شكوك في وقوع عمل اجرامي متعمد . وعلى ذلك فقد اعدت كتابة الفقرة الخاصة بالكولونيل دونللي ووضعتها بالشكل الذي كتبتها به هنا .

بأنني لم اسمح لديانا ــ حتى الان ــ بأن تقرأ المخطوطة ، وانها ــ لحسن الحظ ــ فتاة قادرة على الفهم ، ويمكنني ان القي اكثر اللوم على ايزموند .

وماذا عن ايزموند ؟ فمنذ عصر ذلك اليوم في شارع بروك ، لم احس بحضوره الا على فترات متباعدة . ولكنني لا استطيع ان اكون واثقا من ان هذا الحضور ليس من وحي خيالي . انني كثيرا ما اجد نفسي افكر في حادثة غريبة حدثت فى بيت نوري في تلك الليلة . كان بوريس يستعرض قدرات حاسته السادسة امام آنجيلا وآلستير . وكان نوري قد نومه تنويما مغناطيسيا ، وكانت اجاباته على اسئلة حول حياة كل منا الخاصة دقيقة الى حد مخيف . وقبل ان يوقظه نوري ، سألنا ان كان لدينا اية اسئلة نحب ان نطرحها على النائم . قالت آنجيلا :

« اجل . هل يمكن ان يخبرنا اين ايزموند في هذه اللحظة ؟ »

استدار وجه بوريس المغمض العينين الي ، وقال :

« انه هو ايزموند » .

حول « إلـه المتاهة »

في وقت ما من عام ١٩٦٨ ، نشرت جريدة « الديلي تلجراف » مقالة افتتاحية، تنعي فيها تزايد كمية المشاهد المكشوفة فيما ينشر من اعمال ادبية ، واشارت الى والي ميس بريجيد بروفي Brigid Brophy باعتبارنا كاتبين « جادين » يهدفان الى المزيد من المبيعات بان يزودا كتبهما ببهارات قوامها مشاهد ومواقف كان يمكن ان تؤدي الى ادانتنا في ازمة اقل تحررا . ولم اتحفظ بشيء على هذه المقالة ، لانه من الصحيح انني كتبت عن الجنس في عدد من كتبي بطريقة ما كانت تواجه بالقبول او يسمح بها منذ خمسين عاما . ولكنني لا افكر في نفسي باعتباري من كتاب الادب الداعر Pornography ولكن اذا رغب شخص اخر في ان ينظر الي بهذه الصفة ، فلا شك ان هذه مسالة تتعلق بوجهة نظر صاحبها . ولكن حدث بعد بضعة اسابيع قليلة ، ان اعيد نشر مقالة التلجراف اللندنية في جريدة في نيوزيلاندا ، فكتب قاريء نيوزيلاندي خطابا يدافع فيه عني بقوة . اشار هذا القاريء الى ان اكثر من نصف كتبي تدور حول موضوعات من مثل الفلسفة والفن والموسيقى والادب ، وانه من بين رواياتي السبع ؛ لا تحتوي اربع منها الا على القليل من الجنس، او لا تحتوي شيئا منه على الاطلاق . وقد اقتنعت حينما قرات هذا الخطاب ، انني لست من كتاب الادب الداعر . حقا ان ناشر كتب من نيو انجلاند (احدى الولايات الامريكية ــ المترجم) قد قدم الى المحاكمة بسبب عرضه كتاب « يومية جيرارد سورم الجنسية » في واجهة مكتبته ، ولكن هذه المحاكمة لم تؤد الى ادانته . وكان رأي القاضي انه رغم انني كنت محروما بشكل كامل من اي موهبة ادبية ، فان الكتاب لم يكن منحطا ولا مسيئا للاخلاق من الناحية الفنية .

وبعد بضعة اسابيع من ظهور مقالة التلجراف ؛ طلب مني احد مكاتب المحاماة ان اتقدم الى احدى المحاكم كشاهد اشهد في صالح ناشر كتب من برادفورد ، كان يحاكم بتهمة بيع كتاب « حياتي السرية » وهو ترجمة ذاتية كتبها احد كتاب العصر الفيكتوري المجهولين ، واجبت على هذا الطلب بانني مشغول لدرجة تمنعني من الذهاب الى يوركشاير ــ وهذه رحلة تستغرق يومين من كورنوول حيث اقيم ــ ولكنني رحبت بان يعتمدوا على قولي بان الكتاب لم يكن من نوع الادب الداعر ، وانه

من الممكن ان ينشر علنا في انجلترا . واشرت الى انني مستعد لان اكتب خطابا بهذا المعنى . وحينما بدات كتابة الخطاب ، اكتشفت صعوبة المهمة الملقاة على عاتق الدفاع . ان كتاب « حياتي السرية » ليست له اية قيمة ادبية . وحينما نشرته دار نشر « جروف بريس » في اميركا ، قال المسؤولون عنه انه وثيقة اجتماعية ثمينة عن العصر الفيكتوري ، ولكن هذا ايضا غير صحيح . ان عالم الاجتماع يستطيع ان يعرف من عشر صفحات من كتابات تشارلز بوت (١) او هنري مايهيو (٢)اكثر مما يمكن ان يعرفه من الثلاثة الاف صفحة التي يضمها كتاب«حياتي السرية». ان مؤلفه لم يكن سوى الصورة الذكرية لامراة مصابة بالغلمة الجنسية nymphomaniac ولم يكن الجنس عنده سوى نوع من التنفيس عن طاقة مكبوتة . لقد جربه كل نوع ممكن من انواع التجارب الجنسية لما يزيد على اربعين سنة او نحوها ، ثم قرر ان كل ما فعله كان شيئا ساحرا فاتنا وانه ينبغي ان يكتب عنه . فمن الذي يستطيع ان ينكر انه كان على حق ؟ من الصحيح انه لن يقبل على قراءته كل الناس ، ولكنني اقول انه ليس كل الناس يقبلون على قراءة التراجم الذاتية التي يكتبها جنود او سياسيون او رحالة ، وليست هذه حجة تؤخذ ضدهم .

بل ان المرء لا يستطيع ان يقول ان كتاب « حياتي السرية » قد كتب « دون نية بذيئة ودون قصد الاساءة الى الاخلاق » ، او ايا كانت العبارة التي استخدمت ضده. كان الرجل قد استمتع بالجنس ، ولقد استمتع بالكتابة عنه . وكان الرجل شخصا مضجرا قذر العقل ، طالما انه كتب كل تلك الصفحات عن الجنس مدافعا عن فراغ العقل بصورة كاملة . ورغم كل شيء فان الكتاب واقعي ، انه حياة رجل ، انه « حقيقة » ، تماما مثلما كانت « حقيقة » تلك المجلدات الهائلة التي قراها ويب وزوجته (٣) ودرساها من « الاوراق البيضاء » من اجل كتابة مؤلفهما في التاريخ . انني اوافق الان ــ رغم هذا ــ على ان هناك شيئا ما يقف ضد نشر انواع معينة من الحقائق غير السارة ــ على سبيل المثال ، تفاصيل هجوم جنسي قد تظهر في اثناء محاكمات جرائم القتل ، فان نشر تلك التفاصيل قد يؤدي الى ارتكاب جرائم

(١) تشارلز بوت ١٨٤٠ ــ ١٩١٦ مالك سفن ومصلح انجليزي ساهم في القاء الاضواء على الاوضاع الاجتماعية في عصره (وخاصة اوضاع الطبقات الفقيرة) وفي تطوير مناهج الاحصاء الاجتماعي . من اهم كتبه « حياة الناس في لندن واعمالهم » في ١٧ مجلدا وصدر في عام ١٩٠٣ ، ثم « قانون اصلاح حالة الفقراء » عام ١٩١٠ ، وقد زودها برسوم بيانية لاول مرة في مؤلفات الدراسات الاجتماعية الميدانية . (هـ.م)

(٢) هنري ماي هيو ــ صاحب مجلة « بونش » الساخرة الكاريكاتيرية في العصر الفيكتوري ، جمعت اشهر رسامي الكاريكاتير الاجتماعيين والسياسيين في انجلترا ذلك الوقت وقاومت طغيان الملكة واشتركت في الهجوم على مفاسد الرأسمالية من وجهة نظر اجتماعية وانسانية . (هـ.م.)

(٣) ويب المقصود هنا هو جيمس سدني ويب وزوجته بياتريس الاقتصاديان الانجليزيان اللذان كونا « الجمعية الفابية » ودرسا تاريخ الطبقة العاملة الانجليزية طوال خمسين عاما واصدرا تاريخا طويلا للحركة النقابية في انجلترا . (هـ. م)

مماثلة يقلدها فيها المجرمون. ولكن اي شخص يمكن ان يقلد ما قام به مؤلف « حياتي السرية » فانه لن ينزل باحد ضررا حقيقيا ولن يقترب من الحاق مثل هذا الضرر ، وبذلك فان اعتراضي لا ينطبق عليه ، انني لا استطيع ان افكر في اي اساس يصلح لان استند اليه من منع الكتاب ــ وبالتأكيد لا اجد ما يبرر الحكم على من باعوه بقضاء عامين في السجن ــ مثلما حدث لبائع الكتب في برادفورد .

ولكن حجة « الحقيقة » يصعب ان تطبق على اعمال دي صاد و « فاني هيل Fanny Hill » التي يمكنني ايضا ان ادافع عن نشرها وخاصة اذا ما كانت اسعارها مرتفعة ، حتى تعمل الاسعار المرتفعة عمل « المرشح » بالنسبة لصغار السن من القراء . انني لا احب دي صاد . وانا لا اظنه « هاما » او ذا دلالة خاصة ، بالطريقة التي تظهر بها اهمية ودلالة جان بولهان والانسة دي بوفوار (٤) . ان الروح الاساسية السائدة في كتبه هي روح تمرد يقوم به تلميذ ــ يشبه كتابة الكلمات القذرة على الجدران . ولكنني لا يمكن ان اقف في صف منع نشر كتبه . اما بالنسبة لكتاب « فاني هيل » فان كليلاند يعترف بانه كتبه لكي يحصل على المال ، وهذا الكتاب مثال نموذجي للكتب التي دعاها سانت بوف بانها « الكتب التي يقراها المرء بيد واحدة » . انه كتاب مسل ، كتب بشكل جيد ، وليس فيه شيء لا يعرفه بالفعل اي قارىء تجاوز سن الرشد . اننا لا بد ان نعرف بان منع اصدار اي كتاب ــ وان نعلن انه ليس صالحا لان يستهلكه الجمهور ــ هو الشبيه الادبي لعملية اعدام مجرم ، او احراق ساحرة ، او القاء معارض سياسي في السجن . وانه لمن الصعب ان ندافع عن مثل هذا الاجراء دون تحيز ــ وفي تباعد او انعزال موضوعي. انه لا يمكن الدفاع عن مثل هذا الاجراء الا على اساس من التعصب الفكري وضيق الافق ، مثل الاساس الذي قام عليه « فهرس الكنيسة الكاثوليكية » او احراق النازيين للكتب : اي على اساس تقدمة عقائد جامدة لا بد من القبول بها . يمكننا ان نهاجم عملية بيع العقاقير المخدرة دون رقابة ، او مزج عصير الفاكهة بالكحول لكي يشتريه صغار السن ، على اساس نفعي وعملي : فان هذه الاعمال يمكن ان تنتج تدمير الاجساد . ونحن نعرف كل شيء تقريبا عن امكانيات الجسد ، ولكننا لا نعرف شيئا عن امكانيات العقل . فهذا النوع من الحجج « النفعية » لا يستطيع ان ينتقل الى مجال الكتب .

انني اوافق على ان كل هذا يبدو في صورة التماس خاص ــ مثل التماس يقدمه محام ماكر يعرف ان قضيته لا يمكن الدفاع عنها ، فيقرر ان يحاول خلط الصفوف المستقلة ومزج القيم التي لا تمتزج . يجتاحني هذا الاحساس وانا اقرا عددا كبيرا من آراء معارضي الرقابة . ولكنني حينما انظر داخل نفسي ، اجدني

---

(٤) سيمون دي بوفوار ، زميلة سارتر ورفيقته ، مؤلفة العديد من كتب الفلسفة والادب والابداع والنقد . مثل سارتر بدات مدرسة للفلسفة متاثرة بوضعية هيوم وبوجودية هيدجر وياسبرز ، ولكنها سبقت سارتر الى التاثر بالماركسية ،والاشارة الواردة هنا هي الى كتابها (« الجنس الاخر ».) هـ. م).

مالكا لنوع بالغ الوضوح والتحدد من الحدس الذي يدلني على ما يكون الادب الداعر وعلى ما لا يدخل في تكوينه . فاسمحوا لي بأن احاول توضيح طبيعة هذا الحدس .

وقد يمكنني ان اتخذ نقطة انطلاقي من فقرة جاءت في ترجمتي « الذاتية » : « رحلة نحو البداية » :

ان بطل رواية « طقوس في الظلام » يسيطر عليه الاحساس بأن « ثمة » معنى في الوجود الانساني ، وان هذا المعنى يمكن ان يصل اليه العقل ــ فقط اذا عرف العقل الطريق المؤدي الى العثور عليه . وان واحدة من اكثر « تجارب المعنى » شيوعا تأتي عن طريق الجنس ، ولهذا فان الجنس يقدم « نقطة بداية » ثمينة في سبيل البحث عن المعنى . (وانني اضع خطا تحت عبارة « نقطة بداية » لانه يبدو لي انه لا شيء يمكن ان يكون اكثر عقما من الجنس اذا مارسه الانسان كنوع من التنفيس عن الطاقة ــ مثلما فعل كازانوفا او فرانك هاريس) .

* * *

« يمكن » ان يكون الجنس نقطة بداية « للبحث عن المعنى » ، انكار ما اكده سارتر من انه : « لا معنى لان نحيا ولا معنى لان نموت » . ومن الواضح ان هذه الحجة تنطبق على د.هـ. لورانس (٥) كما تنطبق على كتبي التي كانت التلجراف تعنيها في مقالها . ان الدفاع عن دي صاد ايضا امر ممكن لانه هو الاخر رأى ان الجنس يحتوي بشكل ما على معنى الوجود الانساني . من الحق ان ثمة اخطاء جوهرية في تفكيره ــ الفشل في التفكير في « قانون ردود الافعال المتلاشية » ، هذا الفشل الذي يفسد عمله ويخيب مسعاه في التحليل الاخير ، وهذا اثر عجيب من آثار الاخطاء الشهيرة ، مثل نظرية الكون التي تقول بان الارض هي مركزه ، او نظرية عنصر الفلوجيستون الذي قيل يوما انه اساس الخليقة ، ويبقى هذا الخطأ في صورة رمز نافع للخطل الذي يمكن ان يكتسب شيئا من الاهمية . والجنس يقدم

---

(٥) ديفيد هربرت لورانس ١٨٨٥ ــ ١٩٣٠ شاعر وقصاص وروائي انجليزي ، اشتهر بانشغاله الادبي طوال عمره بمشاكل الجنس والاخلاق وتأثيرها في العلاقات الانسانية والبناء الاجتماعي. جذبته موضوعات الاديان البدائية وفلسفات التصوف والوله بالطبيعة والبطولة ، وعرف برفضه للقرن العشرين وللمجتمع الصناعي وبهجماته على النزعة التطهرية والتقاليد الاجتماعية في المجتمع الانجليزي وبحثه المستمر عن طريقة في الحياة يستطيع من خلالها ان يطبق نظرياته عن الجنس والاخلاق والتكوين الاجتماعي . تميزت كتاباته الكثيرة بتنوع مستواها الفني ، وفي احسن حالاتها تبرز صفات عبقرية لورانس الادبية في عمق الاحساس والتلوين ، وغنائية صوفية حالمة ووصف فذ للطبيعة ومهارة في المعالجة الساخرة لشخصيتها او رسمها بشكل مليء بالعطف القريب من الحنان . افضل اعماله هي « ابناء عشاق » ولكن اشهرها هي « عشيقة اللادي تشاترلي » التي ظلت ممنوعة في انجلترا لفترة طويلة . (هـ.م.)

ايضا نقطة بداية ممتازة لفلسفة وجودية . يقول « كيريلوف » (٦) احد ابطال دستويفسكي انه اذا لم يكن هناك اله ، اذن فان الانسان اله ، وعليه ان يثبت هذا ، ثم ينطلق بهذا المنطق حتى يصل الى الانتحار . اما دي صاد فانه ينطلق به حتى يصل الى الدفاع المطلق عن اللاخلاقية . وفي كلتا الحالتين يستطيع المرء ان يبدأ في مناقشة مثمرة .

انني احس بأدب الدعارة الحقيقي حينما اقرأ كتبا معينة لن يفكر احد مطلقا في منعها ــ كتب من نوع : « لا زهور اوركيد من اجل ميس بلانديش » او « صانعو الابسطة » او حتى بعض روايات جيمس بوند . يتهم فورستر جيمس جويس بمحاولة تغطية الكون كله بالوحل . ولكنه كان مخطئا . ان ما يبدو في رواية « يوليسيز » من عنف وقذارة وضع عمدا وقد قصد به ان يؤثر تأثيرا عكسيا ، مثل دواء قابض ، ويعترف جويس نفسه بقرابته للكاتب سويفت. اما جيمس هادلي تشيز وهارولد روبينز فقد مارسا الكتابة لكي يمتعا القراء فقط ولكي يربحا النقود عن طريق الامتاع . ان الجنس والعنف ــ والعنف بشكل خاص ــ يقصد منهما ان يجعلا الوجبة اكثر لذة وشهية . انهما مثل حراس بيوت الدعارة وملاكها الذين يبدون استعدادهم لخدمة اي شخص مستعد للدفع . فاذا جر المرء حججهم الى ضوء المناقشة ، يجدها نسخا اخرى من حجج دي صاد ، مثل فولتير او اي وضعي منطقي حديث اخر ، الذي كان يهاجم الافكار « الميتافيزيقية » عن الطيبة والخير . انه يقول قولة مؤثرة : « يقول الناس ان الفضيلة ، وانكار الذات ، والتضحية بالنفس ، والروح العامة والشرف والشجاعة ، كلها خير . اما انا فأقول ان هذا ليس سوى تفكير مختلط مشوه . فاللذة وحدها هي الخير بالنسبة لاي واقعي معتدل التفكير » . ان ما يوشك حينئذ ان يفعله هو ان يرفض نفسه بمحاولة توضيح فكرته في اقصى امتداد لها . والشيء الوحيد الذي يدهشنا هو انه لم يصب هو نفسه بالضجر الى حد المرض قبل وقت طويل من اكمال روايته « جولييت » . على انه من الواضح انه كان يدرك القيم التي كان يحاول ان يفرسها وان يبعث فيها الحياة .

لا احد الان ينتقد كونان دويل (٧) او رايدر هاجار (٨) لانهما لا يتمتعان بالتعمق

---

(٦) اليكس فيليش كيريلوف ، بطل رواية « المجانين » لدستويفسكي . وهو عضو في جماعة من الثوريين نصف مجنون ، تسيطر عليه فكرة تحقيق حرية ارادته عن طريق الانتحار ، او ان « يصبح الها » بنفس الطريق . وقبل ان يقتل نفسه في النهاية ، يقنعه احد زملائه في الجماعة ــ في مشهد عنيف ــ بان يكتب اعترافا زائفا يقر فيه بانه قاتل احد الخونة من اعضاء الجماعة ، اي انه يسلم ارادته ــ ومعنى انتحاره ــ للاخرين وللمجتمع ، في نفس اللحظة التي يظن نفسه فيها قد تحرر نهائيا من كل التزام او قيد . (هـ. م.)

(٧) سير آرثر كونان دويل ١٨٥٩ ــ ١٩٣٠ روائي انجليزي اشتهر بسلسلة رواياته التي كان «شرلوكهولمز» هوبطلها.ولكنه انشغل بالمسائلالروحية وكتب تاريخا لها ،كما كتب عددا من الروايات التاريخية اشهرها « البريجادير جيرار » و « البروفيسور تشالنجر » . (هـ.م.)

(٨) سير هنري رايدرهاجارد ١٨٦٥ ــ ١٩٢٥ . كاتب روائي انجليزي بدأ حياته في البحرية =

الذهني الذي تمتع به توماس مان او الدوس هكسلي . فلقد خرجا الى الناس باعتبارهما « مسليين » او مسامرين و « القيم » التي دافعا عنها ، الشرف والشجاعة وما الى ذلك ، هي من القيم التي لا يمكن الاختلاف حولها بأي حال . ومنذ زمن ظهورهما ، اصبح الكاتب المسلي او « المسامر » اكثر واقعية ، واكثر تعقيدا من الناحية الثقافية . ولكنه لسوء الحظ لم يصبح اكثر تعمقا في التحليل الذهني ــ انه يرفض القيم الاقدم عهدا ــ ولكنه لا يفعل ذلك باسم عقل باحث لا يكل عن طرح الاسئلة ، وانما فقط باسم تسلية : « اعطاء الناس ما يريدون » . ولكن رفض القيم ــ اذا كان لهذا الرفض ان يكون نشاطا مفيدا ــ يجب ان يكون واعيا تمام الوعي بطبيعته الخاصة . اننا حينما نلتقي باناس يؤمنون بآراء لا يريدون التفكير فيها ، فاننا ندعوهم بحق اغبياء او متعصبين . والاعتراض على مثل هذا النوع من الغباء او التعصب ، هو انه بشكل ما نوع من « انكار الحياة » . انني املك جهازا هضميا ومخارج للتعامل مع الطعام الذي احتاجه لكي يبقي على حياتي . واملك ايضا جهازا هضميا عقليا ومخارج للتعامل مع تجاربي . ونموي باعتباري كائنا انسانيا انما يعتمد على هذا الجهاز مثلما يعتمد نموي الجسدي على الجهاز البدني . فاذا ما انغلق او انسد اي من الجهازين ، فانني سأكون عرضة للتسمم البطيء . ان كتابا من نوع ايان فليمنج (٩) او هارولد روبينز لا يملكون اجهزة هضمية ومخارج للتعامل مع القيم التي يرفضونها . والنتيجة هي ان تفوح رائحة التعفن والتحلل ، رائحة جهاز تسده فضلاته التي ينتجها بنفسه . فاذا ما قرا شخص ما اعمالهما لمدة طويلة ، كانت النتيجة هي الاحساس بالصداع ، بتسرب الدم من الدماغ ، بالعقم ، هذه هي نتيجة الامساك القاسي .

وهذا القانون ينطبق بالطبع على عدد كبير جدا من الاعمال الادبية . يشعر المرء بنفس الاحساس بالعقم اذا قرا طويلا رواية رومان رولان « جان كريستوف » او رواية بوديس « الذئب المنفرد » او حتى « الحرب والسلام » . هذه الكتب تمتلك جهازا هضميا ، ولكنه ليس كبيرا الى الدرجة الكافية للتعامل مع مثل تلك التجربة الكبيرة . ومن الجدير بالملاحظة ان الجهاز الهضمي ليس ــ ببساطة ــ هو القدرة على التفكير المجرد . ان امثال هكسلي او مان اذكياء وعلى عمق ذهني كاف ، ومع هذا فان كتبهما تتصف بجمود غريب . ان الشيء الهام هو قدرة الكاتب على « مهاجمة » تجربته ، وليس مجرد ان « يعانيها » ، وانما ان يتجاوزها . لا يمكن ان يبعث دستويفسكي على الضجر ، على الرغم من اسلوبه الوعر الثقيل واطالته

= البريطانية واشترك في كشف منطقة الترانسفال الافريقية ، واشتهر بروايات المغامرات الافريقية . اشهر اعماله هي « كنوز الملك سليمان » عام ١٨٨٥ ثم « هي » ١٨٨٧ ، وكتب عددا من الروايات التاريخية العاطفية مستمدة من التاريخ الفرعوني . (هـ.م.)

(٩) ايان فليمنج ــ اشهر كتاب القصة البوليسية الجاسوسية المعاصرين ، بدا حياته في اوروبا ثم في الشرق الاقصى حتى تركها بعد الحرب العالمية الثانية . خلق في اعماله شخصية « جيمس بوند » . (هـ.م.)

المسهبة ، بسبب ما نشعر بما لديه من هذه النيران الملتهبة التي تحاول ان « تأكل » مادته ، مثل اتون يصهر خام الذهب . .

هذا هو ما يحدد ما قلت عنه انه حدسي لطبيعة الادب الداعر . انه مرتبط بمسألة الجهاز الهضمي ، اننا لا نطعم طيور البط بالارز ، ولا نرضع الاطفال الصغار بالحلوى الثقيلة ، لاننا نعرف ان اجهزتهم الهضمية لن تصمد لمثل هذه الاطعمة ، فاذا فعلت هذا وانا اعرف ما ستكون عليه النتيجة ، فانني اكون مدانا بتهمة الاهمال الاجرامي . وهذا هو ما ينطبق على كاتب ينتج خليطا لزجا رديء الطهو من الجنس والعنف ، هادفا بذلك الى الوصول الى « اكثر الفئات الهابطة شيوعا » من القراء .

وهذا هو ايضا ما يفسر السبب الذي يجعلني لا اعتبر كتبا من نوع « حياتي السرية » و « فاني هيل » او اعمال دي صاد من الادب الداعر الحقيقي . والمحك الحقيقي هو التساؤل عما اذا كانت تحتوي على هذا العنصر السام ، عنصر انكار الحياة . ان كتاب « حياتي السرية » بالغ الكآبة مليء بالتكرار بعد عدد قليل من مئات الصفحات الاولى ، ولكنه ليس اكثر تسميما من كتاب « هانسارد » (١٠) او « سجل المؤتمر » . فالقاص ، او الروائي في هذا الكتاب خشن وغبي ، ولكنه ليس قاسيا ولا وضيعا . وقد يعترض المرء على قيمه الاساسية : على شعوره بأن الجنس هو اكثر التجارب الانسانية اهمية . ولكن يستطيع المرء ان يؤمن بهذه القيمة او ان يرفضها . وليس هناك شيء يمنع القاريء من ان يضع احدى رباعيات بيتهوفن على الحاكي بعد ان يقرأ اثنتي عشرة صفحة او نحوها ، وينطبق نفس الشيء على رواية « فاني هيل » . اما بالنسبة لدي صاد ، فان قراءته تثير رد الفعل الذي يمكن بالفعل ان يوسع من آفاق رباعية لبيتهوفن . اما المشكلة التي نواجهها مع هادلي تشيز او هارولد روبينز ، فهي انه بعد قراءة عدد قليل من الصفحات ، فان المرء لا يعود قادرا على الاستمتاع بسماع بيتهوفن . فاذا حاول المرء سماعه مع ذلك ، فان بيتهوفن سوف يبدو شيئا غير متناسب مع هذا العالم الفارغ الشرير الخطير العنيف الذي نعيش فيه ، سوف يبدو في صورة « ملاك جميل لا فاعلية له » ، يعيش في عالم احلامه الموسيقي السخيف .

باختصار ، يتضمن الادب الداعر احساسا بالتحقير من شأن القيم ومهانتها . واذا كان الفن معركة بين عقل الانسان والعالم المادي ، اذن فان كاتب ادب الدعارة يقف الى جانب العالم ضد عقل الانسان . ومن المهم ان نلاحظ ان كلا من فليمنج وهارولد روبينز وهادلي تشيز يستغلون الجريمة مثلما يستغلون الجنس ، وكثيرا ما يبدو عليهم انهم يساوون بين الاثنين باعتبارهما نوعا من النشاط الهدام المدمر .

---

(١٠) المقصود هنا هي المجلة الاسبوعية « هانسارد » التي يصدرها البرلمان الانجليزي والتي تضم النص الحرفي لمناقشات مجلس العموم واللوردات وتباع للجمهور الا اذا اراد البرلمان حذف بعض النصوص . وقد اخذت المجلة اسمها من الناشر الاول توماس كيرسون هانسارد الذي عين طابعا اول لبريطانيا عام ١٨٠٣ ، وتعد هذه المجلة من اهم ملامح الديموقراطية الليبرالية والانجليزية ، وقد وصلت مجلداتها عام ١٩٦٠ الى ٢٠٠ مجلد لمناقشات اللوردات و ٦٠ مجلد لمناقشات العموم . (م.هـ)

وقد اشار برناردشو الى اننا نحكم على الفنان من خلال اعلى ذروة يبلغها ، ونحكم على المجرم بادنى قاع يهبط اليه . وهذا يعني ان الفن قد ينظر اليه باعتباره دفاعا عن اعلى ذروة يمكن ان يبلغها الانسان ضد ادنى قاع يمكن ان يتدنى اليه . والكاتب الذي يستغل الجريمة والجنس ، لا لشيء الا لان يثير القاريء ويستفز مشاعره انما قد اصبح مدافعا عن ادنى تلك القيعان المظلمة . اما اذا مضى الى معالجة الجنس بالطريقة التي تجعله في سلة واحدة مع الجريمة باعتباره لحظة من اكثر لحظات الانسان انحطاطا ، فان اتهامه يصبح اتهاما مركبا .

* * *

ولكن ، فلننطلق الان الى المرحلة التالية من المناقشة . سوف نلاحظ هنا ان كلا من توماس مان وآلدوس هكسلي قد انشغلا ايضا بالمعركة بين العالم المادي وبين العقل ، وان كلا منهما قد اتجه الى ان يكون انهزاميا ، مؤمنا بانهزام العقل في تلك المعركة . وانا شخصيا كثيرا ما اشعر بأن هكسلي كاتب مقبض مثل جراهام جرين (١١) لان العالم المادي عنده يبدو دائما قادرا على ان يكسب السباق بمقدار طول راس واحد . انه يتحدث عن تأكيد الحياة ، ولكن شيئا من هذه الحياة المؤكدة ــ بشكل ما ــ لا يستطيع ان يصمد حتى النهاية في كتبه ، ان اناسه « المؤكدين » او الايجابيين يبدون دائما غير مبهجين واغبياء ، واصحاب الحساسية من شخصياته دائما ضعفاء . ونفس الشيء يصدق ايضا على توماس مان ، ولكن « موضوعيته » تجعل تلك السمات اقل في تأثيرها المقبض .

اذن ، فان انكار الحياة ، بينما يكون عنصرا اساسيا من عناصر الادب الداعر ، فانه ليس مقصورا على هذا الادب . وهذا يثير التساؤل عن المدى الذي يصل اليه صدق العكس . هل يكون الادب الداعر ممكنا اذا لم يكن انكارا الحياة قائما ؟

وهذا السؤال اكثر اهمية من مجرد مظهره . فان هذا التساؤل عن الاخلاقية واللااخلاقية ، عن الصحة والانحلال قد ظل يشغلنا لمدة تقرب من قرن كامل ، منذ ان بدات مناقشات ابسن (١٢) وزولا (١٣) في ثمانينات القرن الماضي . وقد كانت

---

(١١) جراهام جرين (١٩٠٤ ــ) احد كتاب الرواية الانجليز الكبار في هذا القرن ، عرف بمعالجته للشخصيات ذات التكوين النفسي الشاذ والميالة الى الشر او الى التمرد الاجتماعي ، ويعتبر احد اساتذة « ادب التوتر » . اهم اعماله كانت « القوة والمجد » . (هـ. م)

(١٢) هنريك جون ابسن ١٨٢٨ ــ ١٩٠٦ ــ الشاعر المسرحي والكاتب النرويجي العظيم ، خالق تيار الدراما الواقعية الاجتماعية الحديثة واحد اعظم الكتاب المسرحيين في كل العصور . كان له تاثير فني وفكري كبير ، فتبعه كتاب كثيرون في اشكاله الفنية ومضامينه ، خاصة منذ كتب جورج برنارد شو كتابه عن « الابسنية » حيث كشف عما تحتويه اعماله من قيم فنية واجتماعية عظيمة . ومن ناحية اخرى اعتبره اصحاب الاتجاهات السيكولوجية الصوفية في الفن من اعظم روادهم باعماله الشعرية الرمزية الكبرى وخاصة مسرحيتي « بيرجنت » و « براند » حيث تجلت حساسيته النفاذة في دراسة النماذج البشرية ومطامح الانسان في التمرد الروحي الشامل . (هـ.م.)

(١٣) اميل ادوارد تشارلز انتوان زولا (١٨٤٠ ــ ١٩٠٢) ــ الروائي الفرنسي الكبير ــ وان كان=

حجج كل من الجانبين هي نفس الحجج تقريبا على الدوام . فقد كتب توماس جيفرسون (١٤) منذ عام ١٧٨٢ ـ يقول : « هؤلاء الذين يعماون في الارض هم شعب الله المختار . . . ان فساد الاخلاق بين جماهير المربين والمهذبين لهو ظاهرة لم يخل من بعض نماذجها عصر ولا امة من الامم » . ان تلك المجتمعات البسيطة البدائية شبيهة بالجسد القوي الصحة . وان رفض « الفساد » هو وظيفة آلية من وظائف الصحة . وحينما يبدأ الشيء « المريب » ، غير الصحي ، الفاسد ، في العثور على موطيء قدم ، فان هذا يعني ـ بحكم الامر الواقع ـ ان الانحلال قد بدأ . ان جسدي العضوي اذا ما بدأ يصبح اكثر سرعة في التأثر بالجراثيم ، فانني جدير باتخاذ الخطوات اللازمة لمعالجته ، لكي يستطيع ان يلفظ الجراثيم ، ومن المؤكد انني لن اقبل تلك الجراثيم على اعتبار انها تقدم فرصة لاحداث تغيير ممتع بديل لحالة الصحة الثابتة الدائمة المضجرة . وهذا هو الخط الذي يتبعه ماكس نوردو (١٥)

= من اب ايطالي ـ واشتهر بريادته للمدرسة الطبيعية في الادب الفرنسي (وخاصة في الرواية) في القرن الماضي . تميزت اعماله بدقة غير عادية في رسمها للخلفية الاجتماعية ، واللهجات والخصائص النفسية وبخضوع الشخصيات الفنية لنوع من الحتمية القائمة على الوراثة وتاثير البيئة . مال زولا الى النزعة الانسانية وتعاطف مع المضطهدين السياسيين (حادثة دريفوس المشهورة) ومع العمال ونشر مجموعة قصص عن الحرب الفرنسية البروسية عام ١٨٧٠ صدرت بعد الحرب بعشرة اعوام . كان غزير الانتاج الى درجة غير عادية . اشتهر بروايته « تيريز راكان » عام ١٨٦٧ ، ثم بسلاسل رواياته الكبيرة : سلسلة « روجون ـ ماكارت » ١٨٧١ ـ ١٨٩٣ ثم سلسلة « المدن الثلاث » ١٨٩٤ ـ ١٨٩٧ ، ثم سلسلة « الاناجيل الاربعة » (١٨٩٧) (التي لم تتم لموت زولا). انفق معظم حياته في عزلة كاملة على النقيض من بلزاك وفلوبير ودوديه والاخوان جونكور ، لانه كان يحتاج الى وقت وجهد عظيمين لجمع المادة الواقعية اللازمة لاعماله ولشخصياته كما لو كان يكتب تاريخا حقيقيا لاشخاص حقيقيين . وقد اتهم زولا باللااخلاقية في اعماله وبالافتقار الى الذوق ، ولكن قلما نجد اديبا كان له تاثير في عصره مثل تاثير زولا المباشر . وقد كتب ايضا عددا من الاعمال النقدية ، مثل « الروائي الطبيعي » عام ١٨٨١ ، وقد اعتبر كتابه عن الحرب السبعينية بيانا للمدرسة الطبيعية في الادب . (هـ.م.)

(١٤) توماس جيفرسون (١٧٤٣ ـ ١٨٢٦) الرئيس الثالث للولايات المتحدة الاميريكية، والمؤلف الرئيسي لاعلان استقلالها وبيان حقوق الانسان الصاحب له ، فاصبح بذلك ـ وبكتاباته واعماله الاخرى ـ من اعلام الفلسفة السياسية الليبرالية واهم المعبرين عن البورجوازية الغربية في عصر تحررها النسبي . قامت فلسفته على اسس مستمدة من فكر الموسوعيين الفرنسيين وفكرة الحقوق الطبيعية للانسان ، وضرورة حماية هذا الحق عن طريق القوانين الوضعية الاجتماعية) . رفض الوضع الاقطاعي والاحتكاري للملكية (واعتبر الملكية نفسها حقا ثانويا) ونظر الى الثورة على الدولة التي تمنع او تشوه القانون الطبيعي باعتبارها حقا واجبا على المضطهدين . ادان نظام العبودية الامريكي وقال ان الولايات المتحدة لا بد ان تدفع ثمنا غاليا لجريمتها « الاولى ضد الانسانية » . (هـ.م.)

(١٥) ماكس سيمون نوردو (اسمه الاصلي صادفيلا) (١٨٤٩ ـ ١٩٢٣) كاتب يهودي من اصل مجري ، عاش في باريس وكان طبيبا . من غلاة المفكرين الصهاينة (بدل اسمه الى نوردو في عام =

في كتابة « « الاضمحلال » عام ١٨٩٣ . فلا بد ان نعرف الانحلال بصفاته الحقيقية، فلا نتسامح معه او نشجعه . ان كتاب شو الهجومي المضاد « صحه الفن » كان يحمل عنوانا فرعيا يقول : « كشف وفضح للهراء الشائع عن كون الفنانين من عناصر الاضمحلال » . ومن الممكن ان نلخص الحجة التي ساقها في الكلمات التالية : « ليس اضمحلالا ، وانما هو تطور » . اما توماس مان ، الذي كان يكتب اولى اقاصيصه في تلك الفترة ، فقد اتخذ موقفا اقل ايجابية (وهو الموقف الذي تمسك به طيلة حياته) يقضي بأنه : بينما يصبح الفن اكثر حساسية ورقة ، فانه « يتطور » و « يضمحل » ، فالتطور هنا يعني الاضمحلال ، اذا ما مضى الى وراء نقطة معينة . وقد قال شبنغلر نفس الشيء في كتابه « اضمحلال الغرب » .

ولا يتفق شو مع هذا الراي بصورة اساسية . لقد كان جديرا بان يقول : « بالطبع ، ان التطور « يمكن » ان يعني الاضمحلال ، اذا ما زادت الحساسية على الحيوية . ولكن هذا لا يتبع ذلك بالضرورة » . ومن الواضح ان هذا شكل آخر للسؤال الذي اثرناه نحن بالفعل ، لقد كان مان وهكسلي كاتبين زادت عندهما الحساسية على الحيوية ، فانها يجب — في النظرية — ان تكون قادرة على ان تزيد الحيوية الى الدرجة المناسبة لها . ولكن لم يؤمن احدهما بامكان ذلك . ولكن هل هذا صحيح ؟ ولنفترض ان لدي رأيا فجا وبالغ البساطة عن شيء ما . ان النتيجة هي ان يصطدم راسي بالحقيقة صدمة تجعلني اكثر حكمة — اي اكثر حساسية — ولكنها صدمة ستجعلني — في لحظة وقوعها — اقل ثقة واقل قدرة على اليقين والتأكيد . فهل ينبغي ان اظل على هذه الحالة طوال ما بقي من حياتي ؟ من الواضح ان لا . انني ابذل مجهودا عقليا ، انني « اتمثل » التجربة او اهضمها ، واتأملها حتى امتص كل معانيها ودلالاتها : اي حتى يمكنني السيطرة عليها . حينئذ تعود الثقة وتفيض ينابيع الحيوية مرة اخرى . وهذا يعني القول بأن الامر يعتمد على نفس عملية « الهضم » التي ناقشتها بالفعل اثناء الحديث عن الادب الداعر .

وهذه النظرة تقدم بديلا للموقف الجيفرسوني : ان البساطة والصحة والشباب تمضي كلها معا وتصاحب احداها الاخريين . انك اذا قلبت ميزان الثبات ، فسوف تقلب ميزان البساطة والصحة ، ولكنك عن طريق مجهود معين وقدر معين من التفاؤل ، فان هذه الموازين يمكن ان تستعاد في مستوى اكثر سموا ، وسوف تكون النتيجة تطورا حقيقيا واصيلا ، ان البدائل ليست محافظة اشبه بانفراس الاقدام في الوحل او اضمحلال سريع لا مناص منه .

* * *

قد تبدو النتيجة مجردة او مطلقة ، ولكنها بالنسبة لي كانت ذات اهمية

= ١٨٧٣) . اشتهر بكتابيه :« الاكاذيب التقليدية لحضارتنا » عام ١٨٨٣ ثم « الاضمحلال » عام ١٨٩٥، اللذين هاجم فيهما اوضاع المجتمع في اوروبا الغربية . التقى بالمفكر الصهيوني الاول هيرتزل وآمن بدعوته الى اقامة دولة يهودية . وكان نائب رئيس للمؤتمرات الصهيونية الستة الاولى حتى اختلف مع زعماء الحركة حول نقاط تفصيلية واستقال منها عام ١٩٢١ . (هـ.م.)

عملية مباشرة . فانني حينما بدات كتابة روايتي الاولى ، في اواخر سنوات العقد الثاني من عمري ، كانت تسيطر على نفسي المشكلة التي دفعت جويس الى اختيار ملحمة الادوية يستمد منها بناء لروايته المتداخلة الاطراف والتي تسودها الفوضى والتي تتحدث عن دبلين الحديثة . وقد عبر ييتس (١٦) عن هذه المشكلة في الابيات الثلاثة التالية :

سمكة شيكسبيرية تسبح في البحر ، بعيدا عن اليابسة ،
سمكة رومانتيكية تسبح في الشباك لتقترب من يد الصياد ،
ولكن ، ما كل تلك الاسماك الراقدة تشهق على رمال الشاطىء ؟

ومعنى هذا هو ان الفن الشيكسبيري قد رفع مرآة في مواجهة الطبيعة : او ربما كان على المرء ان يقول انه رفع في مواجهتها عدسة مكبرة ، وكانت وحدتها الاساسية هي الحدث او القصة . الشخصية مهمة ، ولكنها مهمة فقط « في اطار » القصة ، فان الامر ـ على اي حال لن يهم حقا ـ سواء اذا كان هاملت هو الذي استبدت به الفيرة فقتل زوجته ، ام انلير هو الذي اصبح امير كودر (١٧) . اما شخصية فيرتر عند جوته ، او « اوبرمان » عند سينانكور ، او هيبرتون عند هولدرلين (١٨) فان احدا لا يستطيع ان يحل محل اي منها ، لان كل واحد منهم « هو » القصة . ان العدسة المكبرة تقترب اكثر ، حتى لا يعود الحدث هو الوحدة الاساسية ، وتصبح الوحدة الاساسية هي الشخصية .

---

(١٦) ويليام بطلر ييتس (١٨٦٥ ـ ١٩٣٩) الشاعر والكاتب الدرامي العظيم ، ورائد حركة الاحياء الايرلندية . تاثر بكل من ويليام بليك وشيللي وبنزعة الايمان الهندي بالقوى الخفية وبالرمزية الفرنسية . تدور اكثر قصائده ومسرحياته حول موضوع النزعة الصوفية معتمدة على تراث الاساطير الكالتية . اسس ييتس حركة الادب والمسرح الايرلنديين (اواخر القرن الماضي) بعد انفصاله عن جماعة « الانحلال » الانجليزية بزعامة اوسكار وايلد وصار على راس جماعة الشعراء المسرحيين من وطنه : لادي جريجوري وجورج موروجون ميلينجتون سينج حينما اسسوا الجمعية الادبية الايرلندية ومسرح الادب الايرلندي في دبلين (الذي اصبح مسرح الابيه المشهور هناك) . فاز بجائزة نوبل عام ١٩٢٣ ، ولكنه كان ضد النزعة الواقعية في الادب الايرلندي (وعلى راسها شون اوكيزي) رغم قوتها . (هـ.م.)

(١٧) امير كودر هو اللقب الذي منحه الملك دانكمان القائد ماكبث في مسرحية شيكسبير ، وكان حصوله على اللقب هو اول ما تحقق من نبوءة الساحرات لماكبث ، الامر الذي دفعه ـ مع عوامل اخرى ـ الى استعجال تحقيق النبوءتين الباقيتين واثار الطمع في نفسه . (هـ.م.)

(١٨) جوان كريستيان فريدريش هولدرلين (١٧٧٠ ـ ١٨٤٣) احد كبار الشعراء الالمان . كان صديق شيللر وتلميذه حتى تخلص من تاثيره وخلق لنفسه موسيقاه وابنيته الشعرية والفكرية . ولكن تم اكتشافه كشاعر عظيم في القرن العشرين على ايدي الناقدين هيللينجراث وبيسنر . مزج بين ثقافته الاغريقية وتصوره الوثني عن الطبيعة في البداية ، ثم تحول الى التصورات المسيحية وعبادة المسيح لكي يصبح واحدا من اهم المعبرين عن روح الثقافة الغربية المسيحية وتجسيد الفكر التاملي في الشعر . (هـ. م.)

ان قصة ما ، سوف تحكي نفسها لك اذا انت سمحت لها بذلك . اما الشخصية فلا بد ان يعيشها المؤلف . لقد كان على جوته ان « يصبح هو » فيرتر او ويلهلم مايستر بطريقة لم يعرفها شيكسبير في مطابقة نفسه مع هاملت او الملك لير . ومع هذا ، اذا ولج المؤلف الروائي « داخل » الشخصية ، فان الاحداث سوف تتطور حينئذ بشكل طبيعي ، فيصبح ويلهلم مديرا لفرقة مسرحية ، ويصبح فاوست محسنا عاما ومشرفا على مؤسسات خيرية .

هذا ، مع ضرورة ان تكون الشخصية واضحة الملامح محددة القسمات. ولكن جوهر النزعة الرومانتيكية كان هو انقسامها الذاتي ، احساسها بالافتقار الى هوية محددة وواضحة . وببطء ، يخلي فيرتر السبيل لكي ياتي ستيفن ديدالوس ، ولكي ياتي « مالتي لوريدس بريجي » عند ريلكه ، ولكي ياتي روكانتان عند سارتر وميرسو عند كامي ، ثم ياتي اخيرا البطل الاستاتيكي الكامل ـ «ك» عند كافكا ، فالسمكة لم تعد تملك قوة تعينها على السباحة ، ولا حتى على التقلب على جانبيها ، فهي لا تفعل عند بيكيت اكثر من ان تشهق وهي تضرب بذيلها . هناك كسب تحقق في التفاصيل ـ فالعدسة المكبرة الان اصبحت على بعد بوصة واحدة من انف السمكة ـ ولكن لم تعد القصة ممكنة القيام . وبدون « القصة » ، كيف يمكن ان تكون هناك رواية ؟.

لم يكن الحل الذي تقدم به جويس قابلا للتطبيق بشكل عام ، وفي الحقيقة ، وبقدر ما اعلم ، كان هو الشخص الوحيد الذي حاول استخدام «المنهج الميثولوجي». لقد كفت الرواية عن محاولة حل المشكلة ، وقد ارتدت الى مرحلة احدث عهدا ، وتصالحت مع ما حدث لها من خسارة في وضعها ومكانتها .

وقد عبرت الدراما بازمة مشابهة في القرن العشرين ، فقد انجرفت هي الاخرى نحو النزعات الذاتية والرمزية والتعبيرية ، بل والى نوع من الكابوس المتعمد في مسرح القسوة عند آرتو (١٩) . ولقد كان بريخت (٢٠) هو الذي حاول ان يقيم اتصالا جديدا مع البدايات ، مع منبع المجرى ومصدره . لقد بدأت الدراما بوصفها

---

(١٩) انتونين آرتو ـ احد الرواد الفنيين والفكريين لحركة العبث في الفنون الاوروبية المعاصرة . في بداية حياته القصيرة اقترن بالحركات الدادائية والسيريالية . تاثر برامبو وفرويد ولورانس ونيتشه ، وتاثر بالديانات الهندية وآمن بفكرة ان الحياة الانسانية (وان ظاهرة الحياة عموما) اثر من اثار السحر . في كتابه « المسرح وشبيهه » عام ١٩٣٨ فكر في « مسرح القسوة » قبل ان يكتب جان جينيه اعماله بثلاثين عاما ، واعتقد ان المسرح هو وسيلة تحقيق الثورة الروحية والثقافية على بلادة العالم البورجوازي وبلاهته وسخفه . (هـ.م.)

(٢٠) برتولت بريخت (١٨٩٨ ـ ١٩٥٦) ـ الشاعر والكاتب المسرحي الالماني الكبير ، واحد الشخصيات البارزة في المسرح المعاصر ان لم يكن ابرزها جميعا ، لا باعماله المسرحية الفذة فقط ، وانما بافكاره الاصيلة عن فنون التاليف والاخراج والتمثيل لمسرحية هذه الافكار التي بلورت تيارا مسرحيا جديدا معارضا للتيار الارسطي الذي ساد في الدراما الاوروبية منذ القرن الخامس ق.م. ورث بريخت =

استعراضا ، بوصفها قصة تروى على جمهور من النظارة يعرف انها ليست حقيقة من الواقع . اذن فلماذا تحاول ان تتنافس مع السينما ؟ لماذا لا تحاول ان تحصل من آفاقها المحدودة على افضل ما فيها ، اي في الحقيقة ان « تؤكد » وجود الفجوة القائمة بين النظارة والممثلين ؟ كان ييتس يداعب نفس الفكرة ـ فكرة مسرح الطقوس ـ ولكن بريخت كان يملك عبقرية المزج بين مسرح الطقوس وبين منصة المحاضر ، بين صالة الموسيقى والرقص وبين صندوق الصابون .

كنت قد كتبت عددا من الروايات قبل ان يخطر لي ان ما كنت افعله هو ان ادفع تأثير « التغريب » البريختي الى مجال الرواية . لقد بدات روايتي الاولى « طقوس في الظلام » ببناء ميثولوجي مستمد من الكتاب المصري : « كتاب الموتى »، حتى طرأ لي انني اذا لم يكن في نيتي ان استخدم اطارا نابعا بشكل طبيعي من المعاني الداخلية في القصة ، فان الاجدر بي ان استخدم اطارا يمكن ان يقبله القارىء العادي وهكذا اخترت قصة جرائم قتل جاك الخناق ، وبنيان القصة السيكولوجية المثيرة. ولكنها كانت ما تزال بشكل اساسي رواية واقعية تقوم على تقاليد دستويفسكي في الواقعية . وفي الروايات الاخيرة ، قصدت الى « عامل التغريب » بشكل واع اكثر عن طريق اختبار اشكال تقليدية ، هادفا في نفس الوقت الى تأثير قريب جدا من تأثير الاستعراض . ففي رواية « ضياع في سوهو » كان الاطار هو اطار الرواية التصويرية ، وفي رواية « الشك الضروري » ، كان الاطار هو اطار « الرواية البوليسية » ، وفي رواية « عالم العنف » كان الاطار هو اطار « الرواية الكبيرة » الالمانية مع نغمات كوميدية مصاحبة تتخلل البناء ، وفي رواية « طفيليات العقل » ، « حجر الفلاسفة » كان الاطار هو القصص العلمي الخيالي ، وفي رواية « الحجرة المعتمة » كان الاطار هو رواية الجاسوسية (*) ، وفي رواية « القفص الزجاجي » عدت مرة اخرى الى اطار الرواية البوليسية .

اما الان ، فان الخطاب الذي دافع عني ضد اتهام كتابة الادب الداعر قد اثار في ذهني سؤالا : وهل يستطيع المرء ان يستخدم شكل الرواية الداعرة التقليدية ، بطريقة كليلاند او ابوللونير ، باعتباره الاطار الاساسي لاحدى الروايات ، ثم يصل الى نفس التأثير التغريبي ؟ لقد حاولت شيئا مشابها في رواية « رجل بلا ظل » ، (التي تم تغيير اسمها فيما بعد دون استشارتي الى « اليومية الجنسية لجيرارد

=آثاركل المسارح الثورية الاوربية في فرنسا وروسيا والمانيا ، حيث يصبح المسرح وسيلة تعليمية من ناحية ومظاهرة فنية وسياسية من ناحية ثانية ، وامتزاجا بروح الفن القصص والتشخيص الشعبيين من ناحية ثالثة . في الفن تاثر بريخت بالنزعة التعبيرية الالمانية والواقعية الفرنسية وفي الفلسفة انتقل من العدمية الى الماركسية ، وله في النظرية المسرحية كتاب « الاورجانون الصغير » ، ولكن اهم اعماله المسرحية هي : « الام شجاعة » عام ١٩٤١ ثم حياة غاليليو » عام ١٩٤٨ ثم « دائرة الطباشين القوقازية » عام ١٩٤٨ ، ثم « السيد بونتيلا وتابعه ماتي » عام ١٩٤٣ ـ (هـ.م.)

(*) لم تكن قد نشرت وقت كتابة هذه السطور .

سورم ») وقد لاحظت في ذلك الحين ان الكتابة عن الجنس تميل الى تدمير التأثير التغريبي لان القارىء يصبح منغمسا وداخلا فيما يقراه . ولكن « اليومية الجنسية » لم تستخدم « شكل » الرواية الداعرة ، وانما شكل المذكرات الاعترافية ، لقد كانت رواية افكار لا تأخذ الجنس الا باعتباره نقطة انطلاقها . ولكنه نوع من التحدي الممتع ، لان رواية الادب الداعر اكثر صراحة من الناحية الشكلية من اي نوع روائي آخر يمكنني ان اتذكره ، انها تتمتع بشيء من الصراحة الرمزية التي يتصف بها الباليه . وهذا شيء افضل ما يكون من اجل انتاج التأثير التغريبي . والتحدي الموجود هنا بالطبع ، هو ان تضفي الحياة على البناء . والمشكلة القائمة في رواية الادب الداعر التقليدية ـ ورواية «جوستين»(٢١) يمكن انتؤخذ هنا كمثال ـ هي ان المرء يعرف انها سلسلة من « القطع المستقلة » يربطها خيط قصصي معتسف مفروض عليها ، مثل احدى اوبرات مونتفيردي . وانا اكثر اهتماما بكثير بالقصة والافكار مني بالقطع المستقلة المفتعلة الارتباط . ولا بد لي ايضا من الاعتراف ـ ونحن بصدد الحديث عن الشكل ـ بان هذا الكتاب (اله المتاهة) لا يخضع لقواعد رواية الادب الداعر بقدر ما يخضع لقواعد القصة البوليسية ـ وبوجه خاص لقواعد القصة البوليسية الادبية من النوع الذي شاع في روسيا على يدي الكاتب ايراكلي اندرونيكوف . وحكاية « جماعة العنقاء » قمت بتطويرها اعتمادا على اشارة عابرة وردت عند جورج لويس بورجيس . وفي الحقيقة ، اذا صح ان يقال ان روايتي « طفيليات العقل » ، « حجر الفلاسفة » قد استعارتا الميثولوجيا التي وضعها « هـ. ب. لوفركرافت » ، فان هذا الكتاب يمكن ان يقال عنه انه قام على اساس من اشارات بورجيس ذات الطابع الميثولوجي .

ان نجاح هذه الرواية او فشلها باعتبارها تمرينا في المعالجة التغريبية ، لا ينبغي ان ينظر اليه كمقياس لقيمة هذا النوع من المعالجة . وانا مقتنع بان حل مشكلة السمكة الشيكسبيرية ، ومشكلة السمكة المطروحة على الشاطىء انما يكمن في تطبيق طريقة التأثير التغريبي على الرواية ، سواء نجحت هذه الطريقة او فشلت في هذه الحالة بعينها او تلك ، ولكنني يمكنني ان اقول ـ محتجا ـ بانها اذا «امكن» ان تنجح في هذه الحالة ، فانها يمكن ان تنجح في اي مكان آخر .

* * *

هناك نقطة اخيرة ، اثيرها بشيء من التردد ، طالما انها تبدو لي واضحة . فنحن حينما ننمو لكي نخرج من طور الطفولة الى الرجولة ، فاننا نجد مجالات جديدة من التجربة يمكن الا تكون عملية او غير مرغوب فيها بالنسبة للطفل ، من شرب

---

(٢١) جوستين ، الجزء الاول من رواية لورانس داريل ، الكاتب الايرلندي الانجليزي المعاصر « رباعية الاسكندرية » التي حاولت الاستفادة من اسلوب تيار الوعي والمناجيات الذاتية ، ومن اوائل الاعمال الادبية التي استفادت من منهج هوسرل الظاهراتي . (هـ.م.)

الكحوليات والتدخين ، الى تسلق الجبال والاستماع الى الرباعيات الوترية . ان الجنس يقف خارج كل انواع التجارب الاخرى باعتباره تجربة لا بد ان تعالج في شكل سر من الاسرار ، كما لو كانت طقسا قبليا غريبا يتضمن اسما لا يصح ان ينطقه اللسان .

وقد يكون هذا امرا جوهريا بالنسبة لبعض القبائل البدائية او المجتمعات الابوية (البطريركية) ؛ ولكن الى اي مدى يمكن ان يكون امرا مرغوبا فيه بالنسبة لحضارة مثل حضارتنا ، هدفها الاساسي (مهما كانت كآبة وتشاؤمية ما يقوله المؤرخون) هو « الحلاوة والنور » ؟ لقد كان تطور الحضارة الغربية هو تطور العقل، رفض العنصر القطعي الجامد والسلطوي المتعسف في الدين ، وايضا (فيما نرجو) في السياسة ، وهذا التطور لم يتوقف حينما رفضت انجلترا سيطرة البابا ، او حينما رفض فولتير المسيحية . وحتى رسالات نيومان واوكسفورد ينبغي ان ينظر اليها باعتبارها تطورا لنفس الاتجاه ، اصرارا على مطالب عقل اكثر رقة وتهذيبا وعمقا متعلقة باحتياجات الانسان الميتافيزيقية . وقد كان على فرويد ان يخوض نفس المعركة ، كان عليه ان يكبح سيطرة المحرمات الاجتماعية والقيود الضاغطة وان يقهرها بمطلب الصراحة وانفتاح العقول ، وكذلك فعل د. ه. اورنس . ويمكن ان ننظر الى معسكرات الابادة النازية باعتبارها محاولة للعودة الى شكل للمجتمع اكثر بدائية ـ وغير معقد ـ حيث تحل المشاكل عن طريق القوة والعقائد الجامدة القاطعة ، وليس عن طريق العقل .

يبدو لي ان هذا التطور يفترض بشكل مسبق فرضا انسانيا هاما : ان « التحريم » رديء في حد ذاته ، رغم انه قد يؤدي في بعض الاحيان الى الخير في مجال محدود . فعلى سبيل المثال ، فان جرائم القتل الجنسية لا يرتكبها اناس يفكرون في الجنس ويتحدثون عنه دون كبت ، وانما يرتكبها اناس تصاعد عندهم الاحباط حتى وصل الى درجة الشيء المحرم الشديد الاغراء . ولذلك لا ينبغي ان نخلط بين « التحريم » والنظام الذي هو بشكل اساسي عنصر محرر . ان جيشا جيدا يشبه آلة جيدة التشحيم ، ونظامها هو العنصر الذي يسمح لها بان تدور دون عوائق او عقبات .

واذا كان كل هذا صحيحا ـ وانني لاجد انه من الصعب ان اتصور اي شخص عاقل يمكن ان ينكره ـ اذن فلا بد ان يتلو ذلك انه ينبغي للراشدين الناجحين ان يكونوا قادرين على التفكير في التجربة الجنسية مثلما يفكرون في اي شكل آخر من اشكال التجارب ـ في الفن او العلم او الرياضة او المغامرة . حينما قرأت رايدرهاجارد في طفولتي ـ شعرت بالانفصال والمشاركة في وقت واحد . جاء الانفصال من الجلوس على مقعد وانا اقرأ كتابا جامد الحركة ، ولكن الاستثارة جاءت من السير عبر الاحراش المليئة بالثعابين مع البطل آلان كاترمين . وهذه هي الخاصية الجوهرية للتجربة المتحضرة : « الانفصال » و « المشاركة » . ولكن حيث يتعلق الامر بالجنس ، لا تزال هذه الفكرة بعيدة عن القبول . فمن المفترض فينا اما

ان نكون مشاركين بشكل مباشر ـ في الفراش مع شريكنا في الجنس ـ او بعيدين منفصلين بشكل كامل ، اي مثلما يحدث حينما اقرأ عن حالتي في كتب هافلوغ اليس ثم اغمغم قائلا : « يا له من امر ممتع ! » هنا يبدو عنصر سخيف ولا معنى له . لقد عاش معظم القراء الراشدين التجربة الاساسية التي وصفها كليلاند او د. ه. لورانس ، وعلى العكس القسوة او الجريمة ، لا ينظر الى هذه التجربة باعتبارها شيئا غير مرغوب فيه من الناحية الاجتماعية . فهل هناك حقا مثل هذه الهوة بين موضوع الجنس وموضوعات من مثل التاريخ او المغامرة او الرياضة ؟ هل هناك اي سبب يمنع الراشدين ، اذا كان هذا هو احتياجهم العقلي ، من القراءة عن الجنس مع الاحساس بالانفصال ، او التفكير ، او حتى مع قدر معين من الاحساس بالمشاركة ؟ اننا اذا كان بوسعنا ان نقول عن شيء ما انه « صادم » دون ان نعني انه قبيح او شرير ، اذن فانها تبدو لي كفكرة ممتازة ان استخدم هذا الشيء لكي اصدم اكثر عدد ممكن من الناس ، حتى يفقد تأثيره الصادم ، وحتى يمكن ان ننظر اليه بهدوء ودون تشويه . ففي مجتمع متحضر حقا ـ ونحن ما نزال بعيدين عنه ـ لن تكون هناك كتب محرمة ، ولا افكار محرمة .

مؤلفات كولن ولسون

من منشورات دار الآداب

- ضياع في سوهو
  ترجمة يوسف شرورو وعمر يمق
- الشك
  ترجمة يوسف شرورو وعمر يمق
- المعقول واللامعقول في الادب الحديث
  ترجمة أنيس زكي حسن
- اصول الدافع الجنسي
  ترجمة يوسف شرورو وسمير كتاب
- اللامنتمي
  ترجمة أنيس زكي حسن
- ما بعد اللامنتمي
  ترجمة يوسف شرورو وسمير كتاب
- القفص الزجاجي
  ترجمة سامي خشبة
- طقوس في الظلام
  ترجمة فاروق محمد يوسف
- سقوط الحضارة
  ترجمة أنيس زكي حسن
- رحلة نحو البداية
  ترجمة سامي خشبة
- الشعر والصوفية
  ترجمة عمر الديراوي
- الحالم
  ترجمة سامي خشبة

هذا الكتاب

ما هي الاشكال الاجتماعية التي تتخذها حركات « التحرير » الانساني في المجتمعات الغربية المتقدمة الان ؟ ما الذي يشغل المثقف الغربي الذي يرفض مجتمعه رفضا اخلاقيا وسياسيا وفكريا ؟ هل ينشغل بتغيير المجتمع نفسه ، علاقات القوى الاجتماعية فيه ؟

لقد قدمت مدرسة فرويد في التحليل النفسي اسلوبا آخر من اساليب رفض هذا المجتمع (بل هذه الحضارة) واشارت الى طريق مختلف لتغيير الانسان فيه. وبدلا من اسلوب العلاج النفسي للفرد ، اصبح هناك العلاج النفسي الجماعي : ما هي اشكال هذا العلاج ، والى اي شيء يطمح ، وهل له تاريخ مختلف عن التاريخ الفلسفي القريب المعروف منذ فرويد ؟ وما مقدار ارتباط هذا التاريخ بالاديان والفرق الدينية - القديمة الغريبة في اوروبا ؟ وما مقدار ارتباطه بالكوارث الحضارية الكبيرة مثل الطاعون الاسود والحروب الدينية العظمى التي شهدتها اوروبا في القرون الوسطى وبعدها مباشرة ؟ وما هي اشكال الانحرافات النفسية في مجال الجنس المرتبطة بهذا التاريخ والتي حاولت استخدام انحرافها او التغلب عليه او علاجه ؟ هل كان الشكل الوحيد هو شكل دي صاد او كازانوفا؟ وماذا يمكن ان يقال عن روسو وبايرون وصامويل جونسون ؟ وما الدلالة الاجتماعية لمثل هذه الاشكال من الانحراف ؟ وما دورها الحالي في حل الازمة الروحية لانسان هذه الحضارة الان ، وعجزه عن التفاهم مع نفسه ، وجسده ، والاخرين ؟

هذه بعض الاسئلة التي يتشكل نسيج هذه الرواية - شبه التسجيلية - من خلال الاجابة عليها : ان جيرارد سورم - احد ابطال ويلسون الذين يستخدمهم لكي يتحدثوا بلسانه - يندفع في حبكة روائية معقدة وخصبة للبحث عن حقيقة رجل غير مشهور عاش منذ قرنين ، لكي يجد نفسه وسط نسيج معقد تصنعه هذه الاسئلة واجاباتها : يثيرها ويطرحها نفس هذا الشخص غير المشهور . ثم يكتشف سورم حقيقة اخرى غريبة عن نفسه : انه ليس سوى « تجسيد » جديد ، وفي عصر وبأسلوب مختلفين ، لنفس الشخص : ايزموند دونللي الذي كان يبحث عنه والذي واجه كل الاسئلة واجوبتها من خلال ذلك البحث . ومع ذلك فان هذا « التناسخ » ليس سوى التجسيد الرمزي لوجود فكرة التحليل النفسي والتفسير الجنسي للسلوك البشري ، باعتبارها من الافكار الثابتة في جوهر التكوين الثقافي للحضارة الغربية .

وبذلك يخطو كولين ويلسون ، خطوة اخرى - عن طريق الفن وليس التفلسف التأملي - نحو بناء منهجه الفكري الذي يطمح اليه .

المترجم

الثمن : ٩٠٠ ق. ل - ٢٠٠ قرش مصري